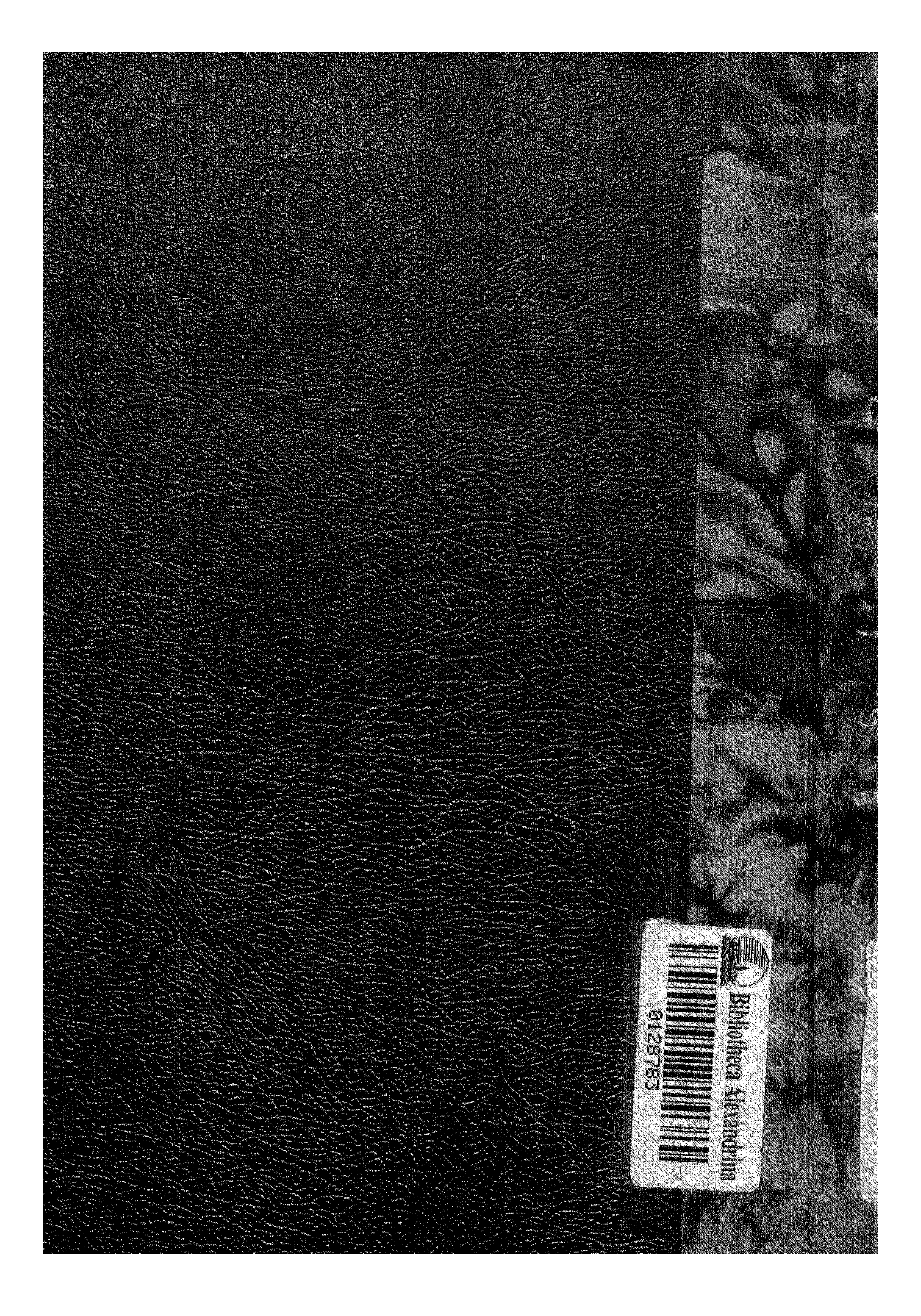

Bibliotheca Alexandrina
0128783



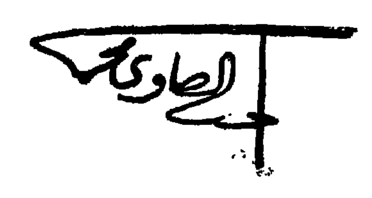




إلى الأستاذ الفاضل ...







مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م

للمــــؤلف

تاييس ... ... } عن أناتول فرانس
الزنبقة الحمراء ... ... }

أفروديت الجديدة ... ... عن پيـير لوُيس
أفروديت القـديمة ... ...

طـرطوف ... ... } عن موليـير [بطلب وزارة المعارف]
عدوّ المجتمـع ... ... }
فى الحيـاة والحب
باريس

بالفرنســية

الصحافة المصرية منذ نشأتهـا الى اليوم ١٩٢٨
الاصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ ... ... ١٩٢٩

تحت الطبـع :

مَاقلّ ودَلّ

قبورٌ في جنّةِ الحبّ

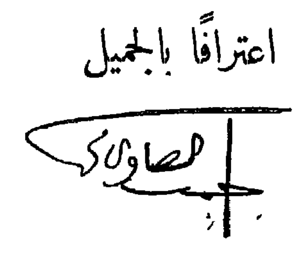
إهــداء الكتاب

ليس لى فى هـذا الكتاب فضل : فلولا الذين ساهموا فيــه بأقلامهم لما تم وضـعه ، ولولا الذين ساهموا فيــه باكتتابهم لما تم طبعه .

فالى الأساتذة الأجلاء الذين جلوا لنا مرآة باريس ، وإلى قرائى الأعزاء ، إلى أصـــدقائى الذين لا أعرفهـم ، ولكننى أحبهم ، وأفكر فيهم ، وأعيش من أجلهم ... الى الذين وثقوا بى ، وكرّموا وجهى ، فاشـتركوا فى كتابى قبـل أن يعرفوا كيف يكون ... إلى الذين لولا عطفهم وتأييدهم لما ظهر هذا الكتاب مستقلا موفور الكرامة .

اليهـم جميعا ، هؤلاء وهؤلاء الفضلاء ، أرفع كتابى — كتابهم ...

اعترافًا بالجميل



هليوبوليس فى ٦ مايو سنة ١٩٣٣

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، نشكره ونسأله المزيد من الوفاء بعهودنا ، إن العهد كان مسئولا . اليوم نقدّم هذه الطاقة من الزهر الى باريس ، فما أكثر ما أهدتنا من زهور .

ونحن نعيذ أنفسنا من ادعاء وضع كتاب كامل عن باريس ، فقد أحصى الكاتب المشهور "جورج لنوتر" ما وصفت به باريس فوجده يبلغ ٢٠٠٠٠٠ وصف ! ... أما دلائلها فتأبى الحصر . ولا عجب فباريس التى لم يكن يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة فى عهد لويس الرابع عشر قد زادوا الى الضعف عام ١٨٢٥ ، ثم تضاعف عددهم هذا فى الامبراطورية الثانية ، وهم اليوم أربعة ملايين .

ولما أردت وضع كتاب عن باريس تأملت خريطتها حائرا بين ١٥٠ خط ترام ، و ١٠٠ خط أوتوبوس ، وعشر محطات حديدية ، و ٩٦ كنيسة ، و ٧٧ مسرحا الخ ...

أليس هذا مما يثبط العزائم ؟ ! كيف يمكن حصر هذه الدنيا المنيفة بين غلافى كتاب ؟ ! ولكننا نعيش فى عصر السيارة والطيارة يجب أن نسرع الخطى ولا نقف إلا فترات قصيرة ، من وقت لآخر . يجب أن نضحى التفاصيل من أجل الجملة ، ويجب أن ننبذ مرحلة من الطريق حتى لانحرم من قطع مرحلة أهم منها .

ولذلك وجدت نفسى بحاجة الى رفاق كرام يضيئون الطريق الذى لا آخر له ، ويروّحون بأساليبهم المنوعة الجذابة عن القرّاء حتى لا يصيبهم الملل من مؤلف واحد . وحتى لا يقول أيضا ذوو الأهواء والأغراض والآراء الرجعية أن هذا صوت متعصب لباريس مفتون بها لا تسمعوا كلامه ! ... فان القرّاء بعد خروجهم من هذا الكتاب سيجدون المؤلف معتدلا فى الوصف ! ... بيد أنى حرصت كل الحرص على تنسيق الكتاب بطريقة لا يسأم معها القارئ ، فاذا تحقق لى هذا الغرض فان واجبى يكون قد تم ، وقد بلغت رسالتى .

وهذا الكتاب كان سينشره صديق الطيب الذكر المغفور له محمود أحمد سكر ، لولا أن عاجلته المنية . فعرض علىّ بعض الناشرين شروطا مجحفة لم أقبلها لأنها انتهاك لحرمة الفكر . حتى اقترح يوما سيد فاضل فى "الأهرام" نشر كلمات "ما قل ودل" فعرضت الأمر على القرّاء وذكرت لهم حكاية باريس ، وساجلنى القول صديق الأستاذ المازنى ، واستحسن حكاية الاشتراكات أصدقاء وكتّاب كبار فطرحته للاشتراك مقابل ١٥ قرشا ، فأقبل الجمهور الكريم إقبالا فاق كل مؤمل ، وطوّق عنق بالجميل ، فلم أدّخر جهدا

فى الوفاء بهذا الفضـــل ، وزدت فى الكتاب مائة صفحة ونيف ومائة صورة ، وتأنقت ما شاء لى الوقت فى إخراجه . وبلغ عدد الاشتراكات أكثر من ٣٥٠٠ اشتراك وطبعنا من الكتاب خمسة آلاف نسخة ، ويطرح الباقى للبيع بسعر ٢٥ قرشا للنسخة الواحدة . وذلك تفريقا بين المشترك المساهم فى نشر الأدب ، العامل على إذاعة الثقافة والأخذ بيـــد المؤلف على إخراج ثمرات فكره ، وبيـــن القارئ العارض الذى لا يثق إلا بمـا يراه رأى العـــين . ونرجو أن نوفق الى وضع كتابين أو ثلاثة فى العام تكون فيها للمشـــتركين مزايا السبق الى الفضل ولهم الشكر أولا وآخرا .

وإنى مدين لحضرة صاحب العزة عميـــدنا جبرائيـــل تقلا بك صاحب " الأهرام " الذى فتح لى صدر جريدته الغراء ، أنشر فيهـا عن كتابى ما طاب لى النشر ، ولولا ذلك لمـا وقف الجمهور على التفاصيل ولمـا نجح الاشتراك هذا النجاح الباهر .

وكان أوّل مشترك عندى هو الصديق النبيل والكاتب الكبير الأستاذ أنطون الجميـــل بك لأنه أوّل من قرأ مقالى واستجاب ندائى فكان خير " استفتاح " ... ولا عجب فهو رجل مسعد مجدود !

وإنى أنتهز الفرصة لأشكر كل الذين تفضلوا بالمعاونة فى هذا الكتاب بشكل من الأشكال ، وأشكر الأستاذ أحمد عبد الغفار الذى كلفناه بنقل بضع قطع الى العربية أحسن أداءها ، وتمنى له فى الأدب مستقبلا باسما ، ونشكر الأديب جبرائيل مهنا افندى الموظف بالأهرام لمـا بذله من جهد فى حصر الاشتراكات ، وإرسال الايصالات وتنظيم عمليـــة التوزيع بلباقة ودقة .

ونشكر الأستاذ المربى الكبير " محمد أسعد براده بك " مدير دار الكتب المصرية على حسن ظنـــه وجميل نصحه عند تقديم هذا الكتاب ، كما نشكر صديقنا الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية على ما أولاه من عناية فى طبعه .

وقد زان غلاف هذا الكتاب شعار باريس وهى السفينة التى " تمخر العباب تتقاذفها اللجج ، ولا تغرق أبدا " وكذلك باريس فى روحها ، فانك تقطعها من أقصاها الى أقصاها متمتعا بدنيا لا أوّل لهـا ولا آخر دون أن تقطع عليك أفكارك ... فهى موطن العقل الباسم ، ومهما قلنا فى باريس فقد بالغ من قبلنا الناس فى وصف محاسنها الى حدّ أن القوم فى نيويورك يقولون : " ان الأمريكان الصالحين اذا ما قضوا نحبهم صعدت أرواحهم الى باريس ! ... " .

نســـــتغفر الله ...

ا . ص . م

فهرس

صفحة

الاهداء ... ... ج

المقدمة ... ... د

الفاتحة

باريس الحكم العدل بقلم المؤلف ٤

باريس الزاهرة بقلم هاناه ليش ٥

باريس الساحرة بقلم جيمس رسل لويل ٥

نظرة المشكك الأعظم بقلم أناتول فرانس ٦

باريس التى لاتضارع بقلم ميشيل دى مونتانى ٦

روح البلدان بقلم فيليب جابرت هامرتن ٧

مدينة النور بقلم فؤاد سلطان... ... ... ٨

باريس الكل فى الكل بقلم فيكتور هوجو ١١

الى باريس

بعثتنا الأولى الى باريس بقلم رفاعة الطهطاوى ١٥

من مرسيليا الى باريس « « ١٨

الى باريس بقلم المؤلف ٢٤

قافلة مصرية فى باريس بقلم المؤلف ... ٢٩

من ذكريات الصبا بقلم محجوب ثابت ... ٣٤

وصول المثال بقلم مختار ٤٠

وصول الطالب الصغير بقلم الفونس دوديه ٤٤

الوصول الى باريس بقلم مارك توين ... ٤٥

سمة العلماء بقلم محمود عزمى... ... ٤٨

صفحة

الى باريس بقلم طه حسين ٥٠

الوحشة الأولى بقلم محمد تيمور... ... ٥١

سر باريس

سر باريس بقلم هاير بيلوك ٥٧

يوم فى باريس بقلم طه حسين ٥٩

باريس بقلم شوقى ٦٦

باريس فى عين الشباب بقلم برادون ... ٦٨

الوطن الثانى بقلم إميل زيدان ٧٠

روح باريس بقلم هيكل ٧٢

باريس بين زيارتين بقلم عبد الله حسين... ٧٢

حنين شاعر بقلم ولى الدين يكن... ... ٧٤

حول المرأة بقلم محمد تيمور ٧٦

كم لدى من ذكريات حلوة بقلم جورج دى موريه ٧٩

مدينة كل الناس بقلم م . بتام ادواردز ٨١

الحياة فى باريس

الحياة فى باريس بقلم رفاعة الطهطاوى ... ٨٥

باريس اللهو وباريس الجد بقلم محمد طلعت حرب... ... ... ٨٧

باريس تستيقظ من نومها بقلم إميل زولا ٩٤

مونمارتر بقلم توفيق الحكيم ٩٧

	صفحة
الفتاة العاملة بقلم أوجين سو...	١٠٧
مدينة الهزل والجد بقلم طه حسين	١١٠
باريس ؟ ! بقلم فكرى أباظه	١١٢
الفنادق والمطاعم بقلم سسلى هادلستون ...	١١٤
الباريسيون على المائدة بقلم ماكس أورل	١١٦
يوم الأحد بقلم لورنس سترن	١١٨
يونيه فى باريس بقلم ن . ب . ويليس	١٢٠
ذبول الخريف بقلم م . بتام ادواردز...	١٢٢

صور

باريسيات بقلم العمروسى	١٢٧
مقهى جامع باريس بقلم السائح العراقى ...	١٣٠
ذكريات حلوة بقلم دى موريه	١٣٦
صور باريسية بقلم حبيب المصرى	١٣٨
باعة الكتب وهواتها بقلم جون ف . مكدونالد	١٤٧
السين بقلم سسلى هادلستون	١٤٩
فيضان السين بقلم شوقى	١٥١
باريس فى الذكريات بقلم شارلز ديكنز	١٥٢
أناتول فرانس بقلم جورج براندس	١٥٤
بير لاشيز بقلم هنرى و . لونجفلو	١٥٨
مونبارناس بقلم سسلى هادلستون	١٦١
باريس فى حلة بيضاء بقلم أحمد ضيف ...	١٦٤
الليل فى باريس بقلم إميل زولا	١٦٧
جولات وتأملات بقلم داود بركات ...	١٦٩

فى الحى اللاتينى

	صفحة
البعثة الأولى بباريس وقانونها بقلم رفاعة الطهطاوى	١٧٩
طالب الفنون الجميلة بقلم مختار	١٨٤
فى الحى اللاتينى بقلم المؤلف	١٨٧
جو باريس بقلم منصور فهمى	١٩٩
مجد فرنسا بقلم بروسون	٢٠٢
مقهى بوهيمى بقلم هنرى ميرجيه ...	٢٠٣
النوكامبول بقلم طه حسين	٢٠٨
حى الشباب بقلم سامى جريدينى ...	٢٠٩
فتيات الحى اللاتينى بقلم رالف نفيل ...	٢٠٩
طلبة باريس وأساتذتهم بقلم محمود عزمى	٢١٠
خصائص الحى - خطابات راولى... ...	٢١٣
مظاهرات الطلبة بقلم محمود عزمى ...	٢١٥
أصدقاء الحى بقلم طه حسين	٢١٨
الجو العلمى بقلم المؤلف	٢١٩
فخر باريس بقلم هيكل	٢٢٣
صور الحى بقلم سسلى هادلستون	٢٢٤
ذكريات حى الشباب بقلم زكى مبارك ...	٢٢٦
أساتذة باريس « « ...	٢٢٧
أصدقاء الحى بقلم المؤلف	٢٣٥

علوم وفنون

منذ مائة عام بقلم رفاعة الطهطاوى ...	٢٢٩
باريس مركز الدراسات الاسلامية واللغة العربية بقلم الحاخام الأكبر	٢٤٢
بلاغة الآثار فى باريس بقلم حافظ رمضان	٢٤٧
على قبر نابليون بقلم شوقى	٢٤٩
باريس القديمة بقلم فيكتور هوجو... ...	٢٥٤
التويلرى سنة ١٧٨٩ بقلم توماس كارليل	٢٥٧
باريس فى القدم بقلم ادوارد جيبون ...	٢٥٩

صفحة

المادلين بقلم ناثنيل هوثورن ٢٦١
ملكة الجمال المصرية بالوفر بقلم حسن صبحى ٢٦٢
كتدرائية نوتردام بقلم فيكتور هوجو ... ٢٦٦
مصر تخرجت على باريس بقلم مجد الدين ناصف ٢٦٨
ما تتركه فى نفس زائرها بقلم إدجار جلاد ٢٧٢

ذكريات

باريس فى يوم الذكرى بقلم مى ٢٧٧
لقاء مرغريت بقلم منصور فهمى ٢٨٦
طالب طب فى باريس بقلم محجوب ثابت ٢٩٢
تمثال وكتاب بقلم لاى هنت ٢٩٩
باريس بين الحرب والحب بقلم أحمد ضيف ٣٠١
طالب فن فى باريس بقلم ابراهيم فوزى ٣٠٣
صفحة من صباى بقلم محمد لطفى جمعه ... ٣٠٥
فى قلب باريس بقلم ناثنيال هوثورن ... ٣١٢

أعياد باريس

يوم فى باريس بقلم خليل مطران ٣١٧
رأس السنة بقلم سسلى هادلستون ٣٢٤
عيد الحرية بقلم المؤلف ٣٢٥
جان دارك « « ٣٣٠
أيام الانتخابات « « ٣٣٣
يوم الباستيل « « ٣٣٧
شم النسيم « « ٣٤١

مدينة السلوى والنسيان

الإم فى باريس بقلم أنطون الجميل... ... ٣٤٧
المعبد بقلم أوجين سو ٣٥٢

صفحة

واحة التعساء بقلم شارل أولون ٣٥٣
على قارعة الطريق بقلم ويدا ٣٥٤
كيف تمتع بباريس وأنت خالى الوفاض
بقلم المؤلف ٣٥٦

سحر باريس

باريس ! بقلم مصطفى عبد الرازق ... ٣٦٩
بيت الأمة فى باريس بقلم سليم حسن ... ٣٧٣
سر سحرها بقلم سامى جريدينى ٣٧٧
جنة الخلد بقلم حسن الجداوى ٣٨١
مرقص الفنون الأربعة بقلم مختار ... ٣٨٤
جاذبية باريس بقلم سسلى هادلستون ... ٣٨٨
غاب بولونيا بقلم شوقى ٣٩٠
نضال بين الروح والجمال بقلم مختار ... ٣٩٢
القبلات على قارعة الطريق بقلم هيكل ... ٣٩٣
« « « « « زكى مبارك ٣٩٤
طريق الملوك والعاملات بقلم جورج سالا ٣٩٦

وداع باريس

وداع باريس بقلم المؤلف ٣٩٩
وداع آسرة القلوب — وداع الغاب —
خيرها فى فتنتها بقلم هيكل ٤٠٤
كيف يتركها بقلم طه حسين... ... ... ٤٠٥
كنوز الذكريات بقلم زكى مبارك... ... ٤٠٥
وداع ألمانى عظيم بقلم هنريك هاينى ... ٤٠٥
سلام بقلم سامى جريدينى ٤٠٦
كأنها العذراء بقلم ولى الدين يكن ٤٠٦
ختام بقلم هيكل ٤٠٦



النـــداء الى باريس

وكل الصـــيد فى جوف الفـــرا !



باريس هى أبو الهول، أقسمت لأنتزعن سرها من صدرها !

ميرابو

* * *

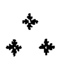
باريس هى الدنيا، وبقية الأرض ضواحيها ...

ماريڤو

* * *

باريس : مدينة المئة درجة والمئة دركة .

خليل مطران



ماذا يبقى لفرنسا اذا أخذت منها باريس ؟

تعبير جغرافى ! ...

دستؤفسكى



كل خطوة على جسر من جسور باريس، أو فى ساحة من ساحاتها تذكر الانسان بماض عظيم، لأنه فى كل زاوية من زوايا طرقاتها قد جرى جانب من التاريخ .

جيتـه



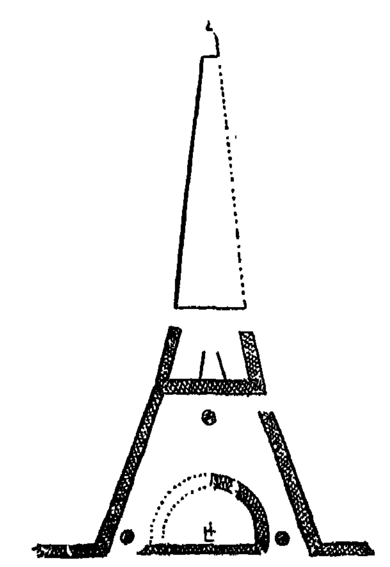
فى باريس الفرح والابتهاج، وفيها البؤس والحزن، وفيها الرجاء والأمل، وفيها اليأس والقنوط، فيها اجتمع كل ما يحتاج اليه الناس وكل ما لا يحتاجون اليه، فيها اجتمع كل ما يشخص الحضارة الانسانية فى هذا العصر الذى نعيش فيه !

طه حسين

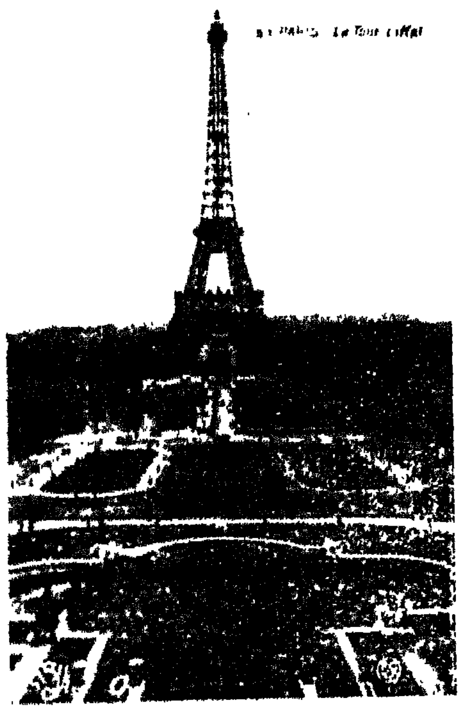


زعموك دار خلاعةٍ ومجانةٍ ودعارةٍ يا أفك ما زعموك !

باريس الحَكَم العَــدْل



بلد لا غنى لرجل مفكر أو فنان ، من أى جنس كان ، عن العيش فيه زمنا ما . عيشة مجــدية ، لأن باريس هى اليوم ماكانت عليه يوما الاسكندرية ، أو أثينا أو روما يؤمهــا العلمــاء والأدباء والشعراء والفنانون من كل أنحــاء الدنيا ، كل واحد منهــم يحمــل اليهــا فى جعبته شيئا جديدا يترك منه فيها ، ويكون قد كله لنفسه إذ ينزح عنها ...



برج إيفل

فباريس الآن عاصمة العالم . يتعاون فيها العالم كله فكريا وفنيا . ولا مراء فى أن باريس الى الآن هى ســيدة الدنيــا فى الفنون الجميلة ، وعلى رأس العالم فى العلوم والآداب . ولا يوجد ممثل أو مغنية أو فنان أو كاتب إلا وهو مضطر الى أن يقصد باريس يعرض بضاعته عليها و يطلب اليها الحكم فيها ...

باريس الزاهرة



قصر العــــدالة

دلونى، أى بقعة فى باريس تقبض الصــدر؟ وأى واجهة متجر أو حانوت لا تملك عليـك مشاعرك ؟ ومن ذا الذى لا يحسـد بائعات الزهور على رصيفهن "كاى دى فلـير" بمظاهره الخلابة؟ أن منعرج السين وهو يلتف حول جزيرته العتيقــة الجميلة، والأسـوار الرمادية القائمة على ضفتيه ، ومنارة "سانت شابل" وهى تبدو بلونها الذهبى من خلفها سمـاء صافية، والأبواب المنيفة لقصر العدالة — كل هذه لباريس كالدرر النفيسة التى يقتنيها المرء فى بيته .

هاناه ليش

باريس الســاحرة

باريس عنـدى أجمل مدن العالم . فلم أجد فيما رأيت وما شاهدت ما يمكن مقارنته بجمال شوارعها أو بالمشهد الذى تقع عليه العين فى السين صعودا ونزولا . ولكم ابتهجت نفسى فى الليل بالنهر وهو ينساب بين أشباح العمارات القائمة على جانبيه بأنواره المنعكسـة وزوارقه الصـغيرة تنسل خفية فى طريقها كأنما تبحث بعيونهـا الدقيقـة ، بمصابيحها ، عن فريستها ... أجل سأظل طول حياتى مغرما بموكب المشاعل الدائم الذى يسير فى المساء فى طريق الشانزليزيه .أما صالات الغناء ودو ر اللهو والمرح فأقرب شىء الى قصص ألف ليلة وليلة .

جيمس رسل لويل

نظرة المشكك الأعظم

"... غدا سنكون فى باريس . وهى مدينة مجيدة نبيلة ، وان كانت النبالة ، ليست شائعـة فى جميع سكانها . بل فى عدد قليل من أهليها . بيد أن بلدا بأسره ، وشـعبًا بأسره ، قد يوجد فى مخلوقات قليل عديدها ، تفكر بأقوى وأعدل ممـا يفكر الباقون ... " .

أناتول فرانس

"برچريه يخاطب كلبــه"

باريس التى لا [illegible]

أسرت باريس فؤادى منذ نعومة أظفارى فلن أستطيع الشرود عنها أو الخروج عليها ، وكلما شاهدت غيرها من المدن الجميلة ازددت بها افتتانا واشـتد استبدادها بقلــبى .

انى أهوى باريس إكراما لخاطر باريس ويشتدّ غرامى بها كلما تمتعت بذاتها مجرّدة عن مظاهر الأبهة الأجنبية والفخفخة الغريبة عنها . أجل لقد بلغ من افتتانى بها أن أصبحت أرى عيوبها ونقائصها محاسن .

لست فرنسيا ولكنى أرى فى باريس العظيمة بأهلها ، العزيزة بمركزها ، الفتانة بما فيها من غرائب وبدائع ، أرى فيها مجد فرنسا ودرة يتيمة فى جبين العالم فأدعو الله أن يحفظ عليهـا نعمة الحرّية وأن يصدّ عنها غارات جيوشنا . وما دمت ياعروس المدائن باقيــة فلن يصبو قلبى الى بلد سواك أو اتخـذه لى موطنا وملجأ لراحتى وهنائى .

ميشيل دى مونتانى

روح البلدان

لكل بلد روح خاصة به ، لا يشاركه فيها مشارك ، وهو يستمدها من تاريخه الماضى وأوضاعه الحاضرة ... ... فقد حفظت باريس ظل الفن فى فرنسا ، فبدونها ما احتلت فرنسا المعاصرة إلا مكانا ضيقاً بين البلاد الأوربية من الناحية الفنية ولكن وجود مدينة النور بها رغم التزاحم والتنازع قد أبقى لها موضع الزعامة منها فليس «للندن» رغم مكانتها مثل هذا الأثر فان للباريسيين مميزات معينة يستقلون بها ولا يمكن أن يشاركهم فيها أهل العاصمة الانكليزية .



سانت شابل

وليس من العسير أن تدرك روح باريس التى تسكب عليها هذا اللون المميز لها عن غيرها فهى نقيضة روح لندن تلك الروح الانسانية العامة التى تغمر العالم . أما روح باريس فهى محلية تتبرأ منها بلدان العالم الأخرى ولا تشاركها فيها إلا أثينا الغابرة .

فيليب جلبرت هامرتن

ليست باريس عاصمة فرنسا فحسب ولكنها مركز الانسانية .

فردريخ سيبورج (١٩٣٢)

مدينـــة النـــور

باريس

بقلم الدكتور فؤاد سلطان بك مدير بنك مصر



اذا تحدّثت عن باريس فانى أتحدّث عن ناحية العمل بها وهى فى اعتقادى أبرز نواحيها . فباريس التى اشتهرت بلهوها ومجونها . والتى يؤمها كل عام عشرات ومئات الآلاف من النـاس من مختلف الأجناس والبلدان قاصيها ودانيها طالبين اللهو ناشدين المرح والتسرية عن النفس — هى باريس التى تصحو فى الساعة الخامسة من صباح كل يوم فاتحة ذراعيها للعمل مقبلة عليه بشغف وحماس زائدين .

واذا ذكر الحماس كان الباريسى أوّل من يذكر الى جانب هذه العاطفة المتقدة . ففى قلب كل باريسى شعلة من الحماس . وعلى ضوء هـــذه الشعلة الدائمة الاتقاد نالت فرنسا حرّيتها وأخذت مكانتها فى عالم السياسة والمـال .

فالباريسى اذا عمل أقبل على عمله بحماس . واذا لها أقبل على لهوه أيضا بحماس لا يقل عن حماسه فى عمله . واذا تحمس لفكرة ما فلا شىء على الأرض يحول دون تنفيذه هذه الفكرة . واذا تحمس لوطنه ضحى فى سبيله كل عزيز لديه .

فلئن سميت باريس "مدينـــة النور" فليس ذلك منسوبا الى أنوارها الباهرة المتلألئة فى الليل فحسب . بل الى تلك الشعلة الحماسية التى تملأ قلب كل باريسى وتحفزه الى العمل والى المجد ، تلبـد الجو أو صـفا ، وتعكرت السماء أو رافت ، لا يعوقه عائق ما دام ذلك الحماس جاريا فى دمه لامعا فى عينيـه . تراه سائرا الى العمل فى الصـباح الباكر فتخاله يركض لا يسـير . وتشهد جموع الباريسيين

والباريسيات ، كهولا وفتيانا ، نساء وفتيات ، متدفقة كالسيل الجارف الى أقبية محطات "المترو بوليتان" والترام فى نشاط وخفة فتحسبها النحل حول الخلايا .

فاذا ما حان وقت الغداء تناوله أغلبهم وقوفا وفى مطاعم قريبة من محال أعمالهم حرصا على الوقت ، الوقت الذى يعرف الباريسى كيف يستثمره أكبر استثمارا فى عمله وفى لهوه . فاذا ما حان موعد انصرافهم من عملهم رأيتهم خارجين منه بنفس النشاط والمرح اللذين أقبلوا بهما عليه . حتى ما اذا أقبل الليل خرج الباريسيون والباريسيات فى حللهم الأنيقة الرشيقة الى سهراتهم الحافلة فترى دلائل البشر وأكاليل الزهر فوق تلك الجباه التى بللها عرق الكد والتعب طيلة اليوم .

وليست باريس فى مجموعها غير قطعة مشتعلة من الحياة والحركة الدائمة — وهى بمثابة القلب الخافق من جسم فرنسا الحية الناهضة — تروح فيها وتغدو بين سيل جارف من السيارات والأمنيبوس والترام فوق الأرض وقطارات المترو بوليتان السريعة تحتها — والمراكب البخارية وقوارب النزهة بين ضفتى نهر السين الجميل .

وبين مظاهر العمل المنتشرة فيها تجد حيثما سرت مظاهر الفن والجمال متغلغلة فيها فتجد أقواس النصر والتماثيل الرائعة بما فيها من جمال ساحر ومعان سامية وفن رائع منصوبة فى ميادين فسيحة أو فى حدائق غناء ناضرة الزهر وارفة الظل .

وبجانب هذا وذاك جامعة باريس بكلياتها تمثل العلم والفضل . وبنك فرنسا وبفضل ما فيه من ذهب نتيجة مجهود شعب متحمس هو كوكب ساطع فى عالم الأموال .

هذه هى "باريس" مدينة النور . وبلد العلم والعمل والمال ، والفن والجمال . ومهما تحدثنا أو كتبنا عنها فلسنا بموفين نواحى الحياة والجمال والعظمة المتعددة فيها حقها .

فؤاد سلطان



قوس نصر الكاروسل

مدينـــة النــور

باريس

بقلم الدكتور فؤاد سلطان بك مدير بنك مصر



اذا تحدّثت عن باريس فانى أتحدّث عن ناحية العمل بها وهى فى اعتقادى أبرز نواحيها . فباريس التى اشتهرت بلهوها ومجونها . والتى يؤمها كل عام عشرات ومئات الآلاف من النـاس من مختلف الأجناس والبلدان قاصيها ودانيها طالبين اللهو ناشدين المرح والتسرية عن النفس — هى باريس التى تصحو فى الساعة الخامسة من صباح كل يوم فاتحة ذراعيها للعمل مقبلة عليه بشغف وحماس زائدين .

واذا ذكر الحماس كان الباريسى أول من يذكر الى جانب هذه العاطفة المتقدة . ففى قلب كل باريسى شعلة من الحماس . وعلى ضوء هـــذه الشعلة الدائمة الاتقاد نالت فرنسا حرّيتها وأخذت مكانتها فى عالم السياسة والمـال .

فالباريسى اذا عمل أقبل على عمله بحماس . واذا لها أقبل على لهوه أيضا بحماس لا يقل عن حماسه فى عمله . واذا تحمس لفكرة ما فلا شيء على الأرض يحول دون تنفيذ هذه الفكرة . واذا تحمس لوطنه ضحى فى سبيله كل عزيز لديه .

فلئن سميت باريس "مدينـــة النور" فليس ذلك منسوبا الى أنوارها الباهرة المتلألئة فى الليل فحسب . بل الى تلك الشعلة الحماسية التى تملأ قلب كل باريسى وتحفزه الى العمل والى المجد ، تلبـد الجو أو صـفا ، وتعكرت السماء أو راقت ، لا يعوقه عائق ما دام ذلك الحماس جاريا فى دمه لامعا فى عينيـه . تراه سائرا الى العمل فى الصـباح الباكر فتخاله يركض لا يسـير . وتشهد جموع الباريسيين

والباريسيات ، كهولا وفتيانا ، نساء وفتيات ، متدفقة كالسيل الجارف الى أقبية محطات "المترو بوليتان" والترام فى نشاط وخفة فتحسبها النحل حول الخلايا .

فاذا ما حان وقت الغداء تناوله أغلبهم وقوفا وفى مطاعم قريبة من محال أعمالهم حرصا على الوقت ، الوقت الذى يعرف الباريسى كيف يستثمره أكبر استثمارا فى عمله وفى لهوه . فاذا ما حان موعد انصرافهم من عملهم رأيتهم خارجين منه بنفس النشاط والمرح اللذين أقبلوا بهما عليه . حتى ما اذا أقبل الليل خرج الباريسيون والباريسيات فى حللهم الأنيقة الرشيقة الى سهراتهم الحافلة فترى دلائل البشر وأكاليل الزهر فوق تلك الجباه التى بللها عرق الكد والتعب طيلة اليوم .

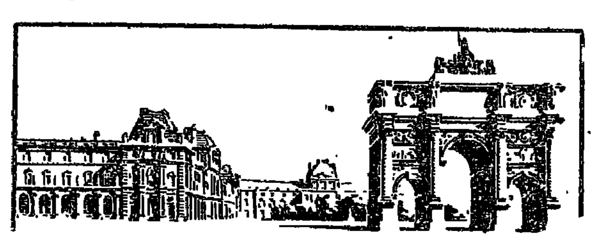
وليست باريس فى مجموعها غير قطعة مشتعلة من الحياة والحركة الدائمة — وهى بمثابة القلب الخافق من جسم فرنسا الحية الناهضة — تروح فيها وتغدو بين سيل جارف من السيارات والأمنيبوس والترام فوق الأرض وقطارات المترو بوليتان السريعة تحتها — والمراكب البخارية وقوارب النزهة بين ضفتى نهر السين الجميل .

وبين مظاهر العمل المنتشرة فيها تجد حيثما سرت مظاهر الفن والجمال متغلغلة فيها فتجد أقواس النصر والتماثيل الرائعة بما فيها من جمال ساحر ومعان سامية وفن رائع منصوبة فى ميادين فسيحة أو فى حدائق غناء ناضرة الزهر وارفة الظل .

وبجانب هذا وذاك جامعة باريس بكلياتها تمثل العلم والفضل . وبنك فرنسا وبفضل مافيه من ذهب نتيجة مجهود شعب متحمس هو كوكب ساطع فى عالم الأموال .

هذه هى "باريس" مدينة النور . وبلد العلم والعمل والمال ، والفن والجمال . ومهما تحدثنا أو كتبنا عنها فلسنا بموفين نواحى الحياة والجمال والعظمة المتعددة فيها حقها .

فؤاد سلطان



قوس نصر الكاروسل

باريس الكل فى الكل

باريس هى الكل فى الكل ، هى السقف الذى يعيش تحته الجنس البشرى فمن رأى باريس كأنه رأى أعماق التاريخ .

ان كل شىء له وجود خارج باريس يوجد فى باريس فابحث عن شىء ليس له وجود فيها أو مثيل .

ليس لباريس حدّ أو نهاية ولم يتهيأ لمدينة ما تهيأ لباريس من السيادة التى سخرت أحيانا من الذين بسطت عليهم سلطانها . واذا كانت باريس قد سنت للعالم قوانينه فقد وضعت له الأسلوب الذى يسير عليه .

قد تظهر باريس بمظهر الغباوة اذا رأت فى ذلك مايلائمها فاذا مارضيت لنفسها بذلك ظهر العالم معها بمظهر الغباوة أيضا الى أن تصحو فتفرك عينيها وتقول "يالله ما أغبانى" ثم تغرق فى الضحك فى وجه الجنس البشرى فيالها من مدينة عجيبة !

أليس من الغريب أن يقترن هذا الجلال بذلك المجون وأن تلق كل هذه العظمة فى تيار من السخرية والهزل وأن ينفخ الفم الواحد يوما فى الصور ويوما فى القيثارة ؟ ولكن لا تعجب فلباريس جذل كجذل الملوك حبورها من الرعد وهزلها يحمل الصولجان !

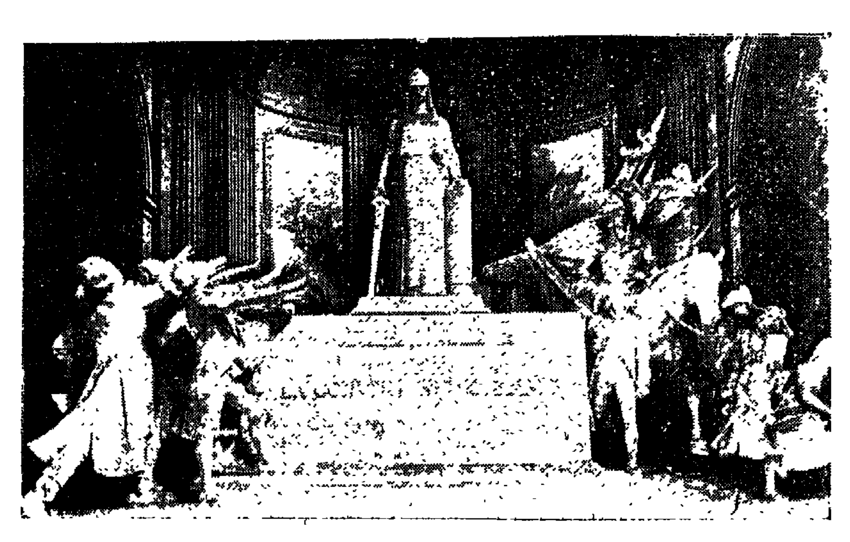
قد تهب عاصفتها أحيانا من عبسة أو ابتسامة ، وانفجاراتها وآياتها وطرفها وسير أبطالها تصل الى أطراف الكون ، كما تصل اليه أيضا قصصها الخرافية وضحكتها كفوهة بركان ترسل حممها على العالم أجمع ونكاتها كالشرر . تفرض على الناس صورها الهزلية كما تفرض عليهم مثلها العليا ، تتقبل أجل آثار المدنية البشرية انتقاداتها وتعطى أبديتها وخلودها للهو باريس ولعبها وهى ذات عزة ونخامة ، لها يوم ١٤ يوليو المشهود الذى حرّر المسكونة وجمع قواته من الأمم التى أقسمت له يمين الاخلاص والولاء ، لها ليلة ٤ أغسطس التى محت فى ثلاث

ساعات نظام الاقطاعات الذى عمر ألف سنة . تصنع من منطقها قوة الارادة العامة وتتخذ من نفسها كل شكل من أشكال السمو والرفعة والجاه ... فهى الهدية التى قدمت الى "ميرابو" والهوة المهلكة التى حفرت تحت قدمى "روبسبير" تتداول أيدى البشر كتبها وفنونها وعلومها ومسرحها وآدابها وفلسفتها فمؤلفات باسكال ورنييه وكورنيل وديكارت وچان چاك روسو وڤولتير لكل آن وموليير لكل قرن وجيل . تتكلم جميع الألسنة لغتها حتى صارت لغتها شعارا عاما . تولد فى أدمغة الجميع فكرة التقدم والرقى . يعتنق مذهب الحرية الذى صقلته أصدقاؤها المخاصون على الأجيال كلها . وبفضل روح مفكريها وشعرائها ظهر جميع الأبطال فى جميع الأمم منذ عام ١٧٨٩ الى الآن ولكن هذا لا يمنع شرودها وشذوذها .

ان باريس تكشف دائما عن أسنانها فهى تضحك اذا لم تكن مكشرة عن أنيابها .

هذه هى سُنّة باريس .

ڤيكتور هوجو



يمين الحلف الوطنى فى البانتيون



مثال الباريسية الصميمة


الى باريس



منـــذ مائة ســـنة

بعثتنا الأولى إلى باريس

التى أرســلها الحــاج محمـــد على باشا

بقلم الشيخ رفاعة الطهطــاوى



قد بعث صاحب السعادة فى السفر إلى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من أكابر ديوانه السعيد وجعلهم أرباب نظر عام على من عداهم وهم على هذا الترتيب فأولهم صاحب الرأى التام، والمعرفة والأحكام، حائز فضيلتى الســيف والقــلم، والعارف برسوم العرب والعجم، حضرة جناب عبــدى افندى المهردار، والثانى صاحب الرأى السديد والطالع السعيد، من خلع فى حب المعالى العذار حضرة مصطفى مختار أفندى الدويدار، والثالث الحاوى بين العلم والعمل، واليراع والأسل، حضرة الحاج حسن أفندى الاسكندرانى بلغه الله فى الدارين الأمانى، آمين، ثم ان حضرة الأفندية الثلاثة يتعلمون أيضا كالباقى فحضرة الأفنــدى المهردار سابقا يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية، وحضرة الأفندى الدويدار سابقا بعــلم تدبير الأمور العسكرية، وحضرة الحاج حسن أفنــدى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية . ولسائر الثــلاثة اجتهاد زائد وتحصيل بالغ مع أن الأمرة فى الغــالب تأنف ذلك . وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة فكانت نوبة الواحد يوما والآخر يوما آخر وهكذا . فآل الأمر إلى أن صارت شهرا شهرا ثم صار الأفندى المهردار وحده ثم ان حضرة الأفنــدية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب مســيو جومار الذى ولاه صاحب السعادة ناظرا على الدروس، وهو أحد علمــاء الانســتتوت بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السيـــن أى مشورة العلوم

وأكابرهم والذى يتراءى فى طبعـه حب حضرة صاحب السـعـ
ويشاهد منه دائما أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشـ
فيها بل وفى سائر بلاد الافريقية كما يفهم ذلك من حاله . ومما قال
التى ألفها سـنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة وشهـ
جومار وحسن تدبيره يوقع فى نفس الانسان من أول وهلة تفضـ
لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة ولا عجب فبالأقـا
وهمته فى مصالح العلوم سريعة كثيرة التأليف والاشتغال والغالب
فى سائر علماء الافرنج فان مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر
إذا ترك ارتكبه الصدأ وجناب مسيو جومار يشتغل بالعلوم آناء الليل

*
* *

... ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غـ
أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ونحو مائة كرسى
هـذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشـة د
عن الجلوس بالأرض ثم مدوا السفرة للفطور ثم جاءوا بطبليات
من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية وجعلوا قـدام كل صحـن
وسكينة وشوكة وملعقة وفى كل طبلية نحو قزازتين فى المـاء وإنا
فيه فلفل ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى لكل واحد كرسى ثم جاءوا
فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين لتغرف أحد أهل الطبلية ويقسم
لكل إنسان فى صحنـه شيئا يقطعه بالسكينة التى قدامه ثم يوصله إ
لا بيـده فلا يأكل الإنسان بيده أصـلا ولا بشوكة غيره أو سكينة
قدحه أبدا ويزعمون أن هـذا أنظف وأسلم عاقبة وممـا يشاهد عند
لا يأكلون أبدا فى صحون النحاس بل ولا فى أوانيـة أبدا ولو مبيـض
فقط بل دائما يستعملون الصحون المطلاة وللطعام عندهم عدة مراتب
كثرت وتعددت كل مرتبة منهـا فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشـ

باللحوم ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة كالخضروات والفطورات ثم بالسلطة وربما كانت الصحون المطلاة بلون الطعام المقـدّم فصحون السلطة مثلا خضر منقوشة بلون السلطة ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ثم بالشراب المخدّر إلا أنهم يتعاطون منه القليل ثم بالشاى والقهوة وهذا الأمر مطرد للغنى والفقير كل على حسب حاله ثم أن الانسان كلما أكل طعاما فى صحنه غيره وأخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيـه طعاما آخر ثم أنهـم أحضروا لنا آلات الفراش والعادة عندهم أنه لا بد أن ينـام الانسان على شيء مرتفع نحو سرير فأحضروا ذلك لنا ومكثنا فى هـذا المحل ثمانية عشر يوما لا نخرج منه أبدا غير أنه متسع جدّا وفيـه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتماشى فيها والتنزه فى رياضها ومن هـذا البيت ركبنا العربيات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع وسرنا بهـا إلى بيت فى المدينة نسكنه فى حواشيها من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وأدواتها فمكثنا منتظرين التوجه إلى مدينة باريس ومدّة مكثنا فى هذا البيت كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد وندخل بعض القهاوى، والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش بل هى مجمع لأرباب الحشمة إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق إلا بالغناء التام وأثمان ما فيها غالية جدّا فلا يدخلها إلا أهل الثروة وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والمحاشش وقد أسلفت أن مدينة اسكندرية تشبه فى حالها مرسيليا . وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جمـلة عربيات معا فى طريق واحد . ثم إن سائر القاعات أو الأروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانيـة مرايا عظيمة كبيرة حتى أنه ربمـا كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ليظهر لهـا رونق عظيم فأوّل مرة خرجنا إلى البـلدة ومررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهـذه المرايا والمشحونة بالنساء الجميلات وكان هذا الوقت وقت الظهيرة وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين الى قرب المنكبين . والعادة أيضا أن البيع والشراء بالاصالة للنساء وأما الأشغال فهى للرجال فكان لنا بالدكاكين والقهاوى

ونحوها فرجة عليها وعلى ما يعمرها وكان أوّل ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة وبين محل جلوس النـاس ومحل القهوة صبيان القهوة ومحـل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمسجرات ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش . وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات فاذا طلب الإنسـان شيئا طلبـه الصبيان من القهوجيـة وهى تأمر باحضاره له وتكتبه فى دفترها وتقطع به ورقة صغيرة فيهـا الثمن وتبعثها مع الصبى للطالب حين يريد الدفع والعادة أن الانسان إذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبـه ويشربه ففعلنـا ذلك كعادتهـم وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر وبالجملة فهو قدح لا فنجان وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية لأجل المطالعة فيها وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصـبة عظيمة نافذة لمـا أن بهـا كثيرا من الناس فاذا بدا جمـاعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج وظهر تعـددهم مشيا وقعودا وقياما فيظن أن هـذه القهوة طريق وما عرفت أنهـا قهوة مسدودة إلا بسبب أنى رأيت عدّة صور فى المرآة فعرفت أن هذا كله بسبب خاصـية الزجاج فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الانسان . رفاعة رافع الطهطاوى

من مرسيليا إلى باريس

منذ مائة سنة ! !

أعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا إلى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة أو موضعا فيها فاما أن يأكلوا على كيسهم أو يدفعوا قدرا معلوما للعربيـة والقوت مدة الطريق ثم ان السفر يكون ليلا ونهارا إلا وقت الأكل ونحوه وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معـدّة للطعام والشراب مشتملة على سائر أنواع المطعومات

والمشروبات فى غاية النظافة والظرافة وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم وبالجملة فهى مستكملة الآلات والأدوات فلما ركبنا عربات السفر كل جماعة منا فى يوم وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا مستمرا على حالة واحدة ولا يتأثر الانسان كسفر البحر بالرياح ونحوها وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث ومدينة ليون على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ومن ليون إلى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ومن مرسيليا الى باريس مائتان واحدى عشر فرسخا فرنساويا . وقد مكثنا فى ليون نحو اثنتى عشرة ساعة للاستراحة ولم أر داخل هـذه المدينة إلا بالمرور فيهـا أو من شباك البيت الذى كنا فيه ثم سرنا منها ليلا إلى باريس فدخلناها صباحية اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا وقد مررنا بقرى كثيرة وأغلبها مشتمل على البيـع والشراء والحفر عظيمة الأبنية مزينة بالأشجار . وبالجملة فالقرى مسلسلة متصلة ببعض غالبا خصوصا مع جدّ السير حتى ان الانسان لا يظن إلا أنه فى بلدة واحدة والمسافرون غالبـا فى ظل الأشجـار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق وندر تخلفـه فى بعض المحال ثم أن الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة باريس غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء باريس كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران .

... لا عجب ان قيل أن باريس التى هى قاعدة ملك الفرنسيس من أعظم بلاد الافرنج بناء وعمـارة وان كانت عماراتها غير جيـدة المـادة فهى جيدة الهندسـة والصناعة على أنه ربمـا يقال أيضا ان مادتها جيدة إلا أنها ناقصـة لقلة كثرة حجر الرخام فيها ، وبخلوها عن بعض أشياء أخر وكيف لا وأساس حيطانها من أحجـار النحاتة . وكذلك الحيطان الخارجية . وأما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيـد فى الغالب . وأما عواميدها فهى غالبا من النحاسـة فقل ان كانت من الرخام كما أن تبليط الأرض يتخـذ من حجر البلاط . وقد يكون من الرخام الأسود مع البـلاط وذلك أن الطرق دائمـا مبلطة دائمـا بحجر البلاط المربع والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور والقيعان بالآجر أو بالخشب أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول وجودة

الحجر أو الخشب تختلف باختلاف يسار الانسان ثم أن حيطان الغرفات والأرض
من خشب كما تقدّم وهم يطلونه بالطلاء ثم يسترون الحيطان بورق منفوش نقشا
نظيفا فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير فان الورق لا يعود منه شيء على
من مس الجدار بخلاف الجير بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا و أسهل فعلا
خصوصا فى أوضاتهم المزينة بأنواع من الأمتعة التى لا يمكن الافصاح عنها غاية
ما يقال أن الفرنساوية يحاولون إضعاف نور الأرض بوضع الستائر الملونة خصوصا
الخضراء وأرض أوضهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميد الأحمر ويحكون أرض
الأوضة كل يوم بالشمع الأصفر المسمى عندهم شمع الحك وعندهم حكاكون
بالأجرة معدون لذلك بالخصوص وتحت أسرتهم المكسوة بالمخيشات و بالمسجرات
وغيرها سجادات عظيمة يطؤنها بالنعال وفى كل أوضة مدخنة للنار وهى شكل حفة
القلل مرخمة بجيد الرخام وفوقها ساعة بشتختة وحول الساعة من الجهتين آنية من
تقليد الرخام الأبيض أو من البلور فيهما أزهار أو تقليد أزهار وحول هذا من
الجهتين من القناديل الافرنجية والدولابية التى لا يدرك صورتها حقيقة إلا من رآها
موقودة وفى غالب أوضهم آلة الموسيقى المسماة البيان بكسر الباء وضم النون فاذا كانت
الأوضة أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل
سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس أو غيرهما . وأغلب الأوض
مشحون بالصور خصوصا صور الأقارب وفى أوضة الشغل أيضا قد توجد صور
عجيبة وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم و ربما رأيت على طوالة
الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها و ربما رأيت أيضا فى أوض الأكابر
النجفات العظيمة التى توقد بشموع العسل و ربما رأيت أيضا فى أوضهم فى يوم
تلقى الناس طوالة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من أراد
من الضيوف أن يسرح ناظره و ينزه خاطره فى قراءة هذه الأشياء وهذا يدل على
كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب فهى أنسهم وفى التوقيعات اللطيفة الكتاب
وعاء ملئ علما وظرف حشى ظرفا ومن لك بروضة تقلب فى حجر و بستان يحمل

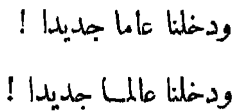
فى كم .... ثم ان جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت أى زوجة صاحبه التى تحيي الضيوف إصالة و زوجها يحييهم بالتبعية فأين هذه الأوض بما احتوت عليه من اللطائف من أوضنا التى يحيي فيها الانسان باعطاء شبق الدخان من يد خادم فى الغالب أسود اللون!! وأما السقوف فانها من الخشب النفيس ثم ان البيت فى العادة مصنوع من أربع طبقات بعضها فوق بعض ما عدا البناء الأرضى فلا يحسب دورا وقد يصل الى سبعة أدوار وغيرها تحت الأرض من المخادع التى تستعمل أيضا لربط الخيل أو المطبخ أو ذخائر البيت وخصوصا النبيذ والخشب للوقود ثم ان البيت عندهم كما فى بيوت القاهرة مشتمل على عدّة مساكن مستقلة ففى كل دور من أدوار البيت جملة مساكن وكل مسكن متنافذ الأوضات وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت الى ثلاثة مراتب : المرتبة الأولى بيت عادى، والثانية بيت لأحد من الكبار، والثالثة بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها : فالأول يسمى بيتا، والثانى يسمى دارا، والثالث يسمى قصرا أو سراية. ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى الى ثلاثة مراتب أيضا : المرتبة الأولى البيوت التى لها حاجب ولها باب كبير يسع دخول العربة منه، والثانية البيوت التى داخلها دهاليز ولها بوّاب ولا يمكن أن تدخل العربة من بابها، والثالثة البيوت التى لا بوّاب لها أى لا مكان للبوّاب فيها يسكن فيه . ووظيفة البوّاب فى باريس أن ينتظر الساكن الى نصف الليل فاذا أراد الساكن أن يسهر فى المدينة زيادة عن نصف الليل فعليه أن ينبه البوّاب لينتظره ولكن لا بدّ أن يعطيه بعض شيء وليس على الحارات بوّاب أصلا، وليس لها أبواب كما فى مصر. ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكرا حتى أن الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك نحو ثلاثة ملايين قروش مصرية ثم ان كرا المساكن فى باريس قد يكون لمجرّد المسكن وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها وآلات البيت عند الفرنسيس هى آلات الطباخة والمأكل بأجمعها بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها وآلة الفراش للنوم وهو فى الغالب عدّة طراحات من الريش وملاية فرش تتغير كل شهر وحرامات الغطاء ثم آلات التجمل

وتلق الزوّار وهي الكراسي بالحرير المشغول ونحوه والسدلات المكسوّة كذلك والكراسي العادية والآلات العظيمة المنظر كالساعات الكبيرة المسماة عندهم بندول وكأواني الأزهار العظيمة وغيرها من أواني القهوة المموّهة بالذهب وكالنجفة المعلقة التي تتقد بالشموع المكررة وكخزانة الكتب التي لها باب من القزاز يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد وكل انسان له خزانة كتب سواء الغني والفقير حيث أن سائر العامة يكتبون ويقرءون والغالب أن الرجل ينام في أوضة غير التي تنام فيها زوجته اذا تقادم الزواج . ومن العوائد التي لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة الى الاقامة في الخلاء مدّة أشهر فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة ولكن لا يدخل أحد إلا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر وهذه الورقة توجد عند كثيرين من الناس فاذا طلبها الانسان ممن يعرفه أعطاها له فترى في البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما في حريم الملك وأقاربه . وقد دخلت ذلك عدّة مرات فرأيته من الأمور العجيبة التي ينبغي التفرّج عليها وفيه كثير من الصور التي لا تمتاز عن الناس إلا بعدم النطق وفيه مصوّر كثير من ملوك فرنسا وغيرهم وكل أقارب السلطنة وكل الأشياء الغريبة وأغلب الأشياء الموجودة في حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لا نفاستها بالمادة مثلا سائر الفراش كالكراسي والأسرة حتى كراسي المملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ومطلية بالذهب إلا أنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة فمبنى أمور الفرنساوية في جميع أمورهم على التجمل لا على الزينة واظهار الغنا والتفاخر ثم سائر الأغنيا بباريس تسكن في الشتا في نفس المدينة وقد أسلفنا في ذكر طبيعة إقليم باريس أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران في القيعان والأرض وأما مدّة الحر فان من له يسار يسكن في الخلا لأن القصور بالخلا أسلم هواء من داخل المدينة ومن الناس من يسافر في بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ويطلع

على البلاد و يعرف عوائد أهلها خصوصا فى مدّة فى السنة تسمى عندهم مدّة التعطيل أو مدّة الفراغ يعنى البطالة حتى النساء فانهــن يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر وينفقن عليــه مدّة سفره معهن لأن النساء أيضــا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنهــا أو اليس انه قد يأتى منهن من بلاد الافرنج الى مصر ليرى غرائبها من الأهرام والبرابى وغيرها، فهن كالرجال فى جميع الأمور . نعم قد يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال تمكن من أنفسهن الأجنبى وهن غير متزوّجات فيشعرن بالحمل و يخشين على الفضيحة بين الناس فيظهرن الســفر لمجرّد السياحة أو لمقصــد آخر ليلدن و يضعن المولود عنــد مرضع بأجرة خاصة ليتربى فى البلاد الغريبة ومع هــذا الأمر فليس بشائع و بالجملة ما كل بارقة تجود بمائها ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض ومنهن من هى بضــدّ ذلك وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب النــاس ذكورا و إناثا وعشقهم معلل لأنهم لا يصدّقون بأنه يكون لغــير ذلك إلا أنه قــد يقع بين الشاب والشابة فيعقبــه الزواج ومما ينبغى أن يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ وان كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلا شيء فان أهــل الفلمنك أشدّ جميع الأمم نظافة ظاهرية كما أن أهل مصر فى قديم الزمان كانوا أيضــا أعظم أهل الدنيا نظافة ولم يقلدهم ذراريهم وهم القبطة فى ذلك وكما أن باريز نظيفة فهى خلية أيضا من السميات بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن إنسانا فيها لذغته عقرب أبدا وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب و بيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكهن الموضوعة بالهندسة وضــعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات الشبابيك دائمــا من القزاز حتى اذا أغلقت فان النــور لا يحجب أصلا وفوقها دائما الستائر للغنى والفقير كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالية لسائر أهل باريس .

رفاعة رافع الطهطاوى

الى باريس (*)



ودخلنا عاما جديدا !

ودخلنا عالما جديدا !



نحن فى الباخرة ، وقد اختلسنا عبرات فى غفلة من المسافرين من انكليز لا يعرف التأثر الى قلوبهم سبيلا ومن ضباط وجنود فرنسيين تزين صدورهم الزرقاء أوسمة الشجاعة وأدلة الرجولة .

وهذا صوت غير شجى وغير منكر ... صوت الآلة الصافرة تؤذن بقرب الرحيل ، صوت مذبوح كأنما اجتمع فيه كل ما صعّده الناس من تنهدات وزفرات ... صوت ناعب ، صوت الفراق !

وما هذا السفر الذى يصدع قلبين صدعا أليما ؟ عبثا يخدع المرء نفسه عن هذا الألم الذى يعصر القلب ويحز فى النفس كالسكين ... أليس السفر بعض الموت ؟ ... أنها قسوة السن التى لا ترحم والتى لا تكترث والتى تلهو حتى بآلام نفسها ... سن الأحلام ... سن الآمال المعلقات فى السماء ... سن الغرور !

وارحمتا لنفس شطرتنى من ذاتها وجعلتنى بشرا سويا أفكر فى تركها وانفذ فكرى وأقضى بالانفصال عنها بالبر والبحر لتحقيق غايات خفية أنا مسوق اليها برغمى وهى تعذبنى وترهقنى من أمرى عسرا !

واحتشد المودعون على الشاطئ بعد أن أذن جرس الباخرة مرتين بالانصراف وامتنع الدخول . ولكن الجنس الذى يكفى ظهوره لتبتسم الشفاه المطبقة وتحن

(*) عن الباخرة ''لامرتين'' فى أول يناير سنة ١٩٢٧

القلوب المتحجرة ، الجنس الذى لا يطيع أمرا ولا يعرف حظرا ، الجنس الذى تفتح أمامه الأبواب الموصدة وتنحنى له رؤوس الجبابرة ... الجنس ... اللطيف ... قد ظهر فى الساحة الخالية على الافريز المتحرك ودخل بثبات واقتحم الجند وصعد السلم الذى كاد يرفع وجعلت كل أنثى تقبل صاحبتها المسافرة قبلات طويلة عالية ضاحكة رخيمة .

وعدت فالتفت من حولى فلم أجد أحدا غيرى أنظر الى صديق "محمود" على الميناء وقد وقف محسورا يكفكف دمعه فى الفينة بعد الفينة ثم هو لا يكاد يرفع يده بتلويح منديل لأن ألمه الصامت يأبى الحركة والخفة و يؤثر السكون المهيب .

نحن على المائدة وهذه سيدة لا يدخل لسانها فى فمها طرفة عين تتكلم وتبدأ كلامها بحمد الله على الخلاص من بلاد "معليهش" فقلت للدكتور المصرى الذى شاركنى حجرتى وجاورنى فى المائدة "يا فتاح يا عليم" فقال "صبرا عليها قليلا" وهى تسرف فى الشكوى اسرافا و يظهر أنها متألمة حقا . تقول أنها جاءت مديرة بيت تاجر من كبار تجار الاسكندرية فإذا بأخيه لا يرحم ولا يشفق يمعن فى الزراية بها والضغط عليها ... فيا للمصريين ! وهذه الآنسة ، كما يجب أن نسميها كالمصطلح عليه فى السفرة وطبق رغبتها وهى دائما تصلح لصاحبى الدكتور لفظها فهو يقول يامدمزيل وهى تضحك وتقول " مدموازيل من فضلك" أريد أن أقول هذه "المزمزل" تريد أن تحوك ثائرا ... وأن تلفت السفرة اليها وأن تحوطها وحدها الأنظار وأن تخجل بفصاحتها سيدة الى جانبها عروس متواضعة منكسرة تزوجت منذ عشرة أيام وجاءت تعبر البحر وهى مريضة مع زوجها المريض أيضا فكلاهما يحنو على صاحبه حنو المرضعات على الفطيم فتناوله الموز و يناولها صدر الدجاج ... و يربت على يدها و يضغط على أصابعها فى حنان ... حنان تنقصه حرارة الصحة والعافيـة !

أنها لطيفة هذه العروس المريضة ! كأنما المرض يكسب الانسان لطفا ! على محياها غير مسحة الشحوب مسحة الكآبة التى يفسرها عريسها بأنها لفراق والديها

وهذا العريس يعتذر لى وللدكتور فيما بيننا وبينه عن تلك الفتاة الحانقة بأن أطول الناس ألسنة أطيبهم قلوبا .

ولم يكن هـذا العريس من الغباوة بحيث كنا نظن فقد احتال ولا بد أنه رضخ رضيخة غير ضئيلة لمراقب الباخرة بجمعه بزوجته بحجة مرضها فى حجرة واحدة ... واستمر عريسنا يسلخ فى البحر بقية أيام شهر العسل !

وكنت بعد العشاء قد خلوت بنفسى وانتحيت ناحية أقرأ فيهـا وأدوّن بعض المذكرت واذا برجل سمين ناصع البياض أصلع الرأس أشيب الشعر فى سواد شامل يقصـدنى ويحيينى ويجلس ... ويدور الحديث فأعلم أنه صهيونى من عواهل بنى إسرائيل أحد الخمسة الذين أسسوا مدينة "تل أبيب" مصدر الدعوة الصهيونية الى العالم لاستعمار فلسطين ولم شعث الطائفة التى تشتتت فى الأرض لتجمع المـال وهو يقصـد انجلترا فى تجارة وله ابن يدرس الطب البيطرى فى باريس وآخر تاجر موفور الغنى فى شيكاغو . قال أنه رآنى ساعة إقلاع الباخرة ورأى صديق ويحسبه أخى يودعنى ورأى عواطفنا فقدّرها وأعجب بهـا وهو يلتمس الفرص ليجلس الىّ ويحـدّثنى لأنه أحبنى ! وان لبنى اسرائيـل وداعة نعرفها ونفهمها ونرتاح اليهـا . ولا سيما اذا سمعنا من مثل هذا الرجل الوديع شدّة تحزبه للشرق وشدّة إعجابه بمصر ونهضتها وتقدّمها وأنها عندهم المرشد الهادى الذى يضىء محجة شعوب الشرق جميعا وان مصر فى معتقدهم بلغت من الحضارة شأوا يفخر به كل شرق . هـذا الكلام لا ريب يرضيك فالك والمكر وحب الغوص فى قلوب الناس لترى المستور المكنون الذى يحجبونه عنك أدبا أو لحاجة فى نفس يعقوب !

ولمـا سألنى عن نفسى أجبته ففرح بى وقال أننى كاهن وسأمنحك ياولدى بركتين واحدة لتنجح فى كل ما تقصـد وواحدة لتعود الى وطنك سالمـا غانما فإن الله قد وهبك عقلا راجحا وقلبا طيبا ... اننى أمنحك بركتى سيدنا إسحاق .

أما أنا فقـد تلقيت البركة المزدوجة مطأطئ الرأس مخلصا مؤمنا بأن البركة على كل حال قد تجوز من مثل هذا الرجل ... أليس موفقا مجدودا ! ؟ ألم يكن من

المعمرين ... اقام مستشفيات ومصانع ومساكن ومعابد وحدائق ونفع خلقا كثيرين ؟؟ ... أليس له أبناء مثلى فى أوربا وأمريكا وهو يسعى أيضا فى طلب الرزق يقطع البحار كأنه فتى فى العشرين ! ؟

أضحكوا منى ما شئتم فإن بركة هذا المسيو "هايسمان" ولو لم يكن كاهنا ستنفع ولا تضر . وانى قد تقبلتها وتقبلت دعوته الى زيارة "تل أبيب" اذا كان فى الأجل فسحة وقدّرت لنا العودة . وقد أعطانى بطاقته وقال لى أنها تفتح كل باب أمامك .

ثم قام مع صاحبه الحاخام والثمانية الآخرين رفقاء السفر بالصلاة الى الله ليسخّر لنا البحر كما سخّر البحر لموسى .

ثم أن رفيق الدكتور المصرى كان قد اتصل سريعا بالثرثارة اتصالا يعز على من كان مثلى زاهدا فى عشرة أمثالها ... واستطاع بلباقته المصرية أن يحولها عن الحملة على المصريين فهى تحمل على السوريين صباحا وتحمل على الأروام مساء لأنها لا بدّ لها من أن تحمل !

وساءها وهى أوربية أن ترى "أعرابيا" مثلى ينصرف عنها بنظره ويتنكب سبيلها ويتجنب توجيه أسئلة اليها أو الرد على أسئلتها إلا باختصار بارد هكذا :

— ألا تشرب أيها السيد النبيذ ؟

— لا أشرب أيتها الآنسة النبيذ .

— واعجبا وهل فى الدنيا أعذب من نبيذ بوردو ؟

— ماء النيل بشهادة عميد كلية حقوق بوردو .

— أراك طالب علم ... فهل تقصد الى باريس ؟

— أرجو ... ...

وأصيبت الباخرة كلها أو جلها بدوار البحر اللعين . وامتنع ركابها عن الطعام غير مرة . ولزموا الفراش ولا سيما فى اليومين الأخيرين لأن الباخرة ساء حالها عند

ايطاليا وكورسيكا وقابلتها ريح عاتية وأمواج عالية . أما كاتب هذه السطور فلم يعرف بحمد الله الدوار وظل حافظا توازنه الى النهاية . سبحان الله ... أيعرف الدوار فى خمسة أيام البحر وهو الذى عرف دوار الأرض سبع سنين (*) ؟ ! ؟ ... كلا ! كلا ! أنه لا يعرف الدوار ولكنه يعرف الشوق والحنين ! !

وكنت أودّ لو رسمت هذه الصور التى مرت بك بأكثر من هذا إتقانا ودقة ولكنك تحس أنك لا ترتاح الى طعام أو شراب أو نوم أو حديث أو لعب أو قراءة أو كتابة أو أى شىء من الأشياء التى يقتل الناس بها عادة أوقاتهم ليتغلبوا على السآمة والضجر ، تؤثر لو كنت مكانى أن تضرب عن هذا كله صفحا وتضطجع على كرسى طويل على ظهر الباخرة ، فى شمس تارة تغيب وتارة تبدو ، تحت سماء تارة تظلم وتارة تصفو ، فتخلو الى البحر ، وتخلو الى نفسك . تحدثهما عما أمامك من أمل ، وعما وراءك من آلام ...

(*) اشارة الى مدة توظفه فى الحكومة لأن المؤلف كان من أشد الناس زهدا فيها .



القافلة المصرية على ظهر الباخرة « لامرتين »

الوصول الى باريس

قافلة مصرية فى باريس

وصل بنا القطار فى الساعة التاسعة صباحا فنزل إخواننا بعثة العنابر (*) لا ينتظرون الشيالين بل يبادرون بشهامة فينزلون عفشي الى الرصيف حتى جاء من حمله ... وخرجنا من المحطة وكنت قد احتطت لنفسى لأننى مكثت سنوات أسمع عن برد باريس وصقيعها وثلجها ، فوضعت معطفين لا معطفا واحدا فكأنهما جبة وعباءة ! ... وضعت معطف السهرة الأسود السميك ووضعت فوقه معطف الخريف " الجبردين " ... ونزلنا فى ٧ يناير، فى قلب الشتاء، فاذا الهواء منعش، واذا الشمس ساطعة !...

فسألتهم، هل الدنيا برد؟ ! قالوا أبدًا؟... إنها حر ! ! فصدّقت حينئذ نفسى ! وتنفست الصعداء وخلعت أحد المعطفين ! وكان مما استلفت نظرى عندئذ تلك الكرات الذهبيــة الكبيرة المعلقة فيها " شرابة " كبيرة سوداء كأنها زر الطربوش العربى ... ووجدتها تتكرر على حوانيت بعينها فعلمت أن الحلاقين قد اتخذوها شعارا لهم حتى تلفت الأنظار اليهم . وترى من آخر الطريق فيقصدها من هو فى حاجة إليهم . وكذلك لفت نظرى علم أحمر يتكرر بشكل واحد فاذا هو علم "المصبغات". والمفاتيح الذهبية الكبيرة التى كنت قد ترجمتها فى "الزنبقة الحمراء" دون أن أدركها تماما ، رأيتها عندئذ فاذا هى علم على " الحدّادين " . وأشكال ضخمة من الزجاج الأحمر تشبه "السيجار" الزينوبيا فوق المقاهى وتنار ليلا فاذا هى رمز حوانيت التبغ حيث تباع أيضا طوابع البريد .

(*) كانوا تسعة شبان موفدين من مصلحة السكك الحديد المصرية الى انجلترا للتخصص فى الصناعات الميكانيكية وصورتهم مقابل هذا الكلام .

وهكذا جعلنا نتصفح وجوه النـاس و وجوه الأماكن وابتـدأنا نلحظ ونفطن ونقارن وندرك ما وصلنا إليه فى بلدنا ومانحن بحاجة إليه .

وكان الموكب ، موكبنا المصرى شائقا ... كان يلفت الأنظار حقا لأن أكثرنا كان يضع " الكسكتات " وهى قلانس السفر التى لا يضعها فى باريس غير العمال . وكان أكثر من واحد من الأخوان يحمل معـه طربوشه ... وكان حريصا على ذلك الطربوش حرصه على روحه ... وقد خشى أيضا على مكواه وهو يعلم أنه لا سبيل الى مكوى الطربوش فى انجلترا فحمله فى علبته الصفيح ... فكنت ترى فى الموكب علبة طربوش من الصفيح الأحمر وأخرى من الصفيح الأصفر وثالثة من الصفيح الأزرق ...

وكان لا بدّ لنـا من تناول طعام الفطور . فدخلنا قهوة ملأناها وملأنا قلب صاحبها سرورا . وطلبت لهم القهوة باللبن (Café au lait) فأصلح لى الجملة وقال لى (Café Crême) أى أن عنـدهم لا يقولون كما نقول فى مصر قهوة اللبن بل قهوة القشدة . وقد عرفت بعـد ذلك أن سبب هذه التسمية أنهم كانوا قبل الحرب يضيفون الى القهوة القشدة . حتى جاءت الحرب فأخذت هذا " الخير " من القهوة مثلما أخذت الخير من كل شيء .

ولكن صاحب القهوة لم يكن ينتظر تشريف هـذه القافلة مقهاه الصغير فى رصفة پرسى ، بجوار محطة ليون . وسمع لغتنا ولهجتنا فاستهتر . وقال : ان بيع اللبن محظور بعد الساعة العاشرة . ونظرت فاذا الساعة لمـا تبلغ العاشرة بعـد . ونظرت فاذا الرجل فى يقينى ساخر منا . فنهضت معبرا له عن أسفى . ونهض الجميع . وكانت قرقعة فى الموائد والكراسى . لأن عشرة أشخاص قد نهضوا دفعة واحدة يخرجون ...

ودخلنا بعد ذلك مقهى آخر من مقاهى العمال أو بالأحرى هو مطعم من مطاعمهم التى يسلقون لهم فيها اللحم والأرنبيط . فأحسنوا وفادتنا . وكانت بنت صاحب المقهى تخدمنا . وانبرت لذلك فى رقة وظرف وانعطاف . وكانت قد كشفت عن ذراعين

هما ورد ولبن. واستبد الأخوان. فواحد منهم يطلب الى أن أوصى له بالشوكولاته والثانى بالكاكاو والثالث بالشاى والرابع بالقهوة والخامس بالجبن والزبد والمربى الخ الخ وكان لا بد من ترجمة هذا كله...وكانوا فرقا وشيعه...فاثنان منهما يدفعان معا وثلاثة يدفعون معا وأربعة يدفع كل منهم عن نفسه ! ... فانظر نقودهم واضبط حسابهم وخلصهم من أنفسهم ثم خلصهم من أصحاب المقهى ! ... وكان أسهل من ذلك كله الدفع لهم ! ...

وكان أحدنا مريضا . أصابه دوار الباخرة ولبث فيها مريضا وسافر فى القطار أربعة عشرة ساعة مريضا ونزل باريس وهو مريض . وكان ساخطا متذمرا شاكيا مستثقلا نفسه علينا متألما من تعبه ومشيه . وكان لا بد لنا من أن نأخذه الى طبيب . ولكن ما حيلتنا أول وصولنا باريس ؟ ! فتذكرت عنوان طبيب هو شقيق زميل لى فى مصلحة المناجم والمحاجر التى كنت موظفا بها . ومعى خطاب له . ولكن لابد من فتح الحقائب لنجد الخطاب. والحقائب تركناها فى "الأمانات" بمحطة ليون وكنت أذكر أنه "الدكتور عابد" ويسكن شارع لافاييت. فسألنا عن هذا الشارع من رجل البوليس فدلنا على "الامنيبوس" الذى يقودنا اليه. فأخذناه. وانى أشفق من وصف حسابنا مع الكمسارى وحساب الكمسارى معنا. وكانت بيد أحدنا ورقة بخمسة فرنكات أو زعم أنه كانت فى يده خمسة فرنكات، فلم يجد فيها شيئا!... وكنا حديثى عهد بالنقود لابد أن نقرأ عليها عددها ونقلبها وجها لظهر ... ونتردد فى الاختيار بينها ... حتى وصلنا الى ميدان الأوبرا ورأينا دار التمثيل الذائعة الصيت زرقاء سوداء كأنها النحاس الصدىء ... فدهشنا . كان ذلك جديدا علينا ... وتساءلنا لماذا لا ينظفون الأوبرا ... وبعد ذلك فهمنا أن لطابع الزمن قيمته عندهم . فهم يقدّسون كر الغداة ومر العشى وما تصبغ به آثارهم ودور فنونهم من ألوان ... ويحترمون فعل الدخان وفعل الشمس وفعل المطر وفعل الثلج ... .

جعلنا نسير فى شارع لافاييت . وزعمنا أنه شارع مثل شوارعنا لا نلبث أن نجد فيه بغيتنا. والقافلة على ما يجب أن تخيل من قلانس ومن أزياء متنافرة الألوان

مع الوسط الذى تسير فيه ومن علب الطرابيش المصنوعة من الصفيح الأحمر والصفيح الأزرق والصفيح الأصفر ... وفى وسطنا ذلك المواطن الشاحب المريض ضيق الصدر بنفسه وبنا وبالناس جميعا ... واذا بهذه القافلة لا تعرف كيف تسير "على بعضها" لأن كل شيء كان يلفت النظر : النساء ، والمحال التجارية ، والسيارات والجو ، والمترو ، والضجيج ، والحركة ، والعاملات ... فاذا بعضنا يسير على رصيف ، والآخرون على رصيف آخر ... واذا بعضنا يقف أمام واجهة حانوت ، متأملا معجبا مندهشا أو مستنكرا والبعض الآخر قد ساروا شوطا وخلفوه وراءهم ... والمريض يزداد مرضا : وشعرت أنا قائدهم بأننى المريض حقا لا المريض . وشعرت بأن شارع لافاييت — وهو فعلا من أطول شوارع باريس — لا ينتهى . وشعرت بسخف قيادتى وذل جهلى . وضاقت فى عينى باريس واستنكرت هذه الجلبة وهذه الحركة وهذه الشوارع التى ليس لها آخر وهذا السير على غير هدى ...

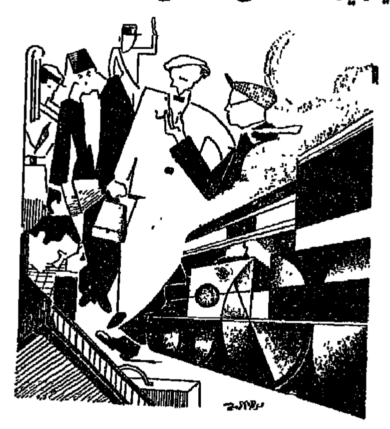
وهدانى الله الى أن أتجه الى أجزخانة . فدخلتها ودخلها ورائى منهم ثلاثة أربعة خمسة ... وسألت عن " الدكتور عابد " وهل يعرفونه ؟! وكان السؤال فى نظرى بديهيا الى درجة تدعونى الآن الى الابتسام من سذاجته إذ كنت اعتقد أنهم سيجيبوننى من وحى الخاطر وسيقولون لى أن الدكتور عابد جارنا وأنتم لا بد من مواطنيه والحمد لله على السلامة وكيف حال أهل مصر ! !

ولكنهم مع ذلك كانوا مثال الدماثة ورقة الطبع . ففتحوا أمامى لدهشتى كتالوجا ضخما يضم آلاف الصفحات وأخرجوا باب " شارع لافاييت " . ونظروا فى هذا الباب حرف "ع A " ... وأخرجوه للحال فقالوا لى : نمرة ٨٣ — وخيرونا بين ركوب الأمنيبوس أو المشى ثلاث أو أربع محطات أخرى . فاستخرنا الله فى المشى . وكيف كان يمكن أن أرضى بغير ذلك وأنا أعرف مشكلة انتظار الأمنيبوس واستحالة وجود عشرة محلات فى مركبة واحدة . بل واستحالة وجود محل واحد فى أحوال كثيرة . وأعرف مشكلة العد والصرف والحساب ... وأعرف

مشكلة الاثنين اللذين حسابهما معا والثلاثة الذين حسابهم سويا والأربعة الذين كل منهم يحاسب على حدة ! ...

سرنا على مضض . وقد بدأنا نتعب فعلا . ونتعب عن حق بعد سفر ١٤ ساعة بسكة الحديد ليلا لم نكد نذوق فيها النوم إلا سنة ... ونتعب لجهلنا بكل ما حولنا . وجهلنا بما ينتظرنا ... وكنا عطاشى لا نجد كوب ماء ... ولا يوجد باعة شربات فى حوانيت أو باعة عرقسوس فى الطرقات ! ووصلنا بعد لأى وعذاب . وسألنا البوابة فأخبرتنا بأن الدكتور عابد فى الدور الأول الى اليسار . ووجدنا أمامنا عاملا يدق الجرس يحمل صندوقا من زجاجات مياه فيشى وإفيان ... ونظرت الخادمة الى تلك القافلة تملأ درج البيت... وسألتها عن الدكتور ... والى جانبى مريضنا ... فاذا هو منصرف عن داره لوجوده بالمستشفى . وإذا هى لا تنتظر عودته قبل الساعة السادسة مساء !

أف لهذا الطالع !... لقد زاد المرض على مريضنا وزدنا وهنا على وهن وضقنا ذرعا . لانعرف كيف نتوجه . وكان الظهر قد فات . وبدأنا نشعر بالتعب والجوع . فتذكرت أنه ليس أمامنا إلا حل واحد هو أن نقصد من فورنا دار البعثة المدرسية المصرية بشارع المدارس رقم ٢٤ — وكنت لا أعرف أن " التاكسى " رخيص الى الحد الذى هو عليه فى باريس فجازفت بميزانياتنا الصغيرة وقلت : " ستين سنة ! " ... وركبنا سيارتين الى الحى اللاتينى ...



من ذكريات الصبا

وللذكرى شجون

بقلم الأستاذ الدكتور محجوب ثابت



كانت ليلة من صيف يوليه سنة ١٩٠٣ والذكرى شجون ... وكنت قد تلقيت أول صدمة فى أسمى العواطف الانسانية ، وهى ميل شديد إلى الاقتران بطالبة روسية أبوها أمير القرم من عائلة «دولت جراى» لا كما قال البعض تهكما من عائلة القيصر المنكود . وقد رآها بعد مرور السنين صديقنا شيخ الصحافة داود بركات إذ بحث عنها بمدينة جنيف حيث تزوجت من طبيب نطاسى بلغارى . وكان يعرفها على الشمسى باشا ومراد سيد أحمد باشا والأستاذ محمد فهمى المفتش بالمعارف .

وكان رفاقى عند السفر من جنيف ثلاثة أرى الآن أمامى وجوههم تطوف بمخيلتى صورهم العالقة بالذهن (engrammes) من ثلاثين سنة وكأنها بنت ساعتها ... وهم صديقنا سعادة مراد سيد أحمد باشا وزير المعارف السابق ووزير مصر المفوض فى بروكسل الآن ، والمحترم يوسف خانكى بك شقيق الأستاذ الكبير عزيز بك خانكى والمرحوم أخوهما الأستاذ يعقوب خانكى . وإن أنس لا أنسى وصولنا الى محطة ليون فى الصباح والنفس مشرئبة تواقة أن ترى مدينة الأنوار التى طالما سمعنا عنها وأخرنى عن رؤيتها — وكان قد مضى على بأوروبا ثلاث سنوات صابرا صبر الكرام على بلوغ هذه الأمنية — سياحة علمية بألمانيا نصحنى بها أستاذ جليل عميد كلية الطب إذ ذاك الدكتور الباحث فى تولد الأجنة وصاحب التجارب عن التطعيم بمادة الجدرى من البقر الى الانسان الدكتور « إترنو (Eternod) » السويسرى

الفرنسى مع زميله هكسيوس صاحب معهد الثقافة الشهير باسمه بجنيف الذى درس فيه صديقنا على الشمسى باشا قبل دراسة الحقوق وحلمى بك مسلم سكرتير الصدر الأعظم المرحوم سعيد حليم ومن قبلهما سمو الخديوى السابق وكثير من علية المصريين.

وكان يوم وصولنا يوافق يوم ١٣ يوليه سنة ١٩٠٣ وما تشاءمنا من هذا العدد — الذى يذكر دائما بأصحاب السيد المسيح مكملين بيهوذا الأسخريوطى — فقد كنا أربعة : شقيقين وصديقين وكان يوسف خانكى هو بكرىّ رؤياها كما كنت وصديقى مراد باشا .

نعم نزلنا من ذلك القطار ولم نشعر بتعب ولا كلال وقد قضينا الليل سهرا وسهدا فى انتظار عروس المدن ورفع قناعها ورشف مناهل دور العلم فيها التى طالما سمعنا بجها بذتها أثناء حضور (دروس) كلية العلوم والطب بعاصمة سويسرا الفرنسية "جنيف". بل أيضا لرى ظمأ عندنا والتمتع بشهير متاحفها طبقًا لما سمعنا عن اللوفر وما فيه من نفائس وما مرّ به من حوادث ولا أحدثك عن ميدان الكونكورد الجميل الذى يأخذ بالأبصار فى الليل أخذا من تلك الأنوار وأظنك مثلى إذا ما أقبلت من الحى اللاتينى أو من الشاطئ اليسارى أو إن شئت لابة السين اليسرى وعبرت جسر اسكندر الثالث فترى ذلك الميدان صيفا كأنك ترى النجوم قد نزلت، والكواكب انتثرت، فأنارته وجعلته نهارا فى الليل، وضياء مزّق الدجنة : فتلك النصب الماثلات أمام أعيننا بعد أن وقفنا أمامها، وشفينا من النفس أوامها، كأننا وقوف أمام غيد حسان حملن أسماء مدن فرنسا عرائس الحسن والجمال! وإن أنس أقول لا أنسى بحثى عن تمثال ستراسبورج بحث الشحيح عن أثمن نفيس تعلق به الفرنسيس وهاموا بحبه هياما فإذا بنا أمام ذلك النصب رمز الأعزاز وعليه وشاح الحزن والحداد على فصله من الأم الرؤوم فرنسا ، فذكرنى ذلك بشطرنا الثانى من وادى النيل المقدّس : السودان ! ...

وما أجمل ما كان تمثيله مضطجعا فى حديقة التويلرى وعليه تماثيل أطفال النيل لاعبون ، وبه عالقون، كأنهم أطفال بأبيهم طائفون ، وهو بهم بارّ وهم به بارّون ... أعنى التمثال ...

لا أطيل الحديث فتداعى الصور أكثر ما يكون فى هـذه الآونة وقد تجمعت علىّ فأكتفى أن أقول أوصلتنا العربة . وكان أحدنا يعقوب خانكى يعـرف باريس وقد تلقى دراسته الحقوقية فيهـا ، فأعطى عنوان النزل الذى آوينا إليـه بحى سان لازار " وكان بيتا مفروشا " وبعد أن استرحنا كما هى عادة كل مسافر — وأنا أؤكد لك أنهـا كانت لحظات قلائل — نزلنا ... هنا تخوننى الذاكرة أكان ذلك صبيحة استعراض الجيش بميدان لون شان بباريس فى ١٤ يوليو فتوجهنا توّا إلى مشاهدته وهو ما أرجحه ، أم اليوم الذى سبقه ؟ على أية حال أحدّثك عن الاستعراض العسكرى الشهير فقد وقفنا نرى عرض كتائب الجيش الفرنسى فى ذلك اليوم ولا أخفى عليك ألوان الزى العسكرى قبل الحرب سواء بباريس أم بلندن أم ببرلين أو مونيخ حيث كنا قد رأينـا ذلك عام ١٩٠٢ و ١٩٠٤ وتلك الخوذات المتلألئة والرافعـة سنان قمتها تخرق الجو فرأينا ذلك المشهد العسكرى فمن مشاة ارتدوا الأزرق والأحمر ومن فرسان دارعين ومن الهوسار ومن الصباحية الجزائرية ومن تلك المدفعيـة التى كانت أخذت شهرتها بتفوّق نوع منها عرف بقطر ٧٥ على ما أذكر وأكثر ماراعنى رمّاحتهم وسيّافتهم " وخيل تكدس بالدارعين وتحت العجاجة يجمزن جمزا " . ومن هؤلاء الصباحيين العـرب فى زيهـم الوطنى ببرانسهم وعباآتهم التى ينفخها الهواء كأنك تراهم يذكروننـا بأجدادهم حينما شـقوا الفيافى والموامى والبطائح والهضاب الى أن وصـلوا الى بحر الظلمات كما يسمون المحيط الأطلسى إذ ذاك ... ولا أنسى اللحى عند العسكر الفرنسى على السواء وخصوصا النوع المعروف بالزواف وضباطهم على اختلاف درجاتهم وأسلحتهم فكنت ترى امتزاج ساكنى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وكنت أحيانا تحار فى تبين سحنة الضابط الفرنسى الجنوبى من الصباحى العربى .

وكان يوما مشهودا . وكنا نردّد فى وجداننا وبلساننا ان الأمم تبنى مجدها بالعـلم والسيف !! ناهيك بمـا رأينا من ابتهاج الأمة بعيد حريتهـا ليلا ونهـارا ورقصا فى الميادين من الرقص الدوار الذى يذكرنى ما رأيته عنـد شقيقتنا الشام فى لبنانها وحلبها الشهباء ودمشق الفيحاء .

وما نسينا الى الآن أنواع الابتهاج والمرح عند الباريسيين والباريسيات أطفالا وسيدات وفتيات وشبانا وشيبا على نغم الموسيقى وما كان ذلك الجاز بند فى ذلك الأوان بل كانت الرقصات «فلسات» و «بولكات» و «كدريات» أى «المربعات» إذ يتبادل الرجال والنساء أماكنهم ابتهاجا بالحرية وعيدها والمساواة ومهرجانها والأخاء وجمال وفائه كل ذلك الشعار الذى قام عليه قاحمو سجن الباستيل مسطورا على أعلام كتائبهم الشعبية وأنى لنا هذا بالشرق وساكنيه وقد خيم عليهم الجمود على ما كانوا فيه ... ... أن نرى على جبهات معابدهم توراتيين وانجيليين أو قرآنيين وبرهمانيين كانوا أو كونفشيوسيين ودهريين وصابئة وباطنيين ما ذا أقول؟ يا ما أحيلى تلك الرقصات فى ساحة السوربون أمام كنيسة ريشولية والتمثال النصفى للفيسلوف لأوغست كونت صاحب المذهب الوضعى وكأنه فى وسط تلك الحقائق التى طالما تمناها أن يرى الانسان إنسانا يدين بدين المحبة لأخيه لأنه أخوه أحب أم كره .

ولا أنسى ميدان المادلين أو كنيسة المجدلية كما نسميها بالعربية وقد اختصت بزواج البيوتات وبصلات الأحد للارستقراطيين ويصل اليها الانسان من ذلك الشارع الملكى الذى به "مكسيم" الشهير، ذلك المنتدى والمطعم الذى يبتدئ فيه السهر بعد الخروج من المسارح ومختلف الملاهى الغنائية ولا أنسى أمام تلك الكنيسة تمثال لا فوازيه (Lavoisier) الكيماوى الكبير الذى سجل " أن لا شيء يفقد ولا شيء يخلق فى الطبيعة " كنتيجة لأبحاثه فى الكيميا وكان من ضحايا يوم الحرية والباستيل .

ولا يفوتنى أن أذكر لك ذهابنا الى غاب بولونيا إذ نتوقنا أن نرى هذا الغاب " بوادى بولونى " والشانزليزيه التى لا أقوى على ترجمتها ولا يجوز أن تترجم وهيهات لترجمة أن تعطى رنينها أبدا ، أو الرياض الفردوسية اذا أردنا الترجمة الحرفية، وهى تعطى الصورة النفسية التى أرادها الفرنسيون، لا أجد لفظا أصف به ذلك الطريق السحرى الموصل من ميدان الكونكورد الى غاب بولونيا وترى قوس النصر الذى ذكرنا بهذه الصحيفة النابليونية التى سجلت ميادين القتال من سهول

روسيا المتجمدة الى أسبانيا فصحراء ليبيا المحرقة وذكرتنا بالعبارة المدرسية "أن أربعين قرنا ترنو الى جحافله من قمة الأهرام" . وصعدنا الى قمة قوس النصر وأشرفنا على الغاب وآستجلينا جماله ورأينا ذلك الشريان الجنانى يحمل الأريج وعلى حافتيه الورود والأزاهير .

وسكنا هناك فى بنسيون "دافيز" بشارع شاتو بريان، وكنا منه نرى البنسيون الذى ينزل فيه صديقنا الزعيم الكبير المرحوم مصطفى كامل باشا ومكثت بهذا المنزل مع صديقنا مراد (باشا) الى قبيل ابتداء الدراسة بقليل فانتقلنا الى الحى اللاتينى وفى النفس حسرات وتشوقات : حسرات للبعد عن تلك القطعة من الجنان التى لا تزال ذكراها مطبوعة فى الأذهان، وتشوقات الى سكنى الحى الدراسى ووجودنا فى وسطنا العقلى والاجتماعى سلونا به هذا الفراق وفراق من بجنيف وبحيرتها الجميلة ! ...

وسرعان ما ذهب كل منا الى حيث المنهل الفياض، "مراد" فى "حقوقه" وقد أخذها ولله الحمد وأنا فى "طبى" ودراستى لتخفيف الآلام عن بنى الانسان فى كل مكان وزمان، وآلامى لم أجد لها الى الآن ترياقا ولا دواء ! ...

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ...

فسكنا بالحى مع صديق لنا المرحوم الدكتور عثمان بك (باشا) غالب العالم الطبيعى المصرى المنقطع النظير والد صديقنا وزميلنا كامل بك غالب وكان نزولنا فيه معه عند عائلة بشارع سومرار (Sommerard) . ولكننا وجدنا أنفسنا أيضا عند تجوالنا بحديقة اللكسمبورج الغناء وامتدادها الى ميدان المرصد، قد راقنا ذلك الحى وذكرنا بالشانزليزيه فى أحدى حناياه فسرعان ما بحثنا عن مأوى لنا هناك فى عائلة حتى وجدنا بغيتنا عند عائلة مدام "جيرود" حيث سكن أيضا قبلنا الأستاذ الكبير عبدالرحمن باشا سيد احمد عم صديقنا مراد، وكان معنا وصية منه اليها فنزلنا عندها واتخذت غرفتى وطعامى هناك وكانت فى شارع صغير اسمه "شارتريه" فى آخر شارع "دساس" وكنا نرى من شباك غرفتنا شارع المرصد (Av. de l'observatoire) أمام مستشفى

الولادة المشهور ترنييه المولد الفرنسى الكبير المنسوب اليه "جفت الولادة" المعروف . وكنا قبل ذلك فى منتهى شارع دساس نمرة ١٣٤ حيث كان ينزل المرحوم رشدى باشا أيام كان قاضيا فى المحاكم المختلطة . وما كان أبسطه فى روحاته وجيئاته وما أحلى دعاباته مع الدكتور عثمان غالب حين مر علينا ونحن جلوس بقهوة " سوفليه " ذات مرة على شارع البولفار "سان ميشل" أو "البول ميش" وشارع المدارس الذى به السوربون ...

وفى ليلة الوصول تلك لم يزر أجفاننا الوسن وسلمت علينا الغزالة ونحن بعد وقوف حول الراقصين والراقصات الى أن رجعنا والشمس طالعة ... وما غابت فقد كانت ثمت أضواء وشموس ...

فلله أيام تقضت بباريس، وسنين من العمر تحصيلا واستفادة وتثقيفا وتذوقا للجمال وأفانينه وتجلياته من كل نبع قطرة ومن كل شجرة ثمرة، اذا ما تركناها بعد تلك السنين التى انقضت وكأنها أحلام! طالما تمثلنا ولا نزال نتمثل بشعر ابن زيدون حينما فرق بينه وبين " ولّادة " الأديبة الشهيرة صاحبة المنتدى الأدبى الشهير بنت المستكفى (مثل صالون مدام شاليه ومنتدياتها)، وقد غادر الفردوس المفقود بالأندلس الى المغرب الأقصى ... من قصيدته المعروفة التى تنطبق الآن علينا وباريس :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا	شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها	والكوثر العذب زقوما وغسلينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نغص فقال الدهر آمينا

محجوب ثابت

منذ عشرين عاما

وصـــول المثّـال



كان سفرى فى أواخر عام ١٩١١ مبعوثا من سموّ الأمير يوسف كمال لدراسـة الفنون الجميلة بعد إتمـام دراستى بالقاهرة . وكنت لا أكاد أعرف من الفرنسـية شيئا يذكر وقد أوصوا بى فرنسيا وزوجه كانا مسافرين معى . وكان ذلك من بورسعيد ولى من العمر تسعة عشر سنة .

ولمـا جاء الظهر ودق جرس الطعام سار الناس أفواجا، وكانت الباخرة كبيرة آتية من الهند ، فتبعتهم فاذا بهـم يجلسون الى الموائد فلم أجد شجاعة من نفسى للجلوس الى جانبهم إذ زعمت أنه ربما لم يكن لى فى ذلك حق! ... ورجعت أدراجى . وبعد ذلك سألنى صاحبى الفرنسى هـل أكلت ؟ فأجبته بالايجاب ! وكذلك لمـا جنّ الليل وكـنت جائعا ودق الجرس نزل النـاس أيضا فذهبت ورأيتهم فخجلت وتراجعت . فلاحظ رئيس الخدم ذلك وجاء فأجلسنى فى مكانى . واذا الى جانبى سيدة سألتنى أن أقرب منها الخبز فأمسكت قطعة منه بيدى وأعطيتها إياها فوجدتهم يتبادلون النظرات وأدركت أننى ارتكبت خطأ فاحشا وكان يجب أن أمسك السلة وأقدّمها كلها وأن أرى كيف يفعلون وأقلدهم وهذا هو أوّل درس لى فى غربتى . وهاتان حادثتان بقيتا فى نفسى حتى اليوم .

فلمـا جئنا مرسيليا أدهشتنى خيولهـا الضخمة وبيوتها المرتفعـة . وكنت فى سكة الحديد بصحبة رفيق الباخرة ووصلنا باريس ليلا . فكان أوّل شعور نالنى منها سيئا جدا . واتخـذت مركبة ذات حصان واحد كانت مركباتنا أحسن منها

بكثير وكان لدى عنوان فنـدق صغير فاخترقت المركبة شوارع ضيقة وأزقة حقيرة من محطة ليون الى شارع دو پان أمام باب "البون مارشيه" تمـاما .

وزاد الفنـدق فى سوء ظنى بباريس وأضاع كل ما كنت أمنى النفس به . لأن صاحبتـه ووكيلها قابلانى باستهتار لصغر سنى وأعطيانى غرفة أرضها حجرية وأعطيانى شمعة ! ... فدهشت جدا ألا يكون فى باريس كهرباء ! .. لأن فنـادق الاسكندرية عندنا كان فيها كهرباء ! ... ومع ذلك كنت فى انتظار مدرسـة الفنون الجميلة ، تهوّن عن نفسى ما لقيته . ولو كنت قد قصـدت باريس لأتنزه لهربت من أوّل ليـلة . لأن أساتذتنـا بالقاهرة كانوا دائمـا يحدّثوننا عن باريس حتى فتنا بباريس .

أما مدرسـة الفنون الجميلة العالية التى كنت أقصـدها هناك فنظامها كنظام الأزهر هنا عبارة عن (ateliers) ورش فنية يتولى كل ورشة منها أستاذ فكأنها أروقة وهؤلاء الأساتذة شيوخها . فيتصـل التلميذ بأحد هـذه الأقسام ويرتبط اسمه طول حيـاته باسم أستاذه رئيس قسمه . وكان أستاذى هو المسيو كوتان (Cotan) عضو المجمع العلمى ومن كبار المثالين ومن أعمـاله أحد أعمدة جسر اسكندر الثالث .

وكان معى ثلاثة خطابات توصـية : أوّلهـا من ناظر المدرسـة بالقاهرة الى المسـيو كوتان الذى كان عارفا بحضورى . والثـانى : من الأمير يوسف كمال الى مصوّر تركى يعرفه اسمه "غالب بك" . والثالث : من سكرتير المدرسة الى عثمان باشا غالب .

أما أصحاب الفنـدق فكانوا فى الصباح غاية فى اللطف وسألونى عن منامى ، كالعادات الفرنسية ، وسألتهم عن عنوان أستاذى وذهبت اليه فكان اللقاء حسنا جدّا وكان يسكن فيـلا وهو رجل طويل منيف فى الرجال كان له أكبر تأثير فى نفسى . وعرضت عليه صور أعمالى فى المدرسة فأسدى إلىّ نصائح فهمت بعضها ولم أفهم البعض الآخر . ولمـا كنت قد وصلت فى إجازة الصيف فقـد نصحنى

بالذهاب الى أكاديمى من أكاديميات الفنون الحرّة أعمل فيها حتى تفتح المدرسة أبوابها وكتب الى المدرسة بقبولى وهو شرط لدخولها لا بدّ منه . وذهبت الى غالب بك المصوّر التركى فلم تكن لمقابلته نتيجة تستحق الذكر .

وبعد ذلك سرت فى الطرقات فكأن الله قد أراد بى أن أبقى فى دروب ضيقة وشوارع صغيرة لأن كل من عرفتهم كانوا حول مسكنى الصغير .

وذهبت للغداء عند بائع نبيذ وكانت حانات النبيذ تقدّم عندئذ الغذاء وهى مطاعم صغيرة بوهيمية أكثر زبائنها من العمال المبيضين . ويكتبون عادة أصنافها على الباب بالطباشير والمناضد من الرخام والكراسى من القش بغير مسند . فأكلت صحنين من المكرونة ... وذلك لأنه لم تكن لى الشجاعة الكافية للذهاب الى مطعم نظيف وجيه .

وبعد الظهر ابتدأ شعورى يتحسن عن باريس لأنى خرجت إذ شجعنى أصحاب الفندق على المسير فى الطرقات الجميلة ، وكان أول شارع بدهنى هو "بولفار رسباى" فبهرت من جماله . وقصدت أكاديمى "كولاروسى" وهى من أقدم الأكاديميات ولم أكن متعوّدا بعد على الحياة البوهيمية لأنى استأت من قدم البيت وعدم وجاهته وكنت لم أدرك بعد معنى الفنّ للفنّ .

وقضيت بقية النهار حول "البون مارشيه" وأعجبت بعظمة المتجر كما راعتنى لوكاندة لوتسيا وكانت يومئذ حديثة البناء . وذهبت للنوم مبكرا لأخلص من يومى !

وفى اليوم التالى وجدت فى قائمتى اسم « ڤرساى » فزعمت أنها جزء من باريس فسألت أصحاب الفندق عنها ، وكانوا مكتب استعلاماتى ، فوصفوا لى السفر إليها وأوصونى إذا ضللت الطريق أن أسأل دائما رجال البوليس . ورحت الى محطة "مونبارناس" ومنها الى ڤرساى . واطمأننت الى الشرطة وجعلت أسألهم كلما احتجت اليهم . وكان لڤرساى أعظم الأثر فى نفسى ، كان له أشدّ التأثير الذى لا مزيد بعده . واستغرقت زيارتها نهارى كله و بدأت آكل فى مطاعم أنظف وأرقى ، فيها فوط وعلى مناضدها مفارش وما الى ذلك .

وفى اليوم الثالث قصدت أكاديمى الفنون الحرّة فوجدت فيها من كل الأمم. وأعجبتنى فتاة "موديل" وكانت فى نظرى إذ ذاك جميلة جدا . بل أعتقد أنها كانت كذلك فعلا . فضربت لها موعدا إلى ما بعد الظهر لآخذها الى مشغلى (Mon atelier) فلما جاءت صارحتها بأنه ليس لى ورشة، وأننى حديث القدوم الى باريس . وسألتها هل ترضى بالتنزه معى و إظهارى على محاسن باريس فقبلت عن طيبة خاطر . فركبنا مركبة خرجت بنا الى الشانزليزيه واللوڤر والتويلرى والانقاليد وكل روائع باريس، وهى الى جانبى حسناء شائقة فنانة مؤاتية تفهمنى عن كل شيء بمعرفة ومقدرة وتروى لى جزءا من التاريخ ... وكانت هى متحفظة وكنت ذا حياء شديد ... فرأيت على وجه البراءة أجمل نواحى باريس ...

هذا هو لقائى بباريس .

مختار



طلبة الفنون الجميلة يعدّون ألعاب مواكبهم

وصول الطالب الصغير

باريس ! ...

تلألأت باريس أمام ناظرى وأرسلت أشعتها السارة المبهجة الى قلبي من خلال نوافذها المفتوحة وخيـل الى أن " الأوديون " نفسه يومئ الى أنسا ورقة ووددا كما لاح لى أن تماثيـل الملكات المرمرية المنصوبة فى حدائق اللكسمبورج تحنى الهام فى دلال ورشاقة ترحيبا بمقدمى .

الفونس دوديه



حديقة اللكسمبورج وقصر مجلس الشيوخ

ذكريات

الوصول إلى باريس

سرنا إلى جانب السون بعد أن غادرنا ليون فى طريقنا إلى باريس ... ... كان القطار ينهب بنا الأرض ونحن ننهب الساعات أو هى الساعات تنهبنا لست أعرف على التحقيق الا إشراق هذا اليوم المشمس الطائر. وحين اقتربت العشية أخذنا طريقا جديدا بين أزهار عطرة، ونباتات تسكب على الوجود من بهجتها وحياتها، ونحن مسرورون مبتهجون سابحون كأنا فى حلم لذيذ بعيدا عن الدنيا . وصلنا إلى باريس العظيمة ... وسرعان ما أخذنا نقطع شوارع باريس فى سيارتنا نقرأ بين كل لحظة وأخرى اسما لشارع عرفناه بما قرأناه عنه من كتب . لقد كان الأمس كما لو قابل الانسان صديقا قديما حين قرأنا فى ركن الطريق " شارع ريفولى " وقد تعرّفنا فى الحال على قصر اللوفر المفرد إذ كنا قد عرفنا صورته، وحين مررنا بعمود بوليه لم نحتج إلى مرشد ليشرح لنا ما هو ذلك العمود ولا انه كان يواجه فى وقت ما سجن الباستيل ذلك القبر الضخم الذى كانت تدفن فيه آمال الانسانية وسعادتها، ذلك السجن اللعين الذى أودت محابسه بكثرة من الأوجه الصبيوحة نخطت عليها تجاعيد السنين، هذا المحبس الذى بدل من النفوس المتكبرة نفوسا ذليلة ومن القلوب القوية الجبارة هشيما تلعب به هبات الريح ... ...

ذهبنا الى مطعم عقب إنارة الشوارع حيث تناولنا عشاء طيبا، مرضيا منعشا. أجل . إنه لمن المنعش حقا أن يأكل الانسان فى وسط كهذا كل مافيه منظم، طعامه جيد الطبخ، وخدمه مؤدبون، والجماعة الذين يدخلون ويخرجون منه ذوو شوارب مقصوصة، ذوو منظر مرعب مفرح، عجيب، فرنسى ... ... كل ماحول الانسان بهيج يبعث فيه النشاط الذى يساعده على معاونة أصحاب المطعم فى كسب مقدار من النقود غير قليل ... ... وكان الحاضرون يناهزون المائتين جالسين الى أخونة صغيرة الى جانب الحوائط يعبون فى النبيذ أو يحتسون القهوة وكانت الشوارع

فى الخارج غاصة بالعربات الخفيفة والناس سائرين فى خفة ورشاقة كأنما هم يرقصون. لقد كان الهواء يهب فى انتظام وتؤدة كأنه يحمل أنغاما موسيقية ترقص كل ما يحيط بالمرء حتى لينسى هو نفسه ويشارك باريس فى رقصها وغنائها وقد يوغل فى نسيانه فيسارع الى مخاصرة عربة أو عربات ! ...

وبعد العشاء شعرنا كأنما استحالت عيوننا عيونا باريسية فسوف نقفز فى الشوارع والميادين لنطالع واجهات المحال التجارية فى كل مكان ونتفرج على ما يعرض فيها مهما كان صغيرا تافها ...

ولذ لنا أن نصارع الباريسيين وأن نستفز أعصابهم فأخذنا نلق على من حولنا منهم أسئلة من لا يفهمون شيئا مطلقا فى العالم ، كل ذلك فى لغة فرنسية محطمة حتى لينسى الفرنسيون أننا ضيوفهم فيبدءوا بمشاجرتنا ولكن ليس بالعصى أو غيرها بل بتصليح الأفعال وأسماء المفاعيل ونحن مانزال على جهلنا الخبيث ... ...

ثم طاب لنا أن نشير اليهم اشارة من يرغبون فى لعب البليارد وكان ذلك . على أن هذه الأشواط كانت سيئة الحظ إذ لعبت بكرات أبعد ما تكون عن التكوّر وعلى منضدة هى لعمرى أكثر نعومة من أفاريز الشوارع وبأشياء كان يطلق عليها فيما مضى عصى . وقد أخذت الكرات تلق على الواقفين درسا فى الزوايا والانحراف قبل أن يسعدهم الحظ برؤية مثله ... ...

ثم عرجنا على أحد المقاهى المنتشرة بين شوارع عاصمة فرنسا وتعشينا بعد أن أخذنا مقادير غير قليلة من النبيذ الأهلى المحبوب ولكنا وجدناه غير مؤذ أو مهيج ، ... وعلى كل فقد رأينا أن من الواجب أن ننهى يومنا الأول فى باريس على وجه مرض فتحسسنا غرفنا فى فندق اللوڤر الكبير حيث تسلقنا بعد عناء وبعد معاونة النبيذ الفرنسى اللذيذ، تسلقنا أسرتنا محاولين أن ننام لكن فكرة وجودنا فى باريس

— باريس العظيمة الشهيرة مضرب الأمثال — أخذت تدور فى رءوسنا المتعبة وتختلط بأنفاس النبيذ وغاراته حتى أننا أخذنا ننزل مرة أخرى من الفرش لنسأل بعضنا بعضا : أحقًّا نحن فى باريس ؟ ...

ولما أكد كل واحد منا لزميله أنه فى باريس وان كنا جميعا أجهل من بعضنا البعض فى هذا، بفضل النبيذ، تسلقنا مرة أخرى أسرّتنا ورحنا فى تلك الاغماءة الطويلة الحافلة بالرؤى والأسرار التى يسميها الناس : النعاس ...

مارك توين



مستودعات «نيكولا» المشهورة للنبيذ وفى كل شارع مستودع منها

الوصــــول إلى باريس

سمـــــة العلمـــاء



وصلنا إلى باريس أوّل ما وصلنا إليها فى شهر سبتمبر من ســنة ١٩٠٨ أعضاء فى بعثــة الجامعة المصرية الأولى ، وكان حضرة صاحب السعادة أحمـد زكى باشا سكرتير الجامعة العـام فزوّدنا فيما زوّدنا به بعنوان العــلامة " ماسبرو " مدير الآثار المصرية وأحد أعضاء مجلس إدارة الجامعة الأول ، وأوصانا بأن نقصد إلى زيارته بمجرّد وصولنـا إلى باريس ففعلنا وزرنا الرجل فى منزله بالحى اللاتينى ثم تفضـــل فضرب لنا موعدا لمقابلته بدار المجمع العلمى الفرنسى — مجمع الأكاديميات كلها — ليقدّمنا هناك إلى " أمراء العلم " وذهبنا ودخلنا لأوّل مرة فى حياتنا ذلك الهيكل المقدّس تقديسا عالميا ووقفنا فى بهو طابقه الأوّل ننتظر وصول مسيو " ماسبرو " أو ظهوره داخلا أو خارجا خــلال باب من الأبواب العديدة المطــلة على البهو . وتمثلت نفسى ، وتمثلت إخوانى الثلاثة معى كأولئك القرويين الذين يحضرون إلى دواوين الحكومة فى القاهرة وينظرون إلى مبانيها وتنسيقها فيجدون فيها كل شىء عجبــا ويقفون مبهوتين . وهكذا كنا نحن الذين تبعثهم الجامعة المصرية للتخصص فى بعض نواحى العلم العالى بباريس وقفنا ننتظر علامتنا فكانت الأبواب المطلة على البهو تفتح فيدخل منها شيخ وقور نال منه الشيب فزاده وقارا فى بذلة خضراء تتدلى على صدره سلسلة من المعدن الأبيض فيقول قائلنا "أنظروا كيف يسير العلم فى تؤدة . شاهدوا كيف يحنى العلم الظهور . لاحظوا فعل كثرة الاطلاع فى العيون" ثم يدخل

شيخ وقور آخر ويسعل سعلة فيها شيء من (البلغم) فيقول قائلنا "إنها كحة العلم فأنصتوا لها وأنه بلغم العلم فاحترموه" ثم يقف فى البهو رجل فى زى العاديين من الرجال يسير بعض الشيء يمنة ويسرة فلا تحسبه شيئا مذكورا ويتولاه أحدنا "بالتنكيت" فيلاحظ أن حذاءه هو من نوع الأحذية "العجيبة" التى يعلن عنها فى أحد دكاكين الحى اللاتينى بأن ثمنها تسعة فرنكات وخمسة وتسعون سنتيما .

ثم إذا بباب كبير يفتح وإذا بشيوخ ينسابون الى البهو وإذا بعلامتنا "ماسبرو" بينهم فنتقدم إليه وإذا بنا نرى عجبا . نرى ذينك الشيخين الوقورين اللذين كنا نتغزل فيما فعله العلم بهما قد أمسك كل منهما بقبضة باب يفتحه ويغلقه لتسهيل المرور منه على أعضاء المجمع وزائريه، وإذا بذلك الرجل العادى ذى الحذاء "العجيب" الذى يقل ثمنه عن العشرة فرنكات إذا به مسيو "الفرد كروازى" لا أقل ولا أكثر . مسيو "الفرد كروازى" عميد كلية الآداب بجامعة باريس ... فعلمنا إذا أن العلم عند أولئك القوم لا هو بالشعلة ولا هو بالتؤدة وإنما هو بالتواضع الصحيح .

محمود عزمى



المسيو شارلتى عميد جامعة باريس

الى باريس

... كانت حلوة لذيذة تلك الأيام السعيدة بين بور سعيد ونابولى آخر سنة ١٩١٥ ألم أكن قد وفقت الى العودة الى فرنسا حيث باريس وحيث السوربون وحيث استئناف الدراسة وتحقيق الأمانى . وحيث تلك التى لم تكن قد جاوزت العشرين من عمرها والتى فارقتنى فى مونبيليه أول الصيف على أن نلتقى فى باريس اذا أقبل الشتاء . والتى عرفت عودتى الى مصر واشفاق من البقاء فيها فكتبت الى وضمنت كتابها وردة من ورد فرنسا ما أزال أحفظها الى الآن . أكان ما أضمر لها فى قلبى حبا أم كان مودة خالصة أم كان شيئا بين ذلك لم أكن أتبينه حينئذ وانما تبينته بعد ذلك بشهرين كاملين . كانت حلوة لذيذة تلك الأيام بين بورسعيد ونابولى وكان أحلى منها وألذ ذلك اليوم الذى وصلنا فيه الى نابولى، بل تلك الساعة التى أسرعت فيها الى مكتب البريد فوجدت فيه كتابين قرأهما على صاحبى مرة ومرة . فلما طلبت اليه القراءة الثالثة — قال فى شيء من اللطف والسخرية لعلك تنسى أن القطار يسافر فى الساعة الثالثة وأن من الحق أن نسافر ولما نطوف قليلا فى هذه المدينة التى لم نرها قبل اليوم ولعلنا لا نراها بعد اليوم . وكان أحلى من ذلك وألذ ذلك اليوم الذى وصلت فيه الى باريس بل تلك الساعة التى طرق فيها باب غرفتى . ثم فتح على شخص فصافحنى فى قوة ومودة وصراحة وجلس الى ساعة يسألنى وأسأله ويجيبنى وأجيبه . فما افترقنا منذئذ يوما ولا ساعة ولا بعض ساعة الا أحسست - شهد الله — فى نفسى ألم الفراق وشوقا الى اللقاء .

طه حسين

الوحشـــة الأولى

الوصــول الى باريس

ركبنا القطار من برلين ظهرا قاصـدين باريس بلد العواطف والجمـال والعلم والعرفان والحقيقة والخيال فوصلناها صبيحة اليوم التـالى . قضينا الليـل فى تلك الغرف الخشبية وحاولنا النوم مرارا فـلم نفلح فمكثنا نتجاذب أطراف الحديث الى أن لاح الصباح وما أجمـل انبعاث النور على تلك الأراضى الخضراء ... أما السماء فكانت متلبدة بالغيوم ثم بكت عين السماء قليلا فشعرنا بوحشة وانقباض ولبثنا واجمين لا ننطق ببنت شـفة ننظر لتلك القصور القـديمة التى كنا نراها من نافذة القطار . قصور شاهقة قائمة فوق تلال خضراء عليها مسحة من القـدم دعتنا لأن نذكر العهد القديم أيام كانت فرنسا مقر الأرستقراطية ومهبط الملكية .

ثم أمطرتنا السماء مدرارا فرأينـا باريس من بعيـد كأنها تستقبلنا وكم استقبلت باريس الغرباء من قبل ثم وصل بنا القطار الى محطة الشمال فنزلنا منه بعد أن نادينا حمـالا أتانا وهو يترنح فى مشيته غير عابئ بنا ثم قال لنا وهو ينظر الينا نظرة النـد الى نـــده .

— "أى فندق تقصدون ؟" فقلنا "فنـدق الكونتنتال شارع جراند بلفار" فهز رأسه وابتسم ابتسامة الساخر وقال "ليس فنـدق الكونتنتال فى شارع جراند بلفار يا صـديق" وحمل أمتعتنا فسرنا خلفه الى أن وصلنا الى سـيارة وضعنا فيها أحمالنا وركبناها الى فندق الكونتنتال .

جال بخاطرى وأنا جالس فى السـيارة مع والدى خواطر ثلاثة : الأول أنى رأيت فى الباريسيين وجوها ليست بالغريبة عن وجوه الشعوب اللاتينية التى يعيش كثير من أفرادها تحت سماء بلادنا . والثانى أنى شعرت بالفرق الهائل بين الشعب الألمـانى والفرنسى فالأول شعب أرستقراطى والثانى شعب ديموقراطى ففى ألمـانيا ترى الخـدم يلبون إشارة السيد طائعين كالعبيد وفى فرنسا تجـد الحمالين يعاملونك

معاملة النظير وما أجمل أن يشعر جميع أفراد الشعب بكرامة أنفسهم . والثالث أنى لم أجد باريس تستهوى الأفئدة وتأسر القلوب فأين جمالها الذى كانت تتوق نفسى لرؤيته ؟ لقد كنت أظنها بلدة أديمها من فضة وحجارتها من ذهب فاذا بها بلدة من البلاد بل هى كالقاهرة اذا نظرت اليها من فوق جبل المقطم بمنظار معظم ولكنى لا أكتم القارئ أنى بعد أن وقفت على جمال باريس الحقيق وعرفت كيف تقضى الحياة فيها أحببت تلك البلدة كثيرا وعرفت ما بينها وبين بلادنا الشرقية من الفرق الكبير . لهـذا أنصح لكل سائح أن لا يفد الى باريس فى الصباح فى ساعة تسيل فيها دموع السماء .

سارت بنا السيارة الى أن وصلنا الى الفندق ثم صعدنا الى غرفتنا وأخذنا فى إصلاح شئوننا ثم نزلنا بعـد ذلك الى غرفة الطعام لتناول غذائنا ونحن لابسون طرابيشنا فكنا موضع أنظار الآكلين . وفى عصر ذلك اليوم خرجنا للتنزه فى غاب بولونيا فركبنا سيارة أخرى وجلس خادمنا المصرى بجوار السائق ثم مالبثنا قليلا حتى تحادثا وطال حديثهما فأخذ منا العجب كل مأخذ سائق باريسى لا يعرف العربيـة يحادث خادما مصريا يجهل الافرنسية ! ألا يدعو ذلك للدهشة والعجب ؟ وعند عودتنا سألنا الخادم عن حقيقة الأمر فقال لنا أن السائق قضى فى مصر عدة سنوات وأنه يتقن المصرية فقلت لنفسى وقد أخذتنى هزة الطرب " بلادنا يؤمها البارزيون أيضا " ولكنى ما لبثت أن انقلب سرورى الى حزن وهم بعد أن أدركت أن من يؤم بلادنا ليشاهد جمال أثارها ويتمتع بصفاء سمائها أقل عددا ممن يفـد اليها سعيا وراء الرزق ليزاحم أهلها فيما هو حق لهم . ثم تناولنا عشاءنا وصعدنا لغرفتنا ونمنا ملأ جفوننا وفى الصباح استيقظنا مبكرين وأخذنا وجهتنا محطة ليون وهناك ودعنى والدى وركب القطار الى مرسيليا وتركنى فى باريس وحيدا فريدا .

رجعت من المحطة الى الفندق وأنا شارد اللب رأيت نفسى غريقا فى بحر يموج بالناس فدخلت الى غرفتى ونظرت من النافذة ومرت بخيالى صور مصرية عديدة . تذكرت سريرى الذى لا يحلو النوم لعينى فى غيره وتذكرت دارنا التى فيها نشأت

وشارعنا الذى كنت ألعب فيه مع الأطفال وأنا طفل صغير . وتذكرت أهلى وإخوانى وما حدث لى فى مصر من الحوادث صغيرة أو كبيرة، كل هذا رأيته بعين الخيال وأنا أنظر من نافذة الفندق الى تلك السماء السوداء وذلك الخضم المائج بالناس والمركبات والسيارات . ثم أطلقت زفرة من بين الجوانح وأرسلت دمعة خطت على الخد ما فى القلب من هم وألم . ولكنى نشطت من عقالى دفعة واحدة وقلت لنفسى "علام هذا الضعف، لقد جئت هذا البلد لأتعلم ففى هذا البلد تتثبت أقدامى" ثم نظرت الى ساعتى فرأيت أنى قضيت فى باريس أربعا وعشرين ساعة فقلت "لقد مضى اليوم الأوّل دون أن أفعل شيئا يذكر" وغادرت الفندق لأبحث لى عن أسرة أعيش معها .

محمد تيمور



نموذج التجديد العصرى لمحل تجارى باريسى



شارع

حديقة التويلري
وقصر اللوفر

ميدان





ســـــر باريس

أصعد الى أحد المرتفعات الغربية المشرفة على باريس وليكن تل ڤاليريان العظيم الذى يجمع حوله ذكريات عديدة من عهد سانت جنڤياف الى الحرب الكبرى ثم انظر ناحية الشرق تقع عيناك على مشهد رائع جميل .

وليكن صعودك فى يوم من أيام الخريف صافى الأديم والهواء يهب عليلا بعد نزول المطر والسحب الخفيفة تجرى مسرعة ممسكا بعضها من الذعر بعضا ... عندئذ ترى المدينة كلها أمامك فيتملكك شعور لا يماثله شعور آخر من المشاعر التى تثيرها فى نفسك رؤية منظر من المناظر المعروفة . ولا عجب فالعين تقع على مشهد فريد فى روعته وجماله لا يرى فى الشمال ولا فى الجنوب، مشهد ليس فيه الشيء الكثير من المناظر المسرحية الزائفة ولا العظمة الروائية الخادعة ، مشهد أشفق الكثيرون على أنفسهم من وصفه لما عرفوا باريس حق المعرفة فشغلتهم عن سر محاسنه وملكت عليهم حواسهم ومشاعرهم بأهلها وتاريخها وحياتها المكنونة .

أجل ... أنظر من هذا العلو الشاهق لترى حصون باريس وقلاعها على بعد ميلين وترى المدينة نفسها تحت قدميك بقصورها وبساتينها وميادينها وقد انبسطت أمامك فى صعيد واحد اللهم إلا من ناحية الشمال حيث تشرف قمة مونمارتر على المدينة وكأنها تتناجى مع تل ڤاليريان .

تملأ الساحة التى تراها أمامك العين والعقل ومع ذلك فهى ليست واسعة الأرجاء لأنك لا تشاهد ، حتى فى أشد الأيام صحوا ، غير المرتفعات القائمة خلفها من ناحية الشرق والحقول والضواحى فى الشمال والتلال من جهة الجنوب .

لا تخيم سحب الدخان فى جو باريس كما تخيم فى غيرها من مدن الشمال فى أوربا لأن الصناعة ولا سيما الصناعة الحديثة لم تكن العامل الفعال فى رقيها ونموها ولا التجارة هى التى خلقتها بل ليس ثمت نظرية أو فكرة عن أحوالها يمكن أن تهديك الى مكنون سرها أو تحل لك لغز نموها وجمالها . فلا تصورات الناظر اليها هى التى تعطيها وحدتها ولا انفعالات الغريب عند دخولها هى التى تكسبها كيانها . بل باريس نفسها القائمة فى ظلال تلالها القديمة التى رعتها وسهرت عليها منذ الأزل هى التى تشعرك بشخصيتها الرائعة وروحها الحية . ولا أقول هذا القول من باب المجاز

أو الاستعارة بل هى حقيقة ملموسة مثلها فى ذلك مثـل روما ولو أن لباريس كيانا خاصا بها وروحا ممتازة .

فصوت باريس ليس وهما من الأوهام الفكرية بل هو بالعكس يشـبه صوت رجل أعجمى مقلق يطن فى أذنيـك باستمرار . أما حياتهـا مجتمعة فليست أقوالا مقتبسـة من كتب ولا هى بكلمات منقولة عن آخرين بل هى مجموعة من العصور القديمة والوسطى اتحدت كلها أمام ناظريك . وفوق هذا وذاك ترى أمامك جسما حيا لا تحتاج معه الى تذكر ما تعلمته فى صبـاك ولا الى تمثـل الذكريات القديمة عن أشياء مرت بك .

أما الشعور الذى يتملكك عند رؤية معالم باريس الأثرية فليس له نصيب كبير بين مظاهرها الأولى وان يكن هـذا الشعور نفسه سيتخذ مركزه الصحيح فيما بعد بين مشاعرك العديدة الأخرى . بيد أن المدينـة كما تراها تعيد التاريخ الى الذاكرة وتحدثك عنـه بصوت حى فماضيها على طوله وروعتـه لا يزال ماثلا للعيان لأن فيها غريزة النشاط والقوّة والتجدّد ولأنك تشعر نحوها بشعورك نحو فتى جرىء مقدام شغوف بالمخاطر والأهوال وهذا الشعور ليس مصدره روح الاهتمام الهادئة بذكريات العصـور الغابرة ولا بالذكريات السعيدة لحوادث مضت وانطوت وان تكن هـذه الذكريات نفسها التراث الغالى لكثير من مدن العالم المشهورة .

فمن أين جاء هـذا الشعور ياترى وما سر مصدره ولمـاذا تتجلى أمامنا فى هذه الساحة الواسعة وحدة التصوير التى لا تقتصر على حى واحد بل تتناول المجموع وتقوم الأدلة الناطقة على وجود هذه الروح المبدعة؟ فلا هم الأغنياء الذين يشيدون قصورهم الفخمة فى الحى الخاص بهم ولا هم رجال الدولة يقفون الثروة العامة على تجميل المنشئات العمومية وانما هى باريس التى تبدع فى زينتها وتتفنن فى إبداعها وتعمل لتحقيق أحلامها من كل ناحية وجانب نعم هى باريس التى تجرى وراء هواها وتلهو وتعبث ما طاب لها اللهو والعبث .

أجل إن المرء ليفوز بجزائه الحسن وزيادة اذا هو متع ناظريه بهذا المشهد الرائع الجميل من فوق قمة تل ڤالريان بل إنه لجدير بكل من يذكر باريس أن يذكر معها قول ميرابو المأثور : " إن باريس هى أبو الهول فلا أنتزعن سرها من صدرها " .

ولكن ميرابو فى هذا لم يفلح ولن يفلح سواه .

هلير بيلوك

يوم فى باريس

بقلم الأستاذ الدكتور طه حسين



فى أقل من خمس دقائق تغير شكل غرفتنا الصغيرة فزالت عن المائدة أطباقها وأكوابها وتبدلت من غطائها الناصع الرقيق غطاء قاتما غليظا ، وصفت عليها أقداح وكؤوس وضع فى وسطها إبريق القهوة يصاعد منه بخار أرج ، وقامت الى جانبه زجاجة رشيقة تشف عن سر من أسرار الحياة والنشاط . وعدنا نحن فاجتمعنا حول المائدة منا من يدخن ، ومنا من أخذت كتابا ، ومنا من أخذت عملا من أعمال اليد . ثم نهضت ربة البيت فدارت علينا بإبريقها الحار وزجاجتها الرشيقة . فمنا من آثر شراب الشرق ، ومنا من آثر شراب الغرب ، ومنا من آثر الجمع بين القهوتين . واستأنفت صاحبة الكتاب قراءتها لنا حيث انتهت بنا أمس . وعكفت صاحبة التطريز على تطريزها . وعلق الرجال منا نفوسهم بين صوت القارئة واحتساء القهوة وتدخين السيجارة .

وكذلك كنا نستريح فى باريس من النهار ، قد أنفقناه فى العمل والدرس حتى اذا أقبل الليل وفرغنا من العشاء رفهنا على أنفسنا بالقراءة والحديث وربما أصبنا حظا من الغناء . وكانت أحاديثنا تختلف وتتباين ويبعد بعضها عن بعض ، ولكنها لا تلبث أن تلتقى وتأتلف وتنتهى الى موضوع واحد كانت تنتهى اليه دائما أحاديث أهل باريس ، بل أحاديث أهل فرنسا ، بل أحاديث الأوربيين ، بل أحاديث الناس جميعا ، وهو الحرب .

وكنا نختصم فيما أثار الحرب من أسباب ، وفيما ستحدث الحرب من آثار ، وفيمن تقع عليه تبعة الحرب ، وفيمن ستكون له عاقبتها . وكنا من العقل والحكمة والتواضع بحيث نتجنب دائما تفسير البلاغات الرسمية وتعليل ما كان يصل الينا من أنباء القتال . وقد قضينا فى ذلك المساء ساعات كتلك الساعات التى كنا نقضيها كل مساء . سمعنا ما قرأت لنا صاحبة الكتاب من شعر هنرى دى رينيه ، وتحدثنا عن الحرب وضحكنا من بعض الأغانى التى كانت تروى عن الجند ، ثم نهضنا وقد تقدم الليل فآوى كل منا الى غرفته . وما هى إلا لحظات قصار حتى هدأ البيت وأطفئت الأنوار ، وسكن كل صوت ، واستسلم كل واحد منا إلى النوم المريح .

وما كان أسرع النوم الينا تلك الليلة فقد استيقظنا دهشين أول الأمر ، ثم استحال الدهش الى قلق ، ثم استحال القلق الى تردد شديد ، ثم نظرنا فاذا نحن لم نمض فى أسرتنا أكثر من نصف ساعة حتى أيقظنا صفير الروع ونذير الخطر هذا الذى كان يرتفع فى جو باريس فيمزقه تمزيقا اذا دنت منها طيارات العدو تحمل اليها الموت . وكنا مترددين أنهبط الى أسفل الدار حيث النفق الذى يجب أن نفزع اليه كلما سمعنا النذير ، أم نبقى حيث نحن لعل نذير الخوف أن يكون كاذبا ولعل هذه النبأة أن تكون وهما ، ولعل جيش الدفاع الذى كان يرابط فى جو باريس وعلى أرضها أن يرد الغارة قبل أن تتمكن من إمطار الموت على المدينة . وكنا نتنادى من أسرتنا ومن وراء الأبواب التى تحجب بعضنا عن بعض . فكان منا الرجل الذى يؤثر الهبوط وكان منا الجرىء الذى يكره الانسلال من سريره . وفيما نحن فى هذا التشاور اذا أزيز قريب منا نسمعه فنصغى . واذا هذا الأزيز يتصل ثم تقطعه طلقات سريعة يتبع بعضها بعضا واذا نحن لا نشك فى أنهما طائرتان تحتربان . والصفير دائب مزعج يمزق الجو ويوقظ أشد الناس إغراقا فى النوم ، ونحن مع ذلك نتشاور . يلح بعضنا فى الهبوط مشفقا وجلا ، ويلح بعضنا فى البقاء ساخرا مستهزءا . ثم ننسى أنفسنا لحظة ما أظنها تجاوزت دقيقة واحدة ، ثم نتنبه واذا نحن جميعا فى السلالم نهبط مسرعين يدفع بعضنا بعضا . واذا أهل الدار جميعا يفعلون كما نفعل ، تتفتح الأبواب ويخرج منها

الرجال والنساء والأطفال وهم يتدافعون فى صمت واذا نحن جميعا امام غرفة البوّابة قد التقينا على غير موعد واختلطنا فى غير نظام لا نقول شيئا ، ولا نفكر فى شيء وانما نتبع البوّابة وقد خرجت من غرفتها فى هدوء ثقيل ، ومضت أمامنا تلعن الألمان بصوت مرتفع ثابت مطمئن لولا اضطراب الشيخوخة وكثرة ما شربت من نبيذ قبل أن تنام . ثم تفتح لنا الباب وتهبط أمامنا بالمصباح ونتبعها نحن إلى قاع النفق مزدحمين متدافعين حتى ننتهى إليه . وإذا نحن نلتمس لأنفسنا المجالس والمواقف . وإذا نحن قد هدأنا بعد دقائق ، فمنا الجالس على الأرض ومنا الجالس على الحقائب ، ومنا القائم قد اعتمد على حائط . ثم يقص بعضنا على بعض نبأ هذا الهول الذى أزعجنا من مأوانا واستلنا من أسرتنا فى غير نظام ولا احتشام وجمعنا فى هذا القاع فى أشكال وأزياء نأبى أن نظهر عليها أحدا حتى الخدم وأشدّ الناس اتصالا بنا وأقلهم احتمالا للكلفة حين نلتقى كل يوم .

وأينا يعرف نبأ هذا الهول ، إنما هو دوى هائل كان أوسع من أسماعنا وأقوى من أعصابنا فلم تستطع آذاننا أن تحتويه ولا أن تشخصه ، ولم تستطع أعصابنا أن تثبت له أو تصبر عليه . سلب إرادتنا وتفكيرنا ومقاومتنا ودفعنا فى عنف إلى حيث نحن الآن . ثم ينقطع حديثنا بغتة كأنما سلط على ألسنتنا تيار من الكهرباء فعقدها عقدا ، أو شدّها شدّا ، ونفيق بعد لحظة قصيرة ، وقد استحى بعضنا من بعض ، واستخذى بعضنا لبعض ، وأحس كل منا ما يملأ قلبه وقلب أصحابه من الفرق حين يجدّ الجد ويقبل الروع . ذلك أنا كنا قد سمعنا هذا الدوى الهائل العريض مرة أخرى ، فانعقدت الألسنة وانخلعت القلوب ، ولصقت جسوم القاعدين بالأرض وجسوم القائمين بالجدران التى كانوا يستندون إليها أو يعتمدون عليها . فلما هدأ الدوى ولم تبق إلا أصوات الزجاج الذى يتحطم ثم يتطاير ثم يسقط على الأرض سكنت القلوب فى الصدور ، وانفتحت الشفاة وتحركت الألسنة فى الأفواه وأخذنا نلتمس عند الغريزة معاذير ما أظهرنا من ضعف وفرق وأخذنا نعجب بالجند المحاربين

الذين يحيون فى هذا الدوى العنيف حياة متصلة و يتعرّضون من آثاره المنكرة لموت ملح وشر غير مقطوع .

والصفير متصل يصعد فى الجو فيمزقه تمزيقا والأزيز متصل تقطعه من حين إلى حين هذه الطلقات السريعة التى كانت تبعث فى نفوسنا أمنا وخوفا فى وقت واحد . ونسمع الدوى مرة ومرة ومرة ، ولكنه بعيد منا يقطع المسافات الطوال والقصار قبل أن يصل إلينا . ونسمع فى الشارع صوت السيارات ووقع حوافر الخيل وصَياح الجند وهم يتنادون . ولكن روعنا قد هدأ شيئا فشيئا و إذا نحن نتحدّث فى سكون وطمأنينة . و إذا نحن نضيق بالبقاء فى هذا النفق . و إذا نحن نحس الحاجة إلى أسرتنا ، ونتنبه لما فى أشكالنا من نكر ، وما فى أزيائنا من غرابة ، فيكون الابتسام ، ثم الضحك ، ثم العبث ثم التندر على الألمان ، ثم الفكاهات تحكى عن الفرنسيين ، ثم نستعذب الحديث ونمضى فيه وننسى كل شىء إلا لذته وعذوبته . وقد رجعت الى العقول حدّتها ، و إلى البصائر نفاذها ، وإلى الأفئدة ذكاؤها . وإذا مجلسنا مجلس من هذه المجالس الفرنسية الآمنة الوداعة التى يزول فيها الحرج وتمحى فيها الكلفة وتطلق فيها النفوس على سجاياها . ثم نسمع سيارات تمرّ مسرعة وتتردّد منها فى الجوّ نغمات فيها فرح ومرح . فنعلم أن الغارة قد ردّت ، وأن الخطر قد زال ، وأن الصفو قد عاد الى سماء باريس وان كان الضباب فيها كثيفا . ونعلم أن هذه النغمات الفرحة التى تجوب أقطار المدينة انما هى دعوة جيش الدفاع لنا أن عودوا الى أسرتكم فأنتم آمنون .

هنالك ننهض خفافا وقد تقطعت أحاديثنا ووقفت جمل فى الأفواه ، وابتسامات على الشفاة ، ونحب أن نعرف فى أى جزء نحن من الليل فلا نجد علم ذلك إلا عند البوّابة لأنها وحدها قد احتفظت بما ينبغى من سكون القلب ، وهدوء البال ورباطة الجأش ، فلم تنس ساعتها . ونتفرق وقد تواعدنا أن نلتقى بعد ساعات إن عاد الخطر أو بعد يوم إن أشفق الألمان من العودة .

وكانت الساعة الثالثة قد انتهت حين استقرّ فى الدار كل شىء . فلما انتصفت الساعة الثامنة أقبلت صاحبتى ترافقنى الى السوربون ، فقصت علينا ما رأت

فى طريقها وعلمنا حينئذ أن الموت كان قد حلق فوق هذه الدار وطاف بها ونظر اليها نظرة الوامق ثم ارتد عنهـا وآثر أن ينزل فى مدرسة المناجم التى لا تبعد عنهـا إلا خطوات .

واضطرب الناس طوال اليوم فى حياتهـم العادية غير مروّعين ولا مذعورين ولكن أحاديثهـم عن هذه الزيارة المنكرة لم تنقطع . إنمـا كانت تتصل بألوان من السخط على الألمـان ، والعبث بهم ، والتندر بمـا يعرض للناس فى أوقات الخطر مما يخرجهم عن أطوارهم ويتجاوز بهم حدود الوقار . لم يعرض بائع عن بيعه ولا تاجر عن تجارته ولم يتخلف تلميذ عن مدرسـته ولا أستاذ عن درسه ، ولقد سمعت فى هذا اليوم دروسا عدّة فى السوربون وفى الكوليج دى فرانس . فمـا كان للطلاب حديث غير العلم ، وما كان للأساتذة حديث غير العلم ، وما كان لهذه الزيارة المهلكة ذكر ، وما كان عن هذا الموت الذى ألم بالباريسيين حديث .

كذلك كانت باريس أيام الحرب . وكذلك كانت باريس حين بلغت الحرب أشدّها ، وانتهت من العنف الى أقصاه ، وحين طمع الألمـان فى أن يقتحموا اليها الخطوط مرة أخرى ، وحين مدّ الألمـان اليها أيدى الموت دامية تنالها بالطيارات حين يجنّ الليل وبالمدافع البعيدة المرمى حين يتألق ضوء النهار .

ما أشدّ الفرق فى ظاهر الأمر بين باريس هذه ، وبين باريس تلك التى تبتسم للحياة وتتهالك على اللذات حتى كأنها ذوب من اللذات والنعيم ! نعم وما أشدّ الفرق فى ظاهر الأمر بين هاتين الصورتين من صور باريس ، وبين صورة أخرى لهـذه المدينـة لا تلهج فيها إلا عكوفا على العـلم وإلحاحا فى الدرس واستقصاء للبحث وانصرافا عن كل شيء إلا المعمل أو الكتاب ! نعم وما أشدّ الفرق فى ظاهر الأمر بين هذه الصور الثلاث لباريس ، وبين صور أخرى كثيرة مختلفة تنظر فى كل واحدة منها فلا تشك فى أنها تخالف غيرها أشدّ المخالفة ، وتستغرق باريس كلها أشدّ الاستغراق ! ما أشدّ الفرق بين هذه الصور كلها فى ظاهر الأمر . ولكن ما أيسر هذا الفرق وما أهونه وما أدناه الى أن يزول وينمحى حين تعرف حقيقة باريس .

فليست باريس هذه الأبنية القائمة والعمارات الشاهقة التى تختلف باختلاف ما يكون فيها من جدّ الجادين وجهد الجاهدين، وليست باريس هـذه الأضواء التى تخلط الليل بالنهـار، وليست باريس هذه الصناعات ولا هذه التجارة ولا هـذه الجامعة ولا هذه المدارس . وليست باريس دور اللهو والمجون ولا دور العمل المنتج والعناء الخصب . ليست باريس شيئا من هـذا . وليست باريس كل هـذا . وإنما باريس شيء فوق هذا كله ، أقدم من هذا كله وأطول بقاء من هذا كله . باريس شيء أنتج هـذا كله، وأنتج من قبل هذا شيئا يخالفه، وسينتج من بعد هـذا شيئا آخر يخالفه . إنمـا باريس هذا الهواء الذى يتنفسه الناس فى هذه الرقعة من الأرض فيبعث فيهم حياة مؤتلفة مختلفة متفقة مفترقة متقاربة متباينة فى وقت واحد .

كذلك كنت أفكر حين أذهب الى الدرس فلا أسمع إلا علما ولا أحس إلا نشاطا، وحين أمشى فى الشارع فأسمع من ألوان الجدّ والهزل ما تعوّدت أن أسمع وحين أجلس الى الطلاب، فاذا هم يتحدّثون عن دروسهم، أو عن أساتذتهم، أو عن رفيقاتهم فى الدرس، أو عما يقع فى ميادين الشرق والغرب، فاذا عرضوا لهذا الزائر البغيض الذى ألم بمدينتهم أمس مروا به كراما وتعدّوه الى غيره من ألوان الحديث . على حين كنت أجاهد نفسى أشدّ الجهاد لأخلص من التفكير فى تلك الليلة الطويلة الثقيلة ، وعلى حين كنت أجاهد نفسى جهادا شـديدا لأرد عنهـا فكرة الفرار من باريس الى مدينة من مدن الجنوب .

ثم دار الزمان دورته القصيرة واذا نحن نتفرق عن المـائدة ريثما تزال عنها الأطباق والأكواب ، وتبدّل من غطائها الناصع الرقيق غطاء قاتما غليظا ، ثم نعود إليها وقد صفت عليها أقداح وكؤوس وضع فى وسطها إبريق القهوة يصعد منه بخار أرِج ، وقامت الى جانبه زجاجة رشيقة تشف عن سر من أسرار الحياة والنشاط . وفتحت صاحبـة الكتاب كتابها . وعكفت صاحبـة التطريز على تطريزها . ونهضت ربة البيت فدارت علينـا بإبريقها وزجاجتها . فمنا من آثر شراب الشرق ، ومنا من آثر

شراب الغرب، ومنا من جمع بين القهوتين . واندفعت القارئة حيث وقفت بنا من شعر هنرى دى رنيـه ، ثم كان غناء ثم كان حديث ثم نهضنا لنتفرق . فقال قائل الى غد . قالت ربة البيت وهى تضحك : نعم الى غد إلا أن يجمعنا أو يفرقنا رسول الألمـان !

إنمـا يعرف باريس ويحبها حقا من رآها فى تلك الأيام .

طه حسين



تمثال : دفاع باريس ١٩١٤ — ١٩١٨

رأى أمير الشعراء

باريس

جَهْــدُ الصبابة ما أكابدُ فيــك ... لو كان ما قد ذقتُــه يكفيك

حتَّام هجــرانى وفــيم تجنُّبى ... وإلام بى ذُلُّ الهــوى يُغريك

قــد مُتُّ من ظمإٍ فلو سامحتِنى ... أن أشتهى ماءَ الحيــاة بفيــك

أجدُ المنــايا فى رضاك هى المُنَى ... ما ذا وراء الموتِ ما يُرضيــك

يا بنتَ مخضوب الصوارم والقنا ... برِئَتْ بنانُك من ســلاح أبيك

فخضابُ تلك من العيونِ وقايةٌ ... وخضابُ ذاك من الدم المسفوك

جفناك أيهما الجرىءُ على دمى ... بأبى هُمَا من قاتلٍ وشريك

بالسيف والسحرِ المُبينِ وبالطلى ... حمــلا علىَّ وبالقنــا المشبوك

بهما وبى سَقَمٌ ومن عجبِ الهوى ... عُدْوان منكسرٍ على مَنْهــوك

رِفقًــا بمسبلة الشــؤون قريحــةٍ ... تسلو عن الدنيا ولا تَسْــلوك

أبكيتهــا وقعــدتِ عن إنسانهــا ... يا للــرجال لمُغْــرَق مــتروك

ضلَّتْ كراها فى غياهبِ حالكٍ ... ضلَّ الصباحَ عليه صوتُ الديك

رقَّ النســيمُ على دُجاه لأنَّتى ... ورثى لحــالى فى السماء أخوك

قاسيتُه حتى انجلى بالصــبح عن ... سرِّى المصونِ ومَدْمَعى المهتُوك

سُلت سيوفُ الحىّ إلّا واحدًا ... إفــرِنْدُه فى جَفْنِــه يحميــك

جردته فى غــير حــقٍّ كالأُلى ... سَــلُّوا سيوفَهــمُ على أهليــك

ولقــد أقــولُ وأدمُعى منهــلَّةٌ ... (باريز) لم يعرفك من يغزوك

ما خِلتُ جناتِ النعيم ولا الدُّمى ... تُرْمَى بمشهودِ النهــار سَــفُوك

زعمــوكِ دارَ خلاعةٍ ومجــانةٍ ... ودعارة يا إفــكَ ما زعمــوك!

إن كنت للشهوات ريًّا فالعُلا ... شهواتهن مروَّياتٌ فيك

تَلِدين أعلامَ البيان كأنهم ... أصحابُ تيجانٍ ملوكُ أريك

فاضت على الأجيال حكمةُ شِعْرهم ... وتفجّرَت كالكوثر المعْروك

والعلمُ فى شرق البلاد وغربها ... ما حَجَّ طالبُه سوى ناديك

العصرُ أنتِ جمالُه وجلاله ... والركنُ من بنيانه المسْموك

أخذت لواءَ الحق عنك شعوبُه ... ومشت حضارتُه بنورِ بَنيك

وخزانةُ التاريخ ساعةَ عرْضها ... للفخر خيرُ كنوزها ما ضيك

ومن العجائب أن واديك الشَّرى (١) ... ومراتع الغزلان فى واديك

يا مكتبى قبلَ الشباب وملعبى ... ومقيلَ أيام الشباب النُّوك

ومراحَ لذاتى ومَغْداها على ... أُفُق بجنّات النعيم ضحُوك

وسماءَ وحْى الشعر من مُتدفقٍ ... سَلِسٍ على نَوْل السماء محُوك

لما احتملتُ لك الصنيعةَ لم أجد ... غيرَ القوافى ما به أجزيك

إن لم يَقُوك بكل نفسٍ حرةٍ ... فالله جلّ جلاله واقيك

شوقى

(١) الشرى : مأسدة بجانب الفرات يضرب بها المثل .



فى متحف جويمى

باريس فى عين الشباب



سبيل مدسيس

باريس... باريس الجميلة... بدور ملاهيها وكئأسها وموسيقاها وروزنقها وبهائها .

وقف الشاب " أ ... " وسط المدينة العظيمة حيث يشق النهر طريقه بين قصر مدسيس العتيق وقصر العدالة الجديد وقد أقيمت عليه القناطر تظللها أبراجها التاريخية . نهر تصطدم مياهه بأحجار الحوانيت فيسمع خريره مثل ثرثرة الطفل الصغير ، نهر لو كان قادرا على النطق لحدّثك بما شاهد فى حياته الطويلة من مآسى ومجون ، وموت وخطيئة ، وبغض وحب ، ومرح وأهوال . نهر يعيد الى رأس من عرف باريس عالما من الذكريات الرهيبة المروعة . نهر جرى دما فيما مضى من الأيام .

بدت باريس فى تلك الليلة غريبة فى عين " أ ... " الذى جاءها من "كويسنون" الهادئة مجتازا جانب التل الأخضر . ولم يأتها طامعا فى شوارعها الجميلة وقصورها الفخمة الرائعة وإنما جاءها لغرض معين ... جاءها ينشد استقلاله وحريته . جاءها ليحيي فى صدره روح الأقدام والرجاء والأمل . جاءها وقد تغذت نفسه بما قرأه من قصص رجال دخلوا باريس حفاة فى أطمار بالية لا يملكون غير دراهم معدودة هى كل ما ادخروا من عدّة ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع ثم لم يلبثوا أن صاروا بعد أعوام قليلة من ذوى الجاه والسلطان .

جاءها الفتى وكأس مطامعه مترعة يعتز بنفسه فى غير صلف ولا غرور ، يؤمن بشدّة مراسه إيمانا ثابتا لا يقوى على انتزاعه أحد لأنه إيمان فى صدر رجل نزل إلى ميدان الحياة فاتحا غازيا .

أطل " أ ... " من نافذته تلك الليلة فرأى المصابيح تلمع هنا وهناك فى الظلمة تحته ومعالم الطريق الخارجى أمامه ومن ورائه تلك البقعة الموحشة التى كانت تمتد فى ذلك العهد بين أطراف المدينة وحصونها تليها مقابر مونمارتر مهد الراحة والسكون وقد طواها الليل فى أكفانه .

أما باريس الحديثة فتختلف عن باريس التى شاهدها " أ ... " فى إحدى ليالى شهر نوفمبر من عام ١٨٥٠ فقد تحولت المدينة العتيقة الى أخرى حديثة بعد سبعة عشر عاما انقضت فى تحسينها وتجميلها وأنفقت فيها الأموال الطائلة ، فاخترقتها الشوارع الواسعة طولا وعرضا ، وشيدت فيها دور الملاهى والكنائس الرائعة الجميلة التى جمعت بين روعة المعابد فى القرون الوسطى وهيبة المقابر الهندية . وأقيمت القناطر الحديثة الغنية بنقوشها التى تشهد بانتصارات جيوشها ، وصارت مدينة القصور الشامخة والبساتين اليانعة والحدائق الغناء تمتد ضواحيها هنا وهناك ، وفيها المنازل السويسرية (شاليه) الصغيرة والفيلات الجميلة .

اشتهر العهد الامبراطورى بمظاهر الأبهة والعظمة وعمت دلائل الرخاء كل مكان فالحدائق الزاهرة والنافورات ترى فى أحياء الفقراء وأطلال باريس القديمة . وكان أعداء الأمبراطور يسخرون من هذه الجنان القائمة وسط الأقذار والأوساخ و يتذمرون قائلين ان الأموال الطائلة أنفقت على هذه المظاهر الزائفة ، وكان الأجدر بأصحابها أن ينفقوها على بناء المدارس الحرة ، ولكن باريس على الرغم من هذه الأحقاد كانت مثل وردة نضرة أزهرت وتفتحت أكمامها فى أشعة الشمس ، فمستشفياتها وجمعياتها الخيرية على اختلاف أنواعها بلغت حدّ الكمال وتناولت يد التجميل والإبداع جميع أحيائها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى خلقت خلقا جديداً وجاءتنا بباريس ذات القصور البيضاء الشامخة بشرفاتها البديعة وأروقتها الجميلة وأعمدتها الرشيقة وحدائقها المنضرة بالورود والأزهار التى تتكرر أمام ناظريك وتمتد الى ما لا نهاية . . باريس مدينة التهتك والخلاعة واللهو والتبذير والهلاك . . باريس التى تذوب فيها الثروات وتعتل الأجسام وتنهد القوى وتقبر العقول والشرف وزهرة الرجولة وتضيع الأديان . . ومع ذلك فهى عروس المدن ومنبع الهناء والفرح والنعيم !

برادون

الوطن الثانى

باريس

بقلم صاحب الهلال



عند ما انتهيت من الدراسة أراد والدى رحمه الله أن يكافئنى على ما بذلت من جهود فى سبيل الحصول على الشهادة فسألنى عما تصبو اليه نفسى فأجبت فورا : السفر الى باريس . فقد كانت باريس فى نظرى جماع المتع والمحاسن، وأى شاب لم يحلم بباريس ولم يتق الى زيارتها ؟

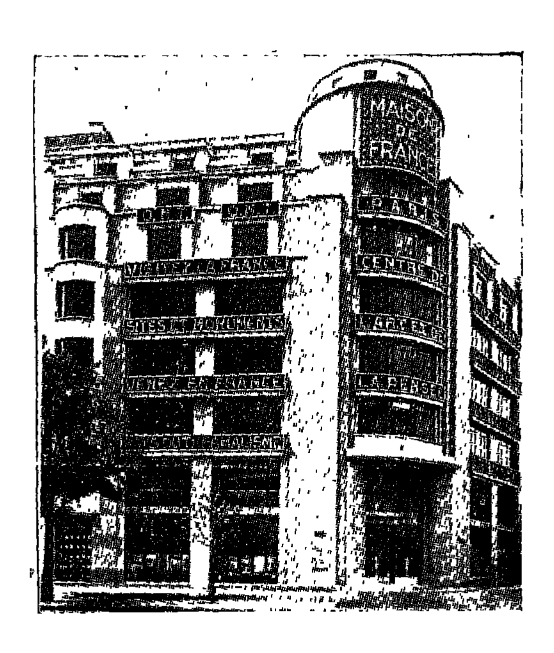
زرت اذن باريس فى تلك السنة — ١٩١٢ — للمرة الأولى ... ولكن أتدرى أى أثر تركت فى نفسى ؟ كانت لباريس فى مخيلتى صورة مثلى ، صورة جمعت من البهاء والرواء ما لا يمكن أن يحققه الواقع مهما حسن. فلما وطئت أرضها وجلت فى شوارعها اعترانى شيء من الخيبة. أهذه هى باريس التى حشوت ذهنى بسحرها وفتنتها؟ لقد توقعت أن أنزل مدينة "سماوية" يسكنها صنف من أشباه الملائكة واذا بى بين أناس كالناس ، وطرق كالطرق، ومنازل كالمنازل — اذا بى فى مدينة بشرية ليس فى مظاهرها ما يتفق وتلك الصورة التى صورها خيالى الساذج .

ولكنى زرت باريس بعدئذ غير مرة وعرفت كيف أفهمها وكيف أحبها . فلباريس نواح كثيرة بل هى عدّة مدن فى مدينة واحدة ... ففيها الجد واللعب ، والترف والشقاء ، والفضيلة والفساد ، والماضى والحاضر — فيها اجمل الجمال وأقبح القبح، فيها اسمى ما وصل اليه الانسان وأدنى ما هبط اليه .

واقد زرت — بعد باريس — معظم العواصم الأوربية فلم أجد فى واحدة منها ما وجدت فى باريس من الحيـاة الزاخرة فى جميـع مناحيهـا . على أنى حين أقول " باريس " فلست أعنى تلك الجهات التى يؤمها طالبو اللهو من الأجانب وانما أقصد باريس الحقيقية، باريس الصميمة التى يمر سواد السياح بجانبها ولا يكادون يرون شيئا من محاسنها .

فمن عرف باريس حق المعـرفة أحبها صادق الحب، بل عدّها بمنزلة الوطن الثـانى .

إميل زيدان



بيت فرنسا وقصر الدعاية لباريس
مركز الفن والفكر

روح باريس

المضنون بها على غير أهلها

... على أن مدام مارسيل تناير رفيقتنا فى القطار قد رأت حينما قاربنا باريس أن لا تترك فى خيال زوجى صورة وهمية من عاصمة فرنسا تجعلها حين تراها مدينة كالمدائن تشيح عنها بوجهها، وترى رحيلها اليها وما قطعت من بحار واقطار لهوا عبثا فذكرت لها أن باريس شوارع وطرقات ومنازل وعمارات، وان بها أحياء فقيرة كغيرها من المدن وكالقاهرة نفسها، وان الكثيرين الذين يحضرون لأول مرة اليها يظنون قبل نزولهم إياها أن مبانيها حجر من ذهب وحجر من فضة، وأن هواءها معطر بالورد وأنها بعض ما ورد فى ألف ليلة وليلة من مدائن الخيال . فاذا رأوا أن لا شىء من ذلك فيها أعرضوا عنها واعتزموا الانصراف الى غيرها . لكنهم ما يلبثون يقيمون بها زمنا حتى يتبدى لهم أن جمال باريس روح باريس وان الانسان كلما ازداد بهذا الروح اتصالا ازداد به تعلقا وشغفا . ووافقتها أنا على ذلك تمام الموافقة وأضفت أن ما يبدو للنظرة الأولى من باريس هو أقبح جمال باريس وأن طول المقام بها والمزيد من التعرف اليها والاختلاط بصميم حياتها ذلك هو الذى يكشف عن روعة جمالها وعظيم بهرها .

هيكل

باريس بين زيارتين

فى إحدى زياراتى لباريس كان مرجل الغضب يغلى فى نفوس الباريسيين لفداحة هبوط الفرنك الفرنسى . وكانت مظاهرة ضدّ الأجانب فى الحى اللاتينى ثم عند الأوبرا وكافيه دى لابيه ومقهى مدلين . وأحس الأجانب أنهم باتوا يسكنون فى مجهل من مجاهل افريقيا لا فى باريس — مدينة الظرف ومجتمع الاناقة ونادى الألفة و بيئة الحب والجمال . وأسخط هذا الغضب الأجانب . ولكن الباريسيين لقوا جزءا وفاقا فيما حرموه من عطف وزيارات وفيما كتب ضدّهم فى صحف محترمة .

هذه هى باريس فى غضبها .

وجاءت فرصة أخرى فأتيحت لى زيارة باريس بعد زيارة ايطاليا الفاشستية الموسولينية وأعنى بها ايطاليا التى يبطش فيها البوليس بالناس بطشا ويشكك فى كل غريب ، ويرى فى كل حركة ما يدفع الى الريب . ايطاليا التى خنقت فيها الحرية السياسية وشرد منها الأحرار وباتت الرقابة رصدا لكل إنسان ووقفا على كل شىء .

شهدت ذلك كله ثم زرت باريس فتجلت باريس جوهر الحرّية وعلمها الخفاق : حرية فى الآراء، حرية الأزياء ، حرية فى المقال ، حرية فى كل مجتمع وحديث . وبلغ من فهم القوم للحرّية أن أحدا لا يخطر بباله أن يعنى بما يلهو به غيره من صنوف اللهو البرىء وغير البرىء . هذه العناية باقتفاء ما يتمتع به الغير أكثر من العناية التى توجه للاشتغال بشئون النفس عيب فى مجتمعنا المصرى، نرجو أن يتحرّر منه نادينا الأدبى المصرى فيشتغل كل بشأن نفسه ولا ينفق الوقت فى تعداد السوآت الشخصية لحق أو لباطل . بهذا يعلو مستوى الأخلاق الاجتماعية فى مصر الى حيث مستواها فى باريس، وتفهم الحرية فى صورتها الصادقة .

عبد الله حسين



روح المسرح
فى مدينة اللكسمبورج

حنين شاعر

الأذن تعشق قبل العين أحيانا

باريس عاصمة ملك حذيت على غير منوال

اذا أطرى الواصفون بلدة قالوا : "هي الجنة أنهارها جارية ، وبناياتها شامخه ، ورياضها يانعة ، وأشجارها ثامرة ، وأعوادها زاهرة" أوصاف ابتذلتها أقلام الكاتبين ، ووقفت عندها بديهات الشعراء .

أما باريس فلا تتناولها هذه الأوصاف . كل شيء هو دون ما وصف به إلا باريس فهي فوق ما وصفت به .

قال أكثر الناس الجمال غريب لا وطن له ... كذبوا ! باريس وطنه ومشرق شمسه .

الذين رأوا باريس عرفوا محاسنها وهم فيها . وأبناؤها عرفوا محاسنها وهم فيها . فلما فارقوها أمحت صورها من أذهانهم إلا قليلا بقي بها ما تحتمله العقول وانضوى مالا تحتمله . هذه محاسن ترتع فيها النفوس والنواظر معا . وفيها ما يدخل النفوس لا عن طريق الاستشعار بل عن طريق الادراك ، وحين تزايل البصائر خيالاتها .

الطرقات السورية والقصور العالية والمصابيح المتلألئة والجسور الممتدة والكنائس المرتفعة والدمى المنصوبة والمصانع العاملة والأندية الحافلة يتأود بينها برج إيفل كأنه خطيب الحرية بين تلك العجائب بل كأنه حارس القضاء موكل بسكان البانتيون .

سبحانك اللهم ما أكبر قدرتك بل ما أفصحها وأبلغها من قدرة .

البلدة الطيبة التي فرعت الحوادث مروتها ثم ضحكت لها وجوهها ربيبة العز على اختلاف أنواعه ، عز الجمال ، وعز العلم ، وعز الدولة ، اختلفت فيها مواكب الأبهة ... دخلها هنري الرابع فاتحا . وغادرها بونابرت ظافرا ولكن تهادت فيها

أنطوانيت[1] الى ميـدان القصاص . وهى بعـد ذلك رقت ودقت وحلت فكانت الفاتنة يوم فرحها وكانت الفاتنة يوم ترحها .

وأن مواقع الجياد يوم دخلها غليوم الأول لهى مواقع القبل من شفاه عشاقها . ذلك أديم تنبو عنه الشقوة ويترقرق عليه النعيم .

لم يسعدنى الزمان بزورة لها وكم اشتقتها وكم اشتاقها وانما عشقتها الروح ولم ترها العين . وما كان عشق لها على قدر ما نعتها به الناعتون فاقول " الأذن تعشق قبـل العين أحيانا " ولكن عشق لها على قدر معرفتى بها .

وبينى وبينها الفدافد والبحار لم يستجل مرآتها ناظراى غير أن نفسى حلقت بسمائها وخواطرى جالت فى أرجائها .

كلما أنشدت بيتا لهوغو أو لموسيه خلتنى أنشد شعرها وأترجم لذاتى عنها .

حين أبصر الباريسى الظريف فى حديثه الطيب وشمائله المليحة أذكر باريس وحين أشاهد الباريسية فى شعرها الذهبي وعينيها السماويتين لتوحى إلىّ معانى الشعر ولترسل من أعماق روحى كوامن الاعجاز .

تتغير باريس ما بين غمضة عين وانتباهتها . هكذا ينبغى أن تكون للجمال فيها كل آونة شأن جديد " الجمال فيها جنـة " فلو تأملوا إحدى فاتناتها لألفوها صباحا كالخوخة كللها الندى ، وفاح لها شذا ، ولرأوها ظهرا . وقد تمشت فيها حرارة الشمس حتى لتجانبها الشفاه إشفاقا بعد إذ تطاحنها لثما . ولوجدوها مساء وقد جمد قشرها وبرد حتى لتزل عنها الثنايا اذا حاولت لها عضاضا .

الله فى باريس وفى فتن باريس ! عروس أوربا " الغاليـة "، بنت التمدين، المثال الأجمل لكل شيء . يتشبه الناس بابنائها يلبسون كملابسهم ويأكلون كما كلهم ثم ينطقون بألسنتهم ثم يغتذون بعلمهم كذلك كانت باريس وكذا ستكون .

ولى الدين يكن

(١) مارى انطوانيت قرينة لويس السادس عشر ملك فرنسا أعدمت سنة ١٧٩٣ إبان الثورة الفرنسية الكبرى .

في منزل عائلي

حــول المــرأة

— كلا ياصديق كلا . إني لا أساير أهواءك فبيير لوتى كاتب ماهر يصوّر لك ما تراه عينه وما تشعر به نفسه أمام تلك الصور العجيبة التى رآها فى الشرق .

فأجابها المسيو جارديه وهو يبتسم :

— أجل يا مدموازيل چان ، ولكنه يسـير على وتيرة واحدة فى كل ما يكتب وفى ذلك ما يدعو للملل والسأم .

فأمسكت المدموازيل چان بخصلة من شعرها الأسود كانت انحدرت على جبينها الجميل وأعادتها إلى مكانها ثم قالت :

— يسير على وتيرة واحدة؟ وما ضره لو فعل ذلك؟ أتنسى سهولة ألفاظه ، و رقة أسلوبه ، وسمو خياله . أترى بين كتابنا من يدانيه فى ذلك ؟

فقال لها المسيو جارديه بعد أن شرب كوبة من المـاء :

— نحن لا نتفق يا مدموازيل . بيير لوتى كاتب شهير طبقت شهرته الخافقـين وتحدث الناس باسمه فى أوربا وأمريكا ولكن أفضل عليه الكثير من كتابنا .

فقاطعته المدموازيل چان وهى تمضغ قطعة من اللحم قائلة :

— أنت من أنصار بول بورچيه .

— أجل يا مدموازيل ! أنا من أنصاره وياحبذا لو اقتدى بى جميع الافرنسيين .

— لو فعلوا ذلك قل على الحرّية السلام .

— بل لو فعلوا ذلك لمـا تفشت بينهم تلك الأمراض الاجتماعية التى تسترها عن عيونهم كلمة حرية .

— عبثا أحاول إقناعك يا صديق فنحن على طرفى نقيض .

والتفتت المدموازيل چان إلى فتاة روسـية كانت تدرس معها الآداب فى السوربون وقالت :

— وما رأى المدموازيل لينا ؟

فأجابتها قائلة :

— رأيي ... أخشى أن يدهشكم رأيي . إنى أحب الكاتبين من صميم قلبي .

فصرخ المسيو كازنوف من طرف المائدة :

— تحبين الاثنين؟ أتجمعين بين الماء والنار ؟

فقالت له الفتاة الروسية :

— علام هذا التعجب ياسيدى . أحب بيير لشاعريته ، وإن كان لم ينظم الشعر بعد . وأحب بورچيه لدقته فى تحليل خفايا النفوس : الأول شاعر يفيض خياله فى نثره ، والثانى . انه لا يخطئ فى بحثه . بيد أنى أرى كتب الأول خالية من كل رأى اجتماعى أو فلسفى وأرى نظريات الثانى لا تتفق مع روح التقدّم .

فقال المسيو جارديه : هذا عجيب !

فأجابته المدموازيل لينا وقد آلمتها جملته :

— والأعجب منه يا سيدى انتصارك لنظريات بورچيه .

فأحنى المسيو جارديه رأسه وقال :

— عفوًا يا مدموازيل عفوًا .

وكنا قد فرغنا من تناول الغذاء فقمنا إلى الصالون وأشعلنا سجائرنا وجلسنا نتحادث وما أجمل المحادثات بين قوم غرباء لاتجمعهم صلة بالوطن ولا القومية .

الغريب فى مصر يحن للغريب والافرنسى يحن للغريب والنزل الذى آوانا جميعا جمع بين الروسى والانكليزى والافرنسى والبولونى والصينى وكانت المناقشات تتجدد فيه كل يوم حول المائدة وبعد أنواع من الطعام ثم يذهب كل إلى غرفته أو يغادر المنزل لعمل يعمله . وكنت أجد فى هذه المناقشات عالما جديدا لم تره عينى فى مصر .

قلت أننا دخلنا الصالون وأخذنا مقاعدنا ثم ابتدأت المناقشة من جديد بين المدموازيل لينا ، والمدموازيل چان ، والمسيو جارديه ، والمسيو كازنوف ، والمسيو بوان

الصينى عن سياسة الأوربيين فى الشرق الأقصى . أما البولونى فقد ظل ساكتا ينظر إلى سماء الغرفة كأنه يبحث عن أمل له . ثم تغير الحديث من السياسة إلى الفلسفة فتناقشوا فى فلسفة شوبنهور ، ورأيت جماعة الرجال تحبذ الفيلسوف وتشدّ أزره وطائفة النساء تحمى عليه باللائمة . رأيتهن يدافعن عن آرائهن وحريتهن كما تدافع النمرة عن صغارها . لم أجد فى حركاتهن وسكناتهن ذلك الدلال النسائى ولا تلك الرقة وذلك اللطف . رأيتهنّ قد ساوين الرجال عزما وقوة و برهانا ثم علت كفتهن فى ميزان البحث والمناقشة وما أجمل انتصارهن بعد أن جاهدن جهاد المستميت . فنظرت إلى صديق البولونى وقلت له :

— لقد انتصر حزب النساء !

فالتفت إلىّ وقال :

— آه لو كانت شقيقتى هنا تسمع هذه المناقشة .

فقلت : وما آراؤها ؟

— تدفع عن حرية المرأة وتسعى جهدها فى بث الآراء الديمقراطية فى بنات جنسها . ستراها بعد ثلاثة أيام لتحكم عليها بنفسك .

فقلت له وقد زاد إعجابى بنساء أوربا :

— سأتشرف بمعرفة شقيقتك يا صديق .

وتفرقت جماعة النزلاء ، فدخلت إلى غرفتى وجلست أمام مكتبى . وأطلقت لنفسى العنان فى التفكير . قارنت بين نسائنا ونسائهم أستغفر الله بل بين رجالنا ونسائهم فرأيت الفرق كبيرا والبون شاسعا .

نساء أوربا يناقشن الرجال فى الأدب والسياسة والفلسفة و رجال مصر يتناقشون فى أنواع الأوتومبيلات و جمال الملابس ، و إذا ألقت بهم الصدفة أمام موضع جدّى مزجوه بالنكات المصرية المستملحة التى تطير الموضوع فى جوف الفضاء أما نساؤنا ...

محمد تيمور

عن باريس

كم لدى من ذكريات حلوة

لقد كان ذلك فى صبيحة يوم من أيام يونيه ، فى حديقة فرنسية رائعة ، فى جوّ دافئ يهز الأعصاب ، محمل بعطور الزنابق والأزاهير ، ويطن بأصداء النحل المتطاير بين طيات هوائه حين ابتدأت حياتى الحقيقية بأسعد أيام عمرى الخارجى .

حقا إنى لا أذكر من ذلك إلا لماما ... أذكر العربة الكبيرة الزرقاء ذات الجياد الأربعة الهزيلة الناحلة السمراء وهى تجرها فى خنوع اليائس المستسلم ، أذكر حارس العربة ذا اللباس الأحمر ، أذكر السائق أحمر الوجه وهو ينادى جياده فى صوت أجش متجلجل ... .. ثم أذكر الباخرة ، أذكرها وسطحها اللامع البراق وحوائطها الجميلة البيضاء ، أذكر أنى حدثت نفسى أنه من الافتئات أن يمشى الانسان على أرض هذا شأنها من الجمال والنظافة !

ثم تمر بخيلتى الآن صورة تلك العربة الكبيرة التى نقلتنا بعد الباخرة ، تلك العربة التى كانت تبدو كثلاث عربات صفراء قد ألصقت بعضها الى بعض وقد كللها جبل من الحقائب والأمتعة تحت مظلة ضخمة تعصب جبينها كأنها سحابة تسايرها ، وكانت تلك المظلة تنتهى بانخفاض يظل من دونه ، وكان يجلس فى هذا المظل رجل يلبس رداء أزرق وقبعة صغيرة ، كأنه موسيقى يتأهب للعزف ، وله شارب خفيف تحت أنفه الكبير وهو يفرقع سوطه فوق خمسة من الخيل المسكينة الهزيلة المتألمة — بيضاء وسنجابية — فى أعناقها أجراس تدق طوال الطريق وقد تنافرت شعرات جبهتها بينما عقصت ذيولها فى اعتناء خلفها .

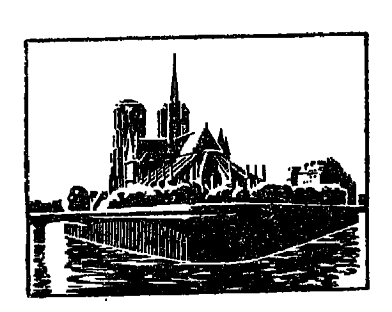
وكان فى استطاعتى أن أرى من مجلسى بين أبى وأمى أننا نسير فى طرقات يثور فيها الغبار ، ثم ينعقد فوق أشجار التفاح المغروسة على كلا الجانبين ، ثم بدا لى أن هذه الرحلة أضحت شاقة متعبة مضطربة ثم خلصنى الله من هذا التعب بوصولنا فى غسق اليوم التالى الى إفريز نهر سايرناه ، وكنا نلمح بين كل لحظة وأخرى بضع

عربات تشبه عربتنا وهى على وشك البدء برحلة طويلة متعبة كتلك التى قاربنا أن ننتهى منها . ثم علمت فى النهاية ، لأنى كنت طفلا يقظا نبيها ، إذ سمعت والدى يصيح " تلك هى باريس أخيرا " اننا قد وصلنا الى العاصمة الفرنسية .

يالخديعة الجميلة ... إن ذكرياتى العالقة بها تعيد علىّ أنها كانت بلا حدود وقد كانت حقا بلا حدود فى الجمال . وقد أعانى عرفانى بجغرافية ذلك المكان على العلم بأن هذا الفردوس الصغير يتصل بغابة بولونيا لويس فيليب ، ولكنى أخفقت فى أن أجد لها فى قلبى حدّا خاصا يفصلها فان الجمال لا يلتزم بحدود تقيده ، لم أجد لها شيئا يعينها غير الاسم الذى اقترضته من المدينة القديمة القريبة منها تلك المدينة الجميلة التى يقود شارعها الرئيسى الى نهر سان كاو وقنطرته وقصره وحدائقه وجبله وغابته . وحين شببنا عن أطواقنا صار فى مكنتنا أن نستغل الأماكن القريبة لتغذية معارفنا ، أخذنا نعرف ميدون ، وفرساى ، وسان جرمان ، وغيرها من الأماكن الجميلة ثم توثقت الصلة بيننا وبين باريس وخاصة الأحياء القديمة بها .

عرفنا مثلا جزيرة القدّيس لويس بمبانيها القديمة وقصورها ذات الأبواب القصيرة والأسوار العالية حيث سكن كبار المحامين وحيث سكن قبلهم فرسان الحروب وأبطالها . وعرفنا أيضا تلك الجزيرة الجميلة " لا سيته (La Cité) " حيث ولدت باريس نفسها فيها ، حيث ترفع كنيسة نوتردام أبراجها المتكبرة فوق البناء الحزين الأدكن ...

جورج دى موريبه



مدينـــة كل النــاس

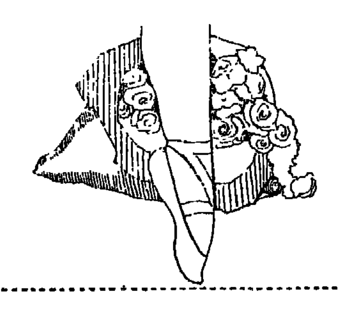
رغم كل من يحتفلون بأيام الاحار فى باريس، رغم جموعهـم العجاجة وكثرتهم الهائلة، رغم هذه الحقيقة فان قليلين منهم هم الذين اتخذوا طريقهم الى حارة "بتيت". وكان من هؤلاء القليلين قليلون أيضا من السياح قد سعوا فى أن يروا كنيسة "لوثر" فى ذلك الزقاق الأثرى العتيق . وكانت على مقربة منه ساحة من يتطلبون اللذة على طريقتهم فهم يجدونها حتى التدفق ، اللذة التى لا يحدها عقل ولا يقيدها قانون ، اللذة المجنونة الطائشة التى تتهيأ لكل جنس وشعب دون حساب أو تقييد .

وهنــاك برج إيفل وهو فى ذاته ثورة أخرى لمظهر آخر من مظاهر الحياة فهو يتمرد على السماء ويشمخ نحوها فى كبرياء وعظمة يبده زوار باريس ويثير منهم الدهش والإعجاب . وما لنا نذهب بعيدا عن زقاقنا الذى نتكلم عنه . ما لنا ننسى ما سمعناه حين استدرنا لننظر فيما حولنا فى هدأة هذا الزقاق وما سمعناه من موليير فى الكوميدى فرانسيز وراسين فى مسرح "الأوديون" وقد بتنا نعتقد بعد إذ سمعنا بعض مقطوعات هذين الشاعرين أن أحدا ليس فى مقدوره أن يجيد اللغة الفرنسية إلا اذا سمع لغة عظيمى اللغة هذين ودرسها فان أسلوبهما لا يفهمك اللغــة وحدها ولكنه يجعلك تحس بهما ، تحس بروحهما وتيارهما . وقد اسعدنا الحظ بسماع قطعتين لهما؛ فأما الأولى فقد أثارت عواطفنا . وأما الثانية فقد أسرت ألبابنا أمام النبل والسمو اللذين يطفوان على كل سطر منها . ثم أسمعنا بعد ذلك قطعة ثالثــة استخفتنا موسيقيتها حتى أنا بدأنا نسايرها فى طرب وسرور . والحقيقة أن اللغة الفرنسية تمتاز بشىء قل أن يلمحه المرء فى غيرها من اللغات ، فأنت إذا كنت سعيدا فسمعت فتــاة فرنسية تتكلم فى مراح ، أو حتى فى حزن يسود عواطفها ، فأنت مجبر فى الحالة الأولى إذ يستخفك الطرب أن تتنبه الى حركات شفتيها ، الى مخـارج حروفها ، الى تلك الغنــة فى أنفها ، الى تعبـيرها القوى الواضح ، الى موسيقى صــوتها ، تلك الموسيقى العذبة الهادئة أحيانا الثائرة المضمرة أحيانا ، تلك الموسيقى التى لا تضارعها موسيقى

لغـة من لغات العالم أجمع . وأنت فى الحالة الثانيـة مستعبر متعظ قد لا تستطيع أن تكتم عبراتك إلا فى مشـقة وجهد ذلك أن كلماتها تنفـذ الى قلبك كأنها ألحان الأموات وقد اتخذت طريقها الى أضعف أوتار قلبك كأنها دقات صندوق الجسد الهامد وهى تهز أعصابك عنـد كل دقة وتدفعك الى الزهد والتصوّف ولكنها هذه المرة دقات مؤلمة حبيبة تبكيك وتستعبرك وأنت رغم ذلك تتشبث بهذا البكاء وذاك الاستعبار ... ...

والغريب أن باريس لا تسر طائفة من الناس دون طائفة ولكنها تبعث فى كل الأفئـدة وإن تباعدت الميول والأهواء، السـعادة والمرح . السكير الذى لا يفيق يجد فيها مثيرا لأحلامه وخياله ومتسعا لهموم العالم وعزاء له عن أدرانه التى عافها . الكبار يجدون صغارهم يمرحون فى حدائقها، وطلاب اللذة، نعم اللذة بكل معانيها، يجـدونها بكل صـورة، يجدون مسرح "عدن" وبه الراقصات العاريات اللاتى يستثرون فيهـم أعنف العواطف . والسـيدات الطروبات الباحثات عن رحيق الوجود يجدن بها ما يشبع نهمهن من اللذائذ والمتع ... هذا ويجد فيها من زهد دنياه وآثر أن يبقى بمعزل عن مفاسدها ملهاة نفسه وعزاءه عن الحيـاة ... ... باريس الطاغية وباريس الهادئة، باريس اللذة وباريس الزهـد، باريس الشباب وباريس الشيخوخة، باريس الخمر وباريس المـاء، باريس الحبور وباريس القبور، باريس الحياة ...

م . بتام ادواردز




الحياة في باريس



منـــذ مائة عام

الحيـاة فى باريس

و يوجد فى باريس أيضا مكاتب تسمى البنسيونات جمع بنسيون بفتح البـاء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة التحتية وسكون الواو وهى مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة وغيرها كالتاريخ والجغرافيا وهى نحو مائة وخمسين بنسيونا وفيهـا أكل الإنسان وشربه ونومه وغسل حوايجه ونحو ذلك فيدفع أهالى الأولاد قـدرا معلوما فى السنة . وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت يكون صاحبها عالمـا فيأخذ عنده عدّة أولاد ليأكلوا معه و يشربوا معه و يعلمهم بنفسه أو يحضر لهم معلمين عنـده وغير هـذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعـلم فى البيت كل يوم ليعلمهم عنـده، ومن الأشياء التى يستفيد منهـا الإنسان كثير الفوائد الشاردة التـذاكر اليومية المسماة الجرنالات جمع جرنال، وهو يجمع فى اللغة الفرنساوية على جرنو، وهى ورقات تطبع كل يوم وتذكر كل ما وصل إليهم علمه فى ذلك اليوم وتنتشر فى المدينـة وتباع لسائر الناس وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم، وكذلك سائر القهاوى وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرانسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة فلها حرية تامة ما لم تضر فى ذلك فانه يحكم عليها وتطلب قدّام القاضى والجرنو عصب فلكل جماعة لها فى مذهبها مذهب كل يوم يقويه ويحاميه و يؤيده . ولا يوجد فى الدنيـا أكذب من الجرنالات أبدا خصوصا عنـد الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب إلا من حيث كونه عيبا و بالجملة فكتّاب الجرنو أسوأ حالا من الشعراء عنـد تحاملهم أو محبتهم والجرنالات مختلفة الأنواع والأصناف : فمنها ما هو معدّ لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها، ومنهـا ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط وما هو للعاملات وما هو للطب ولكل على حدته كعلم الطب إلى آخره والجرنال الواحد يطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة وكل جرنال تكثر

نسخه على حسب رغبة الناس فيه وأرباب الجرنو يعرفون الأخبار الغربية قبل غيرهم لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد وفى جملة علوم باريس الدفاتر السنوية والتقويمات الجديدة والزيجات المصححة ونحو ذلك فكل سنة يظهر فيها كثير من الروزنامات المشتملة زيادة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون وعلى كثير من أمور الدولة وعلى تسمية أكابر الدنيا وتسمية أعيان فرانسا وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم فاذا احتاج الانسان إلى اسم واحد وإلى بيته راجع فى ذلك الكتاب. وفى باريس أوض القراءة أو خلوات القراءة فيذهب الانسان فيها ويدفع قدرا معلوما ويقرأ سائر الجرنالات وغيرها من الكتب ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب فانها من التجارات الرابحة مع كثرتها وكثرة المطابع وكثرة التآليف التى تطبع كل سنة فانها يعسر حصرها وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع ولا تمر سنة بمدينة باريس إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغى أن يمدحوا به.

رفاعة رافع الطهطاوى



مكتبة باريسية
أنموذج التجديد الحديث

باريس اللهو وباريس الجدّ

لصاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا



باريس عاصمة النور والسرور، وعاصمة العواصم . كانت دائما ولا تزال كعبة القصاد من جميع البلاد . للمصيفين يأتون اليها من الشرق البعيد والقريب، والمشتين يأتون اليها من أمريكا والبلاد الشمالية . فهى وسط إقليمى معتدل المناخ للزائرين من جميع الشعوب . وهى نقطة مركزية هامة متصلة بأهم الطرق الدولية التى تربط العواصم الأوربية بعضها ببعض . وقد كانت وستكون دائما أجمل مدينة غربية تجذب اليها السائحين بجمال آثارها وحسن هندامها وفسيح شوارعها وعديد ميادينها وتنسيق غاباتها . ونهر سينها ينساب فى وداعة وهدوء فيمس ماؤه جدران الكنائس الكتدرائية، والقصور التاريخية، ومعاهد العلوم والفنون، ويمرّ تحت الجسور، وينتقل من حى رشيق الى أرشق حتى ينتهى الى الضواحى الغناء، وكأنه قد ثمل بمسه جدران الآثار وحيطان الديار فيتغنى الى مصبه بذكر الماضى الجليل والحاضر الجميل .

وباريس مركز اللهو والسرور، فيها المسارح يرجع عهدها الى ما قبل "موليير" وفيها الروايات قد انتحى المؤلفون فيها نواحى مختلفة من الوصف والخيال والحقيقة والواقع وتصوير الشعور والنفسيات الحائرة والطبائع البشرية على أصلها أو على ما يجب أن تكون حتى أصبح المسرح الفرنسى الناطق أغنى المسارح قدرة على تصوير الانسانية فى أسمى عواطفها الراقية وفى تحليل عيوبها على غير إيذاء للنفوس

الرقيقة فان أهل الأدب من رجال هذه الأمة النابغة لا يكشفون الجروح الدامية أمام الأنظار البريئة الطاهرة وهم إن كشفوها فانما يكشفونها فى رفق ولين وراء ستار شفاف خفيف ويمهدون عند كشفها بايداع الشفقة فى قلب النظارة حتى لا تقسوا قلوبهم على من هوت بهم الظروف الى درك سفلى .

وفى باريس بجوار المسارح الناطقة ستائر بيضاء صامتة لعرض الصور المتحركة وباريس مهد هذا الفن نشأت فيها الصور المتحركة فأخذت بمجامع القلوب شارات الممثلين وبراعة المرتبين (Régisseurs) وغرابة الحوادث التى كشفت أسرار العلوم والفنون لسواد الجماهير، وفتحت لنا جوف الأرض ترينا ما فى ماضيها من مناجم وأعمال تعدين وأضاءت لنا بالمصباح غياهب البحور وسرها المستور . وأعربت بالاشارة عن نوع من الفكاهة فى الطبيعة البشرية كان يأتى عفوا فى المسارح التمثيلية فأصبح مألوفا فوق الستائر البيضاء، وحولت صنفا عظيما من طائفة الفنانين من المسارح الناطقة الى الوقوف أمام الماكينات الخاطفة تلقط الحركات وتسجلها ثم تطبعها وتوزعها على العالم فلا يقف أثرها عند مسرح واحد أو فوق ستار واحد بل يتعدّد الى الآلاف من المسارح والستائر فى أنحاء المعمور كما تعدّدت من قبل أصوات المغنين فى أسطوانات الفونوغراف . وبفضل الستارة البيضاء انتعشت صناعات جديدة فى الوجود حتى أعدّت لهذه الصناعات فى أمريكا مدن قائمة بذاتها لأخذ الحوادث وتصوير الحركات الروائية فى محيط مناسب لها متناسق وجمالها .

ولباريس فضل فى إذاعة صناعات السينما وتحسينها فى العالم فلولا ممثلوها وممثلاتها ولولا مهارة العاملين على ترقيتها لما تقدّم هذا الفن ولما اتسع اتساعه الهائل فى أنحاء العالم حتى لقد صار لكل أمة من الأمم شركات سينما أو اتحاد شركات تعمل على استغلال هذا المظهر الجديد من مظاهر الحياة العصرية الفنية والصناعية وحتى صار لأصغر الدول شأنا وأقلها ثروة وعددا جملة شركات من هذا القبيل .

وفى باريس ملاهٍ غير المسارح : فيهـا القهوات والنوادى تسر الناظر وتشرح الخاطر، وفيها أمكنة المداعبة والخلاعة قـد يغشاها بعض المصريين كما يغشاه كثير من الأجانب والفرنسيين . ولمـا كنت غير واعظ ولا أحب أن أكون واعظا لأنى أعلم أن وعظى سـيذهب صرخة فى واد فان كل ما أرجوه أن يدخلها من يدخلها من المواطنين بحذر وأدعو الله لهم أن يخرجهم منها سالمين !

وفى باريس كاباريه (cabarets) أو "غرز" كما نقـول فى بلادنا يغنى فيهـا المغنون غنـاء خاصا بالبـاريسيين ينطوى على لهجتهم المجـازية التى يدرك الشعب الباريسى وحده ظريف نكاتهـا . والشعب الباريسى ذو نكتة حلوة عذبة عذوبة أخلاقه وطباعه سهلة التحوير والتدوير سهولة لغته فى قابلية النحت والمجاز .

هذه هى باريس اللهو والسرور .

أما باريس الجدّ فهى باريس العلم وباريس العمل .

* * *

وباريس العـلم هى باريس السوربون (Sorbonne) والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب منزلته منه منزلة الأزهر من الشرق من حيث القدم فى كليهما والسوربون كما تعلمون تطلق على كليـة الآداب وكلية العلوم . وقـد تطلق أيضا على معهدين ملاصـقين لهما روحا وجسدا همـا : كوليج دى فرانس (Collège de France) ومدرسة الوثائق القديمة (Ecole des Chartes) . وهـذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس . فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتـدّ النور إلى كلية الحقوق . ومن علومها الوضعية الطبيعية والكيمائية وتاريخها الطبيعى يمتدّ ضياء آخر إلى كليـة الطب . ومنها جميعا يشرق نور الجامعة الكبرى الى بقية الجامعات فى الأقاليم، وينعكس إلى قباب الأكاديميات الشهيرة فى سرابهـا فوق نهر السين .

وباريس من حيث كونها وسطا علميا من أمتن الأوساط العلمية وأقدرها على تكوين الملكات العلميــة وعلى تعود الافصاح عن الفكر بترتيب و وضوح مما خاصه من خواص الجنس اللاتينى ومن خواص اللغة الفرنسية بالذات .

ولقد كان لهذه الجامعة فضل عظيم فى تكوين فئات من المصريين منذ معبآت محمد على العلمية التى أخرجت على مبارك والفلكى محمود واسماعيل وبهجت ومحمد على الحكيم وغيرهم من الأدباء والمهندسين و الأطبــاء والمشترعين . و بعثــات الجامعة المصرية والحكومة أخيرا .

والطلبة الحاليون فى هذه المدينة، والطلبة المصريون الذين من المحتمل أن يقصدوا اليهــا فى المستقبل، جديرون بأن يقتفوا آثار سلفهم من متخرجى جامعة باريس . جدير بهم أن يستقوا العلم من مناهله الحقة وأن ينتفعوا بالفرصة السعيدة التى أتاحت لهم تلقى العلوم على جماعة من أكبر أساتذة العالم وأن يعودوا الى بلادهم علماء حقا قادرين على خدمتها والأخذ بأيديها فى طريق النجاح والفلاح .

نعم أنه يكون من الشاق على الطالب الأجنبى فى هــذه المدينة المــائجة المملوءة بدواعى اللهو والمسرات أن يضغط على شبابه و يقاوم فى هــذا الوسط الجــذاب أسباب الخلاعة المحيطة به . وانى لا أستطيع أن أقسوا على الشباب فأتجاهل طبيعته أو أنكر حقه فى اللهو وانشراح النفس والحبور ولكن هناك لهو كما يقول أهل هذه البلاد ولهو . هناك لهو مصحوب باحترام النفس والقدرة على ضبطها والحذر من ابتــذال الكرامة والحرص من الوقوع فى أى سبب من أســباب المكروه الأدبيــة أو الخلقية أو الصحية . وهناك لهو آخر يتحدر به الانسان الى بخس النفس قدرها بالضعف عن كبح جماحها و إلى تضييع الكرامة والتخبط فى ظلمات كل مكروه . و بين هــذا اللهو وذاك فرق شاسع . على أن للهو البرىء ساعة وللجــد فى تحصيل العلوم ساعات والعاقل الفائز من عرف كيف يعتــدل فى حياته فلا تفريط فى الجد ولا إفراط فى اللهو .

* * *

والشبان المصريون يحمدون على اختيارهم أوربا لاتمام دراستهم العالية والخاصة بها لما يترتب عليه من نفع يعود على وطنهم .

وبيانه هو أن تعدد الجهات والأمم والدول الأجنبية التى يقصد اليها الطلبة المصريون مرغوب فيه أكثر من توجيه أبنائنا المصريين الى جهة أمة أو دولة واحدة . وذلك لأن توحيد الجهة التى يقصدون اليها من شأنه أن يجعل العقلية المصرية المتعلمة فى الخارج تتأثر بطابع الدولة التى تم التعلم فيها إلا لمن استطاع أن يخرج بعقلية مستقلة وهو ما لا يكون إلا عند جبابرة الذكاء . ولا يخفى ما يترتب على التأثر بطابع التهذيبات فى دولة واحدة من الأثر الذى قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية بخلاف تنويع البلدان والدول التى يقصد اليها الطلبة المصريون فان من شأنه أن يجعل عدّة جماعات من المصريين المتعلمين تعليما عاليا موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى أثرت فى تكوينهم العقلى فيحدث من احتكاكهم فى العمل بعد عودتهم الى مصر اتصال فكرى وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم الى بعض تقربا يساعد على إيجاد عقلية مصرية ممتازة بذاتها مستقلة فى مجموعها عن أثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية .

وهذه العقلية الممتزجة المتشابهة، هذه العقلية المستمرة من تهذيبات الشعوب المختلفة، هذه العقلية القائمة على الملكة العلمية المشتركة بين البلاد دون أن تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينها فيها، هذه العقلية التى يجب أن تكون مشتركة فى طرق العلم الثابتة مع أسمى الأمم الغربية دون أن تصبغ بمميزات هذه الأمم وخواصها، هذه العقلية التى نريدها فى شباننا المتعلمين ومتخرجى الجامعات سامية عالية تناطح العقليات الغربية فى سمو إدراكها . هذه العقلية ينبغى أن تتكون بجهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون مصرية لا عقلية ألمانية ولا عقلية انجليزية ولا عقلية فرنسية ولا عقلية أجنبية أخرى .

وهذه العقلية يجب أن تكون مصبوغة بخواص الذكاء المصرى ومرآة صادقة للحسن من الطبع المصرى فلا يفيد تعلم ولا تعليم ما لم يكن منطبقا على طبيعة تكوينه العقلى والخلق فى زمان ومكان محددين .

نريد إذًا عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة ونريدها عقلية مستقلة، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفرّ عن الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا نسعى الى أن نربطه بماضينا كما نسعى أن نقوده ونسيره الى مستقبل حسن . والمستقبل وأن يكون بيد الله إلا أنه الى درجة ما بيد القوم ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

خذوا اليابانيين مثلا، تروا أنهم اقتبسوا من أمم الغرب أشهر ثمرات العلوم والفنون غير أن عقليتهم بقيت دائما عقلية يابانية وثقافتهم ثقافة يابانية مشتركة مع الأمم الغربية فى الأصول الثابتة من رأس المال البشرية العقلى العام . ولكنها عقلية مستقلة وثقافة مستقلة . وإذا وجدت هذه العقلية الممتازة فى أقلية ممتازة هى ذخر التقدّم فى كل عصر وفى كل بلد فان ضوءها يمتدّ كضوء الفنار على سواد المجموع فتصبغ عقلية الأغلبية بصبغتها متخذة الجامعة وسيلتها . والجامعة سائقة المدارس الأخرى فى أثرها .



تلك باريس العلم . وما باريس العمل بأقل من باريس العلم جدًّا . وكم الأجانب حين يتصورون باريس بلد اللهو والخلاعة فتنصرف أبصارهم عن مشا مظاهر الجدّ من حياتهم العملية .

والواقع أن من يمعن النظر فى حياة الباريسين يجدهم من أنشط الناس وأقدر على العمل بمثابرة ونظام . انظروا اليهم تجدوهم عاملين غير عاطلين . وتجدوا العاملين منهم الى أعمالهم نشاطا مبكرين . وتجدوهم فى مختلف نواحى الانتاج الصناعى والتجارى يعملون . وقد لا توجد أهالى بلدة فى القارة الأوربية بعد مدينة لوندرة أغنى من

أهالى باريس . لا لأن مدينتهم قد تمركزت فيها الشركات المالية والزراعية والصناعية والتجارية فاستجمعت لديها ثمرات الانتاج فى الداخل وفى الخارج وفى المستعمرات بل أيضا لأن الانتاج الداخلى فى مدينة باريس نفسها يدل حقا على أن الباريسيين قوم جدّ ونشاط وذكاء فى الابتكار يجعلهم بحق فى مصاف المتمتعين بالرخاء العام الناشئ عن مجهودهم الذاتى .

وليس أدل على الحيوية والثراء فى هذه الأمة الفرنسية وفى سكان باريس ضمنها من تقلبات الفرنك عقب الحرب فانها وإن كانت سببا كافيا لاحداث كارثة فى البلاد لكن الأمة الفرنسية قدرت أن تعيش رغم هذه التقلبات فى سعر عملتها قوية ماليا واقتصاديا . نعم أنها تشعر بضغط الأزمة بين حين وآخر ولكنها لا تلبث أن تلتوى على نفسها عاجلا وتطارد هجمات الأزمة مطاردة عنيفة توقفها بها عند حدودها وهى فى صراعها عند نزول سعر الفرنك لم تقع يوما من الأيام فى كارثة من كوارث العملة التى يهد لها كيان الحياة الاقتصادية أو يجمد قلبها وتختل أعصابها كما حدث فى بعض البلاد الأخرى .

وهذه القوة الحيوية الاقتصادية والمالية الكامنة هى التى جعلت فرنسا تحافظ على مركزها التجارى فى العالم بصفة باهرة .

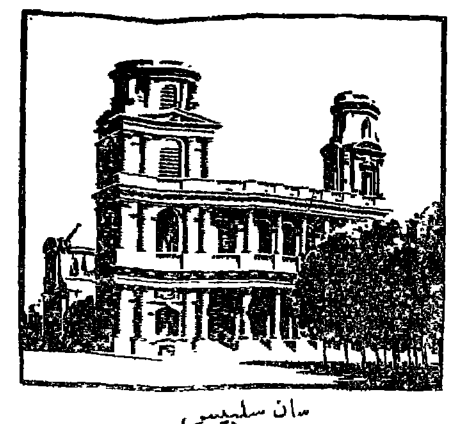
محمد طلعت حرب



قصر الجيون دونور

في حيــاة باريس

باريس تستيقظ من نومها


سان سلبيس

هبت باريس من نومها تقابل الحياة من جديد ببســمة حلوة هادئة . فغشاها سحاب قاتم ارتفع من الســين العظيم وحجب شاطئا عن آخر. كان هذا الغيم خفيفا رائقا صبوحا كاللبن . استطاعت شمس الصــباح بعد أن استردّت قوتها أن تنفذ فيه أشعتها فبدّدته شر مبدّد غيرأنــــ إنسانا ما فى بداية هــذا الضباب لم يكن فى مكــنته أن يتميزشيئا من البلدة الناعسة . فقد كان يتجمع فى الأماكن الضيقة المزدحمة حتى كان يتفرّق فى شــفوفة قليــلة لا تبدى إلا الرمل الذهبي أو أرض الشوارع المنــــداة . أما على القبور والأبراج فقــد ترك الضباب قطرات عالقة من المــاء كأنهــا برودة الموت . وكانت سحب من الدخان الأصفر تظهر بين حين وحين كالطيور الجــارحة ذوات الأجنحة الثقيــلة على الآكام ، ثم تذوب وسط الضباب المتراكم كأنما قد ابتلعها فى جوفه ... وفوق هذه السحابة المعتمة التى تظل البلدة كانت سماء باريس ذات الزرقة النقيــة الممتزجة بالبياض الخفيف تبسم فى وجهها بسمة رائقة فيها حزن وفيها دموع ... كانت الشمس تتسلق تلك القبة الزرقاء الباهتة ، وتنشر هنا وهناك أجنحتها الناعمة الرقيقة فى خيوط من الأشعة الذهبية الشاحبة كأنها رذاذ المطر المنهمر تبعث فى الجسوم الشعور بالدفء، الشعور بالحياة . لقد كانت تلك الساعة كأنها وليمــة الأبدية ترأسها الغريزة كلها الســلام والطمأنينة والبهجة والمراح بينما المدينــة نائمة تمطى ما تزال تستمتع بدفء النوم ولذته وهى كسول ما تحب أن ترفع عن جسدها الناعم غطاء قداستها وفيه ما فيه من الحرارة والجمال ... وأخيرا تتفتح عين باريس بعد أن تعركها وتبتعد عنها ركامات الضباب التى تحيط بهـا وليس هناك رغم ذلك

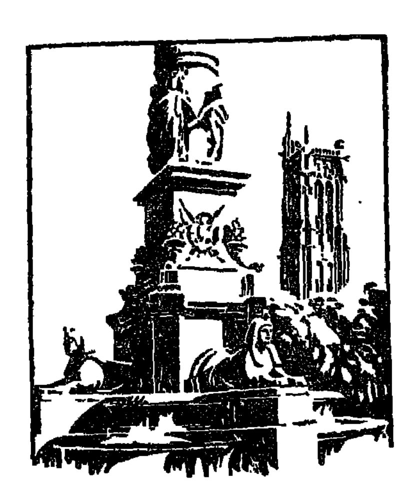
هبة من الرياح أو هزة من النسيم بل التفت العاصمة فى إزار من الهدوء كأنما أشار عليها ساحر بعصاه أن تظل بين هدأة الموت وجنحة الحياة . ولكن الأشياء لم تلبث أن تغيرت فسلمت المدينة العظيمة لجيش النور بعد هذا الجهاد العريض .

وانكشف سهل المدينــة المغطاة بأبنيتها الفخمة فكأنها المحيط بموجه وأسراره وجبروته وكأنها السماء التى تظللها فى عرضها واتساعها وكأنها تستحم فى ذهب الشمس المتناثر كحقل من القمح الناضج ولكن الإطار الذى يحيــط بتلك المباهج جميعها كان قوامه البساطة ودعامتــه السذاجة بين زرقة باهتــة تنحدر من السماء وذهب متألق من الأرض . وكان ذلك النهر المتدفق من أشعة الشمس يفيض على الأرض بالسعادة والفتنة كأن اليوم يوم ميلادها ترى فيــه الوجود لأول مرة بينما تغنى لهـا الطبيعة أغنيــة الحياة الطويلة ... ثم ترقرق النسيم وانتشر النور فى كل مكان حتى بدت باريس كأنها محبوسة فى قبــة من الزجاج الشفاف كأنما يخشى عليها من هبات الريح وهزات الزروع ... ورغم ذلك فقد كانت الريح خارج هذا الناقوس الزجاجى تحمل عليــه الفينة بعد الفينة حملات خفيفة مآلها الاخلاص والمداعبــة البريئة . وترى الشين متثاقلا بين ضفتيه الداكنتين كأنما قد أعياه طول المسير بينما تمرح عليه الزوارق الخفيفة كأنها الطيور الطروبة يلاعب بعضها بعضا فى غفلة من ركب الحياة . وكانت القناطر تعبر النهر على مسافات متقاربة فى ترتيب منسجم بينما هو يمرّ من تحتها صامتا حزينا ضاما شــفتيه المغطاتين بالأشجار الخضراء حتى ينطبق فمه على حافة الأفق فيتبع طريقــه النهائى مطرقا فى كآبة وشقوة . كانت الكبارى التى تصل جزيرة فرنسا (L'île de France) بشاطئ النهر تبدو عن بعــد كأنها أشرطة من الحرير الرقيق وكانت المدينة الهاجعــة تهيئ المنظر ليبــدو جلال برج نوتردام وليبدو ما عداها من الأبنية والبيوت كالشرار الصغير الذى لا يؤبه له .

وعلى الضفة اليمنى بين أشجــار الشانزليزيه كانت نوافذ قصر الصناعة بزجاجها المتألق تبدو كأنها العيون الساحرة يجول فيها تعبير السرور والسعادة وفى أقصى النظر كان من السهل أن يرى الانسان خلف سقف كنيسة المــادلين الذى يبدو كأحجار

القبور دار الأوبرا تبزغ بجمالها وهيبتها وخلف ذلك كانت تظهر الأبنيـة الأخرى ، كان يظهر عمود الفاندوم ، كنيسة سان ڤنسان دى بول ، برج كنيسـة سان جاك وأقرب من ذلك أقواس اللوفر والتويلرى وهى نصف مغطاة بأجمة من أشجار البندق المرتفعة ... أما على الضفة اليسرى فكانت قبة الانفاليد تبدو كأجل ما يرى إمتاعا وبهجة وخلفها برجا كنيسة سان سلبيس ثم أخذ لون السماء يشحب ويشحب إلا أنه كان يبدى على الرغم من ذلك على مدى البصر منظر كنيسة سان كلوتيلد والبانثيون الأزرق بأعمدته المشرئبـة صوب السماء تطل على المدينـة وتبرز بين أمواج الهواء كما كانت منـذ أن كتب عليها أن تجلس على مدى الزمن جلستها هذه ... وكانت مداخن باريس قد ابتدأت تدب فيها الحياة بعـد طول الغيبة وكانت البلدة تمتـد الى أقصى النظر حتى تختلط مناظر منازلها بعضها ببعض وما تختفى أطرافها يلفها نور السماء البنفسجى المتدفق كأنه دعابة الوجود .

إميل زولا



سبيل الشاتليه وبرج سان جاك

مونمارتر

بقلم الأستاذ توفيق الحكيم

— أنت تعرف عادتى ورغبتى ياچان : حساء البصل "سوب ألونيون" ونبيذا أبيض !



— وقلما وورقا ؟

— القلم والورق معى .

فأحضر الساقى خرقة جعل يمسح بها خوانا أمامى من الخشب نقش عليه بمطواة بعض العابثين صورة امرأة عارية تمطى كعاريات "موديجليانى". ثم نظر إلىّ وابتسم :

— أما زلت تكتب الشعر على طريقة ماكس چاكوب ؟!

قالها فى صوت غامض غريب . فصحت به للفور :

— قلت لك ياچان ذاك عهد مضى . عهد مونپارناس وقهوة "الدوم" . أما الآن فى مونمارتر فأنا إنسان آخر أصنع شيئا آخر.

— تكتب "شهرزاد" . هل فرغت منها ؟

— أوشكت . ولا ينقصنى غير موسيقى من طراز "استراڤنسكى". لقد عرفت هنا موسيقيا مجربا من نوعه . وأنضر قلبا منه . قد ينفعنى . لكن المعضلة ليست هنا ...

وأمسكت عن الكلام . إذ مثل لفكرى فجأة ختام " شهرزاد " الذى حرت فى تصوّره منذ أيام . ورأى چان شرود ذهنى فانصرف عنى تأدبا . وتناول قبعتى "الفنية" السوداء ومعطفى الطويل الأسود يقطران بماء المطر فعلقهما على مشجب بجوار النار . وعاد إلىّ يقول :

— أتعرف چورچ أوريك؟ كان يجلس إلى هذا الخوان . أما الآن فهو موسيقى معروف . أنت كذلك من يدرى مصيرك غدا . ؟

فضحكت على الرغم منى :

— أشكرك ياچان . مصيرى مظـلم . لو عرفت الحقيقـة . حتى مونمارتر بكل أسرارها وسحرها لم تستطع شيئا معى . إنهـا جعلتنى أفكر وأبحث كما ترى . لكن ما النتيجة؟ إن چورچ أوريك قد وصل لأنه بنى على ماض قريب . أما أنا فليس لى ماض قريب . أمامى أن أنفـذ إذن إلى ذلك المـاضى السـحيق الذى كادت تدرس معالمه تحت رمال الزمن ...

فهز چان رأسـه . ثم رفع يده إلى لفافة تبغ يحملها فوق أذنه اليسرى فأشـعلها وطفق يدخن . ثم تناول مكنسة وأخذ يكنس القهوة استقبالا للصباح الذى يبزغ عمـا قليل . ولم يكن بالمكان وقتئذ غيرى وغير رجلين مر‍ن اللصوص أو الطغام أو الفنانين العظام ! ! ! كانا واقفين أمام "بار" الزنك يشربان قهوة سوداء ويأكلان خبزا صـغيرا . وفى أحد الأركان امرأة مر‍ن مومسات الحى أو بنات الهـوى المتجوّلات المختلفات إلى ذلك المكان ممن كنت أسميهنّ "قطط المحل" ... جالسة فى هيئة من الكلال وسوء الحال تستثير الإشفاق . وهى بين آن وآن تتأمل وجهها الباهت تحت الطـلاء فى مرآة بالحائط كتب عليهـا بحروف من الجـير : " قهوة سـيرانو " .

أقبل چان بالحساء والنبيذ فلم أتحرك ولم أكف عن التأمل . فنظر إلىّ الخادم قليلا ثم قال :

— أرى الوحى لا ينزل عليك إلا آخر الليل !

— صدقت ياچان . هو لا ينزل إلا بنزول عربات الرش تدوى بهـا الشوارع الهادئة وأصوات قطارات الخضر المبكرة توقظ مخلوقات الله الوادعة !

فضحك الرجل . وطويت ورقى وألقيت بقلمى . وذسست ملعقتى فى الحساء ورفعتها وقد علقت بها خيوط الجبن الممزوج بالبصل والتهمت ثم التفت إلى الخادم :

— أتدرى أين كنت الليلة ياچان ؟

فأجاب چان من فوره فى صوت العارف الواثق :

— فى حانة "الأرنب الخفيف" .

— كلا . بل كنت هنا ...

وأشرت إلى مقصف "الفار الميت" على مقربة من القهوة . ذلك المرقص المشهور الكثير النفقة . فبدا الخبث فى عين چان وفى شفتيه وقال فى صوت المرتاب :

— وأين لك بالنقود ؟

— سبحان الله ياچان! أين لى بالنقود؟ من تحسبنى أيها المخلوق ؟ !

فضحك چان وقال :

— أحسبك رجل فن . و بين الفن والمال عداوة قديمة !

فأطرقت فى إذعان وتسليم وقلت فى تنهد :

— هذا صحيح . ومتى تزول هذه العداوة القديمة ياچان؟ ومتى تعقد الهدنة على الأقل ؟ إن المال حلو ياچان . إن النقود جميلة . إن مظاهر الغنى والبذخ والإنفاق والسعة هناك فى "الفار الميت" لشىء يجدد الحياة و يطيل العمر! نعم . كنت هناك الليلة . اطمئن ياچان : أصدقاء موسرون هم الذين تفضلوا بدعوتى فلبيت مرغما . وتكلفوا من أجلى خمسمائة من الفرنكات ثمن زجاجتين من الشمپانيا الفاخرة . ولا يغيب عن فطنتك ياچان أن هذا مكان يؤمه أهل الطبقة العليا . فلا ترى حولك إلا أردية السهرة وأقمصة منشاة وأربطة للعنق بيضاء . ولكنى أخذت على غرة فلم أستعد للسهرة ودخلت على أولئك القوم وأنا على ما ترى من هيئة نظيفة ! ! ! دون أن أحلق ذقنى على الأقل ... ودون أن أنظم حتى شعرى المبعثر الأشعث فى سبيل "أپولون" ! ! !

فنظر إلىّ الخادم من رأسى إلى قدمى متفحصا ثم ابتسم لمنظرى وقال :

— وأى بأس؟ أنت من فصيلة الشعراء ! ...

— ماذا تقول ؟

— مباح لكم كل شيء !

— آه لهذه الحرية التى يحسدوننا عليها ! ما قيمتها بغير نقود !

لن أنسى مظاهر النعمة التى رأيتها هناك . لن أنسى أنى جلست كما ترانى الآن بين القوم الأغنياء وأجلسنا معنا غانيتين "بول دى لوكس" لم تر عينى أجمل منهما صنعا ! صنعتهما أيدى حلاقين مهرة بخرة ! أجل ياچان . صدقنى ! أى تماثيل حية ! أين فيدياس و براكسيتيل يشاهدان اليوم أعاجيب صالونات الزينة ومعاهد الحسن ! لم تعد المرأة وحيا و إلهاما للخالق الفنى . ولكنها أصبحت هى نفسها قطعة فنية وخلقا فنيا . وأصبح الوحى والإلهام لصنعها الصور والتماثيل . وهكذا ثملت قليلا فيما يبدو لى من الخمر اللذيذ أو من الحسن الكثير فلم أنتبه إلا وأنا بين ذراعى حسناء أرقص معها على أنغام الجاز رقصة " البلوز " — كما قيل لى — بين رهط من الراقصين الحاذقين ... وأنا لا أعرف الرقص ما هو .. وما أحببت يوما أن أعرفه . وحانت منى التفاتة الى مرآة الحائط فاذا على رأسى طرطور أحمر مذهب الحواشى . وإذا أنا ملتف فى حبال من ورق . " السربانتان " فسرت فى جسدى رعدة وآستدرت حولى فاذا الجميع مثلى صغيرهم وكبيرهم قد لبسوا الطراطير والقلانس والتيجان من الورق المقوّى مختلف الألوان واختلطوا فى رقص متلاطم عربيد كرقص عباد "ديونيزوس" . أجل ياچان . كانت ليلة بديعة . إنك لاتتصوّر كيف يمكن للانسان أن يستمتع بالعيش هنا فى مونمارتر . وعلى مقربة منك ! إن هذا "الفأر الميت" لمفعم بالحياة !

صمت چان لحظة . ثم رفع رأسه وهزها ثم قال :

— كلا . كلا يا مسيو "الحكيم" . كلا . حياتنا نحن فى هذا الركن الحقير . قهوة "سيرانو" وأمثالها وحانات "القط الأسود" و "الأرنب الخفيف" و "أرستيد

بروبان" و"الجنـة" و"الجحيم" ... الخ ... تلك مونمـارتر الحقيقية . أما "الفأر الميت" وأشباهه فمصايد لاقتناص المـال من جيوب الثراة .

تفكرت قليلا فى كلامه فوجدته الصواب فصحت :

— براڤو ياچان ! مرحى وألف مرّة مرحى ! هذا كلام عميق ماتقول الآن . هذا حق . أتعلم لمـاذا تركت أنا مونبارناس وجئت أعيش فى مونمارتر؟ أحسست بمـا تقول أنت الآن : أن روح التجارة وقنص المـال تكاد تعم مونبارناس الذى ينافس حيّنا هـذا حتى ليكاد يقتله . شعرت أن مونبارناس ليس إلا حى السائحين من جميع الأجناس . وحيث يظهر السائحون يظهر البـذخ والكذب والادّعاء . نعوت ثلاثة يهرب منها الفن هربا . وأحسست من ساعتى أن مونمارتر فى أنحائها السافلة الفقيرة ماتزال مرتع الفن الخصيب والفكر الحـر . نعم . لكم تنتعش نفسى إذ أجوس خلال هذه الجهة : شارع "روششوار" ... شارع "بلانش" ... ميدان "ترتر". تلك المنـاطق المتواضعة التى خلدها موريس أوتريللو فى صوره ولوحاته ...

فقال خادم القهوة سريعا فى إعجاب يلمع فى عينيه :

— أوتريللو ؟ لقد أتى هنا أيضا وجلس فى هذا الركن وسمعت حديثه ! ...

— فى هذه القهوة! وأى غرابة؟ ... إنه لا يستطيع رغم شهرته الآن أن يسلو حياة التشرد فى مونمارتر . ولا يريد أن يهجر هـذا الحى الذى نشأ فيه . ما أجمل هـذا الإخلاص ! إنه ولاريب المحب الأمين الذى لم تبرد عاطفته نحو مونمارتر ! لدىّ بعض صـور منقولة عن لوحاته . لكن لست أنظر فيها الآن كثيرا . إنى أدخرها للغد يوم لا أجد عزاء غير الصور . أما الآن فان مونمارتر تحتوينى بذاتها وحقيقتها وتهمس فى نفسى بكل شعرها وبكل موسيقاها الداخلية التى لن يخفت لهـا صدى ما دمت أعيش .

وسكت قليلا إذ بدا علىّ شىء من التأثر . فسألنى چان :

— أتنوى أن تعيش هنا طويلا ؟

— ياليت :..

قلتها من كل قلبي وأنا أرى شبح المصير الذى ينتظرنى :

— أسكت ياچان ! لا تذكرنى بالغد . إنى الآن أعيش . حسبي هذا . أعيش فى مونمارتر . فردوس الفن ... الذى سأفقده يوما . سوف أذكره مع الحسرات . وأذكر حياتى الشاردة بين قهوة سيرانو . وحانة "الأرنب الخفيف" . وسوف تتمثل لى كل لحظة تلك الحانة المظلمة بنورها الضئيل وروادها الجالسين الى براميل انقلبت موائد ينظرون الى رسوم على الحيطان وتماثيل كلها ذوق فى التصوّر ولذع فى الفكاهة وغرابة فى الأداء وينصتون الى أغانى القرون القديمة وقد بعثت فى ثوب جديد من مغنين وشعراء حديثين موهوبين . ويشربون "البورتو" ممزوجا بالكرز ويضحكون من نكات الساقين الظرفاء مثلك ياچان . تلك النكات الرشيقة المبطنة بحسن الذوق وعلو الكعب فى التخيل والشعر . حانة ساقوها وخدّامها شعراء ومغنون . أليس منهم نبغ "كاركو" و"دورچليس" ؟ ! كما نبغت "إيڤيت جيلبير" من قبل ؟

— أتذهب الى تلك الحانة كل ليلة ؟

— أكثر الليالى . عند ما كنت أقطن بجوارها . أما الآن فانى أقطن فى ناحية أخرى من الحى . شأنى فى كل شهر . ما أحلى التنقل والحرية ياچان ! مسكنى اليوم فى شارع "روششوار" . حجرة تحت السقف فى منزل يحتوينى أنا وشرذمة من المصوّرين "الكوبست" . وأفتح نافذتى فأرى قبة كنيسة "ساكريه كور" البيضاء فى متناول يدى كأنها بيضة صوّرتها ريشة "چيورچيو دى شيريكو" بشىء واحد يزعجنى فى حجرتى الجديدة : المطر الذى يتسلل من خلال السقف فأتقيه باناء أضعه فى الفراش على رأسى طول الليل ! نعم ياچان . تلك حياتنا كما تقول . لكنى أحبها مع ذلك . ولا أريد سواها . وأرى الجمال فيها أينما حللت . حتى مقبرة مونمارتر كنت أراها من نافذة حجرتى السابقة قائمة فيها أشجارها الكستناء يغطيها الجليد أيام "النويل" فكأنها ملائكة بيضاء . ما أبدعه منظرا ياچان ! لو شاهدته عيناك ...

فرفع الخادم رأسه ثم قال :

— حقا منظر جميــل ! ما للشعر دائما من بضاعة غير الجمــال ! ألديك سيجارة على الأقل يا مسيو "حكيم" ؟

— ولا كبريت يا مسيو چان . مع الأسف . أنسيت أنى لا أدخن ؟

— حقيقة . حقيقة نسيت . أنت لا تدخن قط مع الأسف الشديد !

— خمسة أشياء لم أفعلها قط فى حياتى : شرب الدخان . ولبس القفاز . وحمل الساعة . وركوب الدرّاجة . والعوم !

فضحك الخادم ضحكة كبيرة . وكنت قد مسحت إناء الحساء مسحا . ومحوت وجود النبيذ محوا . فحمل چان الكوب والإناء وابتعد . وأردت أن أعود الى ورقى فاذا الساعة تدق منتصف السادسة . و إذا النهار يطلع . وشاهدت من خلال زجاج البــاب بعض العمال والعاملات فى الطريق ذرافات ووحدانا تمشى مسرعة الى الترام والمترو وفى أيدى الجميع صحف الصباح . فطلبت الى چان قبعتى ومعطفى فأحضرهما وهو يقول :

— لمــاذا تنصرف مبكرا الليلة ؟

— مبكــرا ؟

— إنك لم تكتب حرفا .

— لقــد أدركنا الصباح يا چان . و" شهر زاد " تسكت عن الكلام والإلهــام إذا أدركها الصباح .

فابتسم چان وتأمل لحظة ثم قال :

— إنها كمونمــارتر .

فحملقت فى وجهه بعينى دهشا . ولكنه استطرد يقول :

— مونمارتر كذلك تسكت عن الكلام والإلهام إذا أدركها الصباح !

فألقيت بقبعتي على الخوان متحمسا وصحت به :

— چان! واحد من أمرين : إما أنك ذكيّ الفؤاد . وإما أنك شاعر بالسليقة . سمّ نفسك ما شئت . إنما أنت الآن تقول قولا صادقا جميلا بدون أن تشعر : إن مونمارتر هي شهرزاد . وإني — لو عرفت الحقيقة — ماقطنت هذا الحيّ عبثا . ولسوف تقرأ "شهرزادي" وتتعرف فيها ملامح مونمارتر . إن "شهرزاد" في نظري لم تكن يوما قصة الخيال والبذخ والخرافة كما فهمها الشاعر "كاتول منديس" في قصيدته ... والموسيقى "رمسكي كورساكوف" في قطعته السانفونية . لكنها عندي قصة الفكرة والحقيقة العليا . قصة الروح التي خرجت من المادة . كذلك مونمارتر التي اشتهرت بلهوها وانغماسها في بؤرة المادة ... أي روح تخرج منها كل يوم فياضة بالخلق والابداع ! مونمارتر هي تلك المرأة اللعوب ذات الروح العميقة . هي غانية تنام النهار وتسهر الليل تكشف لعشاقها عن محاسن الحياة وأسرار الحياة . هي أيضا كشهرزاد تعمر الليل بأقاصيصها وحكاياتها عن الحب والفنّ حتى الصباح فتسكت عن الكلام المباح وغير المباح! ولكن شهرزاد قالت ماعندها في ألف ليلة وليلة ، ثم سكتت سكتة الأبد لأن زوجها وعشيقها شهريار كان قد أصغى إليها وانبهر مما سمع فزالت عن عينيه غشاوة الماضي . وأبصر ما في الحياة وما بعد الحياة من معان وأسرار . وأدرك أنه قبل أن يعرف شهرزاد ما كان إلا طفلا يلهو ويعبث كل ليلة بزوجة يقتلها في الصباح . فاذا هو مع شهرزاد يرى في الحياة أشياء أخرى غير مجرّد اللهو والعبث . إن شهرزاد مربية شهريار ومثقفته في ألف ليلة وليلة قد صنعت منه رجلا . ثم صيرته بعد ذلك شيئا آخر غير الرجل : ما بعد الرجل ... مونمارتر كذلك تدخلها طفلا يلهو فتصير رجلا يشعر ويحس ثم تتركها مخلوقا يتأمل ويفكر ... أي تأمل وأي تفكير؟ شهرزاد قامت بمهمتها في ألف ليلة وليلة . أما مونمارتر فتقوم بمهمتها في كل ليلة منذ مئات الأعوام ... لا مع رجل واحد . لكن مع رجال كثيرين . لا مع كل إنسان . لكن مع الانسان الذي يصغي اليها ويجلس بين يديها ويعرف لغتها ويفهم عنها وينفذ



فى مونمارتر

الى روحها السحيقة من خلال ظاهرها اللاهى الماجن المبتذل الخفيف . نعم يا چان . بل إنى أريد أن أقول أكثر من هذا . أريد أن أقول أن مونمارتر ليست قط تلك المرأة الفاجرة التى توحى باللذة السافلة . كلا . إنها فى أعماق نفسها امرأة لا توحى بغير الطهارة الكاملة . أقسم لك يا چان أنى فى حياتى ما أحسست الطهارة العليا الكاملة إلا فى هذا الحىّ الخليع ! أتصدّق هذا ؟ وهل تعرف السبب ؟ السبب بسيط : الحرية . تلك الحرية المطلقة فى إتيان أية رذيلة بدون خشية قيد أو تحريم . هذه الإباحة للرذيلة زهدتنى فى الرذيلة نفسها . إن الانسان بطبعه يطلب الممنوع عنه المحرم عليه ويزهد فى المباح . إن الملك شهريار الذى استمتع طول حياته السابقة بالنساء وباللذة الجسدية كاد يقتله الملل فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة واحدة . حتى جاءته شهرزاد فكشفت له عن اللذة الروحية . فاذا هو ينقلب إنسانا يعشق كل ما هو روح ويمقت كل ما هو مادة . وإذا هو يصيح كلما عرضت له المادة : "شبعت من الأجساد ... شبعت من الأجساد !". هذه الصيحة انطلقت من فمى يوما ... كما انطلقت من فم كل فنان فى مونمارتر . أرأيت كيف أن مونمارتر هى فى حقيقتها مملكة الروح لا مملكة المادة ! أكثر من هذا أيضا يا چان : مونمارتر هى النافذة المفتوحة على بيداء الفكر المهلكة . هى المحطة التى يبدأ منها كل فنان أو مفكر رحلته المخيفة فى طريق البحث عن الحقيقة

العظمى : علمتــه مونمارتر التفكير فاتجه اليه هازئا بالعاطفة غير حافل بأعباء السفر حتى يظفر بالمجهول . ألا تذكر : پيكاسو . چان كوكتو . إيريك ساتى . زادكين... الخ . أسماء فى التصوير والشعر والموسيقى والنحت ذهبت مغامرة فى تلك البيداء ... لا يعلم أحد أتعود أم لا تعود. كذلك شهرزاد أوحت لزوجها بجمال الفكر فخلع عنه العاطفة وانطلق يهيم فى تلك الصحراء خلف سراب العقل والفكر... لا يعلم أحد أيعود هو أيضا أم لا يعود... كل هذا وشهرزاد باقية كمونمارتر ترمق محبها القادم والراحل بتلك النظرة العميقة، وتلك الابتسامة التى لا يدرك لها كنه ...

وصَمَتُّ قليلا ، ورفعت عينى إلى چان فاذا هو واقف بغير حراك يصغى وكأنه فى حلم . ودخل القهوة رهط من العمال والعاملات يطلب كل قدحا من القهوة وخبزا صغيرا . فانتبه الخادم وانصرف إليهم مسرعا . ولبست أنا قبعتى ووضعت معطفى فوق منكبى وضعا ... وتوجهت إلى حجرتى ... أسدل سجفها حتى لا يزعجنى الضوء ... وأملأ زجاجة الماء الساخن أضعها تحت قدمى خوف البرد ... وأنام حتى "مطلع" الليل . شأن الفنانين عشاق مونمارتر المدللين ... الخاضعين لهذا الشعار : "حياة الليل وموت النهار" .

توفيق الحكيم



الساكريه كير

الفتــاة العــاملة

لعل بلدا من بلدان العالم لا يستطيع أن يضارع باريس فى تلك الروح الخاصة التى تمتاز بها تلك المدينة تلك الروح التى يلمسها كل من كانت له سعادة التمتع بباريس والبقاء بها وقتًا ما .

ولعل من أهم الظواهر التى يلمسها المرء فى باريس فتياتها العاملات فكل واحدة من هاته الفئة نمط صحيح لحياة باريس التى تفضل الضجة الصاخبــة على العزلة والحركة على الراحة والضوضاء القلقة الحائرة فى الشارتريز أو الكوليزه على هبات الريح الهادئة ورقرقة المــاء وترنح أوراق الأشجار، تلك الروح التى تنزع الى جهــة شوارع باريس المصمة للآذان أكثر مما تنزع الى هدأة الحياة الريفية. تلك الروح التى تجنح الى بريق الألعاب النارية وجلبة المراقص أكثر مما تجنح الى ليلة ناعسة ذات نجوم ضريرة وظلام وسكون .

أجل إن أولئك الفتيات يفضلن صراحة شــوارع العاصمة على خضرة المراعى وبهجتها، يفضلن أفاريزها المزدحمة على الطرق النــاعمة الطلقة ذات أريج البنفسج التى توجد فيه مغانى الغابات، يفضلن ذلك الغبار الخانق المتطاير فى أجواء باريس على رجرجة القمح فى ضــوء ذهبى باعث موشى بأزهار برية قوية وما يكتنفه من زرقة ذوات الجرس الملون (*) .

والواحدة من تلكم الجماعة لا تترك غرفتها إلا فى أيام الآحاد أما كل صباح فهى تنطلق ساعيــة الى تحصيل مؤونتها من أعشاب الأفراخ والخبز واللبن والحب لهــا ولطيريها . لكنها تعيش فى باريس والعيش فى باريس يمتــاز بلون خاص يتخطف البصر ويبعث فى الانسان نشــوة تمنى عليــه أن يعيش فى باريس إن لم يكن قد عاش بها .

(*) نوع من الأزهار .

ورغم هذا التحرق البادى للذات باريس، ورغم هذه الحرية التى تشيع فى جميع أجوائها أو على الأصح تلك الوحدة التى تجد نفسها فيها، ورغم الاقتصاد المؤلم الذى تضطر نفسها الى اتباعه، رغم كل ما يقابلها من وجوه تتقطر فتنة وتزهو روعة، رغم كل هذا فما فكرت عاملتنا الصغيرة أن تنتقى من بين ألوان الجمال التى تحيط بها من بين الشبان الذين يحومون حولها من تعدّه مقربا الى قلبها ولا نقول حبيبا لها .

فهى إن فكرت فى شيء من هذا فانما تختار هؤلاء المقربين الى قلبها من جيرتها .

وصاحبتنا هذه لا تزيد فى الغالب على الثمانية عشر عاما ، ولكنها خلقت على جانب من حسن التكوين وفتنة الخلق حتى لتحسبها أنموذجا للجمال بعثها الله الى الدنيا لتكون أغنية الشعراء وفتنة الفنانين . جميلة حتى ليجاوبك من وجهها صوت يقفك على بهرها ورقتها وتواضعها . وهى من التكوين الفاتن بحيث تجد نفسك مضطرا الى التسليم بأن أى تغيير فى هذا الجمال الجامع يفسد معالمه فهى كما هى آلهة الافتتان وأنشودة الحياة . وانك لتذكر حينما تراها تحرك ساقيها الملفوفتين وقدميها الصغيرتين مشية العصافير الصغيرة حين تقفز تارة وتتأرجح أخرى . فهى لا تمشى فى الحقيقة ولكنها تلمس الأرض لمسا ثم تنزلق عليها فى خفة ورشاقة .

وتلك المشية المقصورة على فتيات باريس العاملات تعزى فى الغالب الى عوامل ثلاثة : رغبتها أن يقول الناس عنها أنها جميلة فاتنة ، خوفها من نقد الناس حركتها وهى الحريصة على إقناعهم بجمالها ، ثم قلة وقتها غالبا . وهى تعمل فى الصيف الى جانب نافذتها المقنعة بستار خفيف وهى تلزم فى الشتاء جانب المصطلى الهادئ تعمل فى ضوء مصباح خافت .

ولكنها فى أيام الآحاد تبدل من هذه الحياة المملولة لتواترها حياة كلها فتنة ومتعة يشركها فيها شاب من جيرتها قوى مرح مثلها تتفزز من جوانبه الحياة .

وهى فى كل يوم اثنين تعود الى استئناف عملها من جديد وفى رأسها تخاليف من ذكريات الأمس وملذاته، والغد وما سيأتى به ... .

أوچين سو



الفتاة العاملة : المانكان

وهى تخطر فى الزى الجديد " الموضة " أمام المتفرجين

فى دور الخياطة التجارية الكبرى

باليـــه رويّال



باليـــه رويال

وفى باريس ملعب (Palais Royal) لا يعرف باريس من لا يعرفه ولا يزور باريس من لا يزوره ولا يصـل الى حقيقة النفس الفرنسية من لم يختلف اليه ويتذوق مايلعب فيه . وكيف تفهم أثينا من غير ارستوفان .

إذن فملعب "باليه رويال" من باريس هو كملعب ارستوفان من أثينا فى القرن قبل المسيح . فى هذا الملعب الباريسى الصغير الخامس تظهر من النفس الفرنسية ناحيتان مختلفتان إحداهما حلوة جدّا والأخرى مرة جدا وكلتاهما مضحكة تحمل على الإغراق فى الضحك . وأنا زعيم لك اذا شهدت ما يلعب فى هذا الملعب وفهمته من وجهته أن تضحك كما لم تتعوّد أن تضحك قط وأن تضحك بعد فراق الملعب بيوم وأيام . وأن تضحك كلما ذكرت هذه القصة التى شهدتها . وإنى لأذكر الآن قصصا شهدتها منذ عشر سنين فلا أستطيع أن أدفع الضحك عن شفتى .

فى هـذا الملعب الصـغير تعرض عليك الحياة الفرنسية كلها أدبهـا وسياستهـا وعلمها وتجارتها وزراعتهـا وطبقات الشعب المختلفة فيهـا . على ألا يظهر الممثلون من هذا كله إلا ما هو خليق بالنقد حرى أن يبعث الاستهزاء والسخرية . شهدت فيه هذا العام قصـتين : فلن أنسى ثانيتهما التى كان موضوعها الوزراء الفرنسيون فى حياتهم الخاصة بين أزواجهم وخليلاتهـم . ومهما أنس فلن أنسى أحد هؤلاء الوزراء وقد كلف بفتاة كانت تعمل فى مكتبه ومايزال بها حتى ترتفع بينهما الكلفة واذا هو قد نسى نفسـه ومكانته ومنصبه وامرأته وكل شىء، وأصـبح رجلا من

عامة الشعب أمام مرأة من عامة الشعب واذا هو مستلق على الأرض يعبث بيديه ورجليه ويمتلئ فيه بالضحك وأشنع ألفاظ المزاح . ويدخل رئيس الوزراء فيرى زميله فى هذه الحالة فهو دهش مبهوت ، ولكنه لا يكاد يخلو الى هذه المرأة حتى يكلف بها واذا هو يكيد لزميله واذا هو يتملقها ويتقرب إليها واذا الكلفة قد ارتفعت بينهما واذا أنت تسمع من الرئيس مثلما كنت تسمع من صاحبه ، ولكنك تضحك من الرئيس أكثر مما كنت تضحك من صاحبه لأن هذا الرئيس قد اتخذ فى شكله وحديثه وحركاته ما يذكرك أو يفرض عليك أن ترى وزيرا من وزراء فرنسا القائمين كان رئيس وزارة فيها عشر مرات . ويبلغ الضحك أقصاه حين تسمع هذا الرئيس يسمى نفسه أرستيد .

على أن للهزل فى ملاهى باريس وملاعبها ألوانا مختلفة وفنونا متباينة . فأنت تشهد فى بعض الملاعب هذا الهزل المريح الذى يقصد به الى الضحك ليس غير لا يدعوك الى تأمل ويضطرك الى تفكير ولا يخيل إليك أنه يمثل الحياة أو ناحية من الحياة وانما أنت مقتنع منذ ترى أول التمثيل أنك أمام هزل خالص لا أكثر ولا أقل .

هذه القصة التى شهدتها تمثل الموتى فى الدار الآخرة وهم يبعثون فى الجنة ضروبا من العبث تشبه عبثهم فى الدنيا ، ومنهم من يحتال على بوّاب الجنة حتى يظفر بالإذن فى أن يهبط الى الأرض أول النهار على أن يعود الى الجنة منتصف الليل . فاذا هبط الى الأرض رأى أرملته وقد كادت تفتن برجل من الأحياء ، فما يزال بها وهو متنكر حتى يصبيها ويصرفها عن خصمه حتى إذا كانت ساعة الصعود الى الجنة أبت صاحبته إلا أن تصعد معه وخيل إليها أنه صاحب طيارة تطير معه واذا هى فى الجنة . ثم تنتهى القصة واذا كل ما فيها حلم حلمه رجل بعد أكلة دسمة وشراب كثير .

فاذا أردت الجدّ فما أكثر ملاعب الجدّ وما أكثر ما يعرض عليك فيها من الفنون : منها القديم ومنها الجديد . منها الهادئ ومنها العنيف . منها ما يقصد

الى التسلية والعظة ومنها ما يقصد الى الدرس والبحث . ومثل ذلك، في الموسيقى الجادة والموسيقى التي تتوسط بين هذا وذاك . ولديك الموسيقى الخالصة لا تسمع فيها إلا الأدوات الموسيقية يصحبها الغناء ، والموسيقى يصحبها الرقص والغناء جميعا .

ولديك في باريس فنون أخرى تلهيك عن نفسك إن كنت لا تريد أن تعود إليها . وأنت تستطيع أن تاخذ بحظك من هذه الفنون في أي ساعة شئت من ساعات الليل وفي أي ساعة شئت من ساعات النهار وفي أي فصل شئت من فصول السنة .

ثم يزعم بعض الناس على ذلك أن باريس ليست مدينة فرحة مبتهجة ولست أدري اذا لم يكن الفرح والابتهاج في باريس فأين يكونان .

طه حسين

باريس ؟ !

ها هي نقودي أخذت تتناقص بسرعة مدهشة ، وها هو عقلي أخذ يهرب بالتدريج، حتى لا أدري هل أستطيع أن أتم رحلتي إلى انكلترا وسويسرا وإيطاليا، وفي جيبي نقودي وفي رأسي عقلي، أو لا ؟ ! ...

لا تنتظري يا قارئتي العزيزة . ولا تنتظر يا قارئي العزيز . إنني سأحاول الوصف هنا . بالاختصار إذا أردتم أن يصيبكم ما أصاب جيبي وعقلي فتفضلوا على الرحب والسعة . ومع ذلك فاني راض تمام الرضاء ...

مصيبتي المالية والمعنوية آتية من ناحية واحدة . لا أدري أي شيطان صوّر لهم أنني "أميركاني" من نيويورك ومن أرباب الملايين . ولذلك اضطررت اضطرارا أن أعيش عيشة فاخرة . وسأنتقم من نفسي إن شاء الله عند ما أعود الى القاهرة .

* * *

فى "شـقتى" الهادئة الممتعـة فى حى "الاتوال" وفى شارع "كولونل رنارد" أكتب كلمتى هذه . وبجوارى أربع مدموازيلات من الجيران يتفرّجن على مسألة واحدة تبـدو لهن فى غاية الغرابة : كيف أكتب من اليمين إلى الشمال . فاذا قلت لهنّ أنى مصرى ولغتى عربية صحن بصوت واحد : ما أجمل مصر ! وتنهـد الجميع بالاجماع تنهدات موسيقية حارّة وكل واحدة منهنّ تودّ لو أتاح لها القدر أن تزور بلد الجمال والكمال ! ...

قلت لأجملهنّ : تزوّجينى وسافرى معى ...

قالت : وهل أستطيع أن أرقص هناك ؟

قلت : أما "الرقص الأفرنكى" فدائما أبدا معى — أى مع زوجك الوقور — وفى داخل المنزل على نغمات الفونوغراف ...

قالت : يا للضايقة . وألوان الطعام ؟ !

قلت : عندك "الفول المدمس" فى الصباح ، والبصارة والعدس والفتة ذات الكوارع ، والفسيخ ، فى الغداء والعشاء ...

قالت : والاپراتيف ؟

قلت : عندك الطرشى ومخلل الخيار واللفت والبصل ...

قالت : والمشروبات ؟

قلت : ماء النيل ليس غير ...

قالت : إنى رافضة . .

قلت : وأنا أيضا رافض ...

فكرى أباظه المحامى

الفنادق والمطاعم

يدهش المرء حين يعلم أن عددا كبيرا من سكان باريس يعيشون فى غرف مؤثثة "بنسيون" أو فى الفنادق. وهم على الأرجح أجانب أو زوار من بلدان فرنسية غير باريس تجدهم يحتلون غرفهم الصغيرة من سنة لسنة، ثم يتركونها أو يبقون فيها وفقا لرغبات أهوائهم وهم أحرار الى أبعد حدود الحرية، لا يسألون عن ليال تأخروا فيها ولا سهرات أطلقوا فيها العنان لجواد اللذة . وليس يعرف أحد عنهم رغم هذا شيئا إذ أن حارس باب البيت أو الفندق اذا ما سمع دقاتهم على الباب فتحه لهم دون أن يكلف نفسه مشقة النظر اليهم . وأما الخدم — وطالما كانوا محصين لخطواتهم وروحاتهم — فليس يوجد منهم عندئذ أحد .

فاذا شاءوا أن يأكلوا فهم على الأرجح لا يتكلفون إلا مسير بضع خطوات يجدون بعدها مطعما صغيرا متواضعا يقدّم لهم أشهى المآكل مع أعتق النبيذ لقاء دراهم معدودة . والى جانب المطعم يستطيعون عادة أن يجدوا المقاهى التى يقضون فيها أوقاتهم يتحدثون الى أصدقائهم، أو يلعبون شتى الألعاب، أو يقرأون الجرائد، أو يشاهدون المارّة ، أو يكتبون الرسائل ... يقضون فيها معظم أوقاتهم سعداء ما ينتابهم ضيق أو ضجر .

ولا تحسبن العزاب وحدهم هم الذين يؤثرون هذا الطراز من العيش ولكن كثيرا من الأزواج — متزوّجين أو غير متزوّجين — يتمتعون بعيشة هنيئة طيبة على هاته الوتيرة أيضا . الرجل يشتغل عادة والمرأة تعمل أيضا ثم يتقابلان فى مطعمهما المختار عند الظهيرة فيتناولان الغداء و يقضيان مساءهما فى المقهى الذى يحبانه ولهما بعد ذلك أن يذهبا الى غرفتهما فى الوقت الذى يشاءان دون أن يتجشما تعبا فى ادارة المنزل أو إعداد الطعام أو تنظيف الأثاث والملابس، ولعل فى هذا الضرب من العيش معنى لا يخفى على المشاهد هو أن الأطفال فى حياة كهذه لا يمكن أن تتوفر لهم التربية اللازمة . فعلى الزوجين اللذين يقضيان حياتهما على هذه الصورة ألا يفكرا

فى إنجاب الأطفال وإلا فيتحتم عليهما أن يركنا الى حياة البيت الهادئة التى تهيئ الأطفال للتربية الصحيحة .

ولا يسع المرء إلا أن يقف مبهوتا إزاء كثرة الفنادق ومنازل السكنى العامة فى كل حى من أحياء باريس . وهذه البيوت فى العادة صغيرة جدّا وهى ليست مخصصة للسافرين أو السياح بل ان لها روّادها الذين لا يتغيرون عليها ولا يزايلونها إلا لماما .

أما المسافرون الأغنياء فلديهم فنادقهم الخاصة بهم وهى على درجات وأنواع : فمنها الفخم الذى يحكى قصور الملوك وتتناسب فخامته مع أجوره . ومنها الصغير النظيف الذى تعدّ أجوره رخيصة بالنسبة لأجور الطائفة الأولى . وإلى جانب الفنادق جدّ بعد الحرب الكبرى نظام خاص بالمنازل المؤثثة وهى تتباين سعة وضيقا ، ورخصا وغلاء .

والحقيقة أن حياة السياح فى باريس — وهم فى الغالب يقضون بها وقتا طويلا — تكاد تكون مستقلة داخل باريس عما عداها من ألوان العيش فلأصحابنا هؤلاء ملاهيهم وكنائسهم وأنديتهم وملاعبهم وفنادقهم وبيوتهم وكل ما يحتاجون اليه ولكنها تختلف الاختلاف كله عما يلائم غيرهم من الباريسيين أو من الزائرين العادبين لباريس .

فلسنا نعدو الحق اذا قلنا أن باريس تعدّ بمثابة عالم كبير متسع الأرجاء ولكنه ينطوى على عدّة عوالم أخرى أصغر منه حجما وأقل شانا . فيها عوالم الأغنياء ، وعوالم الاجرام ، وعوالم الفقراء ، وعوالم المتوسطين ، ورقيق الحال . وكل واحد من هذه يتباين تماما عن غيره من العوالم . واذا أطلت البقاء فى باريس فستجد ضروبا من الحياة تدهش لها ولكنك ستدهش أكثر حين تعلم أن كل أصحاب هذه الصنوف من المعيشة يعتزون بها ، ويتعصبون لها على صورة هى آية فى الحدّة والعنف . ولعلك لا تعدم أن تسمع فى اليوم الواحد أكثر من مرة لفظى (chez nous) (عندنا) وقد يكون من الخير أن نقول إن الفرنسى متحزب دائما — اذا كان من الطبقة الوسطى — لمنزله وأسرته فهو لا يكاد يسمح لدخيل أو غريب عن أسرته أن يراها فى معيشتها الداخلية عكس ما هو معروف عن الفرنسيين ...

سسلى هادلستون

عادات

الباريسيون على المـائدة



برونييه من أفخر مطاعم السمك بباريس

ليس أحب الى نفسى من أن أرى هؤلاء الباريسيين على المـائدة . وحقا إنه لمنظر يستهوى الفؤاد ويسترعى جوارح من لم يسـعدهم الحظ باللقاء فى باريس . حبيب الى النفس حقيقـة أن ترى جماعات الباريسيين فى أيام الآحاد مع أطفالهم يلهون فى مسارح باريس وضواحيها فى "ميدون" أو "البلفى" أو "أنيير" أو غيرها يستروحون بهوائها ويتمتعون بمناظرها وينسون لحظة حياة باريس العابثة المستهترة. فهنا وهناك آلاف من المطاعم والمشارب . فأولئك الذين يقتدرون على دفع أثمان مطالبهم تجد أمامهم الأخونة وقد تغطت بصنوف الأكل حتى زادها الأكل وأتخمها وفى كل ثنيـة أو حنية ترى الجماعات المرحة المستبشرة تجلس فى ظلال شجرة وارفة يتمتعون بمحتويات سلة جلبوها من منازلهم ابتغاء الاقتصاد . ويمر اليوم على أسعد ما تكون الأيام ثم يمضون بعد ذلك هزيعا غير قصير من الليل فى ظلال خميلة جميلة أو بيت صيفى بديع حيث تثور فى نفوسهم الدعابة الباريسية المستملحة تحت تأثير زجاجة النبيذ الفرنسى المعتق تلك الدعابة التى تستتر وراء الروح الباريسية المتوقدة .

فليس هناك شجار أو صراع أو عربدة . بل يوم جميـل سـعيد يجدّد فى أرواحهم نشاطها و يهيؤها للا يام الستة التاليـة . وليست تلك السعادة مقصورة على أعضاء الأسرة الواحدة ، بل إن حيوان الأسرة وكلاهما تشـترك معها فى تذوق ألوان السعادة أشتاتا ، و إنى لأذكر أنى رأيت عصفورا جميلا يشارك جماعة صفو أوقاتهم وما يشعرون به من متاع وفتنة . أذكر أن فتاة حلوة كأحلى ما تكون الفتيات ، كانت تناجى عصفورها هذا فى "غابة فينش" قائلة له " يا للمخلوق الصغير ! لقد كان عليك أن تقضى يوما تعيسا لا بهجة فيـه لو أنا تركناك فى البيت " . وفى باريس مطاعم للطبقة الراقية منهم ومطاعم يشتركون فيها جميعا . ولعلك لا تمضى وقتا كبيرا فى باريس حتى تسمع أحدهم يقول "إن الحيوان يتغذى أما الانسان فيأكل ولا يعرف كيف يأكل على أسلوب صحيح إلا من أوتى حنكة ودربة " . وأول ما ينصحون لك به أن تمشى قليلا حتى تستعدّ معدتك للأكل أو أن تتناول فاتحا لشهيتك . وهم يقولون لك ذلك عن تجربة فترى الواحد منهم يؤكد لك — فى أمتن صيغ التوكيد — أنه من دون هذا لايستطيع أن يتناول طعامه . وهم مواظبون تمام المواظبة على مواعيد أكلهم فترى الباريسى من بينهم إذا حان ميعاد أكله — اتخذ مقعده فى مطعم من المطاعم الكبيرة وهو بادى الجـدّ كأنه فى حفل لاستقبال عضو من أعضاء المجمع العلمى . وسرعان ما يأتيه "الجرسون" بقائمة الطعام ثم ينسحب فى الحال ذلك أن هؤلاء السادة — كما يخـبرك الرجل — لا بدّ أن يمتحنوا القائمة فى عمق وأناة وأنه لا يمكن أن يطلبوا شيئا من الطعام إلا بعد أن يختبروا غيره من الألوان . وأخيرا تتم عملية الاختيار ... ... ولا بد أن تكون مشتملة على كوب من النبيـذ . كل فرنسى يعرف جيدا أصناف المأكولات الحبيبة الى نفسه . تلك الأصناف الفرنسية التى يحفظونها جميعا عن ظهر قلب . وفى كثير من الأحيـان يأمر باحضـار زجاجة من البيرة الألمـانية ، ولكنه لا بدّ أن يرضى أوّلا وطنيته فيقول صارخا " اعطنى زجاجة من جعة هؤلاء البروسيين المناكيد ، كم يجيد أولئك الأشقياء فى صنعها !" حتى إذا ما فرغ من الطعام انتقل وأصحابه الى مقهى من المقاهى الكثيرة الانتشـار حيث

يتناولون فنجانا من القهوة بينما يدخنون لفافة من التبغ . وكثيرا ما يعقب ذلك كؤوس من " الفين " لتذهب طعم القهوة المرير .

ثم يقومون بعد ذلك زرافات وهم وادعون سعداء مايكاد العالم يحويهم ...

ماكس أورل

يوم الأحد

كان ذلك يوم الأحد ، وعند ما أحضر لى الخادم القهوة والزبد والخبز فى الصباح كان مرتديا خير ثيابه ، أنيقا لا تفرقه عن أى سيد ممن يقضون معظم أوقاتهم فى انتقاء الملابس . كان ممتازا حقا فى هندامه حتى انه قد تعذر علىّ ، وأنا الذى تعودت أن أراه دائما ، أن أعرفه لأول وهلة .

لم أكن قد أعطيته أكثر من قطع معدودة لا تغنى عن هذا كله ولكن خادمى المسكين ، والحق يقال ، قد خلق من هذه الدريهمات القليلة دنيا من صنعه لا يستطيع الواحد منا بالغا ما بلغ مقدار ما معه من النقود أن ينال بتدبيره مثل هذا المظهر البهيج . لقد ابتاع صاحبى هذا معطفا أنيقا رائقا له بهجة ورواء كأنه جديد لم يلبسه أحد من قبل . لقد كان حقا معطفا جميلا نظيفا لا أتردد أن ألبسه بل وأن أمشى به مباهيا وعندما سألته عن ثمنه أخبرنى أنه لا يعدو دراهم هينة العدّ وقد هالنى بهذا القول حتى كدت أزجره واتهمه لكذبه لولا أن أخبرنى بعد ذلك أن " شارع دى فريبرى " — سوق الكانتو — يستطيع أن يأتى بالمدهشات بثمن بخس دراهم معدودة .

ولعل هذه الأناقة التى تشيع فى جوّ باريس بين كل الطبقات قلما تدفع القلب الى التضجر أو التألم لأنه يقضى نهاره بين رؤى متنوعة مختلفة معظمها جميل باهر أو نظيف على الأقل . وكان الخادم يلبس أيضا "صديرية" من الحرير الأخضر . وهذا ما كان يثير فى نفسى كل دهش وعجب ذلك لأن تلك القطعة كانت زاهرة

تباهى غيرها مما يرتديه أصحاب الأموال والضياع العريضة، وكان صاحبنا أيضا قد اعتصر من تلك النقود البسيطة التى أعطيتها له عدة أزرار من الذهب وخاتما كبيرا وكانت كلها براقة لامعة يحسده عليها معظم الناس وكان قد اتفق مع البائع أن يعطيه حذاء رقيقا لامعا وجوربا من الحرير أيضا لقاء النذر اليسير .

ولكى تكمل كل هذه الأناقة على صورة صحيحة وهبه الله وجها جميلا متناسب التقاطيع كان يتم بقية الجمال والمظهر اللذين بدا فيهما دون أن يكلفه فلسا واحدا .

دخل حجرتى على هذه الصورة وقد قص شعره على أحدث طراز ورتب هندامه على أجمل الأوضاع ووضع فى صدره ورودا كثيرة متفتحة كأن فى صدره إصصا . وفى كلمة واحدة كان يبدو فى كل صورة كأنه يحتفل بيوم له قيمته مما دفع الى رأسى فى الحال ذكرى يوم الأحد . وحين قرنت جمال هندامه بذكرى اليوم أدركت على الفور معنى طلبه أمس نقودا لكى يتمكن من قضاء الأحد كما يقضيه كل فرد فى باريس . وقبل أن أنتهى من حلقة التفكير هذه بدهنى خادمى — فى لهجة كلها ثقة ألا أرد مطلبه — بأن أسمح باعفائه فى يومه ذاك لكى يتمتع به الى جانب حبيبته ... وقد أجبته الى مطلبه لأنى لم أحب أن أعكر عليه صفاء مثل هذه الأوقات السعيدة ، ولكنى وددت أن أعرف كيف تسنى له فى هذه المدة القصيرة أن يجد حبيبة فى باريس فلم يتعذر عليه أن يقول كيف تعرف عليها حين كنا فى بيت الكونت ... وأنه انتهز فرصة انشغالى فى بعض أمورى لكسب شىء من المال فكسب هو الفتاة الى جانبه وأنه كان معها على موعد فى يومه ذاك وسيكون سعيدا اذا قضى بعض وقته الى جانبها .

ما أسعد باريس ومن فيها ... إن أسبوعا واحدا يكفى لأن يغنى الانسان ويرقص ويتنزه ويمرح ويلعب طارحا كل أعباء الوجود وأحزانه فى حين يقضى أوقاته فى غيرها وحيدا ملولا تتكالب عليه أشتات الهموم ...

لورنس سترن

الصيف

يونيه فى باريس

صبح ظريف من أصباح يونيه وقد اجتزنا من شوارع التويلرى واحدا أسلمنا إلى النهر فاصطحبنا شاطئه فى جو من الجمال الخالب : شمس متألقة ، وهواء دافئ متراوح بين ملاحة الوجوه وفتنة الزرع ... فكان من العسير أن يناهض الانسان متع الحياة البادية هناك . فما أحسست يوما بتدفق الحيوية والصحة والحركة فى عروقى كما استشعرت إذ ذاك .. أحسست قط أن الحياة شىء يستحق العيش من أجله وتقديره مثلما أحسست يومئذ .

وكان قصر اللوفر على يسارنا تمتد واجهته إلى مسافة نصف ميل فى ضوء الشمس الساطع وكان النهر الدافق حافلا بالسفن المبعثرة على وجهه تقاطعها قناطره الفخمة فى أماكن متقاربة ...

كان منظر الجزيرة بمبانيها العتيدة وأبراج كنيسة نوتردام الرمادية القديمة تطمع فى ابتلاع السحاب ، كان هذا المنظر يمحو من ذاكرة المرء كل شىء ما عدا الحياة البهجة .

حقا أنه مما يبعث السرور فى النفس أن يعود الانسان إلى باريس بعد طول الغيبة وبعد الشقة . هنالك يقابل وجوها يلمح فى أساريرها ما يثير فى نفسه أحر الذكريات . الأماكن ذاتها تعيد إلى الفكر ذكرى الحياة السعيدة التى قضاها من قبل فى هذه المواطن ، فى المقاهى والملاهى ، فى المتنزهات والشوارع ، فى المحال ، فى كل باريس ، حتى ليظن الانسان أنه أضاع حياته البعيدة عنها سدى وأن خارج باريس من الأماكن غير باريس لا يمكن إلا أن يكون عبثا متواصلا . ما أعجب أهل باريس ! تحسبهم دائما نيامى كسالى وما هم بنيام أو كسالى .

ولكنك لو نظرت إلى أصحاب الحوانيت لظننت أنهم ما وقفوا داخل محالهم إلا للتسلية لكى يبعثوا فى نفس الرائى الغبطة والسعادة . وإنك لتدهش حقا حين

ترى الرجل الذى يبيع "السجاير" فى مكان ما يرجل شعره كأنه سيذهب لساعته إلى مرقص ساهر، تدهش حين ترى الرجل الذى ينظف لك حذاءك يتغنى شاديا بذكرى حبه القديم وحين ترى رجلا هرما يضع على صدره وردة حمراء كبيرة وحين ترى الشحاذ ينظر فى إجلال وعطف إلى تمثال نابليون فى ساحة الفاندوم، تدهش حين ترى كل هذا حتى لتحسب أن هؤلاء الناس لم يخلقوا إلا للخيال والشعر ...

ن . ب . ويليس



الشحاذ الفيلسوف

ذبول الخـــريف

تحت سماء باريس

لقد كان يوما مريرا من الخريف الباكر فى باريس... كان يوما مريرا ذا هبات تحمل برودة الموت وصقيع دونه لذعات الشتاء كأن أوراق الأشجار السمراء والصفراء التى تتساقط من أصولها على جانبى الشوارع الكبيرة ترف فى صــفير مزعج وتلذع الآذان باصطدامها بها، وتتضارب مع لداتها فتسقط جميعا على ضحكة ساخرة صافرة من الريح العاتية وبسمة رائقة حزينة من السماء الجامدة .

ولقد خدعتنا الطبيعة فى يومنا ذاك حتى كنت ترى الناس جميعا — الموسرين منهم والمدقعين على السواء — ينكمشون فى ملابسهم الخفيفة فقد أخذوا على غرة لم يستعدّوا لتلك المفاجأة بل دلفوا من بيوتهم غير آبهين وعلى كل فليس من الميسور أن تجد فى بيت فرنسى شيئا من الفحم والنـيران إلا عند آخر لحظة يعلن فيها قدوم الشتاء، الشتاء الذى يلح فى طلب الفحم والنـيران ، وفيما عدا ذلك قل أن تجد بيتا فرنسيا يأخذ الحيطة للمصادفة الطارئة كما أخذنا بها فى ذلك اليوم .

... كانت الريح عاتيــة تتدافع أمواجها فوق المرتفعات أو البلاقع فى قوة السهم المـارق . كانت دفعات الهــواء المثلجة التى لا تجــدها إلا فى باريس تلسع من لم تسمح لهم ظروفهم أن يفرّوا من إيلامها ولذعتها ...

وكانت العصافير والدرارى أشد المخلوقات استشعاراً بقارس البرد وآلامه لأنها تجد فى أشعة الشمس المتأججة مستحما لهـا ومنبها لنشاطها واستجمامها، وكانت جماعات الناس تتزاحم تحت شرفات المنازل احتماء من هــذا الهول وفرارا من أزيز الريح الباكية ...

ثم أشرقت الشمس ، وازرقت السماء، وسكنت الريح ، وعاد الانسان يسمع فى الأنحاء المتباعدة زقـزقة العصافير التى تنفض عن ريشها المبتـل قطرات المـاء أو حبات الجليد العالقة به وقد أنعشتها أشـعة الشمس ... ثم تأتى من الأفق البعيد

حافة كأنها الصلب تقترب رويدا رويدا حتى تظهر وتتضح ، فاذا هى العاصفة المخيفة ... ولن يشعر الانسان بعد ذلك إلا بأشدّ لذعات البرد ووخزات الصقيع . ولن يحس الإنسان فى قرارة نفسه إلا بالخوف والانزعاج إذ تصفر الريح أو تهدر أوراق الشجر فى غير ما مرحمة أو عطف . ولن يكون الهول أبلغ من هول البرد والريح وتساقط أوراق الشجر فى الشوارع الكبيرة التى لا تحميها الأبنية من حولها . وليس بين المناظر منظر أكثر اقتطاعا فى النفس وأشحذ للخيال من الأوراق الصفراء وهى تطير فى الهواء الصافر الى جانب القطار . يؤذن باقتراب العاصمة ويشق الهواء شقا اليه كأنما هو مارد جبار ... حتى إذا ماتقابل قطاران أثارا عاطفة من "الجازبند" المضطربة الحادة ترن فى الفضاء ثم يعقبها سكون أخرس كأنه رهبة الموت المتعجل .

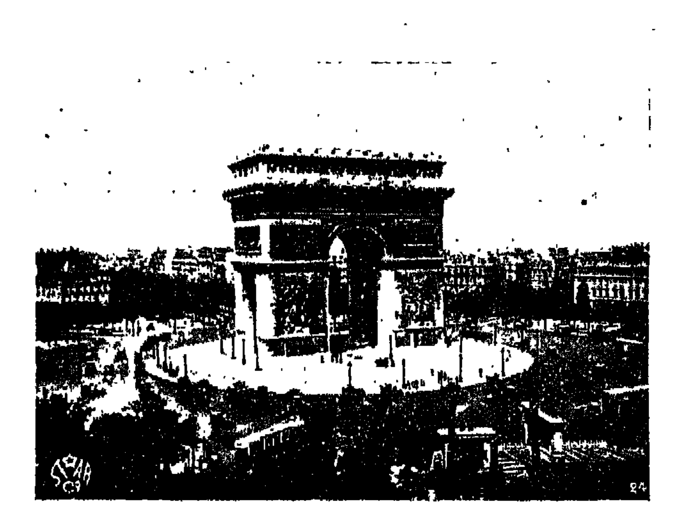
فاذا كنا فى أكتوبر وسعدنا بالبقاء حتى أبريل فان تجد من المناظر ما يعدل فى مراحه وبهجته ومتعته منظر باريس وشوارع باريس ...

م . بتام ادواردز

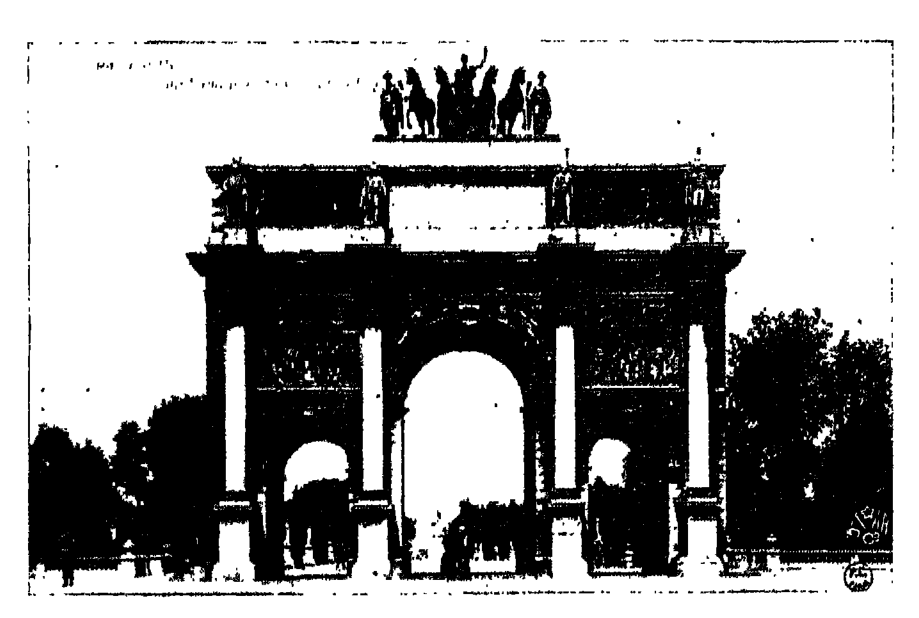


حديقة اللكسمبورج

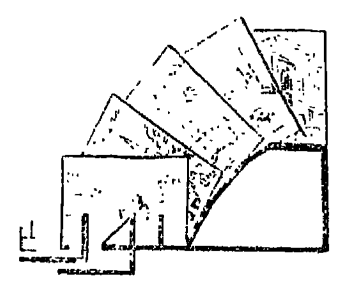
كما رآها المؤلف فى يناير سنة ١٩٢٧ وقد غطى الثلج عشبها وأرضها ولم يعد يسير بها غير حارسها



قوس النصر بساحة الأيتوال (النجم)



قوس نصر الكاروســـل





باريســــيات

بقلم الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك



سافرت من مصر الى باريس سنة ١٨٩٤ لأتمم دراستى بمدرسة سان كلو العليا وكنت لابسا رداء يقال له "بونجور" من محل "ماير" بالموسكى وكنت فى سذاجتى أعتقد إذ ذاك أنه أرق ما يلبس . فدخلت ذات يوم عند أحد كبار الخياطين بباريس ليفصل لى "ردنجوتا" فرأيت الرجل يتأملنى تارة ويتأمل ردائى تارة أخرى وبعد أن شبع نظره منى ومن ردائى واقتنع أنى جادّ لا هازل قال لى : (Eh bien ! Monsieur nous allons vous mettre autrement!) وترجمته : حسنًا يا سيدى ! ولكننا سننشؤك خلقا آخر !

* * *

وصلنى وأنا طالب بمدرسة سان كلو خطاب من مصر بعنوان : أحمد أفندى فهمى واطلع عليه أحد الطلاب فلم يفهم معنى كلمة أفندى فبحث عنها فى القاموس فوجد أن أول معنى لها هو : ابن السلطان . وما هى إلا دقائق حتى ذاع الخبر فى المدرسة كلها والتفت حولى الطلاب يسألوننى :

— هل أنت ابن السلطان ؟؟

* * *

يوم دخولى بمدرسة سان كلو احتفل طلبة السنة الأخيرة بالمستجدّين وكان يقضى برنامج الحفلة أن يغنى كل طالب من السنة الأولى أنشودة فلما جاء دورى

اعتذرت بأنى لا أعرف الغناء بالفرنسية فاقترحوا أن أغنى بالعربية على أن أترجم لهم معنى ما أقول . فارتقيت المنصة وقلت هذين البيتين لعنترة بن شدّاد :

حكم سيوفك فى رقاب العـزل ... وإذا نزلت بدار ذل فارحل
وإذا بليت بظالم كن ظالما ... وإذا لقيت ذوى الجهالة فاجهل

ثم ترجمتهما بالفرنسية وإذا هم يقابلون المعانى بتصفيق حادّ حتى نهض أحد الأساتذة وقال : " إن العرب كانوا يعشقون الحرّية مثلنا وكانوا متشبعين بمبادئ القرآن الذى ينص على وجوب مقابلة المثل بالمثل : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . العين بالعين والسنّ بالسنّ " .

* * *

خرجت للتنزه مرة مع سيدة باريسية فى إحدى الغابات فوجدنا منظرا جميلا فجلسنا عنده وبعد برهة رأيت منظرا أجمل منه فأظهرت لها رغبتى فى النقلة اليه فانتقلنا وما هى إلا دقائق حتى بدا لى منظر أجمل وأجمل فقالت تلك السيدة فى رقة وأدب وهى تقرأ فى عينى الميل إلى التنقل : (On voit bien le sang bédouin couler dans vos veines).

وترجمته : إنى أرى جيدا الدم البدوى يجرى فى عروقك .

* * *

قيل لى وأنا بمدينة فاس عاصمة المغرب الأقصى أن السلطان مولاى الحفيظ دعى مرة إلى مأدبة فى باريس وكان من بين المدعوين باريسية حسناء لها دالة عليه فلما جاء دور الفاكهة أخذ تفاحة وأكلها بقشرها فقالت له تلك الباريسية : إنك سلطان كبير فكيف تأكل التفاحة دون أن تزيل قشرتها فأجاب : انى رأيت لونها البديع يشبه خدّ الباريسية الحسناء فأشفقت عليها من أن أقطعها بسكين .

* * *

دعيت مرة لتناول العشاء وكان جلوسى إلى جانب "كونتيس" باريسية راقية فغفوت دقيقة بعد العشاء كما هى عادتى فلما أفقت قالت لى :

(Comment, Monsieur, vous vous permettez de dormir à côté de nous?).

فأجبت على الفور :

(Madame, c'est un plaisir de dormir à côté de vous!)

فدهشت وقالت للحاضرين : "لو أن باريسيا يقظانا سئل هذا السؤال لما أجاب بمثل ما أجاب به هذا المصرى وهو بين اليقظة والنوم" .

وبعد ذلك بعامين أتيت إلى مصر وضمنا مجلس عشاء وكنت فى هذه المرة إلى جانب أحد المدعوين فلما غفوت قالت لى :

(Monsieur, je croyais que ce plaisir m'était réservé).

فأجبتها من فورى :

(Madame, ce n'est pas un sommeil ; c'est un cauchemar !).

وهذه على ما أذكر أحسن دعابة فرنسية وقعت لى فى حياتى .

العمروسى



نموذج التجديد الحديث لمحل باريسى للفونوغرافات والأسطوانات

مقهى (جامع) باريس

بقلم السائح العراقى

يا الله يا سيدى ، هات القهوة والحلويات ... وِى وِى، بونجور مدام، پلاس سيلڤوپلى يا عبده، شوية (عود)، أهلا وسهلا اتفضلوا ...

هذا صوت يلعلع دائما فى جوّ القاعة الشرقية البديعة ، صوت يشتاقه كل من يؤم هذا المقهى الشرقى، فهو زخرف (لازم) ومتمم لهذا المحل الذى يمثل الشرق بما فيه من ضجة وهدوء .

هو صوت الحاج طاهر الصباغ ، ومن لا يعرف هذه الشخصية المرحة ، ومن لم يحادث هذا الكهل الاجتماعى، فما من شرقى يمرّ بباريس إلا و يزور (الجامع) . و بطبيعة الحال تكون زيارة المقهى أمرا لازما، أو على الأقل فى سبيل الذكرى ! ! ! و يتلو أشعارا وقصائد تذكرنا بأصحاب المعلقات فكأنا بسوق عكاظ ! !

أدخل المقهى تجد هناك كبار الشرقيين بين عرب وعجم وهنود وأتراك، متكئين على الأرائك، و يطوف عليهم شبان بأكواب القهوة المعطرة مصحوبة بالحلويات المتنوّعة، فمن (بقلاوة) الى (غريبة) الى (راحة الحلقوم) .

ولا يكاد يدخل الزائر هذا المقهى إلا وتبهره تلكم الأرائك والمقاعد التى صفت أمامها الموائد النحاسية وهى بين (صينية) و (سورية) . ويمرّ الزائر فوق الزرابى وهى مبثوثة بسخاء وقد اختلطت مصنوعات بخارى بتبريز، وأزمير بمشهد، ولا تسأل عن السقف البديع الذى أصبح (زخرفه) حديث المجالس الباريسية، فهو بأضوائه البراقة وألوانه البديعة يشهد بما للشرق من الذوق الجميل فى اختيار الألوان وتناسبها ، هذا فضلا عن النوافذ الجميلة بحواجزها الحديدية العجيبة، وزجاجها الملون الجذاب، والفسيفساء التى زانت جدران القاعة وزادتها أبهة وفخامة ! ! ! كل شىء ههنا لطيف، وكل مستخدم فى هذا المقهى شرقى (بحت) إن لم أقل عربى (خالص) ومسلم (قح) .

ولا أبالغ اذا قلت إن هـذا المحل هو البقعـة الوحيدة التى تمثل مظهرا عربيا خالصا فى قلب (باريس الغربية) هو مظهر يحق لنا أن نفخر به لأنه اضـطر أبناء باريس الى الاعتراف بسلامة ذوقنا، ومتى اعترف أبناء باريس بذلك فمن حقنا أن نتيه عجبا وأن نرفع رأسنا عاليا .

إن هذا المقهى (وقف) خاص بجامع باريس، أقامه (السيد قدور بن غبريط) مندوب سلطان المغرب الأقصى لفرنسا .

ويتألف هـذا المقهى من ثلاث قاعات بديعة : الأولى وهى قاعة المقهى ، والثانية عبارة عن مطعم أنيق، والثالثة (مخزن) للبضائع الشرقية؛ وفوق كل هذا فهنالك (حمام) شرقى ساخن (كالعادة) وفيما بين الحمام والمقهى (حديقة صيفية) ! !

ها نحن أولاء فى المطعم وقد جلسنا على المتكآت الوثيرة، لا يكدر علينـا صفو عيشنا شيء أبدا . فالأرض مغطاة بالطنافس ، والممرات محكمة الأقفال والنوافذ قد أرخيت عليها الستائر الحريرية، الكل يتكلمون همسا، والخدم يمرون بخفة ورشاقة تجلبان دقة نظر أبناء الغرب .

هنا بخلاف المقهى حيث الضجة قائمة وصوت العود والقـانون يملأ الفضاء، نعم هنا يشعر المرء بالراحة تتسرب الى نفسه تحت تأثير (البخور) الممتزج بالعود والند .



أدر طرفك فيما حواليـك، كل شيء أنيـق وظريف ؛ فلقد تطاولت على الجدران قطع الخز والدمقس، ورفعت (اللوحات) المنقوش عليها حكم وآيات كريمـة ، وعدّة صور تمثل منـاظر شرقية، قد روعى فى اختيارها الذوق السـليم ، وارفع برأسك الى السقف ترألوانا براقة، وحفرا فى الخشب بديعا، وسقفا لا يمله النظر ولا تنساه الذاكـرة .

والآن قد أكملت تجوالك فيما حولك فالق بنظرة سريعة على الموائد التى صفت بنظام أمامك، ودقق جيداً فى الأوانى الثمينة التى وضعت عليها، فالأكواب من صنع الشرق، والموائد كذلك وأدوات الأكل أيضا .

وقد تحاول أن تتخيل نفسك فى أوربا حقيقة، ولكن هذا الجو الشرقى البحت يحبط مسعاك، ويرغمك كى تعتقد ولو (لساعة) بأنك إما فى القاهرة أو فى دمشق أو فى بغداد !!!

ولكننى لا أظن أن هناك محلا شائقا فى هاتيكم البلاد يشابه هذا أو بعض ما فيه .

ولو لم تشاهد بعينيك هؤلاء الأوربيين، وقد جلسوا بجانبك (بتردد) وحيرة . لما أفقت من حلمك اللذيذ، فان الغربيين الذين يؤمون هذا المقهى تضرب عليهم الدهشة نطاقا يجعلهم لا ينبسون ببنت شفة، اللهم إلا علامات الإعجاب والاستحسان ...

كفته، كباب، ملوخية بالفراخ، رز مفلفل، كسكسى . كل هذه أطعمة لذيذة فاخرة، يسيل لها اللعاب وتجبر المرء على الإعجاب ، أطعمة مختلطة بين شرقية ومغربية تفتح الشهية، وتجعلك كالمأخوذ لا تبدى حراكا اللهم إلا (المضغ والقطع) والصلاة على النبى ! ! وكم من (أوربى) يأتى وأصحابه بلهف وشوق زائدين للتمتع بهذه المآكل الشرقية الفاخرة، التى طالما تخيلوها وتشوقوا اليها .

ها هم يأتون وحدانا وزرافات، ويجلسون على الأرائك (متربعين) على الطريقة العربية، وأعينهم لا تفتأ تلاحظ الداخل والخارج من مختلف الأجناس والملل والنحل ...

والآن فاذا أردت أن تشترى (حاجة شرقية) أو (مغربية) أو (سجادة فارسية) أو (مائدة دمشقية) فادخل (مخزن البضائع الشرقية) الملحق بهذا المقهى، ولا تخف كيد أحد ههنا ، فالأسعار (متهاودة) وأصحاب المخزن يستقبلونك ببشاشة ترغمك على شراء (حاجة) ما .

إنها لأبهة وأيم الحق، هنا فى باريس بعيدا عن الأهل والخلان، بعيدا عن سوق الحميدية فى (الشام) وبعيدا عن (شارع الموسكى) فى القاهرة وسوق (السراى) ببغداد . تجد كل ما يسرك من تحف ورياش وأطعمة وما توده نفسك من الأشياء التى لا تحصل عليها إلا فى بلادك ! ! !

وفوق ذلك فاذا كنت من أصحاب الأعمال أو تلميذا وترغب فى إزالة ما اعتراك من التعب الذهنى أو العضلى فعليك أن تدخل (الحمام) الشرقى البديع، فهو تحت تصرفك متى أحببت، ولا ضير عليك أن تجد نفسك محاطا (بأجسام) مختلفة الألوان، ولا بأس من أن تسمع قاعة (المسبح) تردد صدى اللهجات والرطانات المتنوعة ، فمن مغربى الى تونسى، وجزائرى ، ومصرى ، وعراقى، وهندى ، وفارسى، وافرنسى . وهـذا الألمـانى يدخل حذرا يقظا . لا يدرى كيف يسير وهو حافى القدمين فوق الرخام الساخن من الحرارة التى عمت المكان . وهناك انكليزى ، قد استلقى على قفاه وعيناه تنظران الى العلاء لا الى نقطة معينة .

وعن الأمريكى حدث ولا حرج، فهو معجب بكل ما تقع عليه عيناه . ولا يكاد يخفى سروره من هذا المكان (المريح) اللهم إلا سحابة كثيفة تغشى عينيه أحيانا (فيزمجر)، وينتحى جانبا ساخطا على هذا المكان الذى يضمه وشبح (أسود) معا ! ! ! فهو لا يريد أن يقترب منه أحد من أولئـك (السود) من السنغال أو السودان ! ! ويعتقد أن الأولى بهؤلاء أن يحيطوا ذلك الانجليزى لأن لأمتـه علائق متينة مع السودان ! !

وجاء (الدلاك) وهو يحمل (الليفة والصابون) مصحوبة (بالكيس) المعروف ؛ ولا تسأل عن الضجة والقهقهات العالية عندما (يتمدد) أحدهم وهو لا يبدى حراكا، ويد (الدلاك) تلعب فى كل جزء من جسمه . هذا يحبذ (الدلك) وذلك يتأفف من تلكم الضربات القوية التى يلقيها (الدلاك) على جسم (المتمدد) والآخر ينظر (باهتا) متعجبا من حركات (الدلاك) المدهشة، وانزلاقه من فوق جسم (المدلك) تارة الى

اليمين، وأخرى الى اليسار، و بعـد انتهاء العملية يقوم (المدلك) وهو يقول (إنها لسعادة ياسادة ! ! حقا ما أجمل هذا الفن) ! !

هل تريد قهوة، تريد قهوة (تركية ؟) سكر زيادة ؟ والحلويات، أبقلاوة أم (لقـــوم) ؟

— حاضر يا سيدى، واحد (أتاى) وهذا الأتاى هو (شاى) من النوع الأخضر يشربونه فى أفريقيا الشمالية و يجعلونه شديد الحلاوة، وما ألذه اذا ما النعناع خالطه سخينـا !

و بعـد أن تنعمنا بحرارة (الحمـام) وتخلصنا من يد (الدلاك) جلسنا بتراخ على الأرائك الوثيرة فى المقهى الفاخر، واقترب منا الخادم بلباسه (المغربى) فرددنا عليه تحيته وطلبنا منه قهوة (سادة) .

وهو ذا كانون القهوة يتصدّر القاعة الواسعة والقهوجى واقف (بعظمة) يحرك أدواته، وقد اصطف الخـدم من ورائه يحملون أوانيهم و ينتظرون (بخشوع) غليان القهوة ليسكبوها فى الأكواب .

وفى زاوية من القـاعة يوجد الجوق (الموسيقى) وهو يتألف من خمس قطع، (عود) وقانون، و (طار) و (جرانة) و (در بوكة) .

معذرة أيها القارئ الكريم اذا استحالت عليك معرفة القطعتين الأخيرتين، لأن (الجرانة) بالعرف المغربى هى (الكمنجة) عندنا ولاأخال أن العرف المغربى يخاف على (أمير الكمنجة سامى الشوا)، فلا بأس اذا من القول (أمير الجرانة) أيضا . والدر بوكة بعرف الأب (انسـطاس الكرملى) هى الدربكة أو الضجة ؛ فهو مصـدر وثيق لمصادر الكلمات وكل شيء (حتى الغلطات) ! ؟ ومعنى الدر بوكة فى أفريقيا الشمالية هو (الدنبك) عندنا، ولا شك أن لإخواننا الأفريقيين الحق بهذه التسمية العالية . لأنها تعبر عن الدربكة أو الضجة وفعلا فان (للدر بوكة) صوتا تتلاشى (فى أمواجه) أصوات الآلات الأخرى فهو صمت يشابه مدفع (رمضان الكريم) .

— الله يا سيدى، أيوه أيوه، كان يا جدع، الله ! !

هـذه أصوات استحسان تلقيها الأفواه فى فضاء القاعة فتمتزج بصوت المغنى وهو (ينقر) على طاره يستلهم منها الوحى لتساعده (بميزانها) على اتقان (طقطوقة) (أنا على كيفك) .

ولا يخلو المقهى من شخصيات شرقية بارزة، فشوقى قد أبقى له ذكريات جميلة ههنا وهو بصحبة (أمير البيان) . وللأستاذ حافظ عوض بك جلسات طويلة ، والى جانبه السيد عبد الله البشرى، فما من صاحب سمو أو سعادة إلا ويحضر لزيارة مقهى جامع باريس .



عظمة سلطان مراكش
مولاى يوسف وإلى يساره سيدى قدور بن غبريط
فى صحن جامع باريس

كم لدى من ذكريات حلوة

وعرفنا أيضاً تلك المنازل الباريسية الصغيرة التى تحكى فى تراصها وتداخلها منازل العنكبوت ، تلك البيوت القديمة التى تقع الى جوانب الكنيسة الكبيرة كأنها معلقة عليها . هذا عدا البناء القديم ذى الشرفات البارزة والعوارض الحديدية المقام أمام الكنيسة فى الميدان المتسع المسمى باسمها ولعل الناظر إلى هذه الأبنية لا يتردد فى الحكم بأن لكل واحدة منها تاريخا يكون الخيال جزءا عظيما من عناصره ، وكنت أنا لا أمل النظر فيها ثم أعمل خيالى بعد ذلك فى تأليف القصص عنها ، وقد كان منظرها حقا مغريا يبعث فى الانسان خيالا جامحا ، ولم أكن أشك لحظة فى أن أزمر لدا التعسة قد سكنت بيتا من هاته البيوت لا بل قد رقصت ولعبت بقيثارتها فى دار من هذه الدور فى فندق جونلوربيه كما كانوا يسمونه ، وانها فتنت تلك السيدة المعروفة بزهرة ليلاس جونداوربية مع أصحابها النبلاء ، فتنتهم حتى أغرقتهم فى بحار من الجمال والنقاء والطيبة والطهارة ، رغم كونها فتاة جاهلة ناشئة تدخل فى زمرة الغجر ، فتنتهم ثم لقيت حتفها فى النهاية عن طريق عنزتها التى علمتها — وكم كانت تفخر بهذا — علمتها أن تنطق بذلك الاسم الحبيب إلى نفسها ، أن تنطق باسم " فيبس " .

وبالقرب من كل هذا يستطيع المرء أن ينظر المورج (La Morgue) وياله من اسم ويالها من ضجة حوله . وما يكاد الانسان ينتهى من رؤية ما فيه من أدوات التعذيب ، وقد هالنى هذا وأنا الانكليزى الصغير الذى يدرك حقائق الأمور فأخذت أتلفت فلم تكن إلا لحظة حتى وقع نظرى على تمثال هنرى الرابع على القنطرة الجديدة . ومما يجدر ذكره أن هذه القنطرة هى أقدم قناطر باريس . وقد توسط بالضبط النهر التاريخى ، واستدار بظهره الى باريس ، وشاعت فى وجهه بسمة رائعة تحملها لحيته وعثنونه ، ثم يقف الانسان عند هذا التمثال متوسطا ضفتى النهر وهو أقرب الى حمار بوريدان ، وقد حار بين كيسى بندق ، أحدهما عن يمينه ، والثانى عن يساره . وحقا إن المرء ليحار الى أى الضفتين يذهب ، وأيهما يترك ، فكلتاهما ملأى بالمغريات ، وبألوان الجمال التى تخطف الأبصار . تلك المناظر الجميلة الخلابة التى تقترب من

وبألوان الجمال التى تخطف الأبصار . تلك المناظر الجميلة الخلابة التى تقترب من

لوحات جوستاف دورية وهى التى مثل فيها بعض مشاهد قصص بلزاك . ثم يؤخذ الانسان بمناظر الشوارع المظلمة الضيقة الصامتة المهجورة ، وبتلك الأسماء الموحية التى يقرأها على لوحات قد علاها الصدأ عند كل ثنية وركن فيها . مما يعيد الى الذهن ذكرى كتابات هوجو وديماس ، وما يصورانه فيها من مناظرشبيهة بما يرى الانسان هناك . وتستطيع أن تذهب الى هذه الشوارع والطرقات فى مسالك غير معبدة متعبة مزدحمة بأناس مرحين نشطين فى ثياب زرقاء أو سمراء وفى أحذية خشبية وعلى رؤوسهم قبعاتهم الحمراء أو البيضاء القطنية ، وبين جموعهم فتيات باريس الحسان الرشيقات ذوات السيقان الجذابة المنسجمة والأعين النجل البراقة بأشعة سعيدةهانئة ، اللائى لا يغطين رؤوسهن إلا بشعرهن وحده . ثم يبده المشاهد برؤية موكب عرس فى الشارع ، وقد تصدره العروسان وتبعهما اثنان من أصدقائهما وهما فى ملابس الأحد النظيفة ، والكل يغنون فى بهجة ومراح . وما هى إلا بضع دقائق حتى يرى الانسان تابوتا محمولا الى الكنيسة لصلاة القداس عن روح صاحبه ، الى غير ذلك من المناظر المتناقضة التى تمر عليك فى لحظات متعاقبة شأن كل ما فى باريس بهجة ومراح ، شقوة وابتئاس ، تناقض فى الحياة تجمعت فى صميم الحياة : فى باريس .

جورج دى موريبه



معارض الفنانين الفقراء فى شوارع باريس

صـــور باريســـية

بقـــلم الأســـتاذ حبيب المصرى بك



العم ڤكتور شيخ فى الخامسة والخمسين من عمره أو يزيد . كان بوابا للدار التى كنت أنزل بها . ربع القامة ممتلئ الجسم . يقوم وحده على العناية بتلك الدار الواسعة، وتتولى زوجه وهى فى مثل عمره "مسك الحسابات" . وغرفتهما نظيفة مرتبة أنيقة تحسدهما عليها كثير من أسرنا المصرية الطيبة . وله إبنة تعمل كاتبـة فى أحد المصارف وهى صبوحة الوجه جمة الأدب وعلى جانب عظيم من حسن التهذيب وسعة الاطلاع .

وقد يدهش الكثيرون من الذين يظنون التهذيب وقفا على أبنـاء الأثرياء من أن تكون مثل هذه الفتاة الأديبة المثقفة إبنة بوّاب .

ما رأيت ڤكتور يوما غاضبا أو عابسا . بل كنت أراه دواما هاشا باشا عابثا . فى طرفى شفتيه ابتسامة ظريفة ساخرة . حاضر البديهة إذا واتتـه "النكتة" أرسلها صائبة ولكن فى رفق لا تؤلم ولا تجرح .

وأقيم أثنـاء وجودى فى باريس سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٠٩ — "يا نصيب" كبير لمساعدة أهل الفن الذين يلحقهم البؤس وتنقطع بهم أسباب العيش . وكانت النمرة الكبرى تربح ثلثمائة ألف من الفرنكات . وكان يقطن معى صـديق مصرى — وارحمتاه عليه فقد ضمه القبر — أقبل على شراء اليانصيب وحملته أجنحة الخيال إلى عالم الأحلام وجعل يشيد قصورا فى أسبانيا على حدّ تعبير الفرنسيين ويتحدّث الى العم ڤكتور عما يعمله لو أسعده الحظ فربح النمرة الكبرى . والعم ڤكتور يداعبه

ويقول له " خير ما تفعله لو ربحت أن تشترى عمارة فى باريس، ولا تنس الشيخ فكتور فاجعله و يلا لك عليها" . ثم جاء يوم السحب وأعلنت النمر الرابحة ولم يبسم الحظ لصديق لم يصب لا النمرة الكبرى ولا غيرها من النمر . وإذ نحن جالسون دخل علينا العم فكتور يجرى، وقد تهلل وجهه وصاح "لقد ربحت" فأقبلنا عليه نسأله فى لهفة كم ربح، أجاب "ثلاثة فرنكات" فضحكنا وقلنا "وكيف ذلك" أجاب "نعم. كنت أنوى أن أشترى ثلاث نمر ثم رأيت من الخير ألا أفعل فوضعت ثمنها جانبا وعددتها ربحا لى . وكنت فى هذا أكثر حكمة من كل الذين اشتروا ولم يربحوا شيئا" . وفى تلك اللحظة فهمت تلك الصحيفة الخالدة التى خطها هوجو فى "البؤساء" فرسم فيها الغلام الباريسى "جافروش" رسما بديعا دقيقا تجلت فيه روحه ودعابته ومرحه وسخريته واستهتاره وفلسفته . وأدركت أن هذا الشيخ الواقف أمامى كان جافروشا فى صباه وهو لا يزال جافروشا فى شيخوخته، وسيبقى جافروشا إلى آخر عمره وسيموت جافروشا كذلك ! .



وصورة ثانية . كنا فى يوم من أيام ١٤ يوليو . وقد خرج الباريسيون يستقبلون عيدهم الوطنى و يحتفلون به على طريقتهم الخاصة . وشاركتهم الطبيعة يومئذ سرورهم فكان الجو بديعا، والشمس ساطعة، وأقبل الليل فسطعت الأنوار فى كل مكان ودار الرقص فى الشوارع . وخطر فى بالى أن أخرج للنزهة فى الغاب فالتمست عربة — وكان العصر حينئذ عصر العربات لا عصر السيارات — فلم أجد . وأخيرا وجدت عربة واقفة أمام مشرب من مشارب النبيذ، فأسرعت الخطى إليها ووجدت السائق داخل المشرب يحتسى الكأس بعد الكأس . وقد أخذته النشوتان نشوة العيد ونشوة الخمر . ولما دعوته أجابنى " كلا إننى اليوم فى عطلة فهو يوم العيد " قلت ولكن عربتك بالباب قال لقد أخرجت جوادى لكى يشاركنى الفرح بالعيد أليس هو رفيق وصديق . فمن الحق علىّ أن أشركه فى فرحى ما دمنا نشترك فى المتاعب . فابتسمت وانحنيت إذ وجدت أمامى للباريسى صورة أخرى بديعة .



مسيو بارتان
أستاذ القانون الدولى الخاص
بكليــة حقوق باريس وكان
مشهورا بين الطلبة بالشـــدة
والقسوة فى الامتحان



واليكم صــورة ثالثة . كنت فى قاعة الامتحان فى كليــة الحقوق وقد جلست صامتا متهيبا أنتظر فى شيء من القلق والاضطراب قـدوم الأستاذ الممتحن . وكان رفاقى فى مثـل حالتى إلا فتى فرنسـيا لم يفتأ يتكلم و يقص على أصــدقائه النوادر والأقاصيص . فقلت فى نفسى لا شك فى أنه محيط بمـادته إحاطة نفت عنه كل خوف وأدخلت على قلبه هذا الاطمئنان . وكنت أثناء ذلك أراجع فى نفسى بعض الدروس، فعرضت لى بغتة مسألة أشكل على جوابهـا وخشيت أن "تقع الطو بة فى المعطو بة" كما يقولون فى صعيد مصر فيطرح على الممتحن السؤال الذى غاب عنى جوابه . فملت الى جارى الفرنسى وطرحت عليه السؤال فى كثير من الاستحياء . فقهقه ثم قال "كلا ياصديقى لن أجيبك فاننا هنا فى ميدان التنافس فلا تنتظر منى أن أساعدك على التفوّق على". فلزمت الصمت وقد عرانى الخجل وآلمنى جوابه ودهشتّ لقسوته وأثرته وجعلت أتأمل كيف يمكن أن تصدر هـذه القسوة عن مثـل هذا الفتى الحلو الذى يدل مظهره على الرقة وطيب العنصر . وقلت لنفسى لا عجب فكثيرا ما تغترّ المظاهر . ثم بدأ الامتحان وسلم الله فلم يقع ماخشيت وأجبت إجابة حسنة . وجاء بعــدى دور جارى الفرنسى فألقى عليه الممتحن سؤالا بسيطا مدهشا فى بساطته هو أوّل ما يتعلمه المبتدئون فى درس قانون العقوبات . قال الأستاذ : " قل لى ما هى الجناية " .

أجاب الطالب الباريسى غير متردّد ولا متلعثم، و بألفاظ ضخمة رنانة "الجناية هى غلطة" .

فضحكنا جميعا . ولكن الأستاذ ابتسم ابتسامة هادئة ذات مغزى وقال "هذا حق . فالجناية غلطة . ولكن أية غلطة هى" . أجاب الطالب "هى غلطة خطيرة" . ولو جاز لى متابعة الطالب فى لثغته لقلت "هى غلطة خطيغة" فضحكنا مرة ثانية وابتسم الأستاذ وقال "نعم هى غلطة خطيرة بل هى خطيرة جدا، إذ هى فى الواقع أخطر الغلطات . ولكن أرجوك أن تحـدّدها بعض التحديد فهلا استطعت أن تذكر لى التعريف الذى ورد عنها فى القانون" .

أجاب الطالب من غير أن يضطرب "وهل أنا ملزم بأن أحفظ القانون حرفيا" .

قال الأستاذ كلا . وانتقل منه الى سواه بعـد أن وضع أمام اسمه "الكرة السـوداء" .

وما انتهى الامتحان وخرج الأستاذ من القاعة حتى انكفأ الفتى على وجهه ضاحكا . ونظر إلىّ بعينيه الصافيتين وقال "أرأيت لماذا كنت أضن عليك بالإجابة . انى لم أفتح كتابا بعد وقد فرغت هذا الأسبوع من امتحانى فى مدرسة التجارة ثم جئت الى امتحان الحقوق فى هـذا الدور لغرض واحد وهو أن أحتفظ بحقى فى التقدّم للامتحان فى دور نوفمبر" .



XVIIIe siècle!... Siècle heureux, qui voyait se passionner, pour l'Économie, les femmes les plus en vogue!.. »

جرمان مرتان

أستاذ الاقتصاد السياسى بكلية حقوق باريس ووزير المالية والميزانيـة . وهو معروف فى مصر

* * *

ثم صورة رابعـة مكانها فى كليـة الحقوق أيضا وصاحبها من الأساتذة لا من الطلبـــة .

كنا فى قاعة الامتحان متفرجين — لأن الامتحانات علنية يشهدها من يشاء — وكان الممتحن هو الأســتاذ الكبير رينو وهو من فطاحل العلماء فى القانون الدولى . كان أســتاذا فى الكلية ووزيرا مفوضا وعضوا دائمـا بمحكمة التحكيم فى لاهاى . وجاء دور طالبة فرنسـية فسألها الأستاذ عن شروط التجنس بالجنسية الفرنسية . وبعد أن أتمت ذكر الشروط العامة سألها عن الطوائف التى يقرر القانون لمصلحتها شروطا خاصة . ومن تلك الطوائف كما لا يخفى الأجنبى الذى يتزوج من فرنسية . فلما جاء ذكره قال لها الأستاذ :

— " أذكرى لى الحكمة فى معاملة الأجانب الذين يتزوجون من فرنسيات هذه المعاملة الخاصة " .

فأطرقت الفتاة حياء أو عجزا عن الجواب .

قال الأستاذ فى رفق "ومع ذلك فالحكمة فى ذلك ظاهرة جلية" .

فاستمرت الفتاة فى أطراقها — وكان العصر لا يزال عصر الخفر !

قال الأستاذ باسما "أول أسباب هـذه المعاملة أن الرجل الأجنبى الذى يتزوج من فرنسية يكون عادة متعلقا بفرنسا" ثم ضحك وقال " ثم هناك سبب آخر وهو أن الشارع الفرنسى أراد أن يسهل تصريف البضاعة الفرنسية " وضج الحاضرون بالضـــحك .

لست أدرى لمــاذا توالت هذه الصور على مخيلتى وقد اقترب القطار من باريس . لقــد غبت عن باريس خمسة عشر عاما طوالا فمــا انقطع حنينى إليها لحظة . وكنت لا أفتأ أتغنى بشعر شوقى وهو يتكلم عن نهر الســين — بمناســبة نكبة الفيضان عام ١٩١٠ :

لست بالناسى عليـه عيشةً　　　كانت الشهد وأحبابا كراما

وانقضت سنة تلتها سنة ثم سنة والموانع تحول دون مبارحتى مصر حتى أوشك اليأس أن يتطرق إلى نفسى من العودة إلى باريس. فلما تهيأت الأسباب وهبطت فرنسا بعد هذا الغياب الطويل، ووجدت نفسى فى القطار وهو ينهب الأرض نهبا إلى باريس وقفت إلى النافذة وقد عادت بى الذكريات إلى الماضى فأذهلتنى عن حاضرى ونسيت الساعة التى كنت فيها ونسيت كر السنين . وتطلعت إلى الأفق أرقب ما وراءه . ولكن العجب كل العجب أنه لم يرد على خاطرى فى تلك اللحظة إلا تلك الصور ومثيلاتها . ذلك أن ليس الذى يفتننى فى باريس هو تلك المناظر الخلابة ولا تلك القصور الشاهقة ولا تلك المعاهد العظيمة فحسب ، وإنما الذى يفتننى إلى جانب هذا كله، بل فوق هذا كله روح باريس وظرف باريس وأهل باريس. فهم إلى جانب جدهم وانصرافهم إلى العمل المنتج فى مختلف ميادين النشاط أهل مرح ودعابة وحديث حلو مرسل يتميزون به . وهم يعرفون متى فرغوا من أعمالهم أن يتذوقوا الحياة ضاحكين باسمين بل هم يعرفون أن يتذوقوا الحياة وهم يعملون فلا تفوتهم "النكتة" يرسلونها ولا تفوتهم الدعابة فى موضعها . ولعل هذه الروح هى التى تساعدهم على تحمل أعباء الحياة وقسوتها، ولعلها هى التى تهون عليهم ما يعانون من الشدائد والأهوال فى حروبهم وأزماتهم التى لا حصر لها . يستوى فيهم اليافع والكهل والمرأة والرجل . ولو أن مجتمعا ضم مائة إنسان بينهم باريسى واحد لسهلت معرفته دون عناء من حديثه وحركاته وطريقته الخاصة فى دعابته .

وتساءلت وأنا فى القطار — ترى ماذا فعلت الحرب بباريس وبأهل باريس وماذا كان أثرها فى أخلاقهم وهل هم لا يزالون على مرحهم وطربهم أم أن المحنة المريعة التى اجتازوها فتكت بشبابهم ، وصبغت قلوبهم بالسواد . ولم أكن أعلم وأنا أتساءل هذا التساؤل أن جوابه سيجيئنى عما قليل .

نزلت من القطار ووصلت إلى الفندق وكلفت الخادم أن يستحضر متاعى من المحطة ثم خرجت أزور المدينة وأستروح نسيمها وأنا لا أزال بملابس السفر ويممت شطر ميدان "الاتوال" حيث أقيم قبر الجندى المجهول . فوجدت الجموع مزدحمة

حوله . وتقدّم إلى فتى من الباعة فى حوالى العشرين من عمره فعرض على بضاعته وباعنى بعض مناظر باريس . ثم عرض على مجموعة كبيرة من الصور . قلت له "كم ثمنها" قال "عشرة فرنكات" قلت باسما "آسف ياصديق فان هذا المبلغ كبير على جيبى المتواضع" . فألق على الفتى نظرة فاحصة وكأنما أقنعه جوابى فقال وقد ابتسم بدوره "هذا شىء ظاهر ! ولكن لا تيأس يا صاحبى فنحن الفقراء إنما نعيش بالأمل ، وقد يأتينا الغد بما نرجوه من خير . فلنصبر وننتظر أياما أحسن من اليوم" فراقنى كلامه وضحكت وقلت : هذه باريس الضاحكة الطروبة رغم الفقر .

وتقدّمت نحو القبر وقد اجتمع العشرات حول الشعلة المقدّسة — شعلة الذكرى — ساكتين خاشعين . فخشعت لخشوعهم ووقفت صامتا متأملا جلال الموت وجمال التضحية . وذكرت أن هذا الجندى الراقد والذى مات مع الملايين من لداته لا يعرف أحد اسمه فهو "رمز التضحية" رمز الى أولئك الذين يجاهدون ويفنون فى سبيل المجموع من غير أن تعرف جهودهم أو تذيع أعمالهم . وعرانى الحزن لتلك البشرية البائسة التى لا تعرف غير القوة وسيلة لفض الخصومات . وأثر فى نفسى جماعة من النسوة واقفات متشحات بالسواد ، وقد فاضت عيونهن بالدموع . جئن الى هذا المكان المقدّس رمز التضحية ورمز الموت تبكى كل منهنّ إبنا أو زوجا أو أخا أو صديقا . جئن يسكبن الدموع على "ضريح الذكرى" فقلت : هذه باريس الحزينة إلى جانب باريس المرحة .

وازداد شعورى الحزين حين دخلت كنيسة المادلين بعد ساعة . وكنيسة المادلين هى أحب كنيسة إلىّ فى باريس . ماتخطيت عتبتها مرة إلا تملكنى الخشوع والشعور بأن وراء عالم المادة لا نهاية لم تكشف بعد عن شىء من أسرارها . وأحبها بصفة خاصة لأنى أشعر نحو صاحبتها مريم المجدلية بجاذبية خاصة . هى تلك المرأة الفتانة الحسناء التى لعبت بعقول الرجال وخلبت ألبابهم وجعلت من محاسنها فتنة لهم وشراكا . ثم تولاها الندم فبكت وغفر المسيح لها . وهى التى قال عنها .

"سيغفر لها كثيرا لأنها أحبت كثيرا" . وأشهد أنني ما قرأت في حياتي تلك العبارة مرة حتى اهتززت اهتزازا عنيفا . نعم فمن أحب كثيرا سيغفر له كثيرا ! فالحب هو أصل الحياة وناموسها وبهجتها ، وهو الذي يغفر كل شيء ، ويصفح عن كل شيء ويتسع لكل شيء ، ويكسب الحياة قيمتها ويجعلنا نؤمن بعد الشك ، ونطمئن بعد القلق ونسمو بعد الهبوط . فآه لو عرف الناس ذلك على وجهه الصحيح .

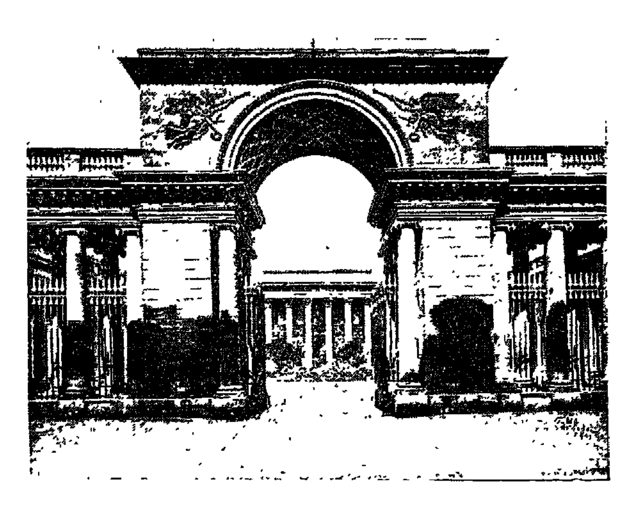
وكان بالكنيسة حين دخلتها نحو خمسين شخصا جلهم من النساء والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير يمشي كل منهم على أطراف أصابعه ويحرص على ألا يشوش على الباقين أو يقطع عليهم تأملاتهم . وكان النسوة جاثيات يصلين والدموع تجرى على خدودهن حزنا على أولئك الذين انشقت الأرض تحت أقدامهم فابتلعتهم وذهبت بهم وبشبابهم وبآمالهم وأخلت منهم دورا كانت عامرة بهم . فكان تأثري لهذا المنظر المحزن شديدا عميقا شاركت أصحابه فيه على غير قصد إذ أحسست بغتة قطرة ندية تنزل من عيني وترطب وجهي .

والذين يعرفون متانة الأسرة الفرنسية لا يستغربون هذا الحزن العميق . فان الأسرة الفرنسية من أمتن الأسر في العالم والروابط بين أعضاء الأسرة الواحدة عميقة الى درجة لا يتصورها أولئك الذين لا يعرفون من فرنسا إلا ظاهرها ، ولم يتصلوا هنا إلا بمنتدياتها الليلية وباحياء اللهو فيها . فهم يظنون أن راقصة "مونمارتر" هي المرأة الفرنسية وأن شباب الليل هو الشباب الفرنسي . وهم في ذلك جد مخطئين . بل أن خطأهم في هذا أشد من خطأ السائحين الذين يحكمون على مصر بما يرونه في شارع عماد الدين أو في أمثاله من أحياء الأزبكية . ولكن أولئك الذين أتيح لهم أن يتصلوا بالأسرة الفرنسية في الريف أو بالأسر الطيبة في نفس العواصم يعلمون أن البيت الفرنسي قائم على الجد والوفاء والحصانة ويعلمون أن الروابط بين الآباء والأبناء والأزواج والأمهات قد لا يوجد لها مثيل في متانتها . ولذلك فان الذكريات لديهم عميقة دائمة . هم لا ينوحون ولا يقيمون من المآتم

ما نعرف، ولا يصبغون وجوههم بالسواد، ولكنهم يحفظون لموتاهم ذكرى طويلة في قلوبهم .

تلك بعض صور بسيطة ساذجة أنقلها اليكم . وهى فى رأيى تصوّر حياة باريس فى بعض نواحيها تصويرا صحيحا .

حبيب المصرى



قصر الجيوش دونور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى جانب السين

باعة الكتب وهواتها



ما أقدم الكتب التى على ضفاف نهر السين فى باريس، وما أسنّ الديدان التى تعبث بين وريقاتها، وما أثمن ما يحويه بعض هاته الكتب من كنوز المعارف . فكثيرا ما حمل المفكرون والفلاسفة والعلماء والشعراء نتاج أدمغتهم الجبارة، وما أفنوا العمر فى تخطيطه وكتابته الى تلك الصناديق العتيقة المحطمة على شواطئ السين . هذا الى أنك قد تنقب فى صندوق فلا تجد سوى بضعة كتب فى قواعد اللغة أو عدّة من الأغانى الدينية القديمة .

وفى الجهة المقابلة لتلك الصناديق تجد بائع الكتب جالسا على كرسى خاص . مصنوع من خشب هذه الصناديق أو من خشب قديم العهد، كخشب هذه الصناديق، يطالع الصحف، ويدخن غليونه فى حملاق ذاهل عن كل العربات التى تدرج على قنطرة السين .

ولن تجد بين الجمع الحاشد الذى يتناول هذه الكتب بالتقليب والتصفح من يقدم على شراء كتاب واحد فقد تقضى من الوقت أطوله فى التنقيب فى واحد من تلك الصناديق، ثم تنتقل الى آخر وتقتل كتبه بحثا وتقليبا، ثم تمضى الى حال سبيلك كأن شيئا لم يحدث دون أن تحوم حولك أقل ريبة حتى إذا ما سر شخص

من جمهرة المتصفحين من كتاب، فكل ما عليه أن ينحدر الى بائع الكتب السادر الساكن كأنه فى إغماءة طويلة ويسأله عن الثمن ثم يدفعه وينصرف ويعود البائع الى الاستغراق فى ذهوله وقراءته وغليونه وحملاقه . وقد يروعك ما يفجأك به البائع من ثمن مرتفع وقد يبدأ النضال والجدال، ولكنه يعز عليه أن تعكر عليه صفاء مجلسه فيأمرك فى حدة وصراحة : إما أن تدفع ما ذكره ، هذا إذا أدرك أنه لم يخطئ فى حسابه، وإما أن تدع الكتاب مكانه وتنصرف الى رحمة الله . وهكذا تجد القوم الى جانب السين غارقين فى بحر من الوحدة والضجر لا تستطيع أن تبادل أحدهم نقاشا أو مراوغة كلامية حتى الرسام الصغير الذى يقضى يومه فى استعراض لوحاته مع من يستعرضها من الناس كأنه واحد منهم لا يعرف صاحب هذه الرسوم وحتى ذلك الرجل الضخم، ذو الكتل الشحمية المتراكمة، حتى هذا الرجل الطيب القلب الذى أخذ يستعطف بائع الكتب قائلا له فى صراحة أنه منذ شهور يتطلع شوقا الى اقتناء هذا المجلد الضخم الذى كان يراه فى كل صباح ومساء فى تشابه مع جسده المهول ويأبى صاحب الكتب أن يبيع صاحبنا البدين الكتاب بالثمن الذى عرضه، ولكنه، وما أطيب قلبه فى هذا، يبيح للرجل أن يطالعه دون أن يدفع ثمنا على شريطة أن تتم قراءته على الكرسى الخشبى فى الجهة المقابلة لصناديق الكتب وأن يتشاركا فيه .

وقصة أخرى لرجل لما يبلغ الكهولة، فقير معدم أعجبه كتاب ولم يستطع أن يشتريه لنضوب يده فاقتصد واقتصد، ثم اشترى الكتاب وعاد به متهللا غير أنه رجع بعد أسبوع ليبيع الكتاب مرة أخرى، ولكى يستعطف البائع أن يسمح له باتمام قراءته .

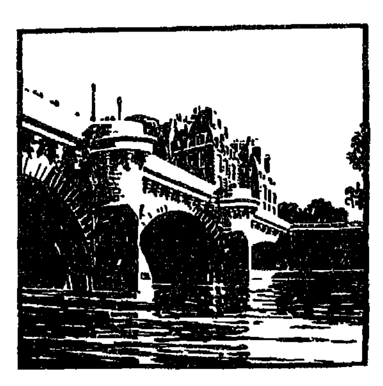
وقصة رجل ثالث أجنه حب القديم وكان يؤمن أن الكتب القديمة كنوز تحوى أثمن الدرر، فأخذ يشترى ويشترى من تلك الكتب ولكن أرخص ما يمكنه منها وكان معيار تقديره لهذه الكتب اصفرار أوراقها وتآكل أطرافها .

جون . ف . مكدونالد

صـــور

السين

إذا أتيح لك أن تصعد برج سان جرفيه فسترى منظرا للقناطر التى تقطع النهر القديم الذى يخترق البلدة وسترى خصائص باريس ومبانيها التى تمتاز بها على غيرها من البلدان . حقيق أن هناك أبراجا أعلى بكثير من هـذا البرج الذى نتحدث عنه . ولكن واحدا منها لن يهيئ لك منظرا جميلا



بون نيف

كذلك الذى تراه من برج سان جرفيه، منظرا يبدى لك العاصمة الفرنسية كأحسن ما يكون الإبداء، ويطالعك بكل نواحى الجمال التى تفخر بها بلدة الجمال ... ومنظر كهذا له قيمته وخطره . فالسين ليس نهرا نبيلا ساميا متزن البهجة كالتاميز فى لندن ولكنه نهر حى متألق بهيج رائع لن تستطيع أن تقابل مثله فى غير باريس . وبين أقصى البلدة من الشمال وأقصاها من الجنوب، نحو الثلاثين قنطرة تتباعد وتتقارب وتلاعب النهر الذى يحاول الفرار منها بتعرجاته وثنياته بينما هى تلاحقه فى غضون البلدة العظيمة . وهذه القناطر كلها مختلفة الصنوف بعيدة الشكول وهى جميعا بنات عصور مختلفة : فواحدة بناها ملك فى أثناء إنشاء البلدة، وثانية بناها آخر بعده بسنين، وثالثة الى جانبهما قد داعبتها يد العمارة الحديثة بالاصلاح والترميم فهى تارة من حديد وتارة من حجر . وكل من هذين رمز لعهد من العهود، وهى قد تحمل على طولها قوسا واحدا وقد تحمل عدّة أقواس وهى قد تكون بسيطة البناء خالية من النقش، وقد تكون مجملة زاهرة حافلة بنقوش وحلى شتى . قد تكون جديدة وقد تكون قديمة فهى مختلفة بعضها عن بعض تمام الاختلاف فلا رابطة تجمعها من بناء ولا نقش ولا هندسة ولكنها مع ذلك موسومة بنفس الطابع تلمحه وتحسه عند ما تمرّ على إحداها لأنها جميعا فى باريس .

وكذلك حال الأفاريز الكثيرة المنتشرة على جوانب النهر والدرج الكثير الذى ينحدر عليه الباريسيون الى مياهه العجاجة . تلك الدرجات التى يغطيها النهر إذا زاد أو فاض . وتلك أفاريز أخرى تغطيها فضلات النهر وتزخر فيما عدا ذلك بأكوام مكدسة من البضائع التى أفرغتها السفن الملولة الواقعة الى جانب الأفاريز . وتلك الخيول المسكينة المتململة التى تنتظر فى صبر نافد أن تحمل العربات التى تجرها حتى تستريح من هذا الجهد المتواصل . وهناك صفوف من الصيادين وقد قبضوا على غابات الصيد، وقلما يرى الانسان سمكة واحدة اصطيدت ولكن أصحابنا الصيادين أولئك مستبشرون دائما ضاحكون ينتظرون المرحمة وعطف السماء غير أنهم لا يتورّعون أن يثوروا على السماء إذا لم تحقق لهم ما يبتغون ... ولن تعدم أن ترى أيضا أسرابا من النساء مفتولات العضل مشمرات عن سواعدهنّ وقد أخذن فى غسل ملابسهنّ يضربنها فى مياه النهر الذى يقابلهنّ فى بشاشة وطمأنينة .

وقد يسعدك الحظ أيضا فترى جماعة من الفنانين وقد جلسوا الى لوحاتهم يودّعونها ما يصوّره لهم خيالهم بعد أن يستمدّوا الفكر مما يشهدون على ضفاف النهر العجوز الجميل . وقد تمرّ على رجل عجوز هرِم يدخن غليونا كبيرا من تلك الجماعة التى تقوم بذبح الحيوانات للبيوت لقاء أجر تافه . وسترى بعد ذلك الحمامات الخشبية وقد سوّرها أصحابها لتحجب عن أنظار المارّة، فبدت كأنها أحواض كبيرة من الخشب السميك . وقد ترى الى جانب هذه الحوائط سائلا مسكينا يبحث عن ركن يأوى اليه فى الليل، ويا له من مأوى . ذلك الذى يجده الى جانب النهر فى ليالى الشتاء . وفى وسط البلدة تحمى الأفاريز الكثيرة المرتفعة جوانب النهر من الفيضان . أما فى الأقاليم الخارجة عن العاصمة فقد يحدث أحيانا أن يفيض حتى يغرق ماجاوره من الزروع . وقد حدث فى سنة ١٩١٠ أن فاض السين فأغرق باريس بأكملها وكان هذا جميلا غاية الجمال فى أعين من يحبون أن يروا من العاصمة بندقية أخرى تشبه بلدة الجمال فى إيطاليا ولكن هذا أنتج من الخسائر ما أضج الناس ...

سسلى هادلستون

فيضان السين

يا فرنسا لا عَدِمنا مِنَنًا ... لكِ عند العلم والفنّ جُساما

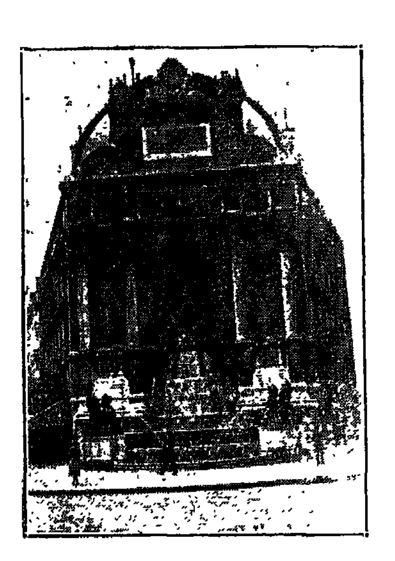
لطَفَ اللهُ "بباريس" ولا ... لقيتْ إلّا نعيماً وسلاما

رَوّعت قلبي خُطوبٌ روّعت ... سامرَ الأحياء فيها والنياما

أنا لا أدعو على "سين" طغى ... إنّ "للسين" وإن جارَ ذِماما

لست بالناسى عليه عيشةً ... كانت الشهدَ وأحباباً كراما

شوقى



سبيل سان ميشل على رأس الحى اللاتينى
وملتقى الأحباب

باريس فى الذكريات

منظـــــــر ...

ثم كان أن ذهبت الى باريس ... وأخذت أجول فى شوارعها متلكئا على أنارينها وكان ما يشغل تأملى إذ ذاك هو هل تحتم طبيعة الأشياء كما يقول البريتانيون أن تكون العاصمة مقيدة مغلولة بأوضاع تتحرر منها غيرها من البلدان . وفيما أنا أقلب الأمر على وجوهه العدة وأتحايل على استخلاص نتيجة مقبولة ، و بينا أنا أسير على غير هدى إذ وجدت نفسى أمام كنيسة نوتردام .

كانت كنيسة نوتردام ماثلة أمام عينى عن بعد وإن تكن بينى و بينها مسافة غير قصيرة ، وكنت قد تركت البقعة الخالية التى تمتــد أمام عينى وهى مغطاة بالأبنيــة والبيوت المتلاصقة فاذا بى أراها وقد انقلبت الى شوارع عامة ، والى ميــدان كبير تتوســطه حديقة عطرة يتدافع المــاء نقيا قطراته كالبلور من نافورة فى وســطها . ولم يكن هناك من معالم المــاضى ما يذكرنى برؤيتى السابقــة لباريس إلا بناء عتيق تعرض فيه الجثث التى لم يعرف أصحابها . كان هذا البناء (La Morgue) هو كل ما بقى من آثار المــاضى ناحلا هزيلا معتزا على شاطئ النهر أقرب الى التداعى منه الى التماسك ، وكان منظره يبعث فى الانسان رهبة صامتة ، و يثير فى قرارة النفس شر معانى الاشمئزاز والخوف .

وفيما أنا أحدق فى هذا الأثر وقد أوحى الى نفسى بشتى الأفكار اذا بموكب لجب يتقدم فى صخب و يتجمع أمام الكنيسة التالدة ... وكان الجو الذى يحيط بذلك جوا من المراح والإسعاد يتوسطه جماعة ذوو ملابس مزركشة يرقصون و يغنون كأروع ما يرقص وأفتن ما يغنى .

وكان من أعز أمانىّ أن أرى موكب عرس أو تنصير أو أية مناسبة من المناسبات القومية أستطيع أن أرى فيها وجها معينا من الوسط الفرنسى . وبدا لى أن الحظ سيسعدنى إذ ذاك بشىء من هذا القبيل لكنى لم أكن أكثر توفيقا هذه

المرة منى فى المرات السابقة فقـد استطعت أن ألمح من كلام من يتدافعون حولى أن هذا الموكب لم يكن إلا لتوصيل جثة من الجثث الى ذلك البناء الساحر فى وحدته على جانب النهر .

ولما كنت لم أسعد فى حياتى برؤية حفل كهذا الحفل فقد تعمدت أن أبدو فى مظهر الفرنسى الذى يعرف دقائق ما هو مقدم عليـه ثم انفلت مع الجمع الحاشد داخل البناء .

وكان اليوم ذا وحل متراكم فحملنا فى نعالنا ركامات متكتلة من الطين ثم أعقبنا غيرنا فصـيرنا أرض المكان كأرض الشوارع خارجه موحلة قذرة ولم يكن أصحاب الموكب وتابعوه إلا شرذمة من العاطلين رافقوه من البداية وانضم اليه من استطاع أن يلتقطه الموكب فى تسياره . وما استقرّ النعش على أرض متوسطة تبرز فى ردهة المكان حتى أعلننا إثنان من الحراس أننا مشكورون أولا ثم مدعوون ثانيـا للتنزه فى الخارج .

ثم تباركت تلك الدعوة — بعـد التملق والمصانعة — بأن هرول القوم عدوا الى الخارج وختمت بصرير الأبواب ووضع السلاسل عليها من الداخل .

فمن لم يسعدهم وقتهم برؤية حفل كالذى رأيت لا يعدمون وسيلة لرؤيته بل هم قادرون أن يخترعوا من أنفسهم صـورة لذلك المظهر بل قادرون أن يضعوا رمزا هينا لما يحدث عادة فى هذه المحافل .

بيت معتم أدكن تحيـط به واجهة من الزجاج نلمح مثلها عادة فى محال حائكى لنـدن الكبار وقد علقت فى سجفها أشتات من الملابس الممزقة والخرق المتناثرة والأحذية المحترقة ليتعرّف على أصحابها من يعرفهم .

فاذا استوى لديك شيء من هذا فقد نقصتك مكملاته ... ومكملاته هذه عبرات السماء ترسلها سيلا مدرارا مرحمة بالبؤساء و إشفاقا عليهم .

شارلز ديكنز

باريسى صميم

أناتول فرانس



يعرف الكاتب الحقيق من وجود جملة أو عبارة فى كل صفحة من صفحات مؤلفاته لا يستطيع كاتب غيره أن يأتى بها . خذ مثلا الجملة الآتية : " اذا كان لنا أن نؤمن بهذا الراعى المحبوب الذى يرعى نفوسنا وأرواحنا ، فانه يستحيل أن نحرم من رحمة الله وسندخل كلنا الجنة — هذا اذا لم تكن هناك فى الواقع جنة وهو أمر محتمل جدّا " .

هذه الجملة تشعرك برينان فهى لا بدّ من كلمات واحد من تلاميذه وإن تكن قد ظهرت فيها روح المداعبة والمجون أكثر من أستاذه .

ولكن اسمع هذه الجملة :

" كانت أرملة لأربعة أزواج ، وكانت امرأة رهيبة يشك المرء أنها فعلت كل شىء إلا أنها أحبت — لذلك أكرموها واحترموها " .

ثم خذ قوله :

" إن القانون فى روعته وعدالتـه ينهى الغنىّ كما ينهى الفقير عن أن ينـام على قارعة الطريق أو يتسوّل فى الشوارع أو يسرق الخبز " .

فهذه الكلمات لا يستطيع أن يكتبها إلا رجل واحد هو أناتول فرانس . وأظهر ما فى أسلوبه لهجته اللاذعة وقوة النقد فيه . وقد لا يقل غيره من الكتّاب عنه ذكاء ولا قوة فى النقد ومع ذلك لا يوجد بينهم من يشبهه ، فقد تدخل مستودعا

من الخزف المشهور تحمل فى يدك قطعة لاتقل عما يحيط بك مظهرا وورنقا فتتناولها البائعــة منك وتقلبها فى يديها لحظة ثم تلتفت إليك وتقول : " هــذه من طينة أخرى " .

كذلك الحال فيما يتعلق بأناتول فرانس فقد تبحث طويلا ولا تجد طينة كالتى جبل منها تحفه بعد ستة وستين عاما قضاها فى الكد والعمل .

لم ينل أناتول فرانس شهرته إلا حديثا . وقد أتم الستين من عمره فى ١٦ أبريل عام ١٩٠٤ ، ولكنه لم ينل شهرته الحقيقية إلا فى الأحد عشر عاما الأخيرة ، فقد بدأ وهو شاب فى مقتبل العمر يكتب قطعا أدبيــة ونبذا تاريخية وقصائد شعرية تدل على الذوق السليم ولكنه لم يلفت اليه الأنظار إلا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره عند ما وضع قصته " جريمة سيلفستر بونار " ولم يقم البرهان القاطع على نبوغه وإبداعه إلا فى سنة ١٨٩٣

أما السبب فى احتجابه كل هذه المدّة فيرجع : أوّلا الى التطور البطىء فى إتمام شخصيته فلم تكن لديه الشجاعة للظهور بمظهره الكامل لأنه كان فى حاجة الى مشجع خارجىّ . ثانيــا الى وجود كثير من عظماء الكتّاب والروائيين فى الطليعة . ثالثــا وهو الأهم ، وجود أرنست رينــان الذى خلفه أناتول فرانس ونسج على منواله . فشجرة العلم التى غرسها ورعاها لم تظهر للعيان من كل جانب ولم تأخذ نصيبها من النور والشمس حتى ذهب رينان واختفى مع غيره من المؤلفين الذين أثارت أفكارهم الخصبة الاهتمام الكبير بها .

وقــد نبت جميع أولئــك الكتّاب وظهــروا فى الأقاليم ، فولد دوديه وزولا فى بروڤنس ، وموپاسان فى نورمانديا ، ورينــان فى بريتانيا ، وهرڤيو فى نويلى ، وبورچيه فى اميان ، وهوسمان كان من أصل فلمنكى . أما أناتول فرانس ، وهو من البــداية أأبين عودا من كل هؤلاء الريفيين ، فباريسى المولد يحمــل الطابع الباريسى الصميم ، على حين لم يصبح أســتاذه رينان باريسيا إلا فى أخريات أيامه عنــد ما فقد الطابع البريتانى ولم يعدّ واحدا من تلاميذ الجرمان .

وجد أناتول فرانس جوّه الوطنى فى نور باريس وهواء باريس ، ووجد جمال الطبيعة الفرنسية فى حدائق لكسمبورج ، كما وجد مدرسته فى الشارع الذى عاش فيه ، فكان وهو طفل يراقب الفتيات من بائعات اللبن فى غدوهن ورواحهن ، والفحامين وهم ينتقلون فى كل منزل بالحىّ اللاتينى ، ويعرف الصانع الباريسى وصاحب الحانوت الصغير .



الفحام

وكانت "ڤترينات" المكاتب تلفت نظره بما يعرضه فيها أصحابها من الصور ، وكان أوّل تعليمه من تقليب أوراق الكتب التى يعرضها الباعة الفقراء فى صناديقهم على أرصفة نهر السين .

وكان أناتول نفسه ابن بائع كتب فقير ، أو بالحرىّ مساعد بائع كتب ، فهو مولود بين الكتب حيث كبر وترعرع بين المؤلفات العتيقة الحكيمة التى كانت تذكره بأزمنة مضت وانقضت . فتعلم منها كيف أن الحياة على طولها قصيرة الأمد فى هذا الوجود ، وكيف أن أعمال أى جيل من الأجيال مهما عظمت لا يدوم منها إلا القليل ، فأوحى هذا اليه روح الحزن والرفق والشفقة والحنان .

ومن الغريب أنه أكثر من وصف المكاتب الصغيرة فى باريس وغيرها — بما فيها من الكتب والمتردّدين عليها وما جرى فيها من أحاديث — فكم من مرة شغل باله وأظهر اهتمامه الكبير بباعة الكتب على ضفاف السين — الذين يعدّونه الآن ملاكهم الحارس — فوصف حياتهم التعسة وهم واقفون هنالك فى البرد والمطر ، يكادون لا يبيعون شيئا .

أما نحن الذين لا نرى فى رجال فرنسا اليوم من هو فرنسى كأناتول فرانس — لأنه جمع فى نفسه جميع التقاليد القومية التى انحدرت من الكتّاب الروائيين فى القرون

الوسطى ومرت بمونتانيه الى ڤولتير — فلا يدهشنا أنه وجد من نفسه الجرأة على أن ينتحل اسم بلاده ويتخذه بدلا من اسمه . على أن " فرانس " كان اسم أبيه الشخصى فقد كان يدعى فرانس تيبو . ولكن لم يكن أهل الشارع الوضيع الذى عاش فيه يعرفونه باسم فرانس بل كانوا يدعونه باسم المسيو أناتول .

وكانت الشوارع المجاورة للسين لا تبرح رأسه ، فقد كتب فى أحد المواضع يقول : "تربيت على هـذا "الرصيف" بين الكتب وتولى تربيتى أناس عرفوا بالسذاجة والتواضع لا يذكرهم أحد سواى . فاذا ما ذهبت من هذا العالم فستطوى ذكراهم كأن لم يكن لهم بالأمس وجود" .

وأشار أناتول الى هـذه الشوارع فى موضع آخر فقال إنها الوطن الثـانى لجميع أهل الفكر والذوق . ثم كتب فى موضع ثالث يقول : "تربيت على أرصفة نهر السين حيث كانت الكتب العتيقة تؤلف جزءا من منظره الطبيعى . وكان السين بهجتى ومبعث السرور فى نفسى ... ولشـدّ ما أعجبت بالنهر الذى يعكس فى النهـار منظر السماء كالمرآة ويحمل على صدره الزوارق ، وفى الليل يتزين باللآلئ والزهور" .

هذه لمحة وجيزة من تاريخ حياة هـذا الكاتب العبقرى الذى ولد من الشعب وعاش ومات للشعب .

جورج براندس



بائعـة الزهـور

صورة قديمة

بير لاشيز

بير لاشيز هى مقبرة العظماء فى باريس وهى تشبه دير وستمنستر فى لندن فكلاهما مضاجع الموتى . ولكن الانسان بينما يشاهد فى أحدهما ممرات خضراء وسط زروع ندية عطرة ترمقها السماء الفضاء ، إذ يرى فى الآخر مسحة الصنعة تتجلى فى الأعمدة والأقواس والنقوش . فواحد معبد للطبيعة ، والثانى معبد للفن . ففى الأول تجد تلك المرارة التى يزجيك المكان إياها تبدو أروع وأوقع ؛ إذ الطيور تشدو فى نغماتها الرقيقة الحزينة حيث تستقبل أرض المقبرة لفحات الشمس المؤاسية . وفى الثانى لا تكاد تسمع صوتا غير صوت الخطى تبدد سكون المقبرة الرهيب ، ولا يستطيع النور أن ينفذ اليها إلا من خلال النوافذ المرتفعة المغبرة ، ولا تترك تلك الرطوبة المستشعرة فى جو الردهات إلا أوجع الآثار فى الأفئدة وأشدها هولا وإرهابا ، ولا سيما وهى تبدو فوق أحجار النعش والأكفان فى قطرات مبسوطة كالبقع عليها .

تقع مقبرة بير لاشيز على جانب تل يقابل المدينة العظيمة وتقودك عدة طرق متعرجة ذات ظلال وارفة بين التماثيل المرمرية والرخامية الى قوس كبير فى قمة التل . وقل أن تجد بين المقابر ما لم تغمر فتحته بالورود والرياحين وأحجاره بورق الشجر الأخضر المتأرج وان تستطيع أن تمالك نفسك وأن تقاوم ما يغمرك من التأثر حين تسمع زفرات الريح تهز الزروع وزقزقة العصافير . وترى التماع الضوء فوق أحجار المقابر . ولن يستطيع أحد مع ذلك أن يجد سبيلا الى الخلاص من تلك الوحشة التى تسود المكان جامعة بين برودة الموت ورهبة الظلام .

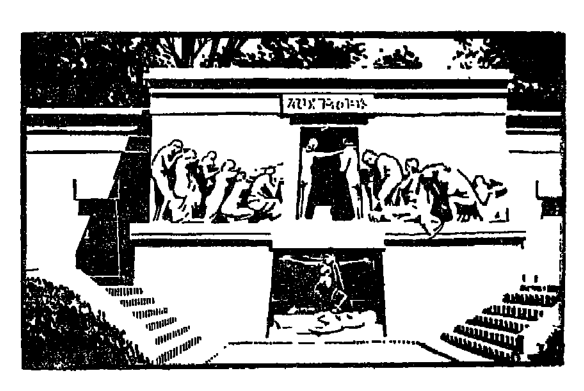
لقد كانت عشية رائعة تلك التى زرت فيها بير لاشيز وكان أول ما استوقف نظرى قوس كبير بقرب المدخل على الطريق اليمنى ، وفى القاعدة الرخامية التى يستند إليها القوس صورتان محفورتان لفتى وفتاة فى مسوح القرون الوسطى ، ذلك هو

قبر هيلويز وأبيلار ... وما أعجبه من قضاء تفرّدا به بعد حياة طويلة ملؤها الخصاصة والشقوة ، ملؤها الحب والكارثة ، ملؤها الدموع والأحزان والتشنيج ، لم يكتب لرمادهما أن يستقر هادئا فى موضعه الأخير بل لقى من ضروب التغير والتلون وصنوف الأتعاب ما يتشابه به مع حياتهما فى بدايتها ونهايتها ، فى آلامها ومتاعبها ، فى غصصها وبأسائها ، لم يبارحهما ذلك القضاء المحتوم الذى سايرهما فى حياة كلها اليأس وكلها المرارة ... ولقد أمضتنى هــذه الذكرى فتابعت سيرى إلى اليسار . وما لبثت أن وجدت نفسى فى أجمة متكاثفة من أوراق الأشجار تكتنفها أشتات من الأزاهير والزنابق ، وحولى كثرة متراصة مزدحمة من مدينة القبور فسرت بينها يطالعنى منها فى كل خطوة اسم هز العالم من أقصاه الى أدناه يعيد إلى الذهن مزيجا من ذكريات مريرة حلوة جماعها هالة من الإعجاب والتقدير . الفلاسفة والمؤرّخون والموسيقيون ورجال الحروب والشعراء يرقــدون من حولى جنبا إلى جنب فى نصيب واحد . كانت هناك عشرات القبور غيبت أجساد أصحابها ولم تغيب ذكراهم ، بل ما فتئ عزاؤها الأخير وهى مضطجعة فى لحودها المستقرّة أن يذكرهم النــاس وأن يتغنوا بأشعارهم وموسيقاهم وأن يقرأوا كتبهم ويمجدوا ذكرى حروبهم . أجل لقــد جر العفاء أذياله على أيديهــم ورؤوسهم ، ولكنه لم يستطع أن يمحو ذكراهم من الآباد بل ما تزال تلك مضطرمة مستعرة توحى أجمل المعانى وأنبلها وأقواها لأجيال خلت وأجيال تأتى فى ضمير الغيب لمــا يبح بها . وحين أعيانى السير وتوالى الذكر أخذت مجلسى على حجارة قبر أواجه المدينة اللاغطة الصاخبة ، فلفحنى برد المساء وطنّ عن بعد جرس الكنيسة الحزين ، وقــد خالط كل ذلك طرقات السائرين وقد أضناهم العمل وأعياهم كد الحياة وما أروعها من ساعة تكالبت على رأسى فيها سلاسل من الذكريات وتناهبتنى آلاف من الفكر وما أوقعها من موازنة ، من موازنة بين مدينة الأحياء ومدينة الموتى .

وقبل أن أبرح المقبرة كان الليل قد أظهر طليعة سواده فى غسق باهت متحلل فلم أستطع تبين الأشياء فى جهر ووضوح وحين مررت بالباب العظيم المؤدّى إلى

الخارج استدرت لأتزوّد من العظاء، من عظام العظاء ورمادهم، بنظرة أستوحيها حكمة الحياة وعبرتها فلم أر إلا القوس الكبير على قمة التل . وهنا وهناك سلة رخامية تبزغ بين خضرة الأشجار القائمة مشيرة إلى الشمس المائلة وقد تحشرجت أنفاسها فى شفق أحمر مخضب بدمائها وقد طالعتها تلك المسلات بوجه أبيض هادئ كوجه الراهبة المستكينة الى رحمة ربها تصلى لها وتطلب من الله الغفران ومن حولها الأجداث تشاركها الصلاة والنجوى .

هنرى و . لونجفلو



الى المـــوتى !

صـــور

مونبـارناس



مونبارناس من الأحياء الهامة فى باريس وستصير بعد أمد وجيز من الأحياء التى تكوّن نقطة الاتصال فى العالم أجمع، وهى فى شكلها الحاضر لا تقل كبرا وعظمة عن أشهر الأحياء فى العـالم . ويستطيع المـرء أن يرى أفرادا من جميع النحل ومختلف الأجناس فوق أفاريز شوارع "محطة مونبارناس — سان ميشيل" فى الميدان الذى يقف فيه المـارشال "نيه" ممتشقا حسامه على أهبة الحرب أمام دار الرقص المعروفة باسم "بوليه" . ذلك المكان لا يزيد طولا على بضع مئات من الأمتار، ومع ذلك فهـو معرّض لشتى الأجناس ومكان تسمع فيه متباين اللهجات ومختلف اللغات . يستطيع المرء أن يرى فيه من العـادات ماهو بعيد عنه كل البعد فقد يلمح المـارّ فى ذاك المضمار الصغير آلافا من الناس وهم فى هيئتهم الصامتة أقرب الى أن يكونوا تماثيل ماثلة منهم الى آدميين يعيشون ويشعرون .

وعلى الرغم من كون مونبارناس من الأحياء الكبيرة كما قلنا إلا أنها قديمة العهد تماما . وكانت فيما مضى موئلا لجماعة الأدب والشعر، ففى موضع البيت رقم ٢١٨ من شارع سان جاك تمكن جان دى مانج من نظم درّة الأدب الفرنسى القديم المسماة "قصة الوردة" وفى مونبارناس نشأ أمثال سان بف وميشليه وباره وغيرهم ولا زلت أذكر ذلك البناء المرتفع الأسوار فى شارع "أرجو" ذلك البناء الذى يبعث القلوب

على الانقباض لا لما يعكسه من ظلال مخيفة ، وإن كانت هذه بعض أسباب تلك العاطفة السوداء التي تجتاح أنفسنا حين نراه أو نمرّ به ، كلا ليس هذا هو السبب الوحيد ، بل ما يدفعني إلى التشاؤم ويقبض صدري إذا أنا مررت به هو أنني ولست أدري لماذا — ولست أدري أيضا أمن حسن الحظ أم من سوئه — رأيت ذات صباح إذ أردت أن أرقب استيقاظ باريس في الصبح المبكر ، أقول رأيت رجلا في هذه الدار ينفذون فيه حكم الإعدام علنا ، فما تكاد تبزغ الشمس بعد الفجر بقليل حتى تستعدّ سكين الجيلوتين الى اقتطاع رقبة الانسان . مسكين ... وهذه القصة تبعدنا عن روح مونبارناس المرحة الخفيفة السعيدة ، ولعلنا لا ننسى أن نرى معا المرصد في مونبارناس في الشارع الذي يحمل الاسم نفسه . ولا ننسى أيضا الحديقتين الصغيرتين القريبتين من الشارع الذى تحدّث عنه ، الحديقتين اللتين يسميهما السكان " بلوكسمبرج الصغيرة " .

ومن الذكريات التاريخية التي يطيب للانسان إعادة سماعها أن نقول إنه الى جانب حائط مرقص " بولييه " في يوم ٥ ديسمبر سنة ١٨١٥ قتل القائد " نيـه " أشجع الشجعان ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن تمثاله في شارع " رود " يعدّ أجمل تماثيل باريس قاطبة . ولقد كتبت مرة " أن مرقص بولييه هو بالذات مرقص بولييه لم يتغير " ولكن واحدا من النقاد لم يعجبه مني هذا التعبير . وحقا لقد تغير مرقص المونبارناس هذا ولكنه بقي في صميمه كما كان منذ سنين . لقد دخلته أنواع الموسيقى الحديثة ، وأعيد بناء جزء عظيم منه غير أنه مازال بالرغم من كل هذا يحتفظ بروحه القديمة فسوف ترى إذا سعدت بالذهاب اليه فتيات مونبارناس الصغيرات وهن على اروع وأفتن ما تكون الفتيات ، يراقصن شباب الحي ، وقد ألهبت حرارة الرقص الأفئدة حتى تضامت الأجسام في ثورة واحتدام بينما نغم " الجاز بند " يذكي لهيبها وضرامها . وقد يسعدك الحظ فتحضر ليلة تعزف فيها فرقة الموسيقى القديمة وحينئذ تمثل نفسك وقد عدت الى الوراء عدّة سنين بينما تلاعبك وتداعبك الموسيقى القديمة بحلاوتها وطلاوتها .

ولعل "بول ڤرلين" الشاعر الفرنسى الكبير حين كتب ذكريات شبابه كان صادقا حين قال : حب ساعة بعاطفة ولكنها تعـادل الدهور ... مرقص بولييه ! وقد نظم على الأسـلوب العثمانى القـديم . وانتشرت فيـه السيدات كما كان ينتشر الحريم فى قصور الأتراك ، وفى حرارة الرقص تلتقى الشفاه والصدور .

حب ساعة ولكنها ساعة تعدل الدهور !

سسلى هادلستون



قهوة الروتوند فى مونبارناس ملتقى جميع أجناس البشر

باريس فى حلة بيضاء

بقلم الدكتور أحمد ضيف



المدينة على سعتها واختلاف ما بها، وما تحويه من أبنية، ومنازل ضخمة، وطرق واسعة، ومجامع العلم الكثيرة، وأماكن اللهو المتعدّدة، وما يخترقها من ضجة المركبات والسيارات وأصوات البوقة . ثم الأبيض والأسود والأسمر من السكان والأجانب النازحين اليها .

كل ذلك انتشر فيه سكون غير مألوف بعد أن لفه الليل البهيم بثوب من نهار .

لا أريد أن الشمس طلعت فى الليل . لأنى أغضب المنطقيين إذ كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا . ولكن أريد أن السماء أخذتنا على غرة - وتحينت سواد الليل الحالك لتنثر علينا من سحبها بياضا ناصعا تغمرنا به كما يغمر الكريم سائله بالإنعام .

ليت شعرى ماذا يصل الإعجاب بزرقاء اليمامة لو أنها كانت أمس بباريس ونظرت ببصرها الحادّ سقوط الصقيع فى جوف الظلام . أكانت تميز المياه التى تحوّلت الى ذرّات متجمدة من الظلمة الحالكة التى تخترق هذا البياض الناصع .

أم كان يخيل اليها أنه أريق إناء من ليل ونهار فامتزجا وكونا وقتا ثالثا لا يعرفه التاريخ الى الآن .

قالت لى الخادم وهى تحضر لى الفطور أصقعتنا السماء . فقلت منذ متى -

قالت : منـذ الساعة الخامسة . قلت : لا بد أن يكون الثلج متراكما فى الطـريق فقالت : هلم وانظر، ثم تركتنى وخرجت .

أحب هذا المنظر لأنه فن جميل من فنون الطبيعة، ولأنه لا يوجد فى بلادنا ، ولأنه شىء غريب عنا .

خرجت أقصـد الجامعة واخترقت حديقة اللكسمبورج لأنها أقرب طـريق وأجمله، سيما فى مثل هذا اليوم . واذا الطريق — كأن لون أرضه سماؤه — مغطى بطبقة من الثلج الناعم لا يقل سمكه عن شبر فى طرق السير وثلاثة أشـبار أو أربعة فى الأرض والأماكن المنعزلة .

أخذت طريق فى الحديقة وأنا لا أدرى كيف اخترقها . وكلما رميت بقدمى انغرست الى الكعب ثم انسلت نظيفة نقية، فكنت أشعر بنوع من الارتياح والميل الى تكرار حركة المسير لأن منظر الثلج أشدّ رهبة وأثرا فى النفس على بعد فاذا اقترب منه الانسان لان ملمسه .

رأيت ما فى هذه الحديقة من أشجارها الطويلة وأغصانها الكثيرة الجافة المتشعبة مكسوة ببياض ناصع يتخلل سوادها الأصلى . كأنها مطعمة بالفضة . أو كأنها تنبت فتيت اللجين . أو كأن بهـا أعمدة من زئبق وقد تجمع الصقيع على أغصانها الكثيفة فكوّن شيئا أشبه بالزهر الأبيض المتفتح وتحت ذلك أرض بيضاء غبراء . كنت أنظر فى هـذه الطرق الخالية فأشعر بالعزلة وألمح سكونا تاما أسدل على العالم فأهمد حركته الكبيرة وأحيانا كنت أرى على بعـد إنسانا فألمح شبحا أسود هادئا يمرّ تحت هذه الأشجار . تتساقط عليه بعض ذرّات الصقيع فلا يلتفت إلىّ كأنه يخترق ميدان حرب بالقرب من العدوّ فلا يريد أن يشعر به انسان .

لا أدرى كيف كانت الطبيعـة توحى الى النفـوس فى ذلك الوقت الرهبـة والاحترام لخالق هـذا الكون وقدرته . فقد انتشر فى النفوس شىء من الإعجاب يشبه أن يكون خوفا .

اجترت الجانب الشرقى ومررت بقصر الشيوخ واذا هـذا الكساء الأبيض قد وهبه هيبة ووقارا .

أما التماثيل فكان على رأس كل تمثال تاج من فضة وعلى جسمه كساء بال من حرير أبيض . فلما وصلت الى الجهة الغربية رأيت بعض الأطفال والفتيات يتقاذفون بقطع الثلج فيأخذ أحدهم قبضة منه، ويلقى بها على رفيقه فيغمره بمسحوق كمسحوق السكر . وقد رميت ورميت بشيء من ذلك فقد تبعتنى فتاة الى أن كادت تخرجنى من الحديقة وأنا أعدو أمامها وهى تقفو أثرى ولم يكن ذلك إلا إشفاقا عليها فقد أردت أن أسرها بأن المرأة قد تهزم الرجل فى مواقف النزال، كما تهزمه فى مواقف العشق، وكما تصرعه فى ساحات الغرام . أما الطريق العامة فقد كانت خاوية أو كادت تمثل للانسان منظرا من أجمل ما تجود به الطبيعة . فهـذه المنازل المرتفعة بنافذها وسطوحها أخذت شكلا أشبه بالزينة . وقد علق الصقيع بحلافق الحدائق وتعاريجها الحديدية فنسج منسوجا جميلا يتعب فيه الانسان اذا تعمله .

باريس اليوم أبدع ما يستطيع انسان أن يتصور من الجمال .

أحمد ضيف



أولاد باريس يتقاذفون بقطع الثلج وكأن التمثال يشاركهم لعبهم !

صـــور وذكر

الليـــل فى باريس

باريس الآن شعلة من النور : هى من نور الحياة وبهجتها ، وهى من نور الله وقداسته ... باريس الآن شعلة من نار هى من نار الوجود وثورته ، وهى من لظى القلوب المحـترقة فيها وشجوها ... وباريس فى الليل وقد أنارتها المصابيح تتألق بينها الأسرجة الكبيرة كأنها تسبح فى بحر من الجمال والحب . وباريس فى ليلة الصيف تلك تحفز القلب أن يتعلق بنجومها المستقرة فى سمائها ولا نسمة هناك ولا ريح ، بل دنيا صامتة هادئة ميتة كأنما قد ثقلت على صدرها متاعب الأبدية فعاقتها عن التنفس ، الأشجار ساكنة ما تهزها هبات النسيم ولا زفرات البلدة والمدينة مختنقة كأنهـا غارقة فى قاع بحر عميق ما تستطيع أن تزيح عن صدرها ثقـل طبقاته . وهى مظلمة فى إسراف يلمع فيهـا بين كل لحظة وأخرى ضوء مصابيح عربة أو سـيارة فكأنها حيـوان متنمر ينبعث الشرر من عينيـه كالبرق فى ظلام الديجور ومصابيح الغـاز فى شوارعها هى الأعين الرقيبة التى تنظر منازلها وقد عبست لهـا فى تجهم وتعكس أشعتها على الأشجار التى تتململ من فضيحة فى أنهار الضياء والجو مشبع بذرات دقيقة من التراب تضيق الصدر أو تبعث على الاختناق .

وعلى قنطرة الانفاليد — هنا وهناك — بين كل لحظة وأخرى تلتمع أشـعة العربات شاردة واردة فى غير استقرار أو اتضاح . وهناك على حدود الأفق قطاران : واحد يجرى على الأرض مرسلا من مدخنته سـيلا من اللهب والشرر ينير صفحة السماء ، ويتصل بالقطار الآخر قطـار النجوم وقد ترابطت حلقاتها كأنها تشد بعضها بعضا ، وقد تطوقت المدينة بسلاسل من النور لا انفصام بين دوائرها فما يستطيع المرء أن يعدو حاجزها . تلك هى أضواء المصابيح المنعكسة على مياه السين الهادئة ولقد ترابطت ظلالها كأنها تضم الواحدة منها الأخرى الى صدرها الثائر فكان النهر المنثنى جاريا وسط المدينة وقد انعكست على جانبيه أضواء مصابيح الضفتين المتوازيتين ثم انعكست فيما بينهما أضواء المصابيح التى رفعت فوق القناطر التى تقطعه فى أجزاء

غير كبيرة التباعد . كأن النهر على صورته تلك سلم خشبي كبير جوانبه ودرجاته من النور وقد امتدت ساقاه الى مضاجع النجوم فى السماء وهى مسرورة مغتبطة بهاتين الساقين من الأشعة تلمسهما فى ترفق وتقدر ما فيهما من جمال وافتتان .

فى ذلك الظلام المخيم على كل فجاج المدينة يجد الانسان كلما سار بضع دقائق ميدانا رحبا قد أناره عديد من المصابيح فكأن السائر فيها لايدرك أن الليل قد حل إلا إذا خرج بنفسه من ذلك البحر الزاخر بأمواج الأشعة والضياء ولا يكاد يخطو المرء عدة خطوات حتى يلمح شارعا أو ركنا من حديقة عامة أو منعرجا فى طريق كبير وقد أرسل ضوءه ينير جوانب السماء فكأنه يجهد فى كشف أسرارها وهى ما تزال ضنينة بها أشد ما يكون الضن . وفى حين أنك ترى شوارع حى سان جرمان الطويلة وقد أغرقها الليل فى سواد حالك ما أن تبصر الحدأة فيه شيئا ترى الشوارع الأخرى المزدحمة فى الأحياء القريبة منه ؛ وكأنها لهب يتطاول على السماء و يلفحها بنيرانه وسعيره ... ... وباريس الآن فى الليل وقد تلفعت أبنيتها بدثار من الظلمة السوداء الفاحمة فلا تظهر من أجسادها شرفات أو أبراج ولا يعين مصباح طرقها ومنافذها ولكن هذه الظلمة لم تستطع أن تنتصر على سحابة حمراء تسبح فى جو باريس كأنها شواظ من نار أو زفرات ملتهبة حارة من أنفاس البلدة الحبيبة ، من أنفاس باريس ...

إميل زولا



جولات وتأملات

بقلم شيخ الصحافة الأستاذ داود بركات



دخلت باريس وفكرى فى غير باريس وعقلى متجه إلى سواها، ولكنى دخلتها والذهن ملآن بما طالعناه صغارا عن جمالها وعما فيها وعن ناسها، وعن إغراق الناس فى وصف محاسنها ومغانيها .

دخلتها فاذا هى بلد كسائر بلدان العالم، ومررت بساحة الباستيل وكان له أكبر أثر من نفسى فتساءلت وهى رقعة من الأرض صغيرة أفى هذه الرقعة الصغيرة الحقيرة نبتت الحرّية ورفعت صوتها عاليا فى الأمم؟ أهنا كان سجن الحرّية فأطلقه الفرنساويون من عقاله ؟

تساءلت ولم أصدّق نفسى، ثم تساءلت عن معنى الحرّية عند القوم لأنى شرقى ولم أفهمه فى الشرق، ولا أعرف للحرّية معنى، وانما هى فى نفسى ونفس أبناء وطنى نظرية كسائر النظريات، أو خيال كسائر الخيالات التى تخطر لنا إبان الحياة . فقلت بعد أن غاب مكان الباستيل عن نظرى هل أستطيع أن أرى الحرّية بين الناس وأن أفهم معناها الصحيح ؟

وصلت إلى الفندق "جراند بريتانى" بسان لا زار، فكان أوّل ما أثر بى وقوف الركاب واحدا وراء واحد لا يتقدّم واحد منهم على الآخر (faire le quai)، وكان دورى السابع بينهم . فلم أتقدّم عن مكانى ولم أتأخر ولم يسابقنى أحد وتعلمت ألا أزاحم أحدًا . حينئذ عرفت معنى المساواة الذى لم أفهمه فى الشرق حيث يتقدم الكبير على الصغير .

نزلت من غرفتى الى قاعة الجلوس فرأيت شابا يقبل فتاة فى تلك القاعة الغاصة بالناس فأجلت نظرى بالحاضرين وهم خمسون الى ستين رجلا وامرأة وفتاة وأكثرهم من الفرنسويين والانجليز، فلم أر عين واحد منهم وقعت على ذلك الفتى أو تلك الفتاة فتساءلت هل هذه هى الحرية وأجبت نفسى بأنها قد تكون ذلك .

خرجت من الفندق ومررت بكنيسة الثالوث فسمعت رجلا يقول لسيدة معه : هذه هى الشهيدة ! (C'est la Martyre) فانصرف ذهنى الى أنه يعنى القدّيسة المشيدة على اسمها الكنيسة . فكنت شرقيا أصغى أو أستمع الى حديثهما فاذا هو يسميها الشهيدة لأن قنابل الألمان أصابتها أيام الحرب . ثم أخذ يدل السيدة على الجراح المصاب بها جسم تلك الكنيسة ، وإذا بالرجل يحدث عن ذلك المعهد من الوجهة الوطنية لا من الوجهة الدينية فقط ويحنو على تلك (الشهيدة) ، لأنها تحملت قساوة الحرب لا لأنها تحملت الاضطهاد من أجل دينها . ففهمت شيئا من معنى الوطنية عندهم وزاد فى فهمى أن عينى المرأة دمعتا لتلك الجروح فى ذلك الهيكل العظيم المشيد .

انتقلت الى الشارع واذا به شارع "شاتودان"، فقلت وأنا قليل القراءة للروايات : أهذا هو الشارع الذى خلده الروائيون الفرنسيون بكثرة حوادثه . وانتهيت الى الترينيتيه (Trinité) ، فأثر بى منظر سيدة حبلى تجتاز الشارع الى الكنيسة ، وبوليس البلدية يوقف الناس ، وهم ألوف بذلك الشارع ليفتح الطريق حرا لتلك السيدة ، والناس يحيونها من الجانبين لأنها حبلى ، ولأنهم يحيون فيها الوطنى الذى سيولد غدا ، ويكون عمادا لأمته . هذا القول لم أستنبطه من المشاهدة بل قاله لى شيخ أعرج كان يسير وراءها ويحيه الناس التحية نفسها ، فاستأذنته وسألته عن السبب فقال لى ذلك وأردفه بقوله "وأنهم يحترمونى ويحيونى لأنى فقدت ساقى فى حرب السبعين ... وهذا أجل نيشان أحمله أمام أمتى" . فتمنيت عندئذ لو فقدت رجلى فى أمة ألقى فيها مثل هذا الاحترام لمن يخدمها .

وصلت الى البولڤار واذا بموكب عظيم يمرّ واذا بالبنات والسيدات يخرجن من

كل جانب ويهتفن هتافا عاليا "فليحيا غورو" ولم يكن اسم غورو غريبا عني فدنوت من فتاة وسألتها لماذا هي تجرى وراء غورو، وتدعو له، مع أن رئيس الجمهورية تقدمه وتقدمه كثير من الرجال العظام حتى المارشال فوش فكان جوابها : "يا مسيو : غورو أضاع فخذه وذراعه في سبيل فرنسا . بينما الآخرون كانوا نياما على الفراش الوثير أو ينعمون بملذاتهم مع نسائهم متكئين على الآرائك يتسامرون" ثم ازدادت له دعاء وصياحا، وهي تركض مع رفيقاتها وراءه، فعرفت عندئذ معنى آخر من معاني الوطنية .

وصلت إلى الكونكورد ووقع نظرى على تماثيل الأقاليم الفرنسية، فوجدت في كل تمثال صفحة كبيرة يكفي أن يقع نظر الفرنسي عليها ليقرأ تاريخ بلاده فعرفت كيف يحبون بلادهم ولماذا يحبونها . ورأيت بينها تمثال ستراسبورج والزهور تحيط به من كل جانب . ورأيت طفلا صغيرا يحمل طاقة من الورد ويحاول إلقاءها على ذراع التمثال فلا يتوصل إلى ذلك . وأحببت أن أعرف هذا الجهد الذي يبذله الطفل، فسألته : هل أساعدك ؟ فكان جواب مربيته : دعه يؤدى واجبه نحو وطنه ! ... فخجلت لكلمتها .

وصلت إلى الشانزليزيه فوقع نظرى على كتيبة من الفرسان الجزائريين روح عنى منظرها، وأحسست بشرقيتي تنبض في عروقي، وتقفز في صدرى، فاتبعتها وهي متجهة إلى قوس النصر . ولما توسطنا الطريق قلت لقائدها بالعربية أتخدمون فرنسا وأنتم جزائريون ؟ فكان جوابه وهل للفرنسيين أكثر منا في هذا البلد أو في بلدنا ؟ إنا يوم نشعر بأنهم يدعون بحق ليس لنا، في ذلك اليوم يعرفون كيف نأخذ حقنا ! فلم أصدقه . وقلت في نفسي رجل مغرور . ولكني اضطررت بعد أيام إلى تصديقه لأن صديقا أخذني إلى وزارة الخارجية فرأيت قائدا جزائريا يفتح الأبواب بلا استئذان، ويدخل على الموظفين كبارا وصغارا، وكأنه من أهل البيت . فترصدت مروره أمامي لأسأله هل هو من موظفي الوزارة فكان جوابه : إني وصلت باريس منذ يومين ولي أشغال أقضيها لأعود إلى الجزائر . قلت ومن

وسيطك هنا؟ فوضع يده على عمامته وقال : هذه، ثم وضع يده على صدره وقال : هذا . وكان يحمل شارة اللاچيون دونور . ثم ضحك وقال لى بالعربية المكسرة : ليس بوانكاريه أكثر فرنساوية منى .

ثم زاد احترامى لهؤلاء القوم إذ دعيت للعشاء مرة فى نيلى من ضواحى باريس عند أحد أشراف فرنسا ، فرأيت معنا على المائدة قائدا جزائريا بعمامته وبرنسه وزيه الجميل وهو مقدّم على الجميع ، وهو يعرف مقامه أنه فوق الجميع لأنه قائد قبيلة .

هذه أيامى الأولى فى باريس وأنا موزع الفكر، ولكنها لحظات كان لها أشدّ التأثير فى نفسى .

وبعد أن انتهى الغرض من سفرى الى باريس قلت فى نفسى يجب أن أعرف هذه المدينة . فكانت فى أوّل الأمر صغيرة فى نظرى ، واذا بها تكبر رويدا رويدا حتى عظمت وحتى بت لا أجد حدّا لعظمتها . وكانت شوهاء فى نظرى ، فصار جمالها يزداد يوما فيوما حتى وصل الى منتهى الجمال . ولكنى لا أحس موضع الجمال من هذه المدينة فلا يمكننى أن أقول أين هو وان كنت أستطيع أن أقول ان هذا الجمال موجود بأجمعها من أولها الى آخرها .

* * *

مررت بتياترو ساره برنار ، فقرأت فى الاعلان أنهم يمثلون إحدى الروايات للمرة المائتين والخامسة والستين . فقلت أرواية تمثل فى تياترو واحد ٢٦٥ مرة متعاقبة ، ولا يملها الباريسيون ، ونحن فى مصر نمل الرواية للمرة الثالثة . أو الرابعة ، ونرغم المؤلفين والممثلين على التغيير والتبديل . وصممت أن أسأل مدير التياترو عن ذلك فلما سألته كان جوابه : "إنك رجل غريب ، لا تعرف من باريس قليلا ولا كثيرا . إن الرواية التى تقدّمت هذه مثلت هنا ٦٨٠ مرة . واضطررنا أن نستخدم جوقا بلجيكيا لمواصلة تمثيلها لنريح الجوق الفرنساوى . وقد مثلت الرواية ذاتها فى لندرة ١٢٢ مرة متوالية" . فظننت أن ذلك من اختصاص تياترو ساره برنار . فذهبت فى الليلة التالية الى تياترو رويال لأرى رواية ،

(Pas sur la bouche!) . " لا على الفم ! " وإذا بهم يمثلون الرواية للمرة الـ ٦٢٧ ! ! ففهمت كيف يكون النجاح عندهم فى المسائل الأدبية .

وذهبت مرة إلى الأوبرا وجلست إلى أحد الشبان الفرنسيين أحدثه ويحدثنى فأذكر مما قاله لى : أنظر هؤلاء السيدات فى التياترو، واعلم أن اللائى حفظن شعورهن من القص هنّ الشريفات الفرنسيات لأنهنّ محافظات يأبين مسايرة غيرهنّ، ففهمت عندئذ مغزى كلمة محافظين، ننقلها عن هؤلاء الأوربيين ولا ندرك معناها الصحيح .

* * *

مررت بمونمارتر فوقع نظرى على باب كتب عليه بالفرنسية :

(Essayez, Essayez Toujours) " جرّب ، جرب دائما ! " فقلت لا بد لى من معرفة المغزى الذى ترمى اليه هذه العبارة . فلما تحريت قيل لى : هنا، وفى هذا المكان يقوم الذين يخطر لهم احتراف التمثيل بتمثيل بعض القطع الروائية أمام جماعة من الخبراء المتطوعين فاذا حكموا للشاب أو الفتاة بالقدرة على التمثيل انصرفوا اليه، وأجادوا فيه . فعرفت حينئذ أن القوم فيما يحترفون يراعون ميل الرجل الى حرفته ، ولا يكرهونه على حرفتيه إكراها، كما نفعل فى الشرق إذ نختار للشاب الحرفة التى نريدها لا الحرفة التى تتفق ومزاجه .

ذهبت الى قهوة الروتند بمونبارناس فرأيت فيها عجبا إذ رأيتها مجمعا للدانمركيين والسويديين، وبلاد بحر البلطيق والروس، وأصغيت إلى أحاديثهم فتذكرت ماتقوله لنا التقاليد عن برج بابل، سواء كان باللغات أو بالوجوه أو بالتعامل بينهم . وسألت عن القهوة التى تقابلها فقيل لى إنها الدوم (dome) فزرتها فى الليلة التالية فاذا بى أجد إسرائيل بأكمل مظاهره . فهناك الصهيونيون وهناك يهود الأسبان " السرفديين " . وجلست مع أحدهم من أصحابى أعدّ الأجناس الاسرائيلية فى تلك القهوة ، فاذا هم ١٢ نوعا، حتى لقد كان بينهم بعض الإسرائيليين العرب، فدلنى اجتماعهم على ما للرابطة الدينيه من التأثير على الأمم، وعلى صوغ نفوسهم جميعا بقالب واحد . فضحكت من ذلك العنوان الذى كتبه الفرنسيون على أبواب كنائسهم

ومعابدهم، وعدّوه مفخرة من مفاخرهم وهو "الإخاء والحرّية والمساواة" . وقلت فى نفسى هل وجدت هذه من يوم وجود الإنسانية الى اليوم، أو هل يمكن أن تكون فى المستقبل مادام الإنسان إنسانا، وما دام الاشتراك بالعقيدة يدعو إلى الاشتراك بالحياة والتعاون فيها . كذلك قل عن الاشتراك بجميع المقوّمات الأخرى من مقوّمات الحياة .

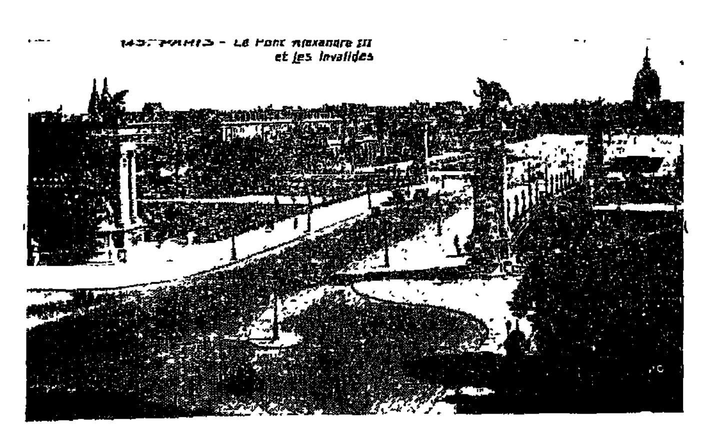
دخلت فى تلك الليلة ناديا يعلنون عنه باسم نادى الجوكى (Le Jockey) فاذا بى أهبط إليه من ١٨ درجة ، وإذا بى أمام فتيات يلبسن لبس الرجال ، وإذا بى أمام شبان يلبسون لبس النساء، فقلت القوم يغيرون مظاهرهم ليجدوا ملذاتهم . وما كنت أحسب أن ألق هناك رفيقا لى يقصد قصدى، فاذا بى أمام صحفى إسبانى يبحث عن الرفيق الغريب فى ذلك المكان، فاذا بنا غريبان وكل غريب للغريب نسيب . فطلب منى أن أجالسه، وكلانا تدور عيناه فى ذلك المحيط، وإذا بالمسألة مسألة رقص، واحتساء الكؤوس، والهزار البلدى المصرى فى القهوات البلدية المصرية، ولكن بالفاظ فرنساوية تحل منها الاشاره والتلميح، محل الافصاح والتصريح . وكل ما يعوزهم وينقصهم هو القهقهة عندنا والضحك العالى لأنهم قوم فقدوا هذا الضحك ؛ وهم على ما علمت من رفيق الأسبانى قد أنشأوا مدارس فى باريس لاستعادته ووضعوا على باب إحدى المدارس التى رأيتها فى بولفار ڤولتير هذه العبارة : " (Venez appendre la gaité gauloise) "تعالوا لتتلق مراح الغولوا" . ويريدون الضحك . فقلت فى نفسى ما أهنأ حياتنا ونحن على الفطرة والضحكة فى إحدى قهواتنا تملأ القاهرة والاسكندرية وطنطا وهولاء المساكين الذين حرموها يبحثون عنها تعليما وتلقينا .

وبينما نحن فى الجوكى كلوب دخل البوليس، فلم ينزعج أحد . ولم تنق العصافير، ولم يحدث هلع . ولم يحسبوا أن الغازى القاهر قد دخل على المكسورين الخانعين، وإنما هى عصاة قصيرة بيضاء رفعها الضابط وقال للوجودين : باسم القانون أدعوكم الى البوليس، فذهبنا جميعا . وكأنهم ذاهبون الى أحد منازلهم ، ولما رآنى الضابط

ورفيق الأسبانى قال: أأنتما غريبان قلنا نعم . قال : أمعكما الجواز . قلنا نعم . وناولناه الجوازين فنظر فيهما واعتذر عن إزعاجنا فى هذه الليلة، فخرجنا وأنا لا أصدّق نفسى بأن هذا الضابط يعتذر إلىّ وإلى زميلى ، وقلت فى نفسى أكان ذلك يقع فى القاهرة أو الاسكندرية من ضابط عظيم كهذا ، بل من أحد الجاويشية الصغار ؟ تذكرت ذلك لأنى قبل شهرين من سفرى الى باريس دخلت قسم الأزبكية لأسأل عن أمر صغير أو واقعة وقعت فى الفجالة ، فلم يتنازل ضابط من الضباط بالرد علىّ . ولما هممت بالانصراف عرفت أنى هناك سجين لا يجوز لى الخروج إلا بأمر الضابط العظيم ! ... فرجعت لالتماس الاذن لى بالخروج ، ولا أذكر فى حياتى الطويلة أنى شعرت من نفسى الحقارة والصغر ، كما شعرت فى تلك اللحظة ، وأنا ألتمس من الضابط السماح لى بالخروج وهو يميل بنظره عنى وكأنى لا أكلمه وكأنه لا يسمعنى .

تلك بعض الخواطر التى خطرت لى ولا أقول أنى رأيت كل شيء حسنا فى بلادهم بل رأيت من الخرافات عندهم ما يفوق الخرافات عندنا ، ورأيت من الاستهتار ما لا أودّه لقومنا ، ولكنى ذكرت بعض حسناتهم لاعتقادى أنها من مقومات الحياة وأنه جدير بنا أن نأخذ بهذه المقومات فى حياتنا الحديثة المتطورة كل يوم الى حضارة حديثة، وثقافة جديدة .

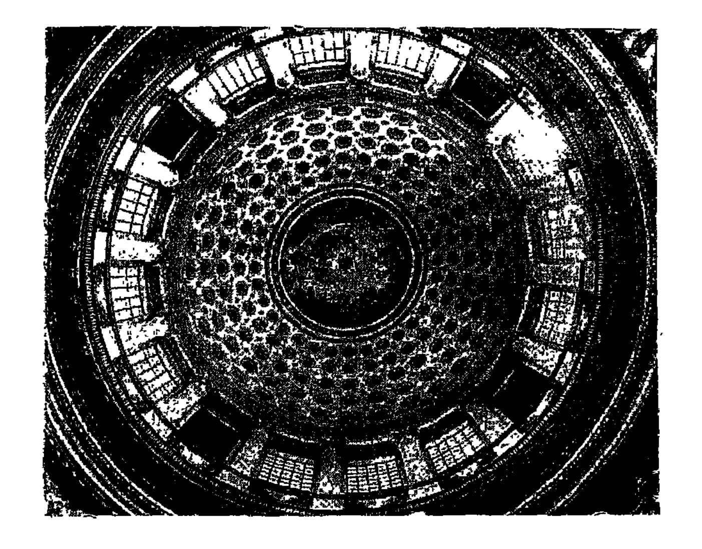
داود بركات



كوبرى اسكندر الثالث



قاعة المرايا التاريخية بقصر فرساي



قبـة البـانثيون


في الحي اللاتيني



منذ مائة عام

البعثة الأولى بباريس وقانونها

... ثم لما ذهبنا الى باريس مكثنا جميعا فى بيت واحد وابتدأنا فى القراءة فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب وهو أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ثم بعد الظهر درس رسم ثم درس نحو فرنساوى وفى كل جمعة ثلاثة دروس فى علمى الحساب والهندسة. وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى الخط درسين يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ثم انتهى الأمر الى أننا تعلمنا الخط فانقطع عنا معلم الخط، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع، وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية وفى هذه الفنون المتقدّمة، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرّد تعلم النحو الفرنساوى ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعدّدة. كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم وتعهد أمورنا من غسل ونحوه فكان يأخذ صاحب المكتب أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة فى نظير ذلك ولا يلزمنا شىء فى المأكل والمشرب. ولما كانت طباع هذه البلاد شدّة البرودة كان لكل واحد منا فى كل سنة بثلثماية قرش خشب للتدفى بها وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشترى لنا من طرف الميرى أيضا القمصان والسراويل والنعال وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها. ومما ينبغى ذكره أيضا ما يعطى للحكماء والأجزاجية فى مداواة من كان يمرض منا فان الحكماء بباريس مع كثرتهم غاية الكثرة يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع على اختلاف مراتبهم فى الشهرة وعدمها ويتعذر القدر بتعذر الزيارة وهذا إن لم يكن للحكيم سنوية معلومة وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب

وتعهدهم للصحة فأقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاثة فرنكات ، والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات ، والحكيم الجليل القدر يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا . وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد تعدد القدر . وأما بالنسبة للعدم فقد لا يأخذون منه شيئا ونحن نعدّ هناك من الموسرين بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ولنسبتنا فى هذه لولى النعم ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد. وسترى ذلك فى مراسلات كتبها لى بعد الامتحان العام .

وحين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا إلا يوم الأحد الذى هو عيد الإفرنج بورقة إذن للبواب من الضابط الذى نظره علينا ولى النعم ، ثم بعد تفرقنا فى المكاتب المسماة البنسيونات كنا نخرج أيام البطالة وهو يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس وأيام أعياد الفرنساوية ، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء إن لم يكن له درس بعده . ولنذكر لك هنا قانون نامه الذى صنفه الأفندية بعد دخولنا فى البنسيونات وعبارته هذه صورة ترتيب الأفندية فى البنسيونات .

المادة الأولى

ان يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة تسعة ويأتوا الى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم الى الأفندى النوبتجى فى هذا الشهر لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ثم يرجعون إلى البنسيونات فى أيام الصيف الساعة تسعة وفى أيام الشتاء الساعة ثمانية وهذا الترتيب لازم ولا بد فان رجع أحد الى البنسيون قبل ذلك وتعشى هناك فهو أولى وأحسن من اللوازم أن لا يدور أحد فى الأزقة ليلا ومتى دخل فى البنسيونات يعطى الورقة المذكورة للعلم .

المـادة الثانيـــة

إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين .

المـادة الثالثـــة

ان كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها فى ورقة ولا تسمع إلا اذا كانت من جهـة التعليم أو من جهـة أخرى يحصل له منها ضرر ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة يكتبها للنو بتجى فى هذا الشهر .

المـادة الرابعـــة

ان جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ماحصلوه من العلوم فى هذا الشهر و يسألون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات و يكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعـالهم على الصحيح ، ولأجل هـذا ينبغى التفكر فى هـذا بالخصوص لأجل تحصيل غرض حضرة ولى النعم .

المـادة الخامســـة

لو احتـاجوا شيئا من الكتب والآلات فى أثنـاء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ومعلمهم يخبر بذلك مسـيو جومار فان رآه مناسـبا يعطيهم ذلك بعـد ما يخبر النو بتجى فان اشترى أحد شيئا من غير أجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنـــده .

المـادة السادســـة

إنه بعـد الامتحان بمـا ذكرنا فى المـادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية لنجابته تعطى له كتب وآلات وسعه .

المـادة السابعـــة

فى محل التفرج أو الطريق لا ينبـغى لأحد منهـم أن يرتكب ما يخل بمروءته وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشدّ المنع .

المـادة الثامنـــة

ان كل الأفندية الذين هم فى البنســيونات لا يدخلون فى البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوما مرة وهو يوم الأحد .

المـادة التاســعة

ان يوم الأحد الذى لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين الى مواضع التفرج أو الرياضة أو ماينبغى رؤيته ،وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل إن لم يكن عليهـم شغل فيـذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة .

المـادة العـاشرة

يتبعون قوانين البنســيون كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين .

المـادة الحادية عشرة

اذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة، وإن كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقــة وأطواره غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة .

المـادة الثانية عشرة

إن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حدّ سواء وإن كان فى البنسيونات مائدتان إحداهما للعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنـديىنا يأكلون مع معلميهم .

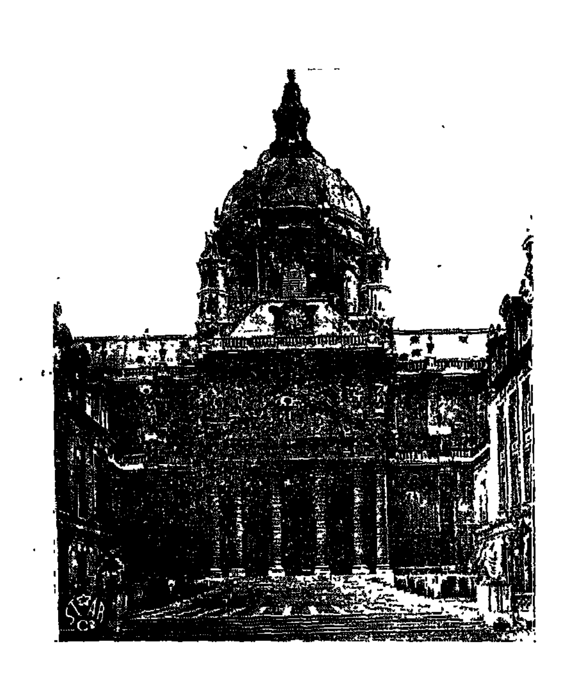
المـادة الثالثة عشرة

إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك .

المادة الرابعة عشرة

كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا . وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه مع التنبيه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولى النعم فمن لم يمتثل أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم حفظه الله .

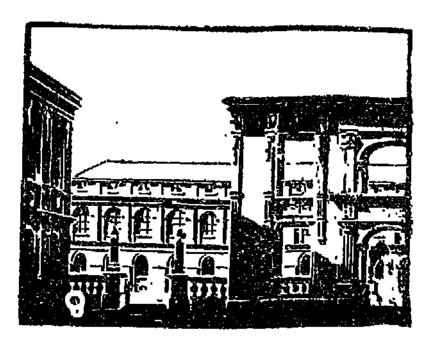
رفاعة رافع الطهطاوى



السوربون

التقاليد البوهيمية

طالب الفنون الجميلة



مدرسة الفنون الجميلة

يحضر الأستاذ مرتين فى الأسبوع فقط الى مدرسة الفنون الجميلة ، وللتلميذ أن يحضر متى شاء وأن ينصرف متى شاء. وكان بالمدرسة ثلاث ورش " اتلييه " للحفر ومثلها للتصوير ومثلها للهندسة المعمارية . وعلى رأس كل منها أستاذ .
ولما كان الإقبال على الهندسة شديدا ، فان له ملاحق خارج المدرسة . وأغلب الأساتذة من مجمع الفنون وأصلهم تلاميذ قدماء لتلك الورش نفسها التى أصبحوا أساتذتها . ومن الدروس التى تدرس فلسفة الفنون الجميلة وعلم الجمال والتاريخ القديم ونظامه سنة للتاريخ المصرى وسنة للرومانى وسنة لليونانى غير التاريخ الحديث المقرر لكل السنين . وعلم التشريح وعلم الهندسة والحساب وغيرها .

والمدرسة تعيش بتقاليدها أكثر مما تعيش على لوائحها ... فالتلميذ قبلما يدخلها لا بدّ له من خطاب توصية من الأستاذ بقبوله . وفى خلال السنة يجرى امتحان صعب للالتحاق بالمدرسة نهائيا وقد يعمل سنوات حتى يقبل ولا بدّ له من معرفة الفن والاستعداد له قبل الدخول. وكان الطلبة قبل الحرب يبقون بالمدرسة حتى سن الثلاثين ولا تعطى للمصوّرين والحفارين شهادات ،وكانت الدبلومات تعطى للمهندسين دون سواهم . ولهذا دلالته القوية لأنه ما من فنان فى العالم يعتمد على شهادته .

ومن تقاليد المدرسة التى لا تستطيع إدارتها معها حولا أن الطلبة الجدد يعاملون بطريقة الجندية أى أن طالب السنة الأولى يظل فيها خادم طالب السنة الثانية . وهكذا يحكم عليه بأن يكنس الورشة و يعدّ المواد التى يشتغل منها زملاؤه القدماء. وهناك "الكابورال" رئيس الجدد كالشاويش يوزع الأعمال . أما (le massier)

فهو الألفة وأمين صندوق الورشة وممثلها فى الحفلات . والجدد يخدمون القدماء فى الداخل والخارج حتى أنهم ينقلون عفشهم اذا انتقلوا من بيت الى بيت، فهم كالعريف فى الكتّاب اذا أراد دخانا أرسل التلميذ يشتريه له، ونحو ذلك ...

وتحدث فى هذا الصدد حوادث غريبة بوهيمية حقا، ومن ذلك أن احد القدماء صعد إلى مسكنه بالطابق الثالث يدخن غليونه، وأمر التلميذ الجديد بأن يفسح الطريق لبصاقه، فوقف الجديد فى وسط الشارع و بيده عصا طويلة يصدّ بها الناس عن المرور فى دائرة بصاق القديم !... والناس ينظرون و يعجبون و يزدحمون و يضحكون، لأنهم يعرفون شذوذ طلبة الفنون .

ولا مندوحة للجدد أبدا من الطاعة مهما كبرت سنهم وطالت لحاهم ! ... ولا بد للجديد من أن يدفع للقدماء تكاليف دعوة يشربون فيها نبيذا و يأكلون محارا (huitres) وخبزا وسردينا بحسب المبلغ الذى يتبرع به الجديد و بحسب مقدرته . والشهر الأول عادة كله دعوات ومآدب وكل جديد يدفع بدوره تبعا لذكائه أو غفلته وخفته أو ثقله ! ...

ولما وصلت نبهنى أستاذى إلى هذه الدعابات التى تقسو أحيانا حتى يموت منها بعض الطلبة لإسرافهم فى المزاح (إذ وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتى اختنق)، ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف السين حتى ساقه الشرطة إلى القسم . أما إذا غضب الجديد فالويل له، وقد يؤدّى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا .

* * *

ولقد كان نصيبى كجديد أن يحكم على بالتجرّد من جميع ثيابى وأبقى عاريا تماما ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة . فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل فشدّوا وثاقى إلى كرسى وأنا عار كما ولدتنى أمى ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعونى وكتبوا عليه "رمسيس الثانى" . وحملونى على نقالة رفعوها على أكتافهم وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدّمنا من يفسح لنا . وسرنا كذلك

من المدرسة إلى عرض الطريق حتى كنيسة "سان جرمان دى بريه" فى آخر شارع بونابرت . وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا الى قهوة بونابرت والناس من حولنا ينظرون ويبسمون وهم جميعا يعرفون عادات مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدها .

وهناك وضعونى كما أنا على خوان فى المقهى وطلبوا طعاما وشرابا وجعلوا يرمونى بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يتقدمون إلىّ — على طريقتهم — الزلفى والقرابين .

وتولى اثنان منهم إطعامى لأنى كما سلف القول كنت مقيدا وكان بيننا طالبات أيضا مشتركات فى هذا الاحتفال ...

هذا، وغير هذا مما يشابهه ومما اشتركت فيه، قد خلق فىّ للحال انطلاقا من قيود المحافظة وحبا فى الحرية وتكسير أغلال الكلفة ... فهو يعد من الانقلابات التى طرأت على نفسى وكان لها أثر فيها طول حياتى .

مختار

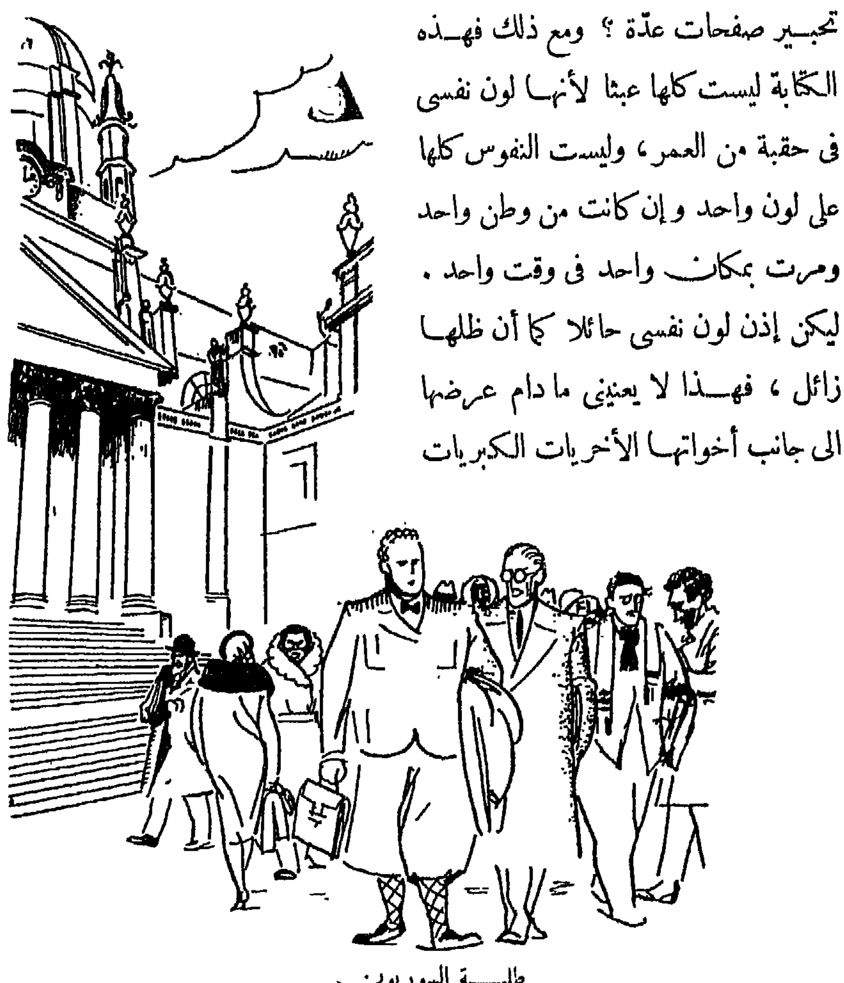


فى الحى اللاتينى

١

أكتب عن الحى اللاتينى، حى الطلبة فى باريس، موطن الأرواح النبيلة بين السوربون والبانتيون . ولست أطمع فى إضافة سطر الى السفر الذى وضعه من تكلموا عن الحى اللاتينى وكتبوا أو تكلموا قليلا أو كثيرا ، ومروا به مرورا ، أو سكنوه شهورا .

فلماذا إذن أكتب؟ واذا كنت لا أطمع فى كتابة سطر جديد فما الفائدة من تحبير صفحات عدّة ؟ ومع ذلك فهذه الكتابة ليست كلها عبثا لأنها لون نفسى فى حقبة من العمر، وليست النفوس كلها على لون واحد وإن كانت من وطن واحد ومرت بمكان واحد فى وقت واحد . ليكن إذن لون نفسى حائلا كما أن ظلها زائل ، فهذا لا يعنينى ما دام عرضها الى جانب أخواتها الأخريات الكبريات



طلبة السوربون

الساميات اللواتى سبقنها فى طريق الحكمة سيبين عن جمال ألوان تلك النفوس ويزيدها تألقا وبهاء ، وبضدها تميز الأشياء .

تسألنى عن الحى اللاتينى وقد ساخت فيه السنين ؟ إنه حى الحب والحرب ! حرب غرام لا هدنة معها ولا سلام . نضال دائم بين العقل والعواطف . كلا لقد أسرفت ! فليته كان نضالا بين العواطف والعقل إذن لكان أسمى وأعلى وأدعى الى تخفيف مرارة التجربة . إن للعواطف قدرها وفضلها فى تهذيب النفس وترويض الفكر وتخصيب الذهن ولكنه نضال بين العقل والنزوات . إن العاطفة شىء آخر بعيد عن تلك الشهوة الطارئة التى لا تأتى حتى ترحل غير مأسوف عليها بل مأسوف منها واسمها النزوة .

فتياته لا عهد لهن ولا ذمام .

وإنى ليخيل الىّ أن فتيات هذا الحى قد قتلت فيهنّ المشاعر من كثرة ما عركن من الرجال . وكيف يكون لهنّ عهد وليس لفتى كلمة تصدق أو وعد يحقق . إن الفتيان هنا خليط عجيب وليسوا غالبا من وفرة الغنى بحيث يكفون البنات مطالبهن وليسوا من القناعة بحيث يكتفون بواحدة . وهذا الاختلاف فى الأجناس وهذا التفاوت فى الألوان، وهذا التفنن فى اللباس والأزياء ، وهذا التنوع فى الجمال والدلال يجعل لكل امرأة سرها الذى يحاول الفتى ، والفتى الشرقى بخاصة، اكتشافه مهما كبده ذلك وأجهده .

وتجد فتيان الصين بعيونهم المنتفخة المشقوقة كأعين الهرة القابعة فى الشمس قد استأثروا بفتيات معينات جميلات صغيرات يروحون ويغدون معهن طوال أيامهم ولياليهم على جانبى بولفار سان ميشيل . وفى حاناته وأزقته وأينما دخلت وأنّى نزلت وجدت من ثعلبة الصين آثارا .

وتجد أولئك الفتيات اللواتى آثرن أو حكمت عليهنّ السماء بصحبة " أبناء السماء " كاسفات اللون عليهنّ غبرة، كما لو كنّ قد لحقتهنّ من أفيون الصين قترة ! ولا عجب فنهارهنّ ليل وليل باريس فتاك، شتاؤه يهرئ الأبدان، وصيفه ليس له أمان .

وهؤلاء زنوج جزائر " المارتينيك " بلونهم القاتم الشاحب وهم على هذا اللون المبتذل ذوو عجرفة تراها فى أنفهم الأفطس المرفوع الى السماء . وهم يصرون على

أن يصحبوا الفتيات الشقراوات وإنه لتناقض يلفت النظر ليصرفه أسفا على أسف . فان هذا هو الرقيق الأبيض بين السمع والبصر ولكنهم يدخلونه فى دائرة الحرية المرنة !

وهذا صينى قد عشش فى رأسه الذباب، وتلوث وجهه الفاقع بالهباب . تراه فلا تشك لحظة فى أنه لايعرف شيئا اسمه الماء وملابسه كشكول عجيب لا أدرى كيف وفق هذا التوفيق فى جمعها . وهو لا ريب قد شعر بالأنظار حائمة عليه وان لم يعر أحدا غير صاحبته التفاتا . فأخرج من جيبه ألوفا عدّة من الفرنكات وألقى بها على الخوان وضربها بيده وصاح " شرابا " وان الندل ليسرعون متهافتين على خدمة هذا المخمور من أجيال ، كأنما سيكيل لهم ما معه من المال !

بيد أنك اذا دخلت حديقة لكسمبورج استطعت أن تتنفس قليلا بعد تخلصك من ذلك الجو المكظوم . انها ما تزال فتية، حديقة لكسمبورج هذه وهى لم تستطع الاحتفاظ بشبابها هكذا على مر الأحقاب ، إلا لأنها حديقة الشباب . وقبل أن تنزل سلمها الكبير تجد الى اليسار صفا طويلا من الفتيان قد اضطجعوا فى كراسيهم مستقبلين البحيرة منصرفين عن الغوانى ، مكبين على كتبهم يلتهمونها التهاما . وتراهم لا يحفلون بالكرات التى تصطدم بكراسيهم وتتدحرج بين أرجلهم ولا بالأطفال الجمال يزحفون لتخليص كراتهم ولا بمربيات أولئك الأطفال المنتظرات غمزة عين، المتلهفات شوقا الى دعوة الى الرقص مساء الأحد ... وكيف يحفل الفتى بهذا كله وهو اذا حفل ببعضه فقل عليه ألف سلام !

ان هذه الغواية ليس لها غاية ولا نهاية ... ومن ذا الذى يقف على أفكار " بسكال " أو على تذكارات شباب " رينان " أو على أية قصة من قصص " أناتول فرانس " وتلهيه فتاة؟ إنك فى الكتاب تجد نفسك تعرفها وتهيم بها حبا . فى حين أنك لا تجد فى الفتاة غالبا إلا صورة أميالك الغريزية وهى جزء من نفسك ولكنها جزء من كل . نفسك عالم . وأميالك دولة فى هذا العالم !

وقصارى القول إن هذا الحى هو محك معادن الشباب . فالذى يهرب من الحى اللاتينى يظل جاهلا نفسه، والذى يقتحم الحى اللاتينى ليس أمامه إلا واحد من اثنين : فاما العمار، وإما الدمار، ولا ثالث لهما . اللهم اكتبنا فى عداد الفائزين ! ...

٢

نزل عائــلى

همدت حركة الحى منذ ما انفضت حلقات دروس الســوربون الشريف .
نهر والكوليج دى فرانس واوى لجراند وسانت بارب وهنرى الرابع وكليــة الحقوق
والطب قد أغلقت أبوابها فسافر الطلبة الى أهليهم فى الخارج أو فى الأقاليم وأصبحت
تجد مطاعم ومكاتب ومتاجر عديدة مقفلة وقــد لصقوا عليها إعلانا بأنهم فى العطلة
السنوية وسيعودون فى سبتمبر أو بعد سبتمبر .

وما لقيت زميلا أو زميلة من الفرنسيين أو من الأجانب إلا و بادرنى بالاستفهام
عن موعد سفرى من باريس كأن السفر لزام محتوم . هذه مسافرة الى السفوا العليا
وهذه الى البرنية السفلى . هذه الى شامونى والآخر الى أوستند . هــذه الى دوڤيل
والآخر الى تروڤيل . وآخرون الى الصرب و يوجوسلافيا ورومانيا و بولونيا وسويسرا
أو أمريكا الخ .

حتى الناس الذين لا مال لهم يقتصدون طوال عامهم لقضاء أسبوعين أو ثلاثة
على شاطئ البحر أو سفح الجبل . وقلما يمر أسبوع دون أن تصلك بطاقة مصوّرة
من هذا أو من ذاك ، تجعل باريس فى نظرك أشدّ وحشة وكآبة .

سبحان الله ! ... أهــذه باريس التى طالمــا حنت النفس اليها وودّت بجدع
الأنف لو تأتيها فى شر الفصول إن صيفا و إن شتاء ، فى شر الظروف إن حربا و إن
سلاما ؟ ! أهذه باريس التى يعض كثير من أصحابنا وأحبابنا أصابعهم حسرة عليها
وشوقا اليها ؟ ! لمــا بلغناها — ولا بدّ من صنعا وان طال السفر — صرنا نتأفف
من قضاء الصيف فيها . ألا يقف طمع المرء عند حدّ ؟ هذه الشراهة الآدمية جزء
من النفس غير منفصل عنها . أطماعنا أحمــال على ظهورنا كلمــا قطعنا من الحيــاة
مرحلة تبدّد حلم فألقينا حملا ورفعنا حملا .

سأحدّثك اليوم عن النزل العائلى ، عن البنسيون وهو طراز الفنادق الذى
يجتذب اليه من عاش مثلنا فى أحضان أهله . فأصبح يعز عليه الحرمان دفعة واحدة .

من ذلك الوسط الهادئ . الحنون — فنحن نتعلل بالبنسيون عن حياة الأسرة ، نتعلل بالخيال عن الحقيقة وبالظل عن الأصل . وما لا يدرك كله لا يترك كله . ونحن نؤثر البنسيون بادئ بدء على حياة الفنادق المضطربة التى تشعر الانسان دائما بأنه على سفر لم يقر له قرار ... وذلك حتى نعود فتصقلنا التجارب ونجد أن فى كل مكان آضطرابا من نوع ما ... وأنه هيهات للانسان أن تستقر به النوى ولو كان فى أحضان أمه .

وهذا البيت العائلى الذى نزلته أول نزولى باريس متواضع لا يكلف باعتباره مطعما ومسكنا أكثر من ألف فرنك فى الشهر . يقدّمون لك سردينة صغيرة أوقطعة من السجق بحجم نصف الريال أو بعض الفجل والزبد أو حساء فى العشاء فتحا للشهية . فاحسب هذا عليك صنفا !

ثم صحنا واحدا من اللحم والخضر معا وهى عادة ممقوتة ليس فيها شىء من النظافة ولا الأناقة . ولكن ما العمل وهذه حياة "المجاورين" ! ثم قطعة من الجبن ذى الرائحة الخبيثة تنكرها أول عهدك بها وتأباها الإباء كله، ثم يعضك الجوع بنابه فتعود أدراجك كارها وتنتهى بأن تأكلها متلذذا متفلسفا .

أشهد أن للفلسفة فوائد !

ثم شيئا من الفاكهة الرديئة كبرتقالة بحجم ليمون مصر الصغير أو بعض المربى المجهولة الصنف أو البسكويت التافه . ولا يدخل فى هذا حساب شراب النبيذ أو الجعة . ونحن قد أغنانا الله عنهما فننهل "دوارق" الماء بعد الدوارق ونستثير بذلك دهشة من حولنا من مختلف الشعوب ، وكنت متمسكا لدى وصولى بماء ڤيشى واڤيان وڤيتل وما شابه حتى أرهقتنى بارتفاع أثمانها . فقال لى صاحب يوما : "انك عندما تغادر فرنسا تكون قد شربت بثمانين جنيها ماء" فاعترف بأن هذا الرقم قد أثر فى نفسى وجعلنى أطلق ڤيشى وغير ڤيشى وأشرب ماء الآبار . وكيف لا يفعل فعله فى نفسى وهو مبلغ جسيم حقا . ومع ما سوف أدفعه ثمنا له فهو لا يعدو أنه ماء .

وكان فى النزل ٣٦ شخصا من ١٦ أمـة . فيهم السويسرى والبلجيكى والتركى والروسى والفرنسى والبلقانى والإيرلندى الخ .

وكان نصيب الطاليات فيه هكذا :

فتاة رومانية تدرس الفنون الجميلة، وأخرى تدرس البيانو، وإيرلندية تدرس الغناء، وروسية تحضر لأجازة الآداب، وبولونية، ويوجوسلافية، وتشيكوسلوفاكية يدرسن اللغة الفرنسية ليدرسنها بعد ذلك لبنات وطنهن وثلاث صربيات إحداهن مسلمة يدرسن الحقوق .

وكانت الصربية التى تدرس القانون من ألطف البنات وأذكاهن . اذا مشت تثنت كغصن البـان، وكان لها صاحب فى البيت بلغارى، وأنت تعلم أن الصرب والبلغار أبنـاء عم ... وكان معى مصرى فنان قوى الجسم ضعيف القلب، فجعل يتشبث بحب هـذه الصربية وهى لا تقبل عليـه ولا تعرض عنـه فتزيده جوى وصبابة حتى سكر ليلة أنس ورقص فباح لها على ملأ من الناس قائلا : إنك تدرسين الحقوق و " سـليانوف " يدرس الحقوق معك ولكنك سوف تجحين ويسقط ! ثم كتب لها اسمها بالعربية وكتب اسم صاحبها بالعربية أيضا وقال لها هـذا اسمك وهذا اسمه ولكن يوجد بينكما اسم ثالث !

لقد كان ظريفا حقا . وارحمتاه للشباب المصرى يحرم كل شىء برىء فى وطنه فيأتى الى أوربا، الى الهيجا، بغير سلاح .

وكانت هذه الصربية اللطيفة التى تدرس القانون ساكنة فى أصغر حجرة فى البيت، حجرة أصلها مطبخ ثم حولوها مسكنا . فأرضها بلاط أحمر وفراشها لا يسع طفلا (وكنا نسميها أودة الأرانب!) وكانت بحالها راضية وتقول أحيانا على المـائدة بكل شجاعة :

— والله لم يبق معى غير ٥ سنتيات ... (نكله) !

وصاحبى المصرى يسألنى :

— أأقدم لها جنيها ؟

وصاحبتها الرومانية الفنانة الساحرة اللفظ الدقيقة التقاطيع حتى كأنها تمثال من تماثيل قدماء الرومان تقول :

— اسمعى "يايو يو" إننى أسلفك ما أنت بحاجة اليه حتى آخر الشهر .

— شكرا ياليلى وسأذكرك اذا اشتدّت بى الحاجة !

أثمت أعجب من هذا الحوار ؟ ... كلا والله ! فتاة فى نضرة الصبا فى باريس ليس معها قرش واحد ! ...

وهى مع ذلك تقول أن حاجتها الى المال لم تشتد بعد . إنها بنت مستقيمة، لا تعرف المقهى ولا الحانة ولا المسرح إلا مدعوّة وهى بذلك حريصة على وقتها منتظمة فى سيرها ضامنة آخر العام نجاحها .

وهناك صربيـة أخرى . هى الصربية المسلمة ترى لها حياء المخدرات ومعى صاحب لى وقريب صـغير السن فتان المحيا لم تصقله بعد تجارب الأيام . جعـل يراود قلبه على حبها حتى طاوعه أو كاد فطفق يفكر فى الزواج منها وقد عارضته لأن الأعوام الثمـانية عشر التى قطعها من مرحلة الحياة لا تكفى للمجازفة باختيار رفيقة الحياة وما زلت أدفعه عنها مرة وتجذبه اليها مرات حتى أراد الله له الخـير فعرف أنها استقبلت فى حجرتها فتى يونانيا يجاورها فى النزل فثارت نخوته الشرقية فسخط عليها واستروح قلبه السلوى .

أطلت عليك الحديث وأكتفى بهذا عن بنات الصرب فأعود الى بنات الروس. وحديثهنّ أدهى وأنكى أو أطرب وأعجب !



الطلبة الرومانيون بباريس فى زيهم الوطنى

٣

نزل عائــلى

لا تكاد الساعة تدق التاسعة حتى يكون قد انصرف النزلاء عن الخوان الى مخادعهم فيدرس من يدرس وينام من ينام وينصرف الباقون الى حيث يلهون . ويسود النزل الظلام . ويقفل البـاب الخارجى عند الساعة العاشرة تمـاما . فاذا أردت الخروج بعـد تلك الساعة فعليك أن تصيح ببوابة البيت من صحن الدار : "الحبل من فضلك" (Cordon s'il vous plaît!) فتعطيك ذلك الحبـل الذى لا تراه ولا وجود له بأن تضغط على زرّ مكهرب عند سريرها فيفتح الباب من تلقاء نفســه . ولقد بقيت كلمة "الحبل" منـذ قديم فاعجب لتطوّر كل شيء فى باريس إلا هذا اللفظ العتيق الذى يشعرنا بمـا نحن فيه من حضارة .

ويسود السكون الدار الأسبوع كله حتى يجيء يوم الأحد فترى الفتيان يلبسون بذلاتهم القاتمة النظيفة المدخرة خصيصا لهـذا اليوم فلا ترى النور من يوم الاثنين الى يوم السبت . وترى الفتيات قد اخترن ثوبا متألقا أو شاذا أو شـفافا مهلهلا ولكنه فى كل الحالات يلفت النظر ويرضى الشباب . وبعد العشاء يكدسون الموائد والكراسى على جوانب غرفة المـائدة ، ويفسحون أرضها للرقص ، ويؤتى بالفونوغراف وأسطوانات الطانجو والفوكس تروت والشارلستون والفالس أو تتبرع فتاة بالعزف على البيانو .

كم رأيت نظرات الفتيات تسيل تضرعا ورجاء الينا بالبقاء . فكنا أحيـانا نبقى مساء الأحد فى البيت ولا نخرج حتى لا نحزنهنّ وندع الدار قاعا صفصفا موحشا .

وكان الفتى البلغارى الذى حدّثتك عنـه يلزم البيت يوم الأحد فلا يبرحه قط ذلك لأن مرتبه محـدود على الرغم من أن والده الصحفى يرسل اليه الكثير بالنسبة الى سعر القطع فى بلده والقليل بالنســبة الى غلاء باريس . فتراه ينتظر مساء الأحد بنافد الصبر لأنه سلواه الوحيدة . ويتحدّث طيلة أيام الأسبوع عن الأحد المـاضى

والأحد المنتظر . فاذا شعر بعزمنا على الخروج خشى أن تنصرف الفتيات بانصرافنا فبادر الى التليفون يدعو أصدقاءه واحدا بعد واحد ليوافيه الى المنزل من كان مثله عاطلا من المال .

وصاحب البيت قد نسيته ! فخم الهيئة ذو شوارب مفتولة سوداء أكول نهم يزداد كل يوم سمنا، يطبخ لنفسه حتى إذا انتهى من عشائنا جميعا جاء فجلس مع زوجه وابنته يتعشون وهو أنظف ما يكون مظهرا . أما زوجه فهى على عكس زوجها نحيفة تزداد كل يوم نحفا . رقيقة . رفيقة . مؤانسة . أما ابنتها فهى فى الرابعة عشرة من عمرها آية فى خفة الطبع ورشاقة القد ودماثة الأخلاق . لها عينان سوداوان عميقتان لم أرهما إلا فى الشرق . وهى إذ تدعوها إلى الرقص تنهض إليك بصدرها ونفسها جميعا . خصرها واهن بالبنان ينجذب . بينا تلتهب عينا والدها خوفا على فتاته من ضمة قوية يضمها شق جرىء . فكم من فتاة تنسى نفسها وتهجر أهلها إثر هذه الضمة .

وهذه اليوجوسلافية فتانة المحيا ذات غصن رطيب مياس . ولكنها لا تعنى بابراز حسنها فهو متروك على الفطرة فزادها ذلك فتنة . كأنها لا تعرف جمالها فاذا أيقظتها بعينيك سألتك فى مثل براءة الطفلة عما تعنيه بنظراتك وهل تراها حقا جديرة بالتفاتك أم أن فيها ما ينتقد .

وكانت مثابرة على درسها لم تنقطع يوما عن السوربون حيث تحضر للغة الفرنسية لتحترف فيها بعد تعليمها ببلادها . جاء بها أبوها وعاش معها فى البيت أسبوعا حتى اطمأن إلى أنه بيت موفور الكرامة العائلية فاستودعها الله وعاد أدراجه وما زلت أذكره عملاقا هائلا جبارا . وابنته مستقيمة ما أمكنت لفتاة الاستقامة فى باريس . فإن لباريس حسناتها وسيئاتها على السواء . وكانت إلى جانب بنات باريس كزهرة البرية إلى جانب زهرات البنفسج، قوية نضرة، وكانت ترقص بجسمها الفتى الحار أكثر مما ترقص بقدميها . وليست فيها رشاقة خاصة وإنما فيها استسلام الطفل إلى حضن أمه .

وهـذه معلمة البيانو الفرنسية ذات جسم لا تشبع منه العين فى ثوبه الليمونى البهيج، ولها فى ثغرها ثنايا بارزة مضطرمة كأنها تتلهف على القبل . جلست إلى جانبى بعد أن أعياها الرقص واشتعلت وجنتاها سرورا وتعبا والتذاذا فقلت لهذه الموسيقية ما قاله أناتول فرانس فى " الزنبقة الحمراء " :

" ان الحركات الرشيقة هى موسيقى العينين "

فأقبلت نحوى تحدثنى عن فرانس وعن قصته هذه وأنها قرأتها مرارا وتكرارا ، وما برحت ظامئة الى إعادة قراءتها عشرات المرار ... وأنها لا تحب من القصصيين غير فرانس ولوتى .

فوجدت حديثها ممتعا كرقصها وتوقيعها !

وهذه الرومانية بعينيها اللامعتين لمعانا غريبا ترقص على أنهـا نحيفة ما شاءت النحافة أن تجسم ... خالصة اللطف أنيسة المعشر مهذبة الى أقصى حد وهى صورة مصغرة من أمها التى جاءت بها أيضا لتطمئن الى وجودها فى وسط صالح لولا أن أمها ذات حسن نسوى كامل قد عبل ساعداها وطابت جلستها ، فلا تكاد النفس تنصرف عنها إذ تحدث عن رقص بلادها الوطنى فى الريف الى جوار " السواقى " الدائرة دورتها الأبدية وكأن نعيرها رثاء الزمن .

وهذه فرنسية أخرى كأنها ثالثة الأثافى . مستخدمة فى بنك . وسكرتيرة محام . أنت مطالب بأن تترضاها على قبحها ، وأن ترقص معها يوم الأحد مرة أو مرتين فاذا أهملتها فالويل لك فانها دساسة قديرة تؤلب عليك البيت كله لكنها لحسن الحظ غير ذات أنفة ، فاذا نسيتها أو تناسيتها فهى مؤاتية تدعوك الى رقصة الطانجو ، ولا تدعوك إلا الى الطانجو ، فاذا دقت نغماته الحنون رأيتها مقبلة نحوى فأستعيذ بالله من الشيطان شيطان الطانجو ، وأنهض مبتسما مستسلما الى هذا القضاء المحتوم !

لقـد أطلت القول كثيرا وقد وعدتك فى الكلمة السابقة بحديث الروسية . فاضرب صفحا عن الباقيات .

" آسيا " تدرس الآداب لعامها الثالث وتجلس رافعة الرأس تطوق عنقها الناصع قلادة عريضة من اللؤلؤ ذات وسامة وقسامة . وهى فى بساطتها أدعى الى الحب وأشهى فى الحديث وأولى بالعناية غزيرة الاطلاع ولكننى اخطأت إذ أعرتها كتابين فهى أنانية لم تردهما إلا بعد ما طلبتهما غير مرة . وقد يستغرب شاب فى مصر كيف أطلبهما . وقد يرى فى هذا ثقلا و إلحاحا لا يتفق و إعجابى . على أن إعجابك بفتاة لن يتعدّى الإعجاب البرىء كما تعجب بفتى نابه فثمت مئات جديرات بالإعجاب حقا بل بالحب . وهذا ما يدعو الى التحفظ والى القصد فى العواطف وفى الكرم . أما لو كانت هذه الفتاة فى مصر لكان لها شأن آخر . كانت تكون بمثابة عين الماء الزلال فى صحراء . أما هنا فهى عين ماء فى جنة تجرى من تحتها الأنهار فتقف بهذه العين هنيهة معجبا بصفائها ولكنك غير ظامئ .

تحادثنا مليا عن تورجنيف ودستيفوسكى وتشيكوف وتولستوى وغوركى، ثم ذكرت لى أهل الأدب الروسى الحديد ممن أجهلهم وفصلت لى كتبهم تفصيلا، وكنت شديد الضجر أوّل عهدى بباريس فقالت لى صبرا فانك لا تلبث أن تصبح محبا لهذا البلد تؤثره على سواه كما أؤثره على مسقط رأسى . إنى أحب السير فى الليل وحدى محدقة بالكواكب مناجية أبراج الكنائس مصغية الى خفقان قلب " السين " باحثة عن شىء مجهول ولكنه جزء من نفسى .

و رأيت فى صفاء عينيها وهى تتكلم سماء بلادى ثم رأيتها راقصة مغمضة العينين . عجيب ! إنها إذ تغمض عينيها تصعد الى ذروة جمالها . نعم ! رأيت فى هذه القيصرة الصغيرة فى تلك الحالة شهوة أقيال فى أجيال فأغمضت عينى حتى لا أرى إغماض عينيها ...

وقلت فى نفسى ترى ما ذا يكون حالى لو أنى رأيتها وسمعتها فى سن العشرين . إن السنين القليلة التى عشتها بعد هذه السن قد أنقذتنى من شر مستطير أو حرمتنى خيرا كثيرا . إذ من يدرى فى الواقع أين هو الخير من الشر . ربما فتحت لى هذه

الفتاة أبوابا من العزاء والهناء لو أننى اتصلت بها وأوثقت معها عرى الوداد ولكننى نفرت منها، من هذه الروسية الحسناء المشتهاة المتعلمة الذكية، كأنها أفعى . فلماذا نفرت وفررت . أهى قراءاتى وإدمانى المطالعة والنظر فى تاريخ الغابرين وتجاريب المعاصرين هى التى حملتنى على النفور والفرار؟

أم أن شيئا خفيا يحرسنى و يذود الشر عنى كدعوة أم حنون، أو يد ولى مسلم مسحت على رأسى فى طفولتى أو شبابى ، أو بركة كاهن إسرائيلى شملتنى فى طريق إلى باريس . أم هى حياتى الذاتية المتعلقة بغيرى الرازحة تحت عبء مسئوليات خطيرة ، فلا أستطيع أن أمرح طلقا كالعصفور يوما واحدا لئلا أعود إلى القفص مهشم الرأس مقصوص الجناح ؟؟

شىء من هذا أو من مثـله أو من غير هذا قد نبه على كل حال الكائن الخفى الرجعى الذى فى شخصى فشدّنى من طوق الى الوراء متقهقرا بى كأننى جبان حرب .



وانى لكذلك !

ألست جبان حب ؟

وغادرت النزل العائلى !

وفى الليـلة الأولى التى قضيتها بعيدا عن السلافية الحسناء ، وعن تلك البيئـة المألوفـة المحبـوبة ، تعشيت فى مطعم وحدى ، فرأيت كل السـحن التى حولى غريبة لا عهد لى بها ، فأنكرتها ثم أنكرت نفسى . غلبتنى الوحشـة فقلت مكانك يا قلـبى :

أشوقًا ولمـا يمض لى غير ليـلة   فكيف اذا خب المطى بنا عشرًا !

جــو باريس

ولدى فى حديقة اللكسمبورج

بقــلم الأســتاذ الدكتور منصــور فهمى

طالمـا تردّدت الى تلك الحديقة فى عهد الطلب ، وفى أويقات تساقطت فيها الأوراق الذابلة ، وفى أويقات تفتحت فيهـا الأزهار كالبسمات المشرقة على تلك الغصون اللينة ومن فوق تلك الباسقات الشامخة . وفى الحالين كنت أحمل بيمينى كتابا ألتقط من بين سطوره قولا مأثورا . وكذلك كنت أحمل بين جنبى قلبا غضا حساسا يخفق لنظرة من تلك النظرات النافذة ، أو ينبسط لأمل من تلك الآمال الزاهيــة الباسمة ، و يخلق لى من خفقانه وانبساطه خير ما كان يسعد النفس الفتية من أحلام الصبا ، ونفحات الشباب .

والآن وبعد زمان طال على عهدى الأول أعود اليك يا حديقة اللكسمبورج وأحمل على ساعدى ولدى " وائل " وتسير بجانبى أمه شريكة الحياة . وكلانا نرعاه وأرعاهما ... وها أنا ذا أسير وئيدا فى مناهجك ، وأرمق تلك المقاعد التى طالما جلست عليها فى انتظار من كنت انتظر ، وعلى بعضها ألمح فتى يتصفح كتابا كما كنت أتصفح . وعلى أخرى ألمح فتى يسمر مع فتاة وقد ينسيان الساعات من لذة الحديث . وها هو على مقعــد قريب شيخ مطرق الرأس ربما كان يتذكر حول تلك المقاعد عهودا . وها هو مقعد جنيب عليــه ربة دار تصلح ما بلى لذويها من لباس . وعليه أم ترعى رضيعا فى مهده فى حين يرتع حولها ناشئ صغير .

الآن أعود اليك يا حديقة اللكسمبورج ، وأمضى فى طرقاتك لا الى حيث أمتع بالقراءة كما كان حالى فى سابق العهد ، ولا الى حيث أمتع بالتأمل والنظر ، ولكن الى حيث أسلى ولدى باللهو البرىء والمرح ، وأمتع نفسى بما يفيض من هنائه وغبطته . فذهبت الى مكان أعدّت به عربات صغيرة تجرّها حمير صغيرة ليقطع الأطفال بها

أشواطا بين خمائل الحديقة وفى مماشيها وإلى هوامشها المزدانة بالحشائش الخضراء والورود الزاهرة . وألح ولدى بلغته التى أفهمها ليركب الحمار فأركبته وما هى إلا فترة قصيرة حتى شحنت العربة الصغيرة بالصغار كأنهـا تشحن بالزهور واللؤلؤ المنثور .



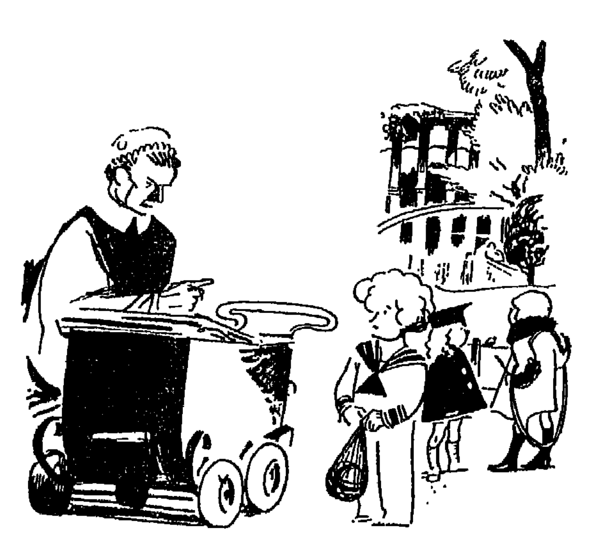
ثم سار الركب . وكان فى حرسه آباء وأمهات . بل كان فى حرسـه قلوب تحنو على أكباد . وهلل الصبية وعلت أصواتهم كأنها نغمات موسيقية تشير الى ما قد يضمره الوجود من معانى الخير ومظاهر السعادة وكأنها تسبح بالحمد لموجده وتثنى عليه . وكانت أفئدة الآباء تدق لفرح الأبنـاء وهنائهم . وكدت وأنا مغمور فى تموجات تلك الأصوات المغرورة أن أشمخ وأترفع على من ليس لهم أفرخ وأوكار . بل كدت أنظر شزرا لهؤلاء الذين تقلهم المقاعد ليتبادلوا وعدا خادعا مكذوبا لا يثمر، وقبلات زائفة وضيعة لا تهيئ لرابطة وثيقة، ولا تؤكد علاقة أمر الله بها أن تعقد وتصان . إيه هؤلاء الذين تستقلون بعض تلك المقاعد للهوكم ومجونكم ألا فى سـبيل الشيطان قبلة زائفة ووعد مكذوب ! ألا فى سبيله احتيال للذة ساعة تمر سراعا وقد يعقب نعيمها الموهوم حسرات وآلام ! ألا فى سبيل الله قبلة يدفعها البار عربونا لبناء الوكر العائلى وما يعمر به ذلك الوكر من زقزقة الطير ونشاط الصغار وتعهد البنين !

وطاف الركب طوفته الى أن رجعنا للقرّ وأخذ صاحب العربات يتأهب لتحصيل أجره . وأخذ الآباء ينزلون الأبناء من مراكبهم كأنهم ينزعون الأزهار من سلتها ، والأبناء يتشبثون بالبقاء . ولو علم هؤلاء الأحباب الصغار ما يعلم الآباء من أن الحياة الجبارة كثيرا ما تحول بين الرغبات لما تشبثوا ولما ألحوا .

وحملت أنا الآخر ولدى وكدت أناجيه بما كان يمرّ بنفسى وقتئذ : "ياوائل ! لقد نعمت فى طهر حيث كان لأبيك ثَمّ نعيم ، ولقد يهيء لك المستقبل ، إن أمدّ الله لك العمر ، أن تجلس جلسة على تلك المقاعد ، فاذكر أباك إن كان فى العيش أو تحت الثرى ، وقل هنا فكر أبى ، وهنا قد كان لأبى لهو ومرح ، وهنا نعّمنى أبى نعيا زكيا . ثم إذا حبت نفسك لنعيم غير عف ، فسل ربك العفو والمغفرة ، ذلك لأنك ياولدى تكون فى حديقة اللكسمبورج التى تغمرها نفسية باريس... أو ليست نفسية باريس هى هى النفس البشرية فى جميع جهاتها من ميول رفيعة وميول وضيعة ، أو ليست هى النفس البشرية التى ترقى الإنسانية ، وتتطوّر عن وحيها ، وقد تسفل وتضمحل بوسواسها ؟

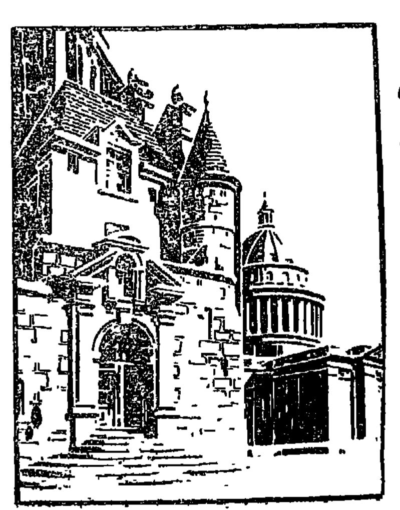
إن جوّ باريس منه ما ينعش برّ البارّ ، وفيه ما يقوّى فجر الفاجر . فيه المعنى التام للحياة من ظلماء وضياء ، من شر وخير ، من جحيم ونعيم ...

منصور فهمى



مجـــد فرنسا

يعيش فى غرفة ســـطح !



جئنا الى ساحة البانتيون فقال أناتول فرانس :

— على هـذه الساحة رأيت تساقط القنابل فى حرب السبعين . وكان الصبية يفرحون بتلك المقذوفات فلا تسقط كرة منهـا حتى يتهافت عليها أولاد الحـارة يجمعون شظاياها ، وكانوا يحملون تلك الشـظايا ولا تزال نيرانهـا ملتهبة ويصيحون " الكستنا (أبو فروة) ما زالت ساخنة ! " ولا يسع المرء إلا أن يعجب ببسالة أولئك الغلمـان . وكانوا يكافئونهم بسنتيمين اثنين عن كل قنبلة يفرقعونها . ويا له من ثمن بخس على عمل يبذل المرء فيه حياته !

أميل من قلبي خاصة إلى هذه الحارة من باريس ، فقد أقمت بهـا زمن الصبى معدما لا أملك قوتى لأن والدى كان قـد نقم علىّ من أجل قرضى الشـعر ، وكان الشـعر فى رأيه — وهو أمر عجب من تاجر كتب مثله — صنعـة خسيسة كثيرة الويلات . وقد يجوز بيع دواوين الشـعر للضرورة ، أما نظمها والانقطاع لهـا فليس وراءهما إلا السجن أو مستشفى المجاذيب . وقد كان المسكين محقا لأن الشعر جاء بنا آخر الأمر إلى الأكاديمى ...

وكنت سا كنا عندئذ فى غرفة بسطح البيت مجزدة السقف "منسارد" كأنها عش خطّاف . فاذا أردت الكتابة خرجت الى ما تحت المـيزاب . فاذا رأت السماء أن تمطر جلست اضطرارا للكتابة على سرير النوم لضـيق الغرفة الشديد . وكانت لى جارات فكنت أعطيهن دروسا ، ويعطيننى مقابلها دروسا أخرى ، ولكن علمهنّ كان العلم الأعلى ، لأنه علم الحب ...

بروسون

مقهى بوهيمى

جوستاف كولين : الفيلسوف العظيم ، مارسل : الرسام العظيم ، شونارد : الموسيقى العظيم ، ورودلف : الشاعر العظيم ... كما يسمى بعضهم بعضا ... قد اعتادوا أن يرتادوا مقهى "مومص" حيث عرفهم الناس باسم "الفرسان الأربعة" لأنهم قل أن يفترقوا . والواقع أنهم كانوا يجيئون معا و يذهبون معا و يلعبون معا . وأحيانا لا يدفعون ثمن ما يتناولونه معا ، وهم فى ذلك على اتفاق يحسدهم عليه أفراد أى فرقة موسيقية متضامنة .

أما ذلك المقهى الذى اعتادوا أن يتقابلوا فيه ، فهو عبارة عن حجرة يجتمع فيها أربعون ممن على شاكلتهم ، غير أن أصحابنا هؤلاء لا يجلسون إلا منفردين دون أن يختلطوا بغيرهم من الرواد ، وهم رغم هذا العدد الضخم الذى يشاركهم فى المكان نفسه أوسع ما يكونون تمتعا بحريتهم ، وتعبيرا عن شعورهم ، كأن هؤلاء الأربعين لم يهبهم الله نعمة الحياة أو الوجود فى هذا المكان .

و يل لذلك الزائر الجديد الذى يحاول أن يلتجئ الى هذا الخان هربا من انهمار المطر أو تساقط الصقيع ، هو لا شك سلوتهم وفريستهم حتى أنه يسارع فى طلب النجاة قبل أن يتم قراءة جريدته أو ينتهى من احتساء قهوته هربا من مباحث الفن والعاطفة ، والاقتصاد السياسى ، التى تدور بين أربعتنا العظام . ولتلك المحادثات والمباحث طبيعة ليست لغيرها ، هى الإغراق فى الغموض الى حدّ أن عدّ الساقى " الجرسون " نفسه مغفلا منذ بدأ حياته فى ذلك المكان لفشله المتكرر فى إدراك مباحث إخواننا العظماء .

وفى اليوم السابق للعيد بكر أصحابنا فى الحضور مصحوبين بصديقاتهم من الجنس الثانى ... كانت هناك صاحبة مارسل وهى ميست ، وصاحبة رودلف وهى ميمى ... مخلوق صغير لطيف ذو صوت كأنه مزماران متتابعان وهى الشعلة الجديدة كما يسميها صاحبها ، وصاحبة شونارد وهى فيمى التى تعمل فى المصنع و بعد تناول

القهوة التى تخللتها زجاجات من الكونياك طلبوا " بنش " لكن الساقى كان قليل التعوّد على هذا المطلب منهم حتى أنهم اضطرّوا الى إعادته عليه مرتين للتأكيد ... أما ميمى وهى لم تتعوّد المجىء إلى أمثال هـذه الأماكن فكان يبدو عليها التقزز من الشرب فى كوب ذى قاعدة غليظة ، فأما مارسل فقد كان يتشاجر مع ميست على قبعة جديدة لكن ميمى ورودلف وكانا فى شهر العسل قد تجاذبا أسلاك حديث طويل منخفض كأنما يتناجيان . فأما كولين فقد أخذ يدور عليهم متنقلا اتباعا للأدوار، موزعا كلمات الترحيب فى جمل متقطعة اختارها من أجود الشعر الذى يحفظه لنفسه أو لغيره .

وبينما كان هذا الجمع المرح مستسلما الى الضجة والصخب واللعب كان هناك شخص غريب فى أبعد أركان القاعة يحتل خوانا بمفرده يلاحظ بانتباه زائد المنظر المحيط به . وكان يجىء بانتظام منذ أسبوعين أو مايقرب من ذلك ، ويجلس كل ليلة جلسته تلك فى شغف كبير يدخن غليونه فى انتظام حسابى ، ويعقد عينيه على كل ما يدور حوله محاولا أن يسمع كل صغيرة وكبيرة يتمكن من تمييزها على مقربة منه . وحقا كان غريبا أمر هذا الرجل فقد استطاع أن يقاوم هذه المدّة الطويلة وأن يحتمل أقسى النكات التى تجرى فى مكان كهذا ، وبقى بالرغم من ذلك كله هادئا ساكنا يواصل مجيئه كل يوم كأن هـذا الأمر لايعنيه . فأما عن أوصافه الأخرى فقد كان يبدو فى مظهر الهادئ الغنى لأنه كان يخرج دائما ساعة ذات سلسلة ذهبية . وحدث يوما أن قابله مارسل عند المنضدة الكبيرة وسأله أن يعطيه صرفا لنقوده لكى يتمكن من دفع ما عليه لصاحب المقهى . ومن تلك اللحظة أسماه الأصدقاء الأربعة "الرأسمالى" .

وبينما هم يتمتعون بجلستهم تلك لاحظ شونارد وكان ذا عيون دقيقة لا تفلت من حسابها شيئا أن الأكواب التى أمامهم قد أفرغت محتوياتها فى بطونهم وعادت فارغة ووافقه رودلف قائلا "أجل فارغة ونحن على أبواب عيد الميلاد وليس بيننا إلا المسيحى المخلص فيجب علينا أن نجدّد الشراب" .

وصاح مارسل " حقا إنك على صواب فى هـذا الكلام وإذن فدعنا نطلب

شيئا غير عادى " واستطرد رودلف قائلا " دق يا كولين قليلا للساقى ... " وارتفع صوت كولين صاحبنا الفيلسوف صارخا فى الساقى " أحضر لنا كل ماهو ضرورى لعشاء فخم " ولكن وجه الساقى — من فرط الدهش — أخذ يقلب كل ألوان قوس قزح، وارتأى فى النهاية أن ينزل فيخبر صاحب المحل بالمطلب الجديد، واعتبر هذا انها فكاهة من أصحابنا هؤلاء فلم يكلف نفسه مؤونة الردّ غير أن دق الجرس المتكرر حمله على إعمال الفكرة قليلا فيما يجب عمله بازاء هؤلاء ، فصعد إليهم واستفهم من دولين عن جلية الخبر، وكان يحمل لهذا الأخير شيئا من الاحترام فأخبره أنهم صمموا على الاحتفال بعيد الميلاد عنده ، وأنه سيكون ممتنا لو تكرم صاحب المحل فأمر بما يطلبون فلم يجبه مومص " صاحب المحل " وعاد الى مكانه وهو يطوى رداءه، وطلب من زوجته أن تدلى برأيها فى مطلب إخواننا الفرسان وقد أفتت هذه أخيرا، والفضل لتعاليم مدرسة سنت دنيس التى غرست فى نفسها حب الفنون والآداب، بأن الأصلح هو تقديم العشاء لهم كما يشتهون ... ووافق أخيرا مومص قائلا " قد يمكن أن يكون معهم نقود ولو مرة واحدة عن طريق الصدفة ... " واذن فقد أمر الساقى أن يحمل إليهم ما يطلبونه ثم خاض بعد ذلك غمار لعب الورق مع شخص عجوز تعوّد أن يتردّد على محله ... ولم يعد يفكر فى أمر أصحابنا فكان ذلك منه حزما يدعو الى الإعجاب .

ولم يفعل الساقى شيئا يذكر من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة إلا أن يجرى من والى خوان أصحابنا حاملا شتى صنوف الطعام والشراب، ولم يكن ذلك من شأنه إلا أن يزيدهم إصرارا على طلب المزيد ... أما ميست فقد رأت أن تأكل على الطريقة الإنكليزية فهى إذن تصلح من معطفها عقب كل لقمة أو رشفة ... أما ميمى فقد أخذت تجرّب طعم كل أنواع النبيذ فى كل أنواع الأكواب . وأما شونارد فقد كان يشعر بصحراء عطشى لا نهاية لها فى جوفه .

وكان هناك فى آخر القاعة صاحبنا الغريب " الرأسمالى " يراقب هذا المنظر ويفتح فاه بين كل لحظة وأخرى كأنما يريد أن يبتسم ...

وقبل الساعة الثانية عشرة بقليل أرسلت لهم قائمة الحساب وكانت تحمل رقما كبيرا مخيفا هو خمسة وعشرون فرنكا وثلاثة أرباع الفرنك ... وحين رأى ذلك مارسل صاح بهم " هيا يا أصدقاء إننا مستعدّون أن نعرب عن إعجابنا بمن يذهب الى صاحب الخان ويتفاوض معه فى الأمر ... لقد أصبحت المسألة جدّية" ولكن أحدا منهم لم يتقدّم فأخذوا بعض أحجار " الدومينو " ووزعوها بينهم ثم حتموا على من يكون نصيبه فى أعلى رقم منها أن يقوم بمفاوضة مومص ولسوء الحظ انتهى الأمر بأن ينوب شونادر عنهم فى ذلك وهو آخر من يصلح منهم لشىء من هذا القبيل ولكنه تجلد ووصل الى منضدة مومص وكان هذا الأخير قد خسر للمرة الثالثة وقد تجهم وجهه وارتعشت أساريره، فما كاد يسمع حديث شونارد حتى صاح به فى ثورة طاغية ... حقا أن شونارد موسيق بارع . ولكنه كان رغم ذلك ذا مزاج متبلد فأجابه بلغة تنطوى على كل معانى السخرية والاستخفاف .

وهنا خرج صاحبنا الغريب " الرأسمالى " من سكوته وعزلته فنهض ثم قدّم رجله خطوة فخطوة حتى صار قريبا من صاحب الخان فانتحى به ناحية وتكلم معه بصوت خافت وتبعه مارسل ورودلف بأعينهما حتى سمعا صاحب الخان يقول — وقد انبسطت أسارير وجهه — حقا حقا يامسيو باربيش أنى أقبل ويمكنك أن تنظم شئونك معهم بينك وبينهم .

وعاد مسيو باربيش الى إخوانه وأخذ قبعته ثم وضعها على رأسه واتجه شطر مارسل ورودلف ، ثم تقدّم بضع خطوات أخرى ورفع قبعته وانحنى قليلا ... وتحدّث اليهما :

"ياسادة اغتفروا لى هذه الحرّية التى أبيحها لنفسى . منذ مدّة طويلة كنت ألتهب شوقا للتعرّف بكم غير أن الحظ لم يكن يسعدنى بشىء من هذا فلم يحدث أن تهيأت لى فرصة سعيدة أنال فيها هذا الشرف فهل تسمحون لى أن أقتنص الفرصة الحالية . إنى أعبد الفنون الجميلة ، كما تعبدون اذا جاز لى أن أحكم عليكم طبقا لما سمعته من محادثاتكم القيمة . واذن فأمزجتنا وأذواقنا واحدة ... وانى أتحرّق رغبة

فى أن أكون فى زمرتكم كواحد منكم ، وأن أتمكن من التلاقى بكم كل مساء فى هذا المكان . إن صاحب المحل غبي أحمق ، ولكنى رتبت كل شيء معه فأنتم أحرار الآن أن تذهبوا دون مطالبة ما وأتمنى ألا تحرمونى فرصة أخرى أراكم فيها هنا ، وأن تقبلوا خدمتى الصغيرة هذه ... " .

لكن وجه شونارد احمرّ احتجاجا على هذا ثم تحرّك قائلا " إنه يعطف علينا ولكننا لا نقبل شيئا من عطفه وقد دفع لنا قائمة الحساب ، ولكنى سألعب معه "البليارد" وسأعطيه بدل الخمسة والعشرين فرنكا نقطا على قدرها" .

وقبل المسيو باربميش وكان لديه الذوق الكافى لينـدحر فى البليارد أمام شونارد فأكسبه هذا تقدير الجماعة وافترقوا على أن يتقابلوا فى اليوم التالى ... وعقب شونارد قائلا "والآن قد خلصنا كبرياءنا من العار فقد هزمته وأصبحنا والحال هذه غير مدينين له بشيء ما " .

وسرت الفكرة بين إخوانه فقال كولين " إن فى وسعنا أن نطالبه بعشاء آخر ! ..." .

هنرى ميرچيه



الباريسى الصغير

ملاهى الحى

النوكتامبول

أريد الليلة أن أضحك وأن أضحك فى انتفاع واستفادة . فما هى إلا أن أقصد الى أحد الملاعب أو الى أحد هذه الملاهى التى لا توجد إلا فى فرنسا بل لا توجد إلا فى باريس . واذا أنا أمام طائفة من الأغانى الهجائية فيها ألذ ما يسمع ويضحك ويدعو الى التفكير والعبرة والعظة .

بالقرب من السوربون يقوم ملهى يسمى (Les Noctambules) لا أستطيع أن أذهب الى باريس دون أن أزوره . وقد زرته هذه السنة فمهما أقل فلن أستطيع أن أصف لك ما وجدت فيه من لذة مضحكة باعثة على التفكير . ليس فى هذا الملهى شىء غريب وانما هم جماعة من المغنين الهازلين ومتعاقبون أمامك يسمعك كل منهم طائفة من الأغانى لا جدّ فيها أو قل كلها جدّ ، ولكنها صيغت فى صيغة الهزل . وقد أرادت المصادفة أن أصل الى باريس هذه السنة بعد انتهاء الانتخابات البرلمانية . وأن تكون الأغانى التى تسمع فى هذا الملهى كلها متصلة بالحياة الفرنسية السياسية . فلو قد سمعت هذا العبث الذى لا حدّ له برئيس الجمهورية ورئيس الوزارة والوزراء والنوّاب والشيوخ ، والبرامج السياسية لأولئك وهؤلاء ونظم الجمهورية نفسها ونظم الحكم الأخرى لسألت نفسك الى أى الفوضى يريد أن يصل الفرنسيون . ذلك أنهم لا يحفلون بشىء ولا يقدّرون شيئا ولا يرعون لنظام ولا قانون حرمة ولا ذمة وانما يعرضون عليك كل شىء عاريا مجرّدا يظهرون لك منه أقبح ما يمكن أن يظهر لا يكرهون أن يتناولوا حياة رئيس الجمهورية بأقبح ما يمكن أن يتناول به من ألفاظ التشنيع . فأما رئيس الوزارة القائمة بوانكاريه فالفرنسيون يحبونه ولكن ذلك لا يعفيه من أن يعرض عليك فى أقبح صورة وأفظع شكل . واذا المغنون يعبثون به خطيبا ويعبثون به وزيرا ويعبثون به منقذا للمالية الفرنسية ثم يتناولون معدته وأمعاءه وكبده وكلاه . وقل مثل ذلك فى وزراء فرنسا

وزعمائها . فاذا فرغ المغنون من السياسة والساسة التفتوا الى العلم والعلماء وكم تلقى السوربون ورجالها من سخرية هؤلاء الساخرين . وأغرب ما فى الأمر أن كثيرا جدّا من هـذه الأغانى الهجائية يخرج من السوربون نفسها ينشئ بعضه الطلاب ، ولعل من الأساتذة من لا يخرج عن انشاء بعضه الآخر .

طه حسين

حى الشـباب

أم أن باريز هى الحى اللاتينى . حى الشـباب والعلم ومعمل الأدمغة الثائرة ، والأدمغـة المفكرة ، معمل العقول فى رؤوس الشباب اللاهى العابث ، ثم فى رؤوس رجال العمل والفكر . وأى شىء أعجب من هـذا الحى فى باريز العجيبة . هنالك العلم بكل جدّه وهدوءه . وهنالك اللهو بمجاحه وهزله . هنالك اللكسمبورج بماضيه وحاضره . وهنالك "البانثيون" بعظام أمواته ، بل هناك الحرّية الحقة حرّية الفرد الشخصية أساس كل حرّيات الشعوب .

سامى جريدينى

فتيات الحى اللاتينى

لأكثر الطلاب صاحبات عزيزات صغيرات . ولا عار فى هـذا عليهم لأنه مألوف فى الحى وغير ذلك منكر ...

ويحدث أحيانا أن يتزوّج الطالب من خليلته ، على أنه على ضبط نفسه هنا أقدر منه فى انجلترا حيث يبدو كل انسان على اسـتعداد للقران لأتفه الأسباب . ومثل هـذه الزيجات قلما يكون التوفيق حليفها لأن الطالب اذا فتح طريقـه فى الحياة لا يلبث أن يجد فتاة الحى اللاتينى حجر عثرة فى سبيله من الوجهة الاجتماعية . هذا عدا أنه قلما يعرف رجل كيف يحسن التصرف فى جوهرة التقطها من الحمأة وبعض أولاء الفتيات المسكينات جواهر حقيقية .

رالف نقيل

طلبة باريس وأساتذتهم

أوّل ما نتبينه من الطلبة فى باريس إنما هو الاقبال على العلم بروح الرغبة الصادقة والنشاط الكبير والاخلاص الأكيد، ليتجلى كل ذلك فى الإنصات التام لما يلقى عليهم من محاضرات . وفى السكون الشامل الذى يسود مكتبة الكلية وقد غصت فامتلأت مقاعدها جميعا، كما يتجلى فى المحادثات التى تدور بينهم خلال الفترات التى تفصل بين المحاضرات ذلك بأنهم يفقهون أن تيار الحياة جارف وأنهم إذا ما أتموا دراساتهم فانهم سيعملون فى ميادين التخصص التى تحول بينهم وبين مناهل الثقافة العامة العذبة .

ولعل هذا الاعتبار الأخير نفسه هو الذى يجعلهم جدّ حريصين على أن يستمتعوا الاستمتاع المستطاع بلذائذ الدنيا، وهم كذلك فى دور التحصيل العلمى فتيار الحياة لا شك سيجرفهم إذا ما خاضوا غمارها العملية، بحيث لا يتسع لهم مجال الاستمتاع المادّى والفنى، كما يضيق بهم مجال الاستمتاع الفكرى أيضا .

وقد يرجع الى هذا النظر ما يتبرع به الناس عادة على طلبة باريس من الاتهام بعدم الانكباب على الدرس وبالانطلاق الى الملاهى دون قيد فى حين أنه كما ترى نظر "محسوب" يستند الى اعتبارات الحياة الواقعة .

والواقع أنك إذا تخلفت الى مكاتب الكليات ثم تخلفت الى ملاهى "الحى اللاتينى" فكثيرا ما تجد فى هذه الثانية من رأيت فى تلك الأولى، وكثيرا ما تلاحظ الانكباب فى الثانية بقدر ما تكون قد لاحظته فى الأولى . وهل تريد أدل على هذا التوازن فى التحصيل وفى التلهى من أن طلبة الجامعة الباريسية الكبرى وطلبة كلية الحقوق وحدها يفوقون عدد طلاب الجامعة الأزهرية، كلهم ينتهون الى التوفق فى حياتهم، وينتهى الكثير منهم الى التفوق فيها والتميز الى حدّ يجعل من تقاليد كلية الطب هناك مثلا ألا يعين أستاذا فيها إلا من كان طالبا فيها نفسها من قبل

و إلى حدّ أنك تنظر الى رجال فرنسا البارزين فتجدهم فى كثرة عظيمة ممن كانوا طلبة فى جامعة باريس .

توازن صحيح يقيمه الشباب المتعلم هناك بين المظاهر العقلية والمظاهر المادّية فينمو غير عصبى وينمو غير متهافت وينمو عارفا واجباته فى التحصيل وقادرا مدى حقوقه فى اللهو . أنظر الى علاقته بالأساتذة فلا تجدها من جانبه قد ذهبت الى حدّ التجرؤ على الفواصل التى يجب أن تقوم بين الأستاذ وتلميذه ولا تجدها قد ذهبت الى حدّ الادّعاء المروّع وحسبان التلميذ نفسه قد فاق أستاذه فى الذكاء والتفهم والمعرفة . بل تجد الشباب محتفظا بموقفه من الأساتذة مستمسكا باظهار ما للأساتذة عليه من أياد . ثم اذهب بعد ذلك الى دور الملاهى التى يؤمها طلبة العلم فى باريس تجدهم قد احتاطوا بسياج من التقدير الذاتى لا يمكن أن يقربهم من حدود الابتذال، لا تسمع لهم تلك الأصوات المنكرة التى ترتفع لمناسبة ولغير مناسبة، ولا ترى منهم ذلك الترنح البهيمى الذى أصبح مقصورا على "الغفل" من الناس الذين لم تتعهدهم الحضارة بعد بشىء من صواقلها ولم يتعهدهم الاطلاع بشىء من خصائصه المهذبة .

هم اختاروا لأنفسهم طريقا وسطا قصدا بين الإفراط والتفريط يذكرون أنى وجدوا أنهم يمتون للحضارة بسبب وأنهم من أجل هذا يجب ألا يصدر عنهم إلا كل ما يتبين فيه هذا السبب .

ثم انهم فى طلبهم العلم — ولعلهم كذلك فى طلبهم اللهو — لا يقفون عند حدّ ما يلقى عليهم من محاضرات "رسمية" . فهم يعرفون تمام المعرفة أن تلك المحاضرات التى يلقيها عليهم كبار أساتذتهم الذين يغلب أن يكونوا حجج المؤلفين والواصفين إنما هى بمثابة تمهيد السبيل ليس غير تفتح أمامهم أبواب البحث وتدلهم على مسالك الاستكمال دون أن تزعم أنها قد جمعت ما أتى به الأوائل والأواخر، فلا يأخذونها بالتالى آيات منزلة، بل يقربونها على اعتبار أنها آراء المفكر يجد فيها الطالب مسرحا لتفكيره المبتدئ لكن يجد فيها كذلك دليلا الى مسالك التفكير الأخرى يدرج اليها ليرتادها وليزن بينها وبين تلك وله بعد ذلك حرية الاختيار المطلقة ذلك أن الأساتذة

هناك لا يقصرون طلبهم على آرائهـم هم ، ولكنهم يشترطون لهـذه الحرّية قيدا واحدا هو أن يكون الطالب مدركا الرأى الذى ينزل عنده مستندا فى نزوله عنده الى شيء من التسلسل المنطقى .

لا يفهم الطالب إذا ما يلقيه عليـه أساتذته فرضا منزلا ولا يرضى الأساتذة أن يفهم طلبتهم هذا الفهم ، فلا تجد هناك ذلك الصنف من الشباب المغرور ، بل من الفتيان المغـرورين الذين يحسبون أنفسهم إذا ما أتموا دراستهم العاليـة قد ختموا علومهم ، وقد أصبحوا فيها حججا واثباتا ، وأنهم من أجل هذا ليسوا فى حاجة لأن يستزيدوا منهـا شيئا . بل تجدهم جميعا قد شبوا على فكرة التقدّم والتطوّر يغذيهما دائمـا تقدّم الأيام المتوالى وتطور الحـوادث المستمر . يقبلون إذا على الموسوعات والمراجع والمؤلفات يقرأونهـا فى استساغة لأنهم يعرفونها منهل معارفهـم وموسعة مداركهـم ومتممة معلومات لا يسـتطيعون أن يحصلوا خلال محاضرات أساتذتهم العظام إلا على بعض أطرافها وبعض اللب منها .

وليس الطلبة هم وحدهم الذين يؤلفون أسرة الجامعة فى باريس بل أن اليهـم أساتذتهم وأن لهم لبيئة وأن لهم لحياة لا يستطيع أحد أن يدّعى لهـا الكمال كله . وقد وصفها "شارل ريش" فى كتابه عن "العـالم" ضمن مجموعة " أخلاق العصر" التى صدرت منها أجزاء عديدة فيها أبحاث قيمة وصفها "شارل ريش" فاذا بها من الحيوات التى تكتنفها الشهوة وتتخللها المطامع ، وتنساب فيها المنافسات والذاتيات بينما كان النـاس يحسبونها — وهى حياة العلم الخالص والنسك الحديث — منزهة عن كل تلك المظاهر التى تسـود حياة الغير من عاديى النـاس . لكن لهم على أى حال فى بيئتهم تلك فضل "حسن التقـديم" وفضل "تهذيب الطـرق" ذلك أنهم لايحدّثونك وأنت غريب عن طائفتهم بكل ما يحسون فيها من شدائد . بل يلوحون لك دائمـا أمراء فى مواقفهم نبلاء فى مسالكهم أشرافا فى كل ما يصـدر عنهم . أوليسوا هم طبقة الارستقراطية الحقة فى الجماعة البشرية ، أرستقراطية الذهن والفكر . ثم أنهم فى مظهرهم آيات للتواضع وحب الانزواء . وهم كلما علت مكانتهم العلمية ازدادوا تواضعا وغاروا انزواء .

محمود عزمى

خصائص الحى

إنا ندهش حقا من ذلك الشعور الذى نحسه ونحن فى باريس شعور خاص يقنعنا أننا لسنا فى بلد غريب بل بين مواطنينا وأهلنا . وأشدّ ما يحملنا على التعجب أننا لم نلاق صعوبة ما فى إدراك كل ما يتعلق بشوارع البلدة وأحيائها . وإنى أرجع ذلك الى حدّ كبير الى وجود نهر السين فى وسط باريس وهو فى طريقه غربا الى البحر يفرغ فيه حموله المتدفقة ... لقد زرنا لندن عشرات المرات ومع ذلك فما تزال لندن فى نظرنا ملتوية متعرجة لا نستطيع أن نعرف عنها ذلك المقدار الذى نعرفه من باريس ، وإنى أرجع ذلك على الأصح الى اتجاه نهر التاميز فى المتجه الخاطئ الذى يجعلنا نضطرب فى تقدير الأماكن . أما هنا فى باريس فأنت لا تشعر مطلقا بهذه الصعوبة ولا تجد فى نفسك أثرا من الاضطراب فى تعرّف الأماكن .

نحن نعيش على الجانب الجنوبى من النهر فى ذلك الجزء الحالم المسمى بالحى وفى باريس أحياء عدّة ومع ذلك لم يحمل واحد منها اسم الحى إلا هذا الجزء من البلدة ، هذا الجزء هو الحى اللاتينى ، حى الشعر والأغانى والأقاصيص . هنالك تجد الجامعات ومدارس الفنون . وهنالك تجد الآلاف من شبان وشابات من مختلف الأقطار والأجناس وهم يجلسون الى مختلف المدرّسين والأساتذة يتلقون عنهم شتى العلوم لكى يتبعوا القبس كما يقولون .

ولن تبدأ دروس ومحاضرات السوربون قبل أسبوع أو أسبوعين . ومع ذلك فكل طلاب الفنون والآداب قد عادوا الى عملهم والى لهوهم أيضا . وقد حدث أن اكتسح شارعنا جماعة من هؤلاء الفتيان فى معاطف العمال البيضاء ووجوههم ملطخة بشتى الألوان كأنما هم يتأهبون — كما كان يتأهب الهنود القدماء — لغزو أو لحرب . ولعل رؤيتهم على هذه الحال كانت تثير التعجب والدهش فى غير هذا البلد غير أنها فى باريس تمرّ كما يمرّ أى شيء عادى دون انتباه ما من الناس ...

وكان حقا مما يدعو الى الاستغراب أن ترى طالبا من طلبة العلوم الإلهية وهو فى رداء الألعاب الرياضية ، كان حقا مثارا للضحك والمزاح ولكن أى لون من ألوان السخرية كان يصادفه مثل هذا الشاب فى بلد كاسكتلندا لو أن نفسه حدثته وهو بين الاسكتلنديين أن يمارس شيئا من هذا . وكم هو باعث على السرور والارتياح أن يرى السائر فى طرقات الحى اللاتينى شابا من الشبان متفتحا لامتصاص رحيق الحياة وفتاة جميلة كالزهرة التى تستدير لاستقبال شمس الوجود وبهجتها — يتبادلان القبلة — على قارعة الطريق دون أن يجافى هذا الذوق العام حتى ولا ذوقك الخاص !

وانه ليبلغ بك الدهش مبلغه عند ما تعلم أن بعض هاته الفكاهات قد تخرج من حيزها الصغير الى حيز أكبر منه بل وأخطر فى نظر جماعة المحافظين المحتشمين . وبالرغم من ذلك فان لأصحابنا سكان الحى اللاتينى نكات طريفة تضحك الثكلى وتفرح المحزونين فلو فرضنا مثلا أن جولز قد طلت وجه ألفونس باللون الأبيض وصبغت خدوده باللون الأحمر، ثم اقترحت عليه أن يخرج بعد ذلك الى الطرقات ليتناول غذاءه ووعدته فى مقابل ذلك بعدة قبلات هنيئة فان بطلنا يستحيل عليه أن يتردد فى قبول هذا العرض الرخيص . واذن فستراه يجتاز الطرقات بوجهه المصبوغ وسترى أنداده الشبان الآخرين يعتبرون هذا بدعة جديدة حقيقة بالتقليد . واذن فسترى كل الشبان فى الغد ووجوههم مطلية بالأصباغ على نمط المسيو ألفونس بعد أن يفوز هو بالقبلات وأحيانا بما هو خير من القبلات ... وبعد يوم أو يومين تجد أن القوم قد ابتدعوا صنفا جديدا من المستحدثات ثم راح هذا ليحل محله صنف آخر جديد .

ولعل المشاهد الذكى يستطيع أن يدرك أن الفكاهات التى تحدث فى الحى اللاتينى هى فى الواقع مثال صحيح للزاج اللاتينى بأجمعه . وكثيرا ما تجد الطلبة والطالبات يمارسون هذه البدع ، ولكنك فى بعض الأحيان وهى تتخلل السنة عدة مرات تجد آباء الطلبة والطالبات وباريس كلها فى الواقع تشارك شبيبتها فى مجونها، تراها تستسلم لأكثر الأيام مجونا واستهتارا ومراحا .

باريس فى الذكريات

مظاهرات الطلبـــة

حدث فى سنة ١٩١٠ أن قام خلاف بين بعض أساتذة كلية الحقوق وعميدها ذلك أن وزارة المعارف كانت قد قررت تعديل المناهج الدراسـية فأبدى بعض الأساتذة آراءهم فى صـدد التعديل ونشروها على صفحات بعض الجرائد — وكان ذلك فى عطلة الصيف — فكتب الوزير الى عميد الكلية يرجو منه أن يوجه نظر زملائه الأساتذة الى أنه لم يكن من اللائق أن ينتقدوا عملا ما يزال فى دور التفكير فيه على صفحات الجرائد، فأبلغ العميد ملاحظة الوزير الى الأساتذة . فكبر هـذا الإبلاغ على بعض الأسـاتذة ورأوا أنه كان من واجب العميد أن يرد على كتاب الوزير بمـا يسجل حرية الأساتذة فى إبداء آرائهم بالطريقة التى يرونها منتجة وأن يمتنع عن تبليغ كتاب الوزير اليهم . وفى كليات فرنسا ينتخب الأساتذة العميد من بينهم وينتخبونه لثلاث سنين ويلقب العميد الذى ينتخب ثلاث دورات متوالية "بعميد الشرف" .

وكان مسيو "ليون كان" عميـد كلية الحقوق بباريس انتخب فى سنة ١٩٠٤ وأعيـد انتخابه فى سنة ١٩٠٧، وكان يتوق الى أن ينتخب للمرة الثالثة سنة ١٩١٠ ليصبح عميد شرف، ووقع ذلك الحادث فى الصيف وجاء الأساتذة مصممين على عدم إعادة انتخابه . وكان عددهم كلهم خمسة وأربعين . اجتمعوا لانتخاب العميد فألقى أربعون منهم أوراقهم بيضاء ظنا منهم أن هذه وسيلة رشيقة للتعبير عن رأيهم وللقول باستقالة العميد (ليون كان) . وكتب اثنان فى ورقتيهما اسم الأسـتاذ "كوفيس" وكتب اثنان اسم الأستاذ "ليون كان" العميد وكتب العميد اسم نفسه . فكانت النتيجة أربعين ورقة بيضاء وثلاثة باسم "ليون كان" واثنتين باسم الأسـتاذ "كوفيس" فكتب العميد محضر عملية الانتخاب، واعتبر أصحاب الأربعين ورقة بيضاء ممتنعين عن التصويت فلا يحسبون أصلا، واعتبر نفسه هو المنتخب عميدا

جديدا لأنه قد نال ثلاثة أصوات ضد صوتين اثنين . وطلب الى الوزير أن يصدّق على هذه النتيجة فأقرّها الوزير وأعلن انتخاب مسيو "ليون كان" عميد الكلية المعترف به للمرّة الثالثة .

فأوغر هذا صدور الأساتذة وأرادوا أن يسقطوا "العميد القهرى" بكل وسيلة، فلجأوا الى بعض الطلبة أو الى بعض الوسطاء بينهم وبين الطلبة، وكانت تعاليم جريدة "لاكسيون فرانسيز" وحزبها الملكى آخذة فى الفتوة والنضال و"ليون كان" يهودى فأريد استغلال عنصر "السامية" فيه، وانتهى الأمر بأن قامت قيامة الطلبة عليه يؤلفون المواكب تحيط بمنزله منادية بسقوطه، ويقابلونه على باب الكلية، بل يجيئون به من منزله الى الكلية — وهما متقاربان — وسط "التهليل" والهتافات غير المستحسنة، ثم يقتحمون المدرّج الذى يلقى فيه محاضراته، ويتسابقون فى الهتاف بسقوطه، و إنشاد الأناشيد المزرية به وهو فى الاحتفاظ بكرسيه يلقى من فوقه طول الساعة محاضرته كأن شيئا من تلك الفوضى غير كائن .

وأراد الطلبة أن يزيدوه إحراجا فجمعوا إلى جانب مكتبة الكلية أوراقا وجرائد وأشعلوها، فظن العميد أنهم مقدمون على إشعال النار فى المكتبة نفسها فخاطب رجال الحفظ تليفونيا وطلب منهم أن يسارعوا إلى الكلية لدرء ما فيها من مخاطر . وأسرع رجال الحفظ ودخلوا الكلية . فاستغل خصوم العميد الحادث وقامت الاحتجاجات من كل صوب تتساءل كيف يقدم العميد على إدخال رجال الحفظ فى دار الكلية التابع فى نظامه لرجال الجامعة وحدهم دون سواهم . وأخيرا انتهى الأمر بتعيين مسيو "ليون كان" مستشارا فى محكمة النقض والإبرام .

لكن شيئا من أنباء تأثير الأساتذة فى الطلبة لم يظهر إلا بعد أن تمت الحادثة .

على أن هذه المظاهرات التى يندفع إليها الطلبة لا يمكن أن تعدو سياج الاعتبارات الجامعية، فاذا أضرب الطلبة فانما يضربون لسبب يرجع إلى علاقتهم كطلبة بمعاهدهم العلمية دون إدخال للعناصر السياسية أصلا . نعم ان بعض الطلبة يشتركون فى مظاهرات سياسية كتلك التى تقوم بها جماعة الملكيين فهم لا يشتركون

فيه "طلبة حقوق" بل يشتركون فيه أفرادا فرنسيين ليس غير . إنما طائفة الطلبة طائفة علمية تحتفظ بكيانها داخل البيئة العلمية التى تكتنفها هيئة الأساتذة وهى هيئة لا تتعرض لغير المظاهر العلمية أيضا .

وهذا الاستقلال الذاتى للبيئة العلمية وهذه الغيرة على أن تبقى البيئة العلمية سليمة من كل جرثومة سياسية أو نزعة حزبية هما اللذان يضمنان التفوق ويضمنان الإنتاج الصحيح .

محمود عزمى



مظاهرة طلبة الصيدلة فى الحى اللاتينى

حنين الى الذكريات

أصـــدقاء الحى

أكانت باريس التى رأيتها هذا العام كباريس التى رأيتها منذ عامين ؟

أما الدور والشوارع والعمارات والملاعب والمعاهد ، فهى لم تتغـير أو لم تكد تتغير . ولكن الذين عرفتهـم وتعودت أن أراهم أو أسمع الحديث عنهم فى هـذه الناحية الصغيرة من الحى اللاتينى قد مضى أكثرهم ولم يكد يبقى منهم أحد . منهم من سئم الحياة أو سئمته الحياة فانتقل الى حياة أخرى ، ومنهم من كان إنما استوطن باريس ليتجر فيها طلبا للثروة والسعة ، فلما ظفر منهما بحظ ترك باريس الى حيث يصبح من أغنياء الأقاليم أو من أهل الدعة والمكانة .

وكذلك لم ألق البـوابة التى كنت أعرفها فى البيت أيام الطلب والتى كنت أحب أن أسمع اليها تصف علمها ودرايتهـا وحسها وشعورها بينما تكنس السلالم أو تمسحها .

ولم ألق البوابة الأخرى التى خلفت هـذه والتى كانت على حظ عظيم من المرح والنشاط . تشرب ما استطاعت ، وترقص ما استطاعت ، وتداعب من المختلفين الى البيت من تجد إلى مداعبته شيئا من الراحة .

فوجدت مكان هذه وتلك بوابة أخرى جديدة تتسلط على السكان وتحكم فيهم بأمرها ، مستبدة مسرفة فى الاستبداد ، فارضة عليهـم ما تشاء من العقوبات إذا قصروا فى ذاتها بعض التقصير . أليس بيدها بريد البيت تسـتطيع أن تؤخره وأن تحبسه وأن تضيعه؟ أليس إليها يتجه الزائرون قبل أن يصعدوا إلى طبقة من طبقات البيت ، فهى تستطيع أن تجيبهم بمـا شاءت من جواب بأنك فى البيت أو بأنك قد خرجت ؟ أليس إليها تتجه السلطة حين تريد أن تتعرف من أمر السكان ما تحتاج اليه لفرض الضرائب فهى تستطيع أن تصورك غنيا وفقيرا ومتوسط الحال . ولا بد

اذا كنت تريد الحياة الهادئة من أن ترشوها وتتملقها وتتوسل اليها بمختلف الوسائل، فان لم تفعل فحياتك منغصة من غير شك .

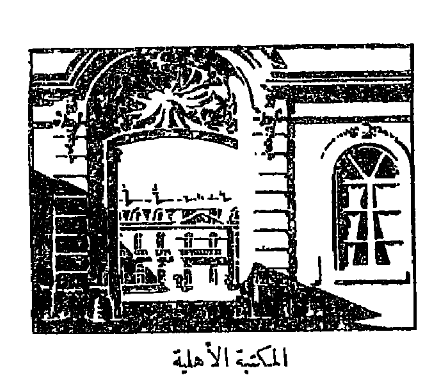
نعم، وقد افتقدت بائع الخضر الذى كان يحب المزاح، الذى كان يحمل أمتعتى كلما سافرت من باريس أو عدت اليها .

وافتقدت بائعة اللبن التى كانت سيئة الخلق تخيف المختلفين اليها وتملأهم رعبا وفزعا وأنا أسأل عن الظاعن وعن المقيم، وأجد فى السؤال والجواب لذة وذكرى يملأها الحنان ...

طه حسين

الجـــوّ العـــلمى

تقوم جامعة باريس : السوربون، فى قلب الحى اللاتينى . وكان هذا الحى، حتى قبل بناء الجامعة، قبلة الطلاب وأساتذتهم من أيام روبير دى سوربون، فيترددون على شارع "سان جاك" وقد تجددت بنايات المدارس وظلت فى مكانها .



المكتبة الأهلية

ومن الكليات المشهورة "لويس الكبير (Louis le Grand)" و"هنرى الرابع" و"سان لويس" وقد ظلت محافظة على هيئتها، تعدّ الشبيبة الفرنسية التى تقصد إليها من جميع البلدان لاجتياز مسابقات المدارس العليا، وبعد تخرجهم من تلك الكليات يبقون فى "الحىّ" ليتابعوا دروس السوربون فى الآداب أو العلوم، أو فى كلية الحقوق، أو الطب، أو مدرسة النورمال (المعلمين العليا)، أو مدرسة الهندسة (البوليتكنيك) .

فترى عند حلول الصيف فى باريس أن نشاط البلد يفتر شيئا ما فى حين أنه على العكس من ذلك يزداد فى الحىّ اللاتينى . وكأنه أصيب بالحمى قبل نوم

الاجازات ... فعنـدئذ يدخل عشرات الآلاف من الطلبة أتون الامتحانات التى تصهرهم وتزيد فى صقلهم وإعداد كفاياتهم لمواجهة الحياة ...

فكأن ممـاشى السوربون فى ذلك الحين أفاريز المحطات عنـد الرحيل الى المصايف وشواطئ البحر .

وفى هذا البيت الجامعى العريق يسود قلق المتلهفين على نوال اجازات الجامعة وأولهـا : البكالوريا التى تعـدها الطبقة الفرنسية المتوسطة "البورچواز" فخرها وعذابها رغم مايحيط بها من اضطرابات سياسية واجتماعية ...

هـذا فى حين أن هنـاك علماء قد حبسوا أنفسهم داخل معاملهم المتواضعة بكلية فرنسا والسوربون ، ومدرسة النورمال ، ومتحف التاريخ الطبيعى ، والمرصد الفلكى ، ومعهد باستور... يسجلون بصبر لا ينفد ملاحظاتهم ، ويقومون بتجاربهم ويفنون فى المقاييس والمكاييل والموازين ، وما إليها من ضروب الحساب ... ويبتكرون النظريات . ويجمعون ألوف المعلومات التى تسطع منها ، فى الحين بعـد الحين ، الأنوار التى تجدد شباب الأرض ...

هؤلاء الشيوخ الذين كنا نصادفهم وقد انحنت ظهورهم قليلا وأمعنوا فى تفكيرهم ذاهبين الى معاهدهم متواضعين... فعند ما يجىء المجد فيكلل بهالته جهودهم وأبحاثهم ، نعلم أن هؤلاء الشيوخ يدعون : باسـتور ، كلود برنارد ، بوانكاريه ، كورى ، تين ، رينان ...

وحول هؤلاء الشـيوخ الموقرين كهنة العـلم ، خدام أكثر تواضعا يجمعون الكلمة ، كلمة العلم والحق ، ويبذرونها ويزكون الشعلة المقدسة الخالدة .

فان هـذه الزاوية الصغيرة من الكرة الأرضـية هى إحدى القفر ، قفر النحل الهادئ العامل النشيط المثابر الذى يشتغل ليخرج الشهد غذاء العقل البشرى ...

والمؤرخون من هؤلاء الأساتذة الشـيوخ لا يجدون دائمـا فى الحى كل ما هم فى حاجة إليـه لتشييد دعائم المـاضى من جديد ، فيذهبون إلى (المكتبة الأهلية) على ضـفة السين اليمنى ، على قاب قوسين أو أدنى من ميـدان "البورصة" ساحة الضجيج والضوضاء على المـال ... فيمرون بها زاهدين إلى دار الكتب يتصفحون

بشغف المجلدات العتيقة المتآكلة، وينقبون فى الأسفار التى أحالت الأيام لونها ثم يعودون وقد حشوا حقائبهم بالأوراق المسودّة بما دوّنوه فيجدون وهم يمرّون بضفة السين باعة الكتب وقد فتحوا على طولها صناديقهم فيجذبهم ما فيها من المجهول الذى قد تكون هناك بينه و بين دراستهم صلة ... فيقلبون تلك الكتب . فاذا وجدوا بينها لقيتهم أمسكوا بها كأنها طفل من لحمهم ودمهم ثم حملوها إلى صوامعهم...

* * *

وكذلك ملكات الشعر "الموز" يحببن الحى اللاتينى ... فكثير من الشعراء قد وجدوا فى طرقات حديقة اللكسمبورج ضالتهم المنشودة ... وكثير من الكتّاب يحفظون الوداد لأكمة "سان جنفياف" حيث قضوا سنى الشباب والأمل ...

ومن مشارب الحى التى يدور فيها الحوار، والمناقشات الأدبية، وتؤسس فيها المدارس الفكرية ، ومذاهب الثقافة يخرج بعد ذلك الى باريس كتّابها وشعراؤها وفنانوها فتتخاطفهم إدارات صحفها ومسارحها وصالوناتها ... ولكن رجال القلم والريشة يحفظون دائما حنانا لتلك الضفة اليسرى فيقصدونها يجدّدون فى الحى ذكريات الشباب ويزكون حميتهم وحماستهم ...

ولقد حدث يوما أن هجر الفنانون "الحى" الى أكمة "مونمارتر" ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا عن طيبة خاطر كمن ضل سبيله ثم اهتدى . فالحق أن الحى ملتقى العلوم والفنون والآداب . وحول حديقة اللكسمبورج قد انتشرت مصانع الفنانين والمصوّرين . وعلى مقربة من اللكسمبورج مدرسة الفنون الجميلة فى "سان جرمان دى بريه" التى تستقبل الشبيبة المتحمسة وتتعهدها لفتوحات الفن والمجد .

وكما أن العلماء الشيوخ يذهبون الى "المكتبة الأهلية" و "دار المحفوظات" كذلك يقصد الطلبة الى مكتبة السوربون أو مكتبة "سان جنفياف" بين كلية الحقوق والبانثيون .

أما البانثيون فكان عند ابتداء تشييده عام ١٧٥٧ طبقا لتصميم المهندس "سوفلو" كنيسة سان جنفياف ثم بدلها رجال الثورة الفرنسية وخصصوها لتخليد ذكرى عظاء الرجال .

والبانثيون بناء عظيم على رسم صليب إغريقي طوله ١١٠ أمتار وعرضه ٨٢ مترا وحواليه ٢٢ عمودا، وقد نقش على واجهته المثال الكبير دافيد دانجرس . الوطن بين الحرية والتاريخ وهو يهدى أكاليل الغار الى عظماء الرجال ، وقد كتب عليها : "الى عظماء الرجال من الوطن المعترف بالجميل"... ويلاحظ فى ذلك النقش مالزرب وميرابو ومونج وفلنون وكارنو ولبلاس وكوفييه ولافاييت . والى اليسار جماعة من رجال السيف وعلى رأسهم " بونابرت " .

وفوق هذا البناء قبة شامخة يبلغ ارتفاعها ٨٣ مترا يمكن الصعود اليها والاشراف على الحى وما وراءه .

وفى الدور الأسفل من " البانثيون " الذى يشبه المغاور قد وضعوا قلب "غمبتا" الجمهورى العظيم عند المدخل فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٠ يوم ذكرى الهدنة، والى اليمين قبر چان چاك روسو، والى اليسار قبر ڤولتير وتمثاله من صنع "هودون" ونجد قبر فكتور هوجو الى جانب قبر إميل زولا ، ثم قبر الكيماوى النابه برتولا وزوجته وقبر الاشتراكى العظيم "چان چوريس" الذى قتل غداة إعلان الحرب الكبرى .

وفيه طائفة من صور خدّام الوطن وتماثيلهم المحفورة فى الجدران ممن قضوا فى ساحة العلم أو الحرب ... ولعل من أهم ما يستوقف النظر، ويدعو الى التأمل والاعتبار صورة القدّيسة چنفياف، وهى تهدئ من روع الباريسيين الذين جزعوا لهجوم " آتيلا " فى غارته المشهورة على بلادهم ... وتقوى من عزائمهم ...

ومن الغريب أن من يقرأ تاريخ فرنسا يروّعه الدور الذى لعبته المرأة فى الشدائد التى تصيب الفرنسيين فعند ما يعجز الرجال تظهر المرأة الوديعة الحنون بصورة الأسد الكاسر لتنقذ بلادها ... وهؤلاء چان دارك وشارلوت كورداى وچان هاشيت ... وغيرهن وغيرهن أكبر شاهد على ذلك ... فلا عجب اذا كان مؤرّخهم العظيم الدقيق الشعور "ميشليه" قد كتب : " فلنذكر دائما نحن الفرنسيين أن الوطنية قد تولدت عندنا من قلب المرأة ومن حنانها ومن دموعها ومن الدم الذى أراقته فى سبيلنا ..."

فخـــر باريس

يقابل شارع المدارس شارع مدرسة الطب تقع فيه كلية الطب إحدى كليات جامعة باريس الكبرى . وعلى مقربة من كلية الطب تقع مدرســة الفنون العليا . هذا خلا عددا من المدارس الحرّة، ومن أبهاء الجامعات العلمية يقصد إليهــا كبار الأساتذة يلقون فيها محاضرات علمية وفلسفية واجتماعية وأدبية ويبعثون فيها بذلك إلى الذهن وإلى الحس وإلى العاطفة ما ينبه نشاطها ويدعوها للامعان فى البحث الدقيق عن الحق والخير والجمال مما تدعو إليه كلية فرنسا وكلية الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم الاجتماعية العليا ومدرسة الفنون الجميلة . وهذه المدارس والكليات الكثيرة الجمــة النشاط المنصرفة للدراسات العليا والتى تجعل من هذا الحى اللاتينى القلب الحساس والذهن المفكر والعاطفة المتقدة والفن المبدع فى باريس جميعا .

أى المجموعتين أبهى جمالا وأشدّ بهرا ؟ مجموعة الحى اللاتينى هــذه أم مجموعة اللوفر والتويلرى والكونكورد والشانزليزيه؟ هذه الأخيرة هى الجمال البارع أمام النظر والزينة البادية لكل عين . أما الأولى فهى القلب الذى يوزع على باريس وعلى كثير من أنحاء العالم أسباب الحياة الانسانية السامية . لذلك أحسب أن باريس بحيهــا اللاتينى أشدّ تيها وفخرا . وانمــا تعدّ فى مجموعته التى أشرنا إلى بعض ما فيهــا أكبر سبب من أسباب مجدها، لأنه مصدر كل مجد لهــا على المسرح، وفى الفن الجميل، وفى العــلم، وفى الطب، وفى الحقوق، وفى الآداب، وفى كل ما تزدهى به باريس على كل المدائن .

هيـــكل



بين الطلاب

صــور الحى

وذلك الرجل ذو الوجه المستطيل النحيل ذو رباط الرقبــة الأبيض العريض الذى يذكرنا فى بعض الأحيان بدون كيشوت من الطبقة الوسطى ويشغل وظيفة متوســطة فهو موظف فى وزارة ... ولكنه اعتاد — كما هو شأنه منذ ثلاثين أو أربعين عاما — أن يقضى مساءه فى ربوع الحى اللاتينى وقد أتاحت له الظروف مرة أو مرتين خلال حياته أن ينشر بضعة أشعار فى صحيفة ســيارة ما زال محتفظا بها كرمز لاجتهاده ولشاعريته . وذلك الرجل الصغير الذى يميل جسمه الى القصر محام، ولكنه لم ير فى " قصر العدالة " إلا فى أتفه القضايا ومع ذلك فهو لا يحجم عن التمتع بقهوته وملحقاتها كل مساء فى المقهى نفســه الذى لم يفكر فى هجره منــذ سنين طوال ، وما زال يتردّد على الجماعة التى انضم اليها مذ عرف مقهاه هــذا وهم يتجادلون ، ويتناقشون كما كانوا يتجادلون ويتناقشون منذ عرفوا بعضهم بعضا فى الأدب والسياســة والاجتماع والفنون ... وذلك الرجل الذى يبدو عليــه مظهر الانكايز ذو اللحية الحليق النظيفة يباهى بحمــل مجلة لاتينية قديمة ... وتلك الشرذمة من الرجال الذين يظهرون فى مظهر محترم هم جماعة من الأساتذة والمدرّسين اجتمعوا ليلعبوا لعبتهم الحبيبة الى نفوسهم .

واذا قدّر للانسان أن يشترك مع صحب من هؤلاء الناس الذين يعيشون فى الحى اللاتينى فلن يشعر مطلقا أنه بعيد عن أهله ووطنه بل سيجد من أصحابه هؤلاء كل ما يحب من رعاية الأهل وعطف ذوى القربى .

والحقيقة أنه لم يثر كل هذه الضوضاء والضجة حول اسم الحى اللاتينى سوى الشباب، الشباب فى المــاضى . والآن هل للحى اللاتينى مجده القديم وهل هناك من الشباب من لا يزال يبعث حول حى الطلبة العالمى طول الذكر وكبر الأثر كما كانوا يبعثون... أستطيع أن أؤكد أن الحى اللاتينى غاص بالشباب الجامح الذى لا يقل فتوّة ومراحا

عن شباب الماضى ومملوء بالشابات الجميلات المستعدات لمشاركة زملائهن الشبان مراحهم وسعادتهم ولكن هؤلاء الشبان والشابات يختلفون عن رفاقهم فى الماضى فقد كان أولئك يقدسون العيش البوهيمى فتجد الواحد منهم لا يعيش على مورد خاص مستمر بانتظام ،وتجد الواحد منهم لا يعبأ أأدبر الدهر أم أقبل مادام قادرا على إرضاء ملاذ جسمه ونفسه، ومادام يجد لقمة يأكلها وسيجارة يدخنها وكأسا يجرعها ثم امرأة تسليه لن يعبأ بعد ذلك بالعالم كله و إن اندكت أركانه وانهدمت معالمه .

وحدث مرة اذ كنت جالسا فى مقهى البانثيون إن رأيت جماعة من الطلاب والطالبات وقد التفوا حولى ولست أدرى كيف أدركوا أننى أشاركهم شعورهم، ثم أخذوا يصيحون ويغنون ، فلما دعوتهم للشراب هتفوا بأعلى صوتهم ، ثم جلسوا سعداء يحتسون ما قدمت لهم من خمر ولست أشك فى أن هتافهم تردد صداه فى شارع " بول ميش " من أقصاه الى أقصاه . وأن ضجتهم الصاخبة قد أزعجت المارة ولكن أحدا من الناس لم يعبأ بسلوكهم هذا ولم يحفل بما يحدثون من ضجة كبيرة وحين سألتهم عن مبعث هذا السرور أخبرونى أن بعضهم قد اجتازوا امتحانهم فهم يحتفلون بهم وأن البعض الآخر — الراسبين منهم — لا يقلون سعادة وغبطة عن الآخرين فتمنيت لهم جميعا كل رفاهية ورفعنا الكؤوس نخبها .

ولعل هذه الجماعات المرحة كتلك التى وصفت هى من خصائص باريس التى يراها الناس فيها كل يوم ولكن الطالب الباريسى — رغم اشتراكه فى مثل هذه الحفلات السارة الشائقة — لا يمكن أن ينسى خلال سروره أدبه وظرفه فهو دائما الشخص المهذب الراقى الذى يحسب حساب كل كلمة تخرج من بين شفتيه وأذكر أن أصحابى هؤلاء لم ينسوا حتى بعد انغماسهم فى الشراب أن يظهروا لى كل معانى الاحترام كشخص يكبرهم سنا .

وشرطة باريس تعرف هذه الخاصة فى الطلبة فهى رغم ضجيجهم قلما تتعرض لهم فعندما يرى أحد من الجنود "شلات" الطلبة — كما يسمونهم — وهم يغنون

أو يرقصون فى شارع أو ميدان لا يسعه إلا أن يبتعد عنهم بعـد أن يصلح شاربه ويهز أكتافه فى رضى وسرور . والطلبـة فى باريس يلبسون فى مثل هذه الظروف "البريه" الذى يمتازون به وأربطة الرقبة الملونة التى تعرف بها مدارسهم ... ولا يلبس القبعات القديمة إلا طلبة الفنون هذا الى جانب سراويلهم التى تتدلى الى أقدامهم وهم على أية حال مميزون ظاهرون اذا رأيت واحدا فلن تلبث أن تدرك أنه طالب ... طالب من باريس ...

سسلى هادلستون

ذكريات حىّ الشباب

حى الشباب فى باريس هو الحى اللاتينى ، وهو حى الشباب بأجمـل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة . وليس فى الدنيا التى رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنهـا بآذاننا أو قرأنا أخبارها فى أساطير الأولين : ليس فى الدنيا كلها بقعـة تتفتح فيهـا أزاهير الشـباب ، وتندى أوراقه ، وتتمايل أغصانه ، ويتأرّج عبيره ؛ كما يرى روّاد الحى اللاتينى فى باريس .

ولا يعرف المرء صـنعة الله جلت قدرته إلا فى ذلك الوادى من أودية الوجود وإن لحظـة واحدة فى بول ميش (تصغير بولفارسان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجل وأعلى من أن نتطاول الى نقد صنعته أوهام المكابرين . تعالى الله عما يصفون !

وما ظنـك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجرى عليها من أسراب الملاح ، وما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما يملك العـالم من نضارة الشباب وروعة الجمـال ؟ !

الحى اللاتينى هو حى الشباب ، وليس فى قدرة أفصح الكتّاب ، وأبلغ الشعراء أن يثنى على ذلك الحى بما هو أهله ، وقصارى المفتون به أن يقول : حى الشباب ! حى الشباب !

زكى مبارك

أساتذة باريس

بقلم الدكتور زكى مبارك



إنى لأشكرلك يا صديق أن قدمت لأخيك هذه الفرصة التى يتحدث فيها الى قرائك عن أساتذة باريس الذين يراهم أعلم الناس وأنفع الناس .

ولعل من الخير أن أبدأ بالكلام عن الطالب الذى يذهب لتلقى العلم فى باريس، لأن أولئك الأساتذة لا يستطيعون أن ينفعوا كل طالب ، وليست لهم صورة محبوبة فى نفس كل طالب، وانما تتمثل منازلهم فى أنفس الطلاب بمقدار ما فى قلوب الطلبة من شوق الى الدرس، وهيام بالاستفادة من علم الأساتذة الذين تعتز بهم مدينة باريس .

وهذا الشوق هو الذى مثّل لى أساتذة باريس بتلك الصورة الجذابة الفاتنة التى لا تزال تغرينى برحلة خامسة الى تلك البلاد التى رحلت اليها فى طلب العلم أربع مرات . وحسبك أن تعرف أن ذهابى الى باريس كان أثرا لدعوة مستجابة لم يكن بينها وبين السماء حجاب : لأنها كانت صرخة من صرخات الروح الظامئ الى موارد العلم والبيان . فقد قلت فى ختام مقال نشرته فى سنة ١٩٢١

" اللهم لا تمتنى قبل أن أرى بعينى كيف يدرس العلم فى تلك المعاهد التى أصبح أهلها سادة الأمم وأساتذة الشعوب " .

من أجل هذا أنصح لمن يريد أن يستفيد من أساتذة باريس أن يروض نفسه أولا على أن يكون "طالب علم" وفى كلمة "طالب علم" يتلخص كل معنى، ويتمثل كل شيء، فطالب العلم "الحقيق" — وهذه كلمة مبتذلة ولكنها فى هذا الموضع

طريفة كل الطرافة — طالب العلم الحقيق يكبر الأساتذة فى عينه وقلبه ، ويتصورهم ملائكة مقربين . فان لم يتصف الشاب بهـذه الصفة فلا خير له من التعرف الى أساتذة باريس ، لأن التفاهم صلة بين نفسين : نفس الطالب ونفس الأستاذ . وقد وصل الأستاذ إلى منصبه عن طريق الحق ، فليفكر الشاب فى الوصول إلى مرتبة "الطالب" عن طريق الحق ، وإلا فليكتف من باريس بذكريات غير ذكريات الأساتذة الأجلاء .

هذا الطالب أنا كنته ، وكنت إياه ، وإياه كنت . والهنتاه على تلك الأعوام التى انقضت وكأنها أحلام !

* * *

عرفت فى باريس أربعة معاهد : السوربون ، والكولليج دى فرانس ، ومدرسة اللغات الشرقية ، والاليانس فرانسيز . وفى تلك المعاهد عرفت كثيرا من الأساتذة ، وسأتحدث عن أبقاهم أثرا فى نفسى ، على فى ذلك ما ينفع من يذهب الى هناك .

عرفت فى السوربون المسيو تونلا (Tonnelat) وهو أبرع أستاذ رأته عيناى ، ولا أستطيع أن أتمثل كيف تجود الطبيعة بأستاذ أفضل من المسيو تونلا . ومن الغريب أن هذا الأستاذ لا يدرس الأدب الفرنسى ولا الأدب العربى . وإنما يدرس أدبا آخر لا يبحث عنه مصرى يذهب الى السوربون . هو يدرّس الأدب الألمانى ، وقد عثرت بدروسه مصادفة ، فظفرت بكنز نفيس كان من خير ما ظفرت به من كنوز العقول .

وقد تعجب إذا حدثتك بأن هـذا الرجل الذى أحببته وأعجبت به لم تتم بينى وبينه صلة تعارف شخصية ، بخلاف الأساتذة الآخرين الذين اتصلت بهـم صلة وداد وإخاء ، وبادلتهـم الزيارات والصلات : لأن المسيو تونلا لا يكاد يكون " إنسانا " فى غير الدرس ، فاذا لقيتـه خارجه رأيت رجلا فاترا جدا لا تشـوقك رؤيتـه الى التطلع الى لقـاءة ثانية ! ولكنه فى الدرس جذاب جدا يأخذ بعقلك

وقلبك من بداية المحاضرة، ولا يمكنك من الانصراف عن متابعته بشوق وحماسة حتى تتم ساعة الدرس .

حضرت طائفة كبيرة من المحاضرات العامة التى ألقاها المسيو تونلا فى السوربون عن الأدب الألمانى ، ثم تبعته فسمعت محاضراته التى ألقاها فى الأليانس فرانسيز عن الصلات الأدبية بين فرنسا وانجلترا وألمانيا . ولا زلت أذكر أنى استفدت كثيرا من هذا الأستاذ الجليل .

فليتقبل التحية على بعد المزار من رجل لا يخطر له فى بال؛ لأنه لم يعرفه معرفة شخصية، ولم يتلق منه زيارة ولا خطابا .

* * *

وعرفت فى السوربون المسيو ديمومبين (Demombynes) وهو رجل كهل قضى أكثر عمره فى دراسة الآداب العربية، ويمتاز بصفاء النفس والبعد عن الشئون الاستعمارية، ولذلك يحبه الطلبة التونسيون ويسمونه (الشيخ ديمومبين) .

المسيو ديمومبين رجل دقيق النظر من ناحية المناهج العلمية فى دراسة الآداب العربية ، ولكنه لا يتكلم العربيــة فى درسه على الاطلاق ، وشروحه وتفسيراته وتعليقاته كلها بالفرنسية ، فاذا حاول الإفصاح بالعربية أرتج عليه القول، فعاد الى الشرح بلغة الفرنسيس . وكانت لى معه وقائع فى شرح النصوص، فغام الجو بيننا حينا ثم عاد الى الصحو والصفاء .

قويت الصلة بينى وبين المسيو ديمومبين فزرته مرتين ، أو سافرت لزيارته مرتين، فان وطنه بعيد عن باريس وهو يقضى الصيف هنالك . وله منزل جميل فى هوتو (Hoto) فى نورمنديا أخصب بقاع الأرض الفرنسية . وبفضل زياراتى لذلك البلد عرفت مدينة (الهافر) ومدينة (روان)، وظفرت بالمناسبة التى كتبت فيها رسالة " ليلة على شاطئ المانش " وحليت بها جيد " ذكريات باريس " .

ولاحظت أن للسيو ديمومبين مكتبتين: إحداهما بمنزله فى باريس ، والثانية بمنزله فى هوتو . وبذلك يتيسر له أن يظل متصلا بحياته العلمية بين العاصمة والريف .

ولدروس المسيو ديمومبين أهميــة عظيمة من ناحية توجيه عقول الطلبة الى التحديد (La précision) فى الدراسات الأدبية ، ويكاد من لا يعرف قيمة هذه الصفة يرميه بضيق الذهن ، وضيق الذهن من أهم صفات الجامعيين، وهو الفارق بينهــم وبين رجال الأدب الذين لا يفرق أكثرهم بين الثوب المحكم والثوب الفضفاض .

حضرت دروس المسيو ديمومبين فى السوربون وفى مدرسة اللغات الشرقية ، وطريقته فى الدرس تختلف باختلاف المعهــدين ، لأن للسوربون وظيفة تختلف عن وظيفة مدرسة اللغات الشرقية .

وفى هــذين المعهدين عرفت أيضــا المسيو كولان (Colin) وهو مستشرق شاب سـيكون له شأن فى المســتقبل القريب لأنه من أعرف الأساتذة بمناهج فقه اللغة ، وقــد تصادقنا صداقة متينة وقويت بيننــا أواصر الأخوة العلمية ، ولعلنا نتعاون قريبا فى بعض المشروعات الأدبية إن ساعف الزمان .

*
* *

وفى الكولليج دى فرانس عرفت أســتاذين عظيمين : هما المسيو مرسيه (Marçais) ، والمسيو ماسينيون (Massignon) ولكل منهما اتجاه خاص .

أما المسيو مرسيه فيهتم بالدراسات الأدبية والتاريخية ، وأكاد أجزم بأنه أقوى أساتذة اللغــة العربية فى الشرق والغرب ، ولا تســتطيع أن تصدّق ذلك إلا اذا تذكرت أن الزمخشرى كان أجنبيا عن لغة العرب من حيث الجنسية، ولكنه ظل من أئمتها الممتازين .

ولم تكن دروس المسيو مرســيه فى الكولليج دى فرانس هى التى وصلتنى به ، فقد سألت عنه أول يوم وضعت قدمى فى باريس ، وظلت مودّتنــا متصلة نحو خمسة أعوام ، وتلقيت عنه من الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية ما سيطوّق به عنقى الى يوم الدين . وقد اتفق مع الأسف الموجع أن هاجمته هجوما عنيفا فى الرسالة التى قدّمتها الى جامعة باريس، فحقد علىّ حقدا أظلم من الليل وأمرّ من الصاب ،

وانتقم منى انتقام الجبارين، وظل مع ذلك يصانعنى مصانعة الأريب يحقد فى السر ويصادق فى العلانية، وقلتْ حيلتى فى دفع ما وجه إلى من سهام العداء، فعرفت أن الأساتذة لا يغفرون لتلاميذهم أن يتساموا إلى مقامهم الرفيع .

ولا زلت الى اليوم أجد آلام الطعنة التى رمانى بها المسيو مرسيه، ولكنى مع هذا أتلهف الى لحظة أقضيها فى بيته أو فى درسه، وأرى أن الذى يذهب الى باريس ولا يراه شبيه بمن يزور مصر ولا يشاهد الأهرام . وحسب القارئ أن يعرف أن أخبار المسيو مرسيه تصل الىّ من أصدقاء أوصيهم أن يزوروه وأن يحضروا درسه، وربما سكبت الدمع على حرمانى من رؤية ذلك العالم الجليل . فياليت أيامه تعود !



وأما المسيو ماسينيون فيهتم بالفلسفة الاسلامية، وخاصة التصوّف، وله كتاب عن الحلاج هو خير ما كتب فى نوعه من الدراسات الشرقية . وهو فوق ذلك شديد الاهتمام بحاضر العالم الإسلامى، وله مجلة خاصة بالدراسات الإسلامية، وله مطبوعات دورية لنشر أخبار الشرق الإسلامى فيها فوائد مهمة عن الاحصاء الشامل للفرق الإسلامية ونزعاتها ولغاتها ومجلاتها وجرائدها، وهو (المرجع المطلع) الذى تفزع اليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس حياة المسلمين بالشرق .

والمسيو ماسينيون هو الذى ابتدأنى بالوداد . وكان ذلك بعد أن نشر الدكتور سنوك هوجرونيه (Senouck Hurgronje) رسالة باللغة الهولندية عن كتابى (الأخلاق عند الغزالى)، فأشار اليها بلطف ورفق فى مجلة (العالم الإسلامى) وذكرنى بما سمح به أدبه الجميل .

فلما ذهبت الى باريس اتصلت به، وواظبت على دروسه فى الكولليج دى فرانس، وكان عضوا بلجنة امتحان الدكتوراه فى السوربون فوجه الى رسالتى طائفة من الملاحظات القيمة فى أسلوب أحسده عليه؛ لأنه كان يهاجمنى هجوما شديدا على حين يحسب الحاضرون أنه يوجه إلىّ آيات الثناء !

والمسيو ماسينيون هو الذى أحيا رغبتى فى دراسة التصوّف . والدروس التى تلقيتها عنه ستظل منبعا أستق منه فى هـذه الدراسات الوجدانية ، ويوم يخرج كتابى عن (أثر التصوف فى الأدب والأخلاق) سأتلفت الى ذلك الرجل شاكرا هدايته إياى لذلك العلم النبيل .

والمسيو ماسينيون صديق حميم لكثير من علماء الشرق ، وأشهر أصدقائه فى مصر العالم المهذب جدّا الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية .

***

وفى معهد الأليانس فرانسيز عرفت المسيو بلانشو ، وهو أكرم صديق ظفرت بوداده فى باريس ، وتذكر ياصديق أننا قضينا معا سهرة جميلة ، وصلتك فيها بقلب ذلك الرجل الجليل ، ويسرنى أن أذكر لك أننا ما تلاقينا إلا سألنى عنك ، وما أحب أن أطيل عن المسيو بلانشو فقد أخبرتنى أنك تحدّثت عنه فى مكان آخر من كتابك .

وفى ذلك المعهد عرفت المسيو دوميك (Doumic) وهو عضو فى الأكاديمية الفرنسية ومن أشهر مؤرخى الأدب الفرنسى ، وقد ألقى دروس الصيف فى الأليانس فرانسيز خمسا وثلاثين سنة ، وكان لى شرف المواظبة على تلك الدروس أربع سنين .

والمسيو دوميك قوى الصوت واضح التعبير ، يتكلم فى حماسة وقوة ، ومن أهم ما عرفت عنه ميله إلى الكلاسيك ، ورجال ذلك العهد أفضل عنده من رجال الرومانتيك . وحجته أن كتاب الكلاسيك كانوا أصحاء (Portants) . ومن غريب ما لاحظته أن المسيو دوميك إذا عاد إلى موضوع بعينه ولو بعد أربع سنين تكلم عنه بنفس الألفاظ والتعابير والنبرات . وكان ذلك امتحانا لذاكرتى التى تخوننى فى الأرقام والأسماء ، ولا تخوننى أبدا فيما أودعها إياه من المحاضرات والمحاورات والمساجلات . فكان إذا ساقه الاستطراد إلى مسألة مضت فى دروسه منذ عام أو عامين تخيلت تعابيره الماضية ، ثم انتظرت ما سيقول فأراه عاد إلى ما كان ألقاه بالحرف الواحد : فلا تغيير ولا تبديل .

وقد عرضت هذه الملاحظة على أحد أساتذة السوربون فاتهم المسيو دوميك بالركود . أما أنا فأرى ذلك دليلا على وضوح الصور الأدبية فى ذهنه وضوحا قويا يعيدها بذواتها إلى خياله ولسانه حين يشاء .

والمسيو دوميك يرأس تحرير مجلة العالمين منذ سنين ، وله فى الدوائر الأدبية مكانة عظيمة ، وتلاميذه يعدّون بالألوف . وقد حدّثنى مرة عن شوقه إلى زيارة مصر . وحسد المسيو هانوتو على صلته بجلالة الملك فؤاد... وغنى عن البيان — كما كان الناس يعبرون — أن المسيو دوميك له فضل عظيم على الشبان المصريين فقد كان كتابه الموجز فى تاريخ الأدب الفرنسى مما انتفع به ألوف المتعلمين فى مصر ، وخاصة طلبة الحقوق الفرنسية بالقاهرة .

* * *

ومدير معهد الأليانس فرانسيز هو المسيو ديبويه (Dupouey) وهو أستاذ جليل واظبت على دروسه طويلا . ودروسه خاصة بالحياة الاجتماعية فى مدينة باريس من القرن الثامن عشر إلى العصر الحاضر . وقد اصطفانى لوداده طول إقامتى هناك ، وقضيت فى منزله سهرات ستظل ذكراها فى النفس ما حييت . وهو مثال مشرف للرجل المثقف . أقام فى أمريكا أربع سنين ، فخبر مناهج التعليم فى العالم القديم والعالم الجديد . ومركزه بالأليانس مكنه من التعمق فى فهم طباع الناس فهو حين يتحدّث عن الألمان والانجليز والأمريكان والطليان يعطى صفات معينة تدل على بصره بنقد الطباع . ومن أظرف ما حدّثنى به أن الشاب الانجليزى حين يدخل باريس يصرّ على التكلم بالفرنسية وان لم يعرف منها أكثر من عشر كلمات . وهو شديد الاعجاب بالألمان : وهم فى رأيه من أعظم الشعوب ... حدّثته مرة عن الصعوبات التى أقاسيها من عنف أساتذة السوربون فقال : ان جامعة باريس احتلتها العقلية الجرمانية منذ حرب السبعين ، وأصبح أساتذتنا موسوسين فى نقد المذاهب والنظريات منذ اصطدمنا بالجرمان .

والمسيو ديبويه نموذج جيد لرجل التربية ، وادارته لمعهد الأليانس تدل على

ابتكار وافتنان فى مناهج التعليم . وتوجيهه للحاضرين واختياره لموضوعات الدراسة الأدبية والعقلية والاجتماعية يشهد بأن هذا الرجل من أظهر القوى العاملة فى باريس .

ولا عيب فيه إلا أنه رجل متبرم بالحياة ينظر اليها بمنظار أسود، وهذا التبرم يحوّله الى أتون مستعر حين ينقد مذاهب الفرنسيين فى حياتهم العلمية والاجتماعية . وهو فى درسه قوّة هائلة ، فاذا خرج من الدرس صمت فلا يتكلم إلا بحساب ، ثم ينطلق من عقال التحفظ حين يجلس الى أصدقائه الخواص .

أكرمنى المسيو ديبويه إكراما لن أنساه ، وانتفعت بعلمه وأدبه وفضله . وما تذكرته إلا حزنت لمصير مثله فى بلد مثل باريس : فهو فى نفسه وأنفس من يعرفونه رجل مغبون، وشعوره بالغبن فى وطنه يسبغ على روحه ألوانا من الحزن العنيف ... أرانى الله وجهه فى خير وعافية .

* * *

وبعد، فقد كنت أحب أن أحدّث قراءك عن فريق من أساتذة السوربون : منهم شامار (Chamard) ، وميشو (Michaut) ، ومورنيه (Mornet) الذين انتفعت بعلمهم أجزل النفع . ولكن ضيق المجال حال دون ما أريد .

وما أحب أن تفوت هذه الفرصة بدون أن أشير الى رجل لم يعط لقب الأستاذية، ولم يتتلمذ له أحد فى معهد ولا كلية ، ولكنه نفعنى ونفعك بترغيبنا فى اقتناء نفائس المؤلفات . أتذكر من هو ؟ هو المسيو بيكار (Picart)[1] الذى كنا نلتقى فى مكتبته كل مساء، فى بولفار سان ميشل ...

وهناك ورّاق آخر فى شارع المدارس هو المسيو ڤيڤيان (Vivien) المختص بالكتب القديمة وأدب الطيران : فقد أغرانى بطائفة من نفائس الكتب هى خير ما اقتنيت . واتصلت به وبأهله صلة وداد . ولولا الرغبة فى الايجاز لأطلت عنه الحديث . وقلبى يخفق الآن لذكرى اللحظات التى قضيتها فى مكتبته ذات الأفانين .

زكى مبارك

---

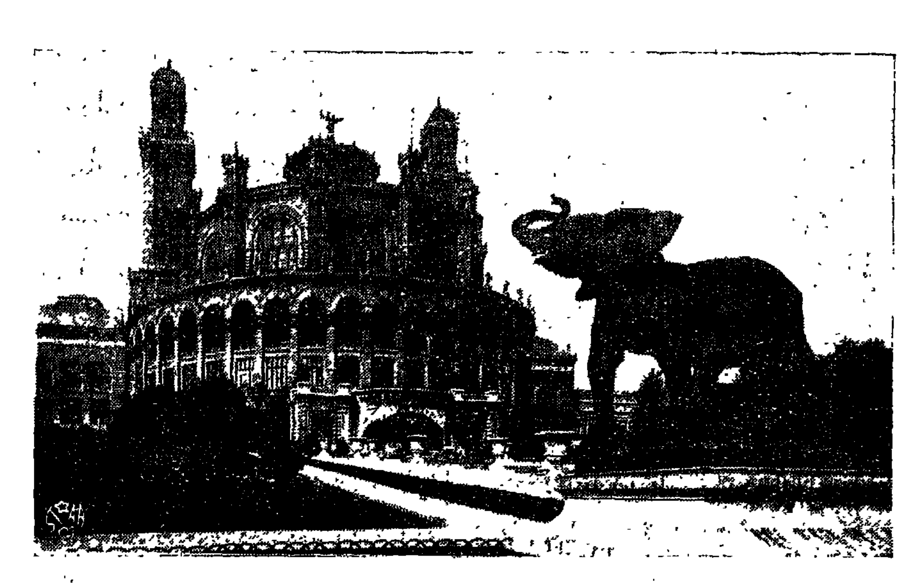
(١) عنوانه : (M. Picart, 59 Bd. St. Michel, Paris) وهو ما يزال عميل المؤلف ومن أبرع وأصدق باعة الكتب (ص) .

أصـــدقاء الحى

"م ..." صديق مصرى عرفته فى باريس كان يدرس العلوم . اذا قلت عنه انه مثال الطهر والعفاف فانى أجد هــذا القول قليــلا جدا . لان الرجل الذى يحتفظ بنفســه فى باريس العابثة مثل احتفاظه ذاك هو رجل بلا ريب ذو ارادة حديدية ومبادئ ساميــة . لسان حاله : "لمــاذا أخدع المرأة" حتى التى تجىء من نفسها وتتمنى صداقته يأبى عليهــا هذه الصداقة قائلا أن لا حق له فى ذلك . فلما تقول له انمــا تريد صــداقته بمحض ارادتها وهى حرة فى صداقتها ســيدة نفسها يقول : " انها الآن فى نشوة الغرض وبعد زمن تندم ... أو حتى اذا لم تندم هى أندم أنا ... فلماذا هذه الصداقة وليس من ورائها مثل أعلى يمكن تحقيقه أو نتيجة طيبة تطمئن اليها النفس ويرتاح الضمير"؟ حارت فيه بنــات حواء وأطلقت عليــه كل واحدة ممن عرفنه وصفا : "الرجل الخارق للعادة" . "الطاهر". "الجبار" . "الكافر بالحب " . وهو لا يتصــنع ذلك الترفع أو التحرز وإنمــا يجرى على فطرته كأنمــا قاس اللذة والألم وعرف مقــدار الحلاوة والمرارة ســلفا ، وأبى الحلاوة وتجنب المرارة على السواء وخرج لا له ولا عليه . أهو ســعيد هكذا ! ؟ أسعد الناس عند نفســه . ومع ذلك فهــو ليس بالرجعى الاجتماعى أو النفور أو المستوحش وانمــا هو أنيس المعشر يتذوق صحبة الاخوان ، ويماشى فتيات السوربون ولكن بمــا لم يخرجه قط لحظة واحدة عن زهده . هو الآن فى الخامســة والثلاثين ولم يتزوج . ويعتقد أنه لن يتزوج . لأن الفرص لن تتيح له المرأة التى تفهمه وتحبــه . فهو مؤمن بالحب أيضا ولكن من جانب آخر ! ... وأعتقد أنا كذلك انه قــد فات الأوان أو كاد ، فالرجل منا عنــد ما يدانى حدّ الأربعين يتعوّد العزوبة ويشغف بها الى حد يصعب عليه معه تطليقها وقلب نظام حياته دفعة واحدة فى سبيل ورقة اليانصيب ! ... وقد رأيت مرة جارة صديق الاسكندينافية الرائعة النبيلة وزميلته فى كلية العلوم لا تتمنى على دهرها إلا أن يحبها وهو يســير، ولا يكاد يلتفت اليها وأنا أكاد أموت خجلا ... هذا ضرب من السعادة لا يعرفه كثير من الناس . وهو ضرب أيضــا له قداسته وكرامته . فقــد انتصرت فى رجل قوة الحــلال على قوة الحرام، وهذه هى الفضيلة .

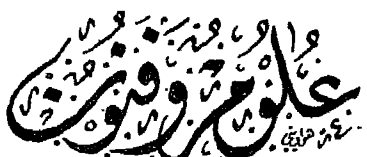


سلم الأوبرا



متحف التروكاديرو




علوم وفنون



منذ مائة عام

من محمد على باشا الكبير
الى طلبـــة البعثـــة المصرية الأولى ببـاريس



جرت عادته من مدة خروجنا من مصر بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرمانا كل عدة أشهر يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع . فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب مثل الفرمان الآتى . ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصـله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا أو غير ذلك كفرمان آخر وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة . ولنذكر لك هنا فرمانا من النوع الأوّل الذى هو إحياء القلوب وان كان فيه أيضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان حفظه الله يحثنا على التعليم وهذه صورة ترجمته :

"قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العـلوم والفنون زيد قدرهم .

ينهى اليكم أنه قـد وصلنا أخبـاركم الشهرية والجـداول المكتوب فيها مدّة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدّة وما فهمنا منها شيئا وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون، فقياسا على قلة شغلكم فى هـذه المدّة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم وهذا الأمر غمنا غما كثيرا فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من أثمار شـغله وآثار مهارته فاذا لم تغيروا

هـذه البطالة بشدّة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة وتركتم أنفسكم للسفاهة ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين أمثالكم فان أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ويبين زيادة على ذلك دراسته فى الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر ما تعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق وان قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم وهذا مطلوبنا منكم فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الارادة. قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الاسكندرية بمنه تعالى فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه. (خمسة فى ربيع الأول سنة ١٢٤٥) خمسة وأربعين بعد الألف والمائتين من الهجرة . ”

إنتهت صورة الكتاب .

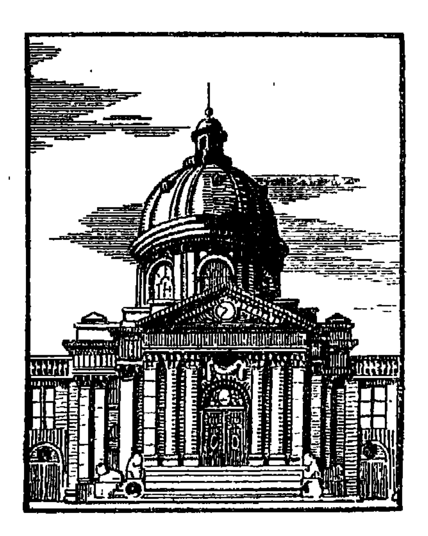
ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه فى ذلك الشهر وتكتب المعلمون أسماءهم وتبعثه الى ولى النعم فلما تساهل بعض منا فى ذلك كتب مسيو جومار الينا جميعا مكاتيب ليأمر من كان مواظبا على كتابة هذه الأوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته ويوبخ من تساهل وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أتى فى هذا المعنى ولنذكره كما هو :

باريس فى ١٥ شهر يونيه (٢٥ فى شهر محرّم سنة ١٢٤٦)

الى محبنا العزيز الشيخ رفاعة :

” لا يخفى عليكم الأمر الوارد من ولى النعم المتعلق بالأوراق الشهرية المشتملة على الدروس التى قرأتموها فدم على ما أنت عليه من المواظبة وابعث هذه الأوراق فى اليوم الثلاثين من كل شهر لمسيو المهردار افندى واطلب منه أوراقا غير مكتوبة لتكتبها بعد ذلك ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى كتابتها إلا نصف ساعة لأن الغرض منها مجرّد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ومعرفة نوعها ، وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك ولا يخفى علىّ اجتهادك ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها واعلم وتيقن بمحبتى لك“ جومار — أحد أرباب ديوان الانسطيطوت .

رفاعة رافع الطهطاوى



” الانسطيطو “ المجمع العلمى الفرنسى

باريس مركز الدراسات الاسلامية واللغة العربية

بقلم سيادة الحاخام الأكبر لطائفة الاسرائيليين



لاشك فى أن أجمل مظهر للتفكير الانسانى وأسطع مرآة ينبعث منها نوره وأصدق معبر عن مكنونه لهى الدراسة العلمية لفقه اللغات المقترنة بتاريخ الأديان . لم يلق هذان العلمان فى بادئ الأمر ما يستحقانه من الحظوة والتقدير رغم أنهما مفتاح المدنيات القديمة ومرجع تاريخ التفكير الانسانى ومصدر توسعه وتطوره إذ أنهما يحيطان بالماضى من جميع وجوهه ويرفعان القناع الكثيف الذى يخفى مكنونه ويرشدان خطانا فى سبيل الوصول الى سر القوانين التى أدّت الى تقدّم الشعوب .

كان للعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وما يماثلها من الفنون الخاصة بدراسة الكون مركز ممتاز فى العصور الحالية حيث أخذ العلماء يقتلونها بحثا ويرفعون قدرها الى أعلى شأو . بخلاف العلوم المتعلقة بنشأة النوع الانسانى وعقليته وفلسفته — ومنها فقه اللغات ومقارنتها — فقد ظلت مهملة مدّة طويلة . فاللاتين واليونان الذين اشتهروا برقيهم ومدنيتهم وتقدّمهم فى العلوم الفلسفية وما وراء الطبيعة كانوا يضعون اللغتين الفينيقية والفارسية فى مصاف اللغات الهمجية .

لكن هذا النقص قد سدّ فى القرون الوسطى بفضل فتح الأندلس حيث مهد العرب عصرا زاهرا فى أوربا فأخذ علماؤها يهتمون اهتماما كبيرا بالبحوث اللغوية والتاريخية والفلسفية العربية . استمرت تلك الحركة فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، لكنها لم تنظم تنظيما علميا ، إذ ظلت الوحدة العلمية

للقواعد النحوية واللغوية وللتاريخ والآثار غير مفهومة . ويرجع الفضل فى كشفها الى القرن التاسع عشر حيث حذت فرنسا حذو ألمانيا فأصبحت باريس مركز دائرة تلتقى فيه العلوم المختلفة فتنسق وتنتظم كأن هناك خطة دقيقة مرسومة .

ومنذ القرن الثالث عشر شرع فى تدريس اللغة العربية بمدينة باريس تدريسا خاصا غير واف بالغرض . وفى سنة ١٥٣٠ أسس الملك فرنسوا الأول كلية فرنسا (Collège de France) حيث افتتح فى عهد الملك هنرى الثالث أول قسم لتدريس اللغة العربية تدريسا علميا منظما . وقد حذت مدرسة اللغات الشرقية (Ecole Spéciale des Langues Orientales) المؤسسة فى سنة ١٧٩٥ حذو كلية فرنسا فأنشأت بدورها فرعا للغة العربية، وأخيرا ضمت حلقة ثالثة الى تلك السلسلة العلمية عند ما أسس دروى (Duruy) فى سنة ١٨٦٢ كلية الدراسات العليا (Ecole des Hautes Etudes) ونظمت أقسامها فى سنة ١٨٨٥ فخصص أحدها للدراسات التاريخية والفقهية اللغوية وآخر للعلوم الدينية . نعم إن المعاهد الثلاثة مستقلة بعضها عن بعض وان كلا منها يرمى الى غرض خاص ومع ذلك فانها تؤلف وحدة ذات أجزاء يتم كل منها الآخر تدريجا .

يبدأ الطالب دراسة اللغة العربية الراقية والعامية بجميع لهجاتها وأساليبها فى مدرسة اللغات الشرقية . والغرض الأساسى من إنشاء هذه المدرسة هو تكوين فئة من الشبان يستطيعون العمل فى المستعمرات الفرنسية المتكلمة باللغة العربية والتفاهم مع سكانها ودرس شؤونهم وأحوالهم عن كثب . لكنها بجانب ذلك تعتبر المعهد التحضيرى الذى يؤمه العلماء الشبان بقصد تفهم أسرار اللغات الشرقية توطئة لاتمام دراستهم فى معاهد أرقى .

ثم يتبحر الطالب فى آداب اللغة العربية وتفسير النصوص ونقدها وتحليلها فى كلية الدراسات العليا ويتمها فى كلية فرنسا حيث يقوم بأبحاث مقارنة فى فقه اللغات وتاريخ الأديان .

لا يكتفى الطالب بمـا يرتشفه فى تلك المعاهـد من مناهل العلم بل يعمد الى توسيع مداركه وثقافته وتغذية عقله بذلك الغذاء الروحى الذى يجده فى دور الكتب وبديهى أن دور الكتب بباريس كنوز لا تفنى وبحر لا يجف فالمكتبة الأهلية ، ومكتبة مدرسة اللغات الشرقية ،ومكتبة سانت جنفييف (Sainte Geneviève) ومكتبة مازارين (Mazarine) تحوى كتبا فريدة فى بابها ، ومخطوطات نادرة المثال .



تمثال مازارين

فبفضل هـذا الاستعداد الذى لا يجده المرء إلا فى باريس استطاعت فرنسا أن تؤلف مجموعة من العلماء الأعلام والباحثين المجتهدين فأسسوا الجمعية الأسيوية (Société Asiatique) فى سنة ١٨٢٢ وأصدروا مجلة (Journal Asiatique) لنشر أبحاثها ورسائل أعضائها . وتعـدّ مجموعة هذه المجلة العلميـة أنفس مرجع لدراسة لغة العرب وتاريخهم . إذ أنها أحاطت بكل الموضوعات من أدب وتاريخ ودين ولم تهمل حتى القصص والحكايات المسلية والأساطير .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه الجمعية هى نواة مجمع النقوش والآداب الجميلة (Académie des Inscriptions et Belles Lettres)

علماء المستعربين ومؤلفاتهم

بديهى أن التنظيم العلمى والمنهجى لتلك المعاهد — معاهد الثقافة اللغوية العليا — يؤدّى حتما الى ظهور جماعة من المستشرقين النوابغ يرفعون شأو الدراسات الاسلامية والأبحاث اللغوية والأدبية المتعلقة بلغة العرب وتاريخهم وأثرهم الخالد فى المدنية . لقد بزغ فجر هذه النهضة بباريس عند شروق شمس القرن التاسع عشر فتلألأت أحجارها الثمينة وازدان بها صرح المدنية الشامخ . فلنذكر على سبيل المثال مؤلفات كوسين دى برسفال (Caussin de Perceval) عن مقامات الحريرى والمعلقات السبع . وأبحاث ابنه عن قواعد اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الاسلام . ومؤلفات سلفستر دى ساس (Sylvestre de Sacy) وجوزيف دارنبرج (Joseph Darenbourg) وابنه هارتويج (Hartwig) عن فقه اللغة وآدابها وعلم التفسير ولنضم إليها أبحاث مونك (Munk) عن تاريخ الفلسفة الاسلامية ومذاهب الفلاسفة المسلمين أمثال الكندى ، والفرابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن البديع ، وابن رشد . وما كتبه المؤلف الكبير رينان (Ernest Renan) عن فقه اللغات المقارن — كان من جراء ظهور هذه الكتب القيمة فى عالم التأليف العلمى أن عمد تلاميذ المعاهد السالف ذكرها الى البحث والتنقيب مقتدين بسيرة أسلافهم فنشروا عدّة مخطوطات عربية نادرة ووضعوا أبحاثا عن القرآن الكريم والحديث الشريف ، والاجتهاد وعلم الكلام منذ نشأته وتاريخ الخلفاء والمذاهب الاسلامية . لم تقف النهضة عند هذا الحدّ بل خطت خطوات واسعة سريعة فوثبت الى أبعد مدى إذ شملت جميع مظاهر الحركة الفكرية فعمد رجال القانون وعلماء الطبيعة والأطباء والمهندسون والرياضيون بل والموسيقيون الى درس اللغة العربية ليكتشف كل منهم أسرار علمه وفنه فى مؤلفات العرب كشف هوداس (Houdas) مكنونات التشريع الاسلامى ، ونشر سيديليو (Sédillot) أبحاثا عن الرياضيات فى عهد العرب ، وكتب موليه (Mullet) عن العلوم الطبيعية ، ولكلير

(Leclerc) عن الطب ، وبورجوا (Bourgeois) عن فنّ العمارة ، وسلفاتور دونيل (Salvator Davnil) عن الموسيقى فى عهد العرب .

قد يطول بى المقام اذا حاولت التوسع فى هذا الموضوع المثير لاهتمامنا . لذا اكتفيت بنبذة قصيرة شاملة عن النهضة العلمية العظيمة التى ظهرت فى باريس مدينة النور . وقد كللت تلك النهضة بتأسيس الجامع الكبير على الطراز المغربى وضمت اليه مدرسة يتلقى فيها الطلبة العلوم الاسلامية ومكتبة هى مجتمع الأبحاث والتقاليد الاسلامية القديمة ، ولم أتوه بكلمة واحدة عن المستشرقين الذين نبغوا فى القرن العشرين . أما الغرض الأساسى الذى حدا بى الى الاشادة بذكر علماء القرن التاسع عشر فهو شعورى بواجب الاجلال والاعتراف بالجميل نحو هؤلاء الذين كانوا أساتذتى فبذلت وسعى فى سبيل الاستفادة من دروسهم . أمثال كليمان هوار (Clément Huart) ، وماسينيون (Massignon) ، وليفى بروفنسال (Lévy Provençal)

سنحت لفرنسا فرصة قيمة لخدمة الدراسات الاسلامية والأبحاث العربية على أثر فتح الجزائر ووضع المغرب الأقصى وتونس تحت حمايتها . وكان من نتائج توسعها فى هذا المضمار أن ساد حسن التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعوب التى اشتركت فى تشييد صرح المدنية والرقى .

حايم نحوم



جران باليه

بلاغة الآثار فى باريس

للأستاذ النائب المحترم محمد حافظ رمضان بك المحامى



دع باريس الساهية اللاهية، واهجر مسارحها اللاعبة، وتعال عن مواقف الأصحاب والأحباب، ودع ثقافتها ولباقتها، وتناس برهة معاهدها المعلمة، واترك لحظة منابرها المهذبة، وانظر إلى باريس الصاخبة المائجة معلمة الشعوب الحديثة.

كل هذه السوانح هاجت خاطرى إذ كنت بباريس من عهد غير بعيد، فقادتنى قدماى إلى ساحة الكونكورد وما كدت أركب أجنحة الفكر حتى خلت قوس النصر أمامى يكلمنى، وقصر البوربون على يسارى يحدثنى، وكنيسة المادلين عن يمينى تناجينى، والمسلة المصرية بجانبى تتلو علىّ وصية الدهر من كتاب الخلود. فأدركت لغة الأحجار وبلاغة الآثار، وعلمت أن الناس فلاسفة بوجدانهم وإحساسهم قبل أن يكونوا فلاسفة بمداركهم وعقولهم.

ففى ساحة الكونكورد حيث نسمع خرير المياه المتدفقة فى جنباتها، وأزيز السيارات الجارية فى فنائها، هبت رياح الثورة الفرنسية، ودوت أناشيد الحرية.

ولم تعرف ساحة الكونكورد للآن، تجاعيد الوجوه ولا وخط المشيب فهى تحدّث فى هدوء وصمت عن مصرع الملكية، والدماء تقطر، والأرواح تخطف، كما تحدّث عن تأنق المدنية على مرأى من البحيرة التى تنعكس فيها السهام النارية يوم ١٤ يوليه.

وقوس النصر يقرئنا أنباء العبقرية العسكرية، ويكشف لنا عن تطوّر الفكر وتحوّل الشعب الهائج لسيادته قربانا يضحى فى ساحة الوغى. وهو يصفق لنشوة النصر طربا ويزدهى لآية الفتح عجبا.

وكنيسة المادلين، وقد تعالى بناؤها، وتمتعت بروح الإغريق، واتسعت بنسبة المسيحية، تنطق بقوّة العقائد وامداداتها التى تنساب على مجرى العصور، وروعة فضائلها التى يخرّ لها الناس خشعا سجدا وبكيا .

والمسلة العتيدة فى صنعها ، الحديثة فى مقامها، تتكلم عن مجد باريها، وتحدّث عن شأو مهديها . وقصر البوربون يردّد رجع الصوت من خطباء ورثوا الفصاحة عن أبطال الثورة يستبدلون النظم بالنظم، وهو فى روعة بنائه وجلال منظره يكاد يسخر من جهود الانسان لسعادة الانسان .

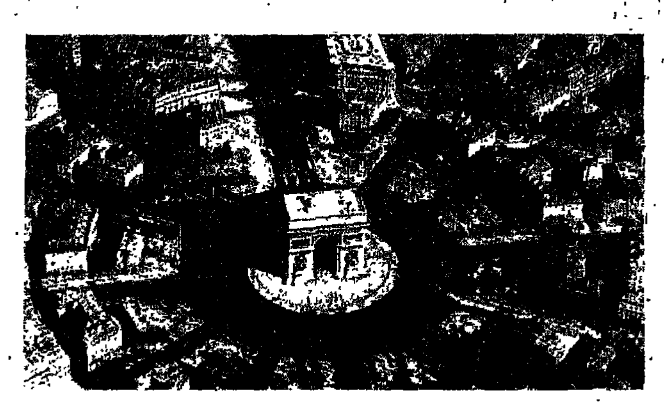
ولا ندرى هل تفشل الديموقراطية كما فشلت الملكية المستبدة من قبل ، وكما فشل نظام الاقطاعات من قديم، وهل كان مثل النظم غير مثل سائر الكائنات تدركها الشيخوخة فتعجز، ويدركها الموت فتفنى ؟ وأى نظام ياترى يأتى بعد الآن ؟ !

إن عظام الجندى المجهول تحت قوس النصر لم تستطع أن تحل لنا هذا اللغز ، والعالم الآن أشدّ امتعاضا منه قبل الحرب .

تلك هى أحاديث الآثار، منطقها عذب ، وبلاغتها مستساغة، نسمع منها قصص العصور والدهور منزهة عن الغاية، لا تغريها شهوة، ولا يستثيرها نفع ، ولا يهتاجها حقد أو ضغينة، ولا يستغويها خل ولا خليلة .

وإذا كانت خطوات معدودات تكشف لنا عن هذه الآثار، وتثير كل هذه الذكريات فكم فى باريس من مراحل طويلة، وكم فيها من آثار عديدة ، وكم فيها من عبر وعظات !

محمد حافظ رمضان



ساحة الأيتوال التى تخلب الألباب

على قبر نابليون



قِفْ على كَنْزٍ بباريسَ دفينْ ... من فريدٍ فى المعانى وثمين
وافتقِدْ جوهرةً من شرفٍ ... صَدَفُ الدهرِ بتربِها ضنين
قد توارتْ فى الثرى حتى اذا ... قدُمَ العهدُ توارت فى السنين
غُرِّبَتْ حتى اذا ما استيأست ... دنتِ الدارُ ولكن لاتَ حين
لم تُذِبْ نارُ الوغى ياقوتَها ... واذابتْه تباريحُ الحنين
لا تلوموها ؟ أليستْ حرةً ... وهوَى الاوطانِ للأحرار دين ؟

* * *

غيّبتْ باريسُ ذُخراً ومضى ... تُربُها القيِّمُ بالحرْزِ الحصين
نَزَلَ الأَرضَ ولكن بعد ما ... نزلَ التاريخَ قبرَ النابغين
أعظُمُ الليثِ تلقّاها الثّرى ... ورُفاتُ النّسرِ حازَتْه الوكون
وحوَى الغمدُ بقايا صارِمٍ ... لم تُقلِّبْ مثلَه أيدى القُيون
شيّد الناسُ عليه وبنَوا ... حائطَ الشكِّ على أُسِّ اليقين
لستَ تُحصِى حوله ألويةً ... أُسرتْ أمسِ وراياتٍ سُبِين
نامَ عنها وهى فى سُدَّتِه ... دَيْدُبانٌ ساهرُ الجفنِ أمين

وكأيٍّ من عــدوٍّ كاشحٍ ... لك بالأمس هو اليوم خدين
وولِيّ كان يسقيك الهوى ... عسلاً قد بات يسقيك الوزين
فاذا استكرمْتَ وُدًّا فاتَّهِمْ ... جوهرَ الوُدِّ وإن صحَّ ظنين

* * *

مَرْمَرٌ أُضجِعَ فى مَسْنونهِ ... حَجَرُ الأَرضِ وضرغامُ العرين
جلّلَتْه هيبةُ الشاوى به ... رَوْعَة الحكمةِ فى الشِّعر الرصين
هل درى المرمرُ ماذا تحته ... من قُوَى نفسٍ ومن خُلْقٍ متين
أيُّها الغالون فى أجْداثهم ... إبحثوا فى الأرض: هل عيسى دفين؟
يَحْىَ الميّتُ ويبلَى رمسُه ... ويَفُولُ الرَّبْعَ ما غالَ القطين
حصّنوا ما شئتمو مَوْتاكمو! ... هل وراءَ الموتِ من حصنٍ حصين؟
ليس فى قبرٍ وإن نال السُّها ... ما يزيدُ الميْتَ وزنًا ويزين
فانزِل التاريخَ قبراً أو فنَمْ ... فى الثَّرى غُفْلاً كبعضِ الهامدين
وٱخدَعِ الأحْياءَ ما شئْت فلن ... تجِدَ التاريخَ فى المنخدعين

* * *

يا عِصاميًّا حوَى المجدَ سوَى ... فَضْلةٍ قد قُسِّمت فى المُعرقينْ
أمّك النفسُ قديمًا أكرَمت ... وأبوكَ الفضلُ خيرُ المُنجبين
نَسَبُ البدرِ أو الشمسِ — إذا ... جىء بالآباءِ — مغمورٌ رهين
وأصول الخمرِ ما أزكى على ... خُبْثِ ما قدْ فعلتْ بالشار بين
لا يَقُولَنَّ آمرؤٌ أصلى ، فما ... أصلُه مِسْكٌ وأصلُ الناس طين!
قد تتوَّجْتَ فقالتْ أمَمٌ ... ولَدَ الثورةِ عقَّ الثائرين
وتزوَّجتَ فقالوا : ما لَه ... ولِحُورٍ من بنات الملْك عين؟
قسَمًا لو قدروا ما احتشموا ... لا يَعفُّ الناسُ إلا عاجزين

* * *

أرأيتَ الخيرَ وافى أُمَّةً | لم ينالوا حظَّهمْ فى النابغين
يصلُح المُلْكُ على طائفةٍ | هم جمالُ الأرض حينًا بعد حين
ملأوا الدنيا ، على قِلّتهم | وقديمًا مُلئتْ بالمرسَلين
يحسُنُ الدهرُ بهم ما طلعوا | وبهم يزدادُ حسنًا آفلين
قد أقاموا قُدوةً صالحةً | ومضوْا أمثلةً للحتَذين
إنما الأسوةُ — والدنيا أُسًى — | سببُ العُمرانِ نظمُ العالمين
يا صريعَ الموتِ نَدمانَ البِلَى | كلُّ حىّ بالذى ذُقتَ رهين
كدتَ من قتلِ المنايا خبرةً | تَعْلَمُ الآجالَ إيانَ تحين
يا مُبيدَ الأسدِ فى آجامها | هل أبادتْ خيلُكَ الدودَ المهين!
يا عزيزَ السجنِ بالبابا الى | كم تردّى فى الثرى ذُلَّ السجين ؟
ربَّ يومٍ لكَ جَلّى وانثنى | سائلَ الغُرةِ ممسوحَ الجبين
أحرزَ الغايةَ نصرًا غاليًا | لفرنسا وحوىَ الفتحَ الثمين
قيْصرًا الأنسابِ فيه نازلًا | قيْصرَ النفسِ عصامَ المالكين
مُجلسَ التاجِ على مَفرِقهِ | بيديه لا بأيدى المُجلسين
حولَ (أسترْليزَ) كانَ الملتقَى | واصطدام النَّسرِ المستنسرين
وُضِعَ الشِّطرنْجُ فاستقبلتَهُ | ببنانٍ عابثٍ باللاعبين
فإذا المَلْكانِ هذا خاضِعٌ | لك فى الجمعِ وهذا مُستكين
صِدْتَ شاهَ الروسِ والنمسا معًا | من رأى شاهيْنِ صِيدا فى كمين

* * *

يا مُلَقّى النصرِ فى أحلامهِ | أين من وادى الكرى (سنتِ هيلين)؟
يا منيلَ التاجِ فى المهدِ ابنَه | ما الذى غرَّكَ بالغيبِ الجنين ؟

اتَّئِـدْ فِى أمـةٍ أرْهَقْتَهـا إنهـا كالناسِ من ماء وطين
أتعبَ الريحَ مَـدَى ما سَلكتْ من سُهولٍ وأجازتْ من حزون
من أديم يهـرأ الدبَّ إلى فلواتٍ تُنضِجَ الضب الكنين
لك فِى كُلِّ مُغارٍ غارَه وعليهـا الدمـعُ فيـه والأنين
ومن المكرِ تفنّيكَ بها هـل يزكّى الذّبحَ غيرُ الذابحين؟
سُخِّرَ الناسُ وإن لم يشعروا لقـوىٍّ أو غـنىٍّ أو مبين
والجماعاتُ ثنايا المرتَقى فى المعالِى وجُسورُ العابرين

* * *

يا خطيبَ الدهرِ هل مال البِلَى بلسانٍ كان ميزان الشُّئون
تُرْجَحُ السِلْمُ إذا حرّكته كِفَّةً أو تُرجَحُ الحرب الزبون
خُطَبٌ لا صوتَ إلا دونهَا فِى صداها الجيلُ تجرى والسنين
من قصيرِ اللفظِ فِى مكرِ النهى وطـويلِ الرُّمحِ فِى كيدِ الوتين
غيرَ وضّاعٍ ولا واشٍ ولا مُنكَرِ القـولِ ولا لَغـو اليمين
سِرْنَ أمثالاً فلو لم يُحيِـهِ سيفُهُ أحيَيْنَه فِى الغابرين

* * *

قمْ الى الاهرام واخشعْ واطّرِحْ خيْلةَ الصِّيد وزهوَ الفاتحين
وتمهَّـلْ إنمـا تمشى الى حَرَمِ الدهرِ ومحـرابِ القرون
هو كالصخرة عنـد القبط أو كالحطيم الطُّهر عند المسلمين
وتسنَّمْ مِنبرًا من حَجَرٍ لم يكنْ قبلَكَ حظَّ الخاطبين
وادْعُ أجيالًا تولّتْ يسمعوا لك وابعثْ فى الأوالى حاشرين
وأعِـدْها كلماتٍ أربعًا قـد أحاطتْ بالقرون الأربعين

ألهبتْ خيْـلًا وحضَّت فيلقًـا ... وأحالتْ عسـلًا صابَ المَنـون
قد عَرضتَ الدهرَ والجيشَ معًا ... غاية قصَّر عنهـا الفاتحون
ما علمنـا قائـدًا فى موْطِنٍ ... صـفَحَ الدهرَ وصفَّ الدارعين
فترى الأحيـاءَ فى مُعـترَكٍ ... وترى الموْتى عليهـم مُشرِفين
عظـةٌ قَومى بهـا أوْلى وإن ... بَعُـدَ العهدُ، فهـل يعتبرون؟
هـذه الأهـرامُ تاريخهمو ... كيف من تاريخهم لا يستحون

* * *

يا كثيرَ الصـيْدِ للصَّـيد العُلا ... قم تأمَّل كيف صادتْكَ المنون
قـم ترَ الدنيـا كما غادرْتهـا ... منزِلَ الغـدرِ وماءَ الخادعين
وترَ الحـقَّ عزيزًا فى القنـا ... هيِّنـا فى العُـزَّل المستضعَفين
وترَ الأمرَ يـدًا فـوق يـدٍ ... وترَ النـاسَ ذئابًا وضئين
وترَ العـزَّ لسـيفٍ ترِقٍ ... فى بنـاءِ الملْكِ أو رأيٍ رزين
سنَنٌ كانت، ونَظْـمٌ لم يزلْ ... وفسادٌ فـوق باعِ المصلحين

شـوقى



الأنفاليد مثوى رفات نابليون

من الذكريات

باريس القديمة

من الحق على الناظر الى باريس اليوم أن يكر بخياله سنين وسنين الى الوراء ليرى فى مخيلته العاصمة الفرنسية كما كانت تبدو فى القرن الخامس عشر ليتصوّر من ينظر الى المدينة الحالية السماء التى كانت تظل البلدة القديمة ليتصوّرها وقد اكتنفتها الغابات والأحراش الكثيفة المتداخلة ، ليتصوّر أبراجها وأعمدتها تبزغ وسط فضاء الأحياء المترامية وليمرّ بعد ذلك فى خياله على الجزر المستكينة السادرة فى جوف النهر العظيم الذى يشق المدينة فى هدأة خرساء وليعد مرة أخرى بخياله الى السين الى جوانب السين . وقد زركشتها الزروع فبدت الى جلد الرقطاء أقرب فليحى فى خياله منظر السماء العريضة الزرقاء التى كانت تلف مدينة القدم ثم ليلبد هذه السماء بغيوم دكناء وليغرقها فى ليل حالك فاحم ولينظر بعد ذلك الى مداخنها الهزيلة الناحلة وقد أخذت تنفث فى ذا الجوز فراتها المقرورة التعسة وليخترق ببصره قليلا جدران المنازل ليرى خلفها مآسى الليل ومراجعه تعتصر الدموع فى ناحية، وليرى فى الناحية مباهج الحياة وبهرها يسكبان على الوجود مسحة من متعة وروعة . وليدع بعد ذلك كل هذا ويتجوّل فى طرقات باريس القديمة ، فى حاراتها وأزقتها وميادينها وليهيئ لها من خياله أشعة بيضاء حالمة تلمس أرضها فى ترفق ومرحمة وليبدّدها بعد ذلك فى غسق باهت ميت وليشهد أعينها الكليلة وهى ترمقه فى طيبة القرويات الفرنسيات ليشهد أبراجها وقد نهضت فى هذه الغشاوة الصامتة تملى على الانسان وجدانا يتعسر عليه إدراك كنهه على التحقيق وجدانا من الرهبة والحنان يحير المرء فيما بينهما .

أو لينتزع هذه الصورة بأكملها من نفسه وليعد الآن الى تصوّرها وقد خضبتها شمس المغيب بدمائها فى يوم رائق من الصيف ، وقد عكست صورها السماء الزرقاء

ينفذ البصر فيها ما أن يعوقه عائق ، وليوازن الانسان إذن بين الصورتين وليختر منهما ما يتوافق ومزاجه .

فان أخفقت باريس الحاضرة أن تلهمك وجدانا يضارع ذلك الذى تزجيك إياه باريس الغابرة فعليك أن تحين الفرصة الناهزة لتصعد فوق تل عال الى جانب المدينة تطل منه عليها ، ثم لترقب بعد ذلك صحو البلدة التى تستحم فى ضوء الشمس الحبيب من وراء الأجيال... ثم لتستمع الى تلك الموسيقى الحالمة الناعسة الثائرة الغاضبة المتنبهة لصحو الوجود تناديك وتستلهمك ، موسيقى النواقيس المختلفة تتآلف مرة وتتنافر مرات لكن هذا البحر من الموسيقى الذى يهيج فى أوقات كأنه زوبعة طاغية ليس يخلو من الشفوفة والرقة . فأنت بينما تلمح تنافر بعض الأنغام عن غيرها تدرك فى الوقت نفسه مقدار ما بينها من توافق ، مقدار ما بينها و بين الوجود ذاته من اتفاق غريب كله موسيقى وكله شعر .

تستطيع فى غير كبير عناء أن تغوص فى هذا البحر من النغم وراء أجراس كنيسة سنت ايستاش فتميزها بدقاتها السريعة الرقيقة كأنها صوت طفل صغير برىء لا يفهم من متاعب الحياة شيئا فلم يتلوث صدره بأدرانها . وعلى الشاطئ الآخر من ذلك البحر الموسيقى تجد دقات أجراس كنيسة سان مارتان دقات حادّة لكنها ناعمة متزنة و بين هذا يمكن المرء أن يدرك جرس نواقيس الباستيل الضخمة الثقيلة . وفى النهاية الأخرى تستطيع أن تسمع أجراس برج اللوفر بأصواتها المرنة الأخاذة . ولعلك تدهش عند سماع الطرقات السريعة التى تحدثها أجراس " القصر " بينما يقاطعها بين كل لحظة وأخرى طرقات نواقيس كنيسة نوتردام فى أحايين متباعدة كأنها تنظم لها دقاتها . و بين كل هذه الضجة الصاخبة تسمع دقات أجراس سان جرمان . و بغتة تصمت هذه التخاليط من الدقات لكى تفسح المجال لدقات كنيسة ماريا وهى أصوات لماعة بين غيرها متبهرجة فى غير تحرز — إن جاز هذا التعبير .

فكأنك فى الحقيقة تسمع دقات على مسرح تنظمها أجراس ثقيلة طنانة كأنها دقات الطبول الصماء . ان الانسان فى طاقته أن يقول أن باريس فى أثناء النهار لا تعمل شيئا إلا أنها تتكلم وهى خلال الليل تتنفس وتلهو وفى الصباح — فى أشعة الشمس — ترقص وتغنى .

ليرقب الناظر الى باريس تشرق عليها الشمس هذه المباهج ثم ليقارنها إن استطاع اذن بشىء يدانيها بهجة وفتنة ، ليقارنها بسعادة الملائكة وثمل المخمورين ، ليقارنها بكل شىء فان شيئا لن يعدلها . أى شىء يمكن أن يساوى هذه الموسيقى المتآلفة المتنافرة، المتجانسة المتباعدة، هذه الموسيقى التى تسكب على الوجود بهجة الحياة ؟

فيكتور هوجو



فى ذمة التاريخ

التويلرى سنة ١٧٨٩

وأعيد طلاء قصر التويلرى وإصلاحه، أعيد تنظيمه ليكون حقيقا بسا كن الملوك وقد وقف لافاييت وحرسه الأزرق يحرسونه كما تحرس النجوم الزهراء .

وسنة الوجود تقارب الطرفين المتضاربين فى الوقوع فقد يكون الانسان مترفعا شامخا فاذا هو فى لحظات وقد هدرت كبرياؤه واستبيحت كرامته فلم يعد فى شىء منهما فكنت ترى ملك فرنسا ، ملك فرنسا بعينه، بعظمته وجبروته، وهو يسير منفردا فى حدائق التويلرى ما أن يحف به الحرس وما أن يتسابق اليه الخدم صامتا ملولا ينأى عمن يريدون أن يذهبوا وحشته . وكنت ترى الملكة المتكبرة بالذات التى كانت تأمر أكبر الرؤوس لا تستطيع إذ ذاك أن تأمر إلا نفسها فهى سا كنة حزينة تكتنفها مسحة من الكآبة والألم . وكانت حدائق قصر التويلرى ما تزال تحتفظ فى مياهها بقليل من البط الذى يتسابق الى الحصول على الفتات الصغير الذى ترميه له الأصابع الملكية النحيفة، أصابع ولى العهد . كان "الدوفين" الصغير يلعب فى حديقته الخاصة ولما يزل يتقيد بملكية تلك الحديقة، كان يعبث فيها وقد تورّد خدّاه وتعانق شعره الأصفر الذى يعبث به الهواء وقد أمسك فى يده بعوده وأزهاره وهو مرح طروب . وياله من منظر برىء حقا . وكان "لافاييت" وأنصاره مؤيدين ببعض الأحزاب السياسية يريدون أن يستميلوا عطف الشعب إلى جانب الملك فرأوا أن تفتح مخازن القصر وأن توزع الأطعمة على الناس فلا ينفرد القصر وحده بالتنعم بينما الناس يتألمون بل يشتركون جميعا فى النعماء ولتكن يد الملك نفسها هى التى تقدّم هذه النعمة إلى الجماهير وإذن فليخرج فى حرسه إلى الشعب ولتوزع على الأثر الغلال بأمره ولينجح الفن الانسانى — إن أمكن — فى تحبيب الشعب فى الملك .

وكان صاحب الجلالة الفرنسية يميل إلى الصيد، ولكنه لم يكن فى مقدوره إذ ذاك أن يرضى هذا الميل فكان هذا من شر الأمور . أجل لا يستطيع جلالته أن

يصيد الآن بل ليس أمامه إلا أن يستسلم لمن يتقدّمون لصيده ... واضيعتاه ! إن القدر يعدّ له الأحابيل التى توقعه وليس يستطيع ردّ شىء إلا بالخنوع .

وجلالتــه لن يتمتع بألاعيبه إلا لمدى أسابيع قليلة من ذالك الشهر " يونيــه " أما مابعد هذا، يونيه فى السنة القادمة أو يونيه فيما بعد هذه السنة فوارحمة له ! .

أيها الأخ الساذج . لم لم تكن شيئا آخر غير ما كنت . لم لم تتصرف الى شىء أجدى عليك من تلك الدمى التى خلقتها من صنعك، وتلك المهازل التى كنت تمثلها، والأراجيف التى كنت تشيعها . ألم يكن أسلم — اذ تتشبث بالحياة — أن تترك اللعب بالنار حتى اذا ما نالتك بألم صمدت له وتجالدت دونه ؟

ولم يكن لويس المسكين فقيرا فى كل ناحية من نواحى النفس معــدما فى بعد النظر وقوة الإرادة . بل كان له شىء منهما وكانت له غضبات وثورات وكان على حق فى كثير من الأحايين إذا غضب أو ثار . وكان كثيرا ما يحلم بالخلاص من هذا المأزق، ولكنه كان طائشا فى هــذا التفكير إذ على من يعتمد؟ لقد شغل أنصاره منذ البداية فى عرض مناظر القصر الملكى على المشاهدين وفى استعراضها هم أنفسهم . نعم شغلوا فى معاينة مخادع الملك والملكة ومكاتبهما — لقد كانت الملكة تقرأ هنــا . أما الملك فقد رفض أن تحمل كتبه الى مخدعه . الى غير هــذا من الترهات الجوفاء وهم دائمو التحسر على أيامهما السالفة وعلى عزهما وجاههما غاضين النظر عن أنهما لم يكونا يفكران فيما يعود بالنفع على المنكودين أو ما يبرر موقفهما أمام الناس أو ما يكون سبيلا إلى خلاصهما على الأقل . كل هم أولئــك الأنصار أن يقولوا للناس هذه الغرفة الكبيرة التى على اليمين كانت المكان الذى يدير منــه الملك ملكه الكبير وتلك الغرفة التى تليها كان يستقبل فيها الملكة كل صباح . وكان يقابلها مرة مقابلة حارة ومرة مقابلة رسمية حتى إذا ما سألتــه عن العمل أجابها " إن عملك يا مدام هو الأطفال فقط" ولكن التاريخ يمد أنفه هنا بالخلاص ليقول له "أما كان الأجدر أن يكون عملك أنت يا سيدى هو الأطفال فقط ... " .

التويلرى — خلق دى مديتشى — كم مرت عليه صنوف من التغيرات مذ كان حقلا صغيرا إلى أن شهد نهاية الصراع !..." .

توماس كارليل

على العصـــور

باريس فى القـــدم

لقـد أخرت انتصارات الامبراطور جوليـان غارات القبائل المتبربرة لأمد ما فأخرت بالتالى انهيار الامبراطورية الرومانية الغربيـة . وقد أعاد بنفوذه إلى مدن الغال "فرنسا" بعض حيويتها وحركتها ونشط فيها مواردها بعد أن كادت تضمحل فانتظمت هذه المدن بعد جهد طويل أضاعته فى المشاحنات الداخلية المصحوبة بالاستبداد والتعنت فضلا عن الغارات الخارجية التى كانت تتهددها من ناحية القبائل المتبربرة . أعاد إليهـا الطمأنينة والأمن حتى انتعشت الصناعة ورد إليهـا بعض ماأعوزها من نشاط وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى حمى القوانين الجديدة التى سنها واشترك فى التعاون المدنى شبان سكبوا عليه من حيويتهم ونشاطهم مايقيم فيه الحياة، فأصبح الشبان لايخشون من الزواج شيئا، والمتزوجون لا يخافون العزوبة أو التشريد، وأقيمت الأعياد العامة والخاصة كما كانت تقام من قبل. وكان طبيعيا من عقل كعقل هذا الرجل أن يقيم من أركان المدن ما انهدم وأن يعاون فى تجديد البلدان وتعميرها ولكن بلدا لم تنل من عنايته قدر ما نالت باريس — مقره الشتوى ومرتع حبه وغايته . ان تلك العاصمة الكبيرة التى ذاعت شهرة جمالها فى جميع أنحاء العالم كانت فيما مضى لا تحتل غير الجزيرة الصغيرة التى تقع فى منتصف نهر السين. أما الآن فهى تحتـل مساحات شاسعة من الأراضى على ضفتى النهر إلى مسافات بعيدة . وكان النهر يلاعب بأمواجه الناعمة الصغيرة حوائط المدينة القديمة على تلك الجزيرة ولم يكن من السهل الوصول إلى الجزيرة إلا عن طريق قنطرتين خشبيتين هما الوحيدتان اللتان توصلان إلى البلدة العجوز . وكان الجانب الأعلى من السين مغطى بغابات منتشرة فى كثافة وتداخل على ضفاف النهر وما بعدها بقليل وكان بالجهة الجنوبية من السين حيث يوجد المكان المعروف "بالجامعة" الآن حى من أجمـل الأحياء ذو منازل جميلة وبينها مسرح ومدرج وحمامات وحلقة للرماحة كانت تتمرن فيها الجيوش الرومانية . وكانت مياه المحيط القريبة تهدئ من حدة الحرارة اللافحة

حتى تمكن الأهالى فى شىء من التنبه والملاحظات علمتهم إياها التجربة وحوادث الحياة من زرع الكروم وأشجار التين فى تلك المنطقة . وقد كان يحدث فى فصول الشتاء القارسة البرودة أن تتجمد مياه النهر بأجمعها فكان الإنسان يرى قطعا ضخمة من الثلج تعادل فى ضخامتها قطع المرمر الكبيرة التى تستخرج من المحاجر وهى طافية على سطح الماء تتهدّد بالعاصفة .

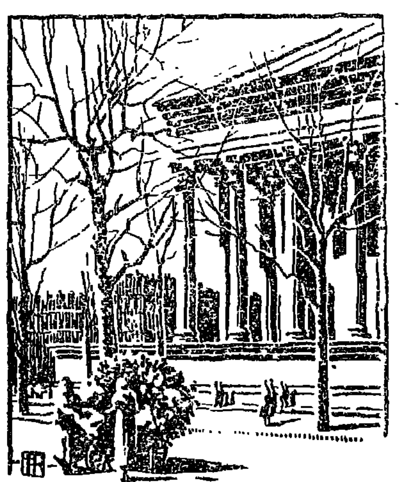
ألا إن جوليان وهو فى سعير الحرب أو فى بلدان بعيدة ما أن يجد فيها شيئا من اللذة كان يحن دائما إلى "لتسيا" (اسم باريس القديم) فكان عند وصوله إلى أنطاكية يقارن نعومة السوريين — فى نظره — بشجاعة الغاليين واستبسالهم . وكان يميل إلى اغتفار حدّة المزاج وهياج الأعصاب التى هى فى الحقيقة العيب الوحيد فى الخلق الفرنسى . فلو أن الامبراطور جوليان عاد الى العاصمة الفرنسية فى هذه الأيام لوجد فيها من رجالات العلم والفضل والأدب غير من وجدهم أيام عرفها منذ قديم ولرأى فيها الآن رجالا حقيقين بفهم النظم الحكومية السامية التى اشترعها الإغريق القدماء . ولاغتفر لهو أمة بأكملها وهى التى لم تترك لنفسها العنان فى وقت ما حتى تنغمس فى اللذائذ اذا جدّ الجد ودعا داعى العمل . ولكانت تأخذه الدهشة من ذلك الفن الفرنسى، الهادئ الثائر، الناعم العجاج، الذى يجمل الحياة الاجتماعية فى مدينة النور .

ادوارد جيبون

من صور الأماكن

المـادلين

...وحين اقتربنا من المادلين راعنا منها ذلك الجمال والجلال الباديان عليها وأدهشنا منها صفا الأعمدة اللذان لا يضارعهما فتنة وروعة إلا أعمدة البارفينون ... أجل ... فيا لله ما أروع كنيسة المـادلين . ولعل أعجب ما يفتن الانسان من تلك الكنيسة العريقـة مدخلها ذو القـوس العجيب والأقواس الثلاثة المتساوية العلو التى تلى ذلك المدخل . تنتهى تلك الأقواس بقوس أكبر يظلل المذبح المرتفع . أما الأعمدة التى تحمل هـذه الأقواس فهى متقوسة تتبزد



المـادلين

بجمال الصنعة ودقة النقش . ولسنا نستطيع فى هذه الصورة الكتابية أن ننقل اليك ذلك المعنى الذى يداخل الانسان حين تتراءى له هـذه الأقواس . هو معنى عميق يعسر تحديده ، عميق عمق الأرض ومشرق كأشعة الشمس ، هو هين صـعب ، سهل عسير ، أخلاط من المعانى تتكشف فى دهش رائع . ويزداد هذا الدهش وتلك الروعة حين يرى المرء أشتات الصـور المصنوعة من الزجاج الملون التى تمثل بعض المناظر المقدسة . ولا سيما تلك الصورة رائعة الجمال التى تغطى تجويف المذبح كل أولئك الى جانب غيرها من النقوش التى تحيط رمز التقديس والعبادة فى الكنيسة تمثل العـذراء فى بسمة حلوة هادئة تهديها الى الملائك حولهـا ركعا تظلل أنفسها بأجنحتها المرمرية الناصعة . لست أستطيع أن أحمل هذه الصحيفة مايشيع فى جوانب نفسى من معانى النور ، الذى يتجمع حول كل جزء من أجزاء الصور وحولها جميعا فى هيئة مكتملة وكأن جهد " نابليون بونابرت " يوحى الى الانسـان فوق معانى القداسـة والطهارة معنى النصر والاقتدار أو يحيلها بأجمعها الى صورة ملؤها الحياة ، ملؤها القوة ، ملؤها العظمة . ثم تستدير المـادلين الى ناحية أسرة البربون فيحولونها الى كنيسة ولكنها ما زالت توحى الى القلب الجمال والنضارة كما كانت توحيهما منذ عهد بعيد ...

ناثنيل هاوثورن

زيارة لملكة الجمال المصرية فى جناحها الخاص بقصر اللوفر


فينوس الهة الجمال بمتحف اللوفر

... وحطت بى أجنحة الترحال الى باريس بعد دورة فى شرق أوربا وجنوبها دامت شهرين كاملين رأيت خلالها بدرين فى كبد السماء، بدرين على الأرض وكلها من صنع خالق واحد . وكانت صدفة سعيدة أن يكتمل تمام البدر الأول وأنا فى بلاد اليونان فأقدم فى ليلة اكتماله لبدر اليونان المتوّجة على عرش جمالها ملكة الجمال اليونانى ، وأقدم لها كصحفى فتريد أن تسبقنى إلى صناعتى فتسألنى عن مصر وتبدى إعجابها بما تسمعه عن مصر ، ورغبتها فى أن ترى مصر، ثم تسألنى فى دهشة عن الجمال المصرى وسر عدم اشتراكه فى مباريات الجمال وأسفها على حرمان العالم هذا الشرف ... كل هذا قبل أن تمكننى من أن أقول شيئا فى جمال اليونان وفى دقته وتناسقه ومثله الأعلى بين جمال العالم .

وكان أسف واعتذار عن خلق الجمال المصرى من طابعه الخاص وسماته الممتازة اشترك فيه كل من شاركنا حديث مجلس صاحبة الجلالة ملكة الجمال اليونانى مازالت آثاره عالقة بخيلتى للآن وهل تنسى أحاديث أمثال تلك المجالس .

ثم اكتمل البدر الثانى وأنا فى روما وكانت ليلة دعيت فيها الى حفل عام زينته ملكة الجمال الرومانى مس إيطاليا وكان طبيعيا أن تدفعنى المهنة الصحفية الى التعرف الى بدر إيطاليا فأشهد عن قرب معالم الرحابة المتناسقة والفخامة الرومانية الرائقة ، وأن المس الأصابع الدقيقة الناعمة التى نراها للتماثيل فى المتاحف، وأعيد استجوابى مرة أخرى عن بدر مصر (مس إيجيبت) ولماذا لا نخرجها للعالم ما دمنا نريد أن نكون مع أوربا فى صف واحد. وقد وصلت نساؤنا إلى حدّ من الرقى والثقافة لا يقل عن زميلاتهن فى أوربا .

وكان اعتذار وكان أسف ... مرة أخرى ثم استدعى الموقف أن أتولى بدورى الحديث عن الجمال المصرى وسماته وطابعه، واشدّ ما كان أملى أن يكون حديثى مجرّد كلام غير مقرون بصورة على الأقل لمثل الجمال المصرى .

وكان اليوم الثانى لوصولى باريس يوم أحد فدار مصر (المفوضية) ودور الأعمال المصرية كغيرها معطلة وكان طبيعيا أن أبدأ بزيارة مالنا فى باريس لأقوم بأول واجب نحو المجاهدين منا الغرباء ، فلم أجد غير جناحنا المصرى فى قصر اللوفر أقضى فيه نصف نهار العطلة .

وكانت زيارتى الأولى لهذا القصر التاريخى البديع الذى يشرف على حدائق التويلرى من ناحية، ويحف به نهر السين من جهة، ويمتد وسط باريس فى مساحة واسعة تتجلى فى كل شبر من أرضها اناقة باريس، وفن باريس، وذوق باريس، وتناسق باريس .

وأريد بالجناح المصرى أن يكون فى طرف القصر المطل على أفخم أحياء باريس وأن يكون له مدخل خاص يقع فى أفخم مبانى باريس التاريخية وأن يعرف هذا المدخل باسم (المدخل المصرى) . ولهذا كنت أدخل جناحنا وأنا ملىء بالفخر أتيه بمصريتى وقد نسيت فى تكريمها كل شىء .

وكان جميلا أن يخص الفرنسيون مصر بهذا الرواء فى عاصمة بلادهم فهو لا يقل عما نختص به نحن رعاياهم فى بلادنا . وكان جميلا أن يقلب الذوق الباريسى الحديث فى تنسيق ما أخرجت الأيدى المصرية فى عشرات القرون . فترى الفن الحديث فى أبهى مظاهره يبرز الفن القديم فى جلاله وروعته . وسرت أطل على نفائس الجناح وبدائع محتوياته ما نيف عن ساعتين حتى وصلت الى غرفة أسدل على بابها ستار نفيس يلقى الهيبة والروعة فى قلب الناظر اليه، وينبئ عن نفسية مفردة وراءه، وتساءلت بينى وبين نفسى عما عساه يكون وراء ذلك الستار، وتقدمت خطوة الى حارس الباب واستأذنت فى الدخول فأذن وأزاح الستار فى أدب جم ،

ووطئت قدماى أرض بهو واسع يثير العجب والاعجاب رأيت فى صدره ما أوقفنى دقائق واجما لا أستطيع أن أعرف ماذا يجب أن أعمل .

رأيتنى أمامى فتاة مصرية ممشوقة مؤتزرة فى ثوب أبيض شفاف ذى ثنيات (بليسيه) من وسطه الى حافتـه طويل يكاد يغطى قدميها يبدو منه خصرها النحيل ويعلوه صدرها الناهد تنظر الى الداخل بعينين سوداوين فيهما السحر والفتنة مما اشتهرت به العيون المصرية الجـذابة فى أنحاء العـالم وتشرق بذلك الفم المستطيل فى امتلاء شفاهه امتلاء متناسقا ميز الفم المصرى عن غيره بالعذوبة وتطلع بوجهها وصدرها وذراعيها الخمرية اللون تحت غلالتها البيضاء الشفافة تنبئ عن شمس مصر الساطعة وفعلها فى البشرة ما يتحرق فى سبيل تقليـده فاتنات الأوربيات فيعمدن الى الأصباغ والطلاء . وقد تدلى شعرها الأسود اللامع حول عنقها فى ضفائر رفيعة هى وحدها معضـلة فنية فى صناعة الجمال المصرى ، وتحمل سلة بها هدايا جميلة هى عنوان الكرم المصرى والروح الخيرة .

هذه الفتاة هى مثل أعلى للجمال المصرى ترى عشرات مثلها فى مصر وهى كأنها إذ تحس ذلك قد هجرت مصر لتقيم فى باريس قلب العالم لتشيد بالجمـال المصرى وهو أولى من يشيد به واتدل العالم على مكانة مصر منذ عشرات القرون .

هذه هى (حاملة القرابين) عثر عليها علماء الآثار فى إحدى مقابر الدولة القديمة وكانت بحق فى نظرهم مثلا أعلى للجمال المصرى فحملوها الى متحف اللوفر فى باريس وأقاموها فى بيت زجاجى صغير ، لكنهـم اختاروا أروع بهو فى الجناح المصرى وصـدّروه بها وأحاطوه بكثير من الفخامة ومستوحياتها كى يحس الداخل أنه فى حضرة شخص غير عادى .

ولحاملة القرابين فى التاريخ المصرى القديم قصـة تراها مسطورة على جدران القبور القديمة ، ففى صقارة مقبرة لأحد أغنياء الأسرة الخامسة منقوش عليها صور حاملات القرابين ، وقد كن ينتقين من بين مئات الفتيات ويكون اختيارهن بالوسامة

والرشاقة من بين فتيات البلدة وكانت كل قرية أو "عزبة" تمثلها فتاة فكانت ملكتها بلا شك . وتجد تحت صورة كل فتاة مكتوبا بالهيروغليفية (ممثلة قرية كذا) وهن مجتمعات صفا واحدا كل منهن تحمل فوق رأسها شيئا من محصول قريتها وهو رمز للقرية ، وقد تقدمتهن أرشق فتاة فيهن ملكتهن بلا شك لأنها منتخبة المنتخبات وهذه تدعى بدورها (حاملة القرابين الأولى) .

وإذن فقد كانت مصر تعقد مسابقات للجمال في قراها ، ولقد كانت تنتخب ملكات الجمال يمثلن بلادها ، وكانت تنتخب من بينهن ملكة تتوجها عليهن ولكن كان السبيل الى ذلك وكان الغرض من ذلك أسمى مما ينظم من أجله الأوربيون مسابقات الجمال الآن ، وأجل عن عرض أمثلة الجمال للمتعة وللمتعة الحسية وحدها .

ومنذ ذلك الحين لأربعين قرنا خلت ، ومصر لا تقيم مسابقات للجمال النسوى ولا تقيم على عروش جمالها ملكات متوجات .

من لى بعد ما اكتشفت ملكة الجمال المصرى فى قصر اللوفر أن يدل ملكات الجمال فى العالم عليها ليشهدن بأعينهن الجمال المصرى وفى أى غرض كان يسخر ؟

حسن صبحى



تمثال مصرى فى متحف اللوفر

آثار باريس

كتدرائية نوتردام



لسنا نعدّ والحق لو قلنا أن كتدرائية نوتردام فى باريس تعدّ حتى يومنا هــذا من أجمل المبانى وأروعها ؛ ولعل احتفاظها بمنظر القــدم العريق لا يمنعنا من أن نعرب عن أعمق شعور الحزن والأسى لما خطته يد الزمان على هذه الكنيسة الجميلة من آثار التهدّم وصدّعته منها يد الانسان العابثة منذ أن وضع شرلمــان الحجر الأوّل فى بنائها حتى انتهى فيليب أغسطس من وضع آخر حجر فيه .

وعلى هذا الوجه العجوز مسحة من السآمة والكآبة ولا مرية فى أن هناك من آثار العمارة الحديثة ما هو أفخم وأبدع من منظر هذه الكنيسة الخارجى الذى يمتاز — ولا يصعب على الانسان أن يدرك ذلك لأول نظرة — بالمداخل الثلاثة العريضة فى واجهته الأمامية، بالمحاريب الملكية الثمانية والعشرين، بالنافذة الوسطى المستديرة المتسعة، وعلى جهتيها النافذتان الصغيرتان كقسيس يحف به مساعداه، بذلك البهو الطويل ذى الأقواس القوية التى تحمل سقفا ثقيلا يستند الى أعمــدتها الدقيقة الناحلة، ببرجيها الأدكنين الشامخين وطبقاتهما المتراصة التى تتكاثف فى إظهار جمال الكنيسة القديمة، بأدوارها الخمســة. تلك التى تتفتق عن طائفة من الفنون الجميلة من صناعة التماثيل الى النقش والحفر وكل هذه أجزاء من جمال عام

تشترك فى تكوينــه وصياغته تلك الفنون تظهرنا على تعبير أحد أسلافنا وتعبير أمتنا من ورائه، وقد تتضافروا معا لتكيلها وتجميلها كما تضافرت الالياذة مع الرومانيين من قبـل حيث تقاحمت الالياذة على تكييف عصر بأكمله وتلوينه أو حيث كانت تعبيرا عن شعور عام شاع فى ذلك العصر .

تلك الكنيسة العتيقة أثر من أروع الآثار القديمة ، فعلى كل حجر من أحجارها آية لتضامن قوة العمل البشرى الذى ينظمه ويحرّكه جهد الفنان، فهى صورة للخلق الانسانى القادر تتشابه — الى حدّ بعيد — فى الصورة واللون والتكوين مع الخلق الإلهى العـام، فقد اقتبست من هذا عنصرين من أسـبق عناصره وأهمها وهما التغير والخلد .

ولنعـد الآن الى الواجهة الأمامية لكنيسة نوتردام فنجدها إن نحن قاربناها نبثهـا عبادة وتبتلا وإعجابا ، نجـدها مزعجة مرعبة كما يقول مؤرخها المـاضى . يعوزنا الآن إصلاح ثلاثة أشياء لاغنى لها عنها . أما أولها فهو الاحدى عشرة درجة من درجات السلم الذى كانت ترتفع به عن مستوى الأرض فيما مضى . وأما الثانى فهو الصف الأسفل من التمـاثيل التى كانت تشغل مكان المحاريب الموجودة الآن على المداخل الثـلاثة الجبارة . وأما الشىء الثـالث فهو المجموعة العليا من الثمانية والعشرين ملكا من ملوك فرنسا القدامى التى كانت تملأ الردهة فى الطابق الأول ، المجموعة التى تبدأ بتشـيلد برت وتنتهى بفيليب أغسطس قابضـا على كرة الامبراطورية .

أما الإحدى عشرة درجة عند مدخل الكتدرائية فقد أخفاها الزمن فى تطوّر بطىء علت حيث ارتفع مستوى المدنية فتغطت تلك الدرجات، ولكن الدهر رغم ابتلاعه البطىء لتلك الدرجات فى هوادة وتؤدة واصطبار ورغم إثارته لأرض باريس ضـدّ تلك الدرجات التى كانت تزيد جمال الكتدرائية وتبقى عليها روعتها وبهاءها، رغم كل ذلك فقد أعطى الدهر للكتدرائية أكثر ممـا أخذ، لقد أسبغ عليها ذلك المسوح الأدكن الأغبر، وأكسبها على ممرّ السنين هذه الصورة الرهيبة العـاتية، صورة

القرون السحيقة التى غالبتها الكنيسة ثم طوتها . رغم كل ما عبثت به يد الأيام من هذا البناء المجيد وما خطته على جبهته المجعدة من آثار الجلاد والجهد الشابت، رغم كل أولئك فقد كساها مسحة قلما تراها على سائر الأبنية القديمة، مسحة ظلماء تدخل فى قلبك الرهبة وفى فؤادك الخشوع، رهبة قرون سحيقة تحدر بالسنين والسنين دون أن تنال من جلال الكنيسة شيئا وخشوع الأيام التى ما نزال نسمع اناتها صرعى عند قدمى البناء العجوز ... رغم كل ذلك فهى مثل نبيل لربيع العمارة القديمة .

فيكتور هوجو

مصر تخرّجت على باريس

كانت باريس منذ فجر النهضة موئل المصريين الذين خدموا مصر بما تعلموا فيها أثناء هجرتهم إليها، وانما نقصر القول على باريس — لا على فرنسا عامة — لأنه موضوع الكتاب وأنه لايكاد يوجد فرع من فروع العرفان المتشعبة لم يتعلموه بها . فقد تخرّج عليها :

من أمراء مصر : الخديوى اسمعيل، والسلطان حسين كامل، وكثير من أمراء الأسرة المالكة .

ومن الوزراء : على مبارك باشا، ونوبار باشا، ونخرى باشا الذى كانوا يلقبونه بالأنيق (شيك)، وحسين رشدى باشا، واسمعيل سرى باشا، وواصف غالى باشا .

ومن العلماء : رفاعة بك الكبير وبعثته التى كان لها الفضل الأول فى تعريب العلوم الحديثة ونشرها فى مصر، وقد أتيحت لى زيارة المنزل المرقوم ٩٥ من شارع سان ميشيل بالحى اللاتينى وهو الذى كان مقرّ تلك البعثة . وليت الحكومة تشترى هذا البيت التاريخى وتجعله مقرّا لمكتب بعثتها، وناديا للمصريين من الطلبة والوافدين، ومكتبا لاستعلاماتهم من أجل هذا الاعتبار التاريخى إن لم يكن من أجل ما فى ذلك من المزايا .

وعثمان غالب باشا الذى كشف وهو طالب أن بعض الأمراض كالطاعون لا تنتقل من آدمى لآدمى إلا بواسطة حيوان كالفأر أو حشرة .

ومن الفلكيين : مختار باشا الفلكى الذى رسم الخرائط الجوية لفرنسا وألمانيا ، ولمصر والسودان ، وللأسكندرية القديمة ، ثم دلت الحفائر فيها بعد على أنه لم يخطئ فى كثير . واسمعيل باشا الفلكى .

ومن المهندسين : بهجت باشا الذى احتفر أكبر ترعة فى العالم وهى الابراهيمية .

ومن الأطباء : الدكتور البقلى أول من أجرى فى العالم أجمع عملية على الكلى ، أجراها بآلات من الصوان . ودرّى باشا . وابراهيم حسن باشا . والدكتور محجوب ثابت الذى كان الأول فى امتحان شهادة البلاد الحارة بباريس .

ومن رجال الحرب : حسن رضوان باشا . وسعيد نصر باشا خريج سان سير .

ومن رجال القانون : شفيق منصور يكن بك . واسمعيل شيمي بك من كبار محامى الحزب الوطنى الأول . وفتحى زغلول باشا صاحب شرح القانون المدنى . وويصا واصف بك نقيب القضاء المختلط ، ورئيس مجلس النواب المعروف فى الحركة الوطنية الأولى من أيام مصطفى كامل . ومحمود أبو النصر بك وكيل مجلس الشيوخ . وسيزوستريس باشا الذى كان وزيرا مفوضا لمصر فى واشنطون .

أما سعد زغلول باشا فقد درس فى مصر ولكنه امتحن فى باريس أمام ليون كان وغيره من عظماء القانون وأعجبوا به أيما إعجاب .

ومن رجال الاجتماع : قاسم أمين بك أول رجل نادى بتحرير المرأة فى مصر .

ومن الشعراء : أحمد شوقى بك الذى أتم فى باريس (بعد منبلييه) ودرس شعر لامارتين ودى موسيه وحاكاهما .

ومن المترجمين : أحمد زكى باشا وهو يجيد الفرنسية كل الإجادة أكثر مما يعرف العربية ، وكان سكرتيرا أول لمجلس الوزراء .

ومن الصحفيين : الدكتور سيد كامل الذى كان رئيسا لتحرير المؤيد ومدير قلم المباحث ببنك مصر، وكان المربى الأوّل لأنجال الخديوى السابق عباس الثانى. والدكتور محمد حسين هيكل بك . وجبرائيل تقلا بك وعمله الصحفى معروف فى مصر والشرق العربى . والأستاذ محمود عزمى . والأستاذ أحمد الصاوى محمد (صاحب هذا الكتاب) .

ومن رجال البلاط : أحمد شفيق باشا خريج مدرسة العلوم السياسية، وكان رئيسا للديوان الخديوى فى عهد عباس باشا الثانى ، وهو صاحب "الحوليات" فى السياسة المصرية .

ومن رجال الاقتصاد : الدكتور فؤاد سلطان بك مدير بنك مصر . ويوسف صديق باشا .

ومن الأساتذة : الدكتور محمد ولى فى التاريخ الطبيعى بالجامعة . والدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب وأستاذ الفلسفة بها . والدكتوران زكى مبارك وأحمد ضيف . والدكتور محمد صبرى مؤلف كتب "الثورة المصرية" بالفرنسية .

ومهما يكن فلا قبل لأحد باغفال العلامة الدكتور طه حسين العميد السابق لكلية الآداب، والمؤلف الأشهر، والصحفى الفذ ، والخطيب المفوّه . والديوانى بك مدير البعثة بباريس نبغ فى الطب والعلوم وخدماته للطلبة معروفة .

ومن رجال الفن : الأستاذان زكى طليمات . وچورچ أبيض فى التمثيل : تخرج الأوّل على چمييه، والثانى على مونيه سللى وسلفان .

والأساتذة : مختار فى الحفر على كولمان . وأحمد صبرى . وحسين خليل فى التصوير . وصابر فى الزخرف .

ومن المعلمات : الأديبتان الأختان درّية فهمى كامل، وعلية فهمى كامل : تخرّجتا على السوربون فى الآداب فى وقت أقصر من المألوف . والآنسة درّية شفيق .

ومن المشتغلات بالتدبير : الآنستان علية وتوحيدة كريمتا كمال بك القنصل السابق بباريس اختصت إحداهما بالتدبير المنزلى والثانية بالحياكة العليا .

ولا يفوتنى أن أذكر أن لبعض من ذكرنا جهودا متشعبة فاكتفينا بذكر واحد منها لعله أظهر الوجوه لديه . وليس معنى ما سبق أن من ذكرهم دون غيرهم النابغون من خريجى باريس وأنهم أولى من إخوانهم بالذكر، فمصر كانت ولا تزال منبت كثير من الأفذاذ من الأدباء والأطباء والمحامين والعلماء والموظفين الذى تخرجوا على باريز، ولكنها الأسماء التى حضرتنا لدى كتابة المقال فذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

مجد الدين حفنى ناصف



مسيو جيز

أستاذ التشريع المالى لكلية حقوق باريس والعبارة المذكورة تحت الصورة مقتبسة من دروسه وهى تمثل حالة أساتذة الحقوق فى معظم الدول ومنها مصر : جهد جليل وأجر ضئيل

باريس وما تتركه فى نفس زائرها

بقلم الأستاذ إدجار جلاد



لكى أصوّر لك باريس الحاضرة، وأصف الأثر الذى يبق بالنفس منها، لا معدى لى فى ذلك عن جهد أكشف به عن الحقائق، وأصل الى أعماقها من الناحيتين المادية والمعنوية . وأن انتقل بعد هذا بجناحى الذاكرة من القاهرة الى باريس، فأصوّر الاحساسات والعواطف التى كانت تجيش بصدرى فى أثناء طوافى بباريس، ثم أتمثل لنفسى ذلك "الجوّ" الروحى الذى كنت فيه، خلال إقامتى فى مثوى الحضارة وحمى المدنية العالمية .

ولا أكتم القرّاء، أن كلمة "الجو النفسى" التى قالها الكاتب الفرنسى المعروف أندريه موروا، لم تبد لى فى يوم من الأيام أكثر وضوحا وجلاء منها أيام تجوالى فى باريس وأنا أقضى أوقات الفراغ فى أرجائها، متنقلا فى أحيائها المختلفة، بين متحف اللوفر ومجلس الشيوخ، ومن معهد التجميل الى حديقة التويلرى .

ذلك أن شمس مصر المشرقة الجميلة، وسمائها الصافية النقية، وجوّها الدافئ، لم يكن كل ما بذلت منه بسماء باريس القاتمة الرمادية اللون، وهوائها العليل الذى يبعث الى النفوس الانتعاش، ولكنى كنت أشعر الى جانب هذا كله، بأنى فى جوّ تفكير جديد، قد ازدانت حواشيه بالعلوم والفلسفة، وأنا فى هذا الجو، كان تفكيرى وإحساسى — وأنا رجل شرقى — يسيران فى تردّد وإحجام .

كان يساورنى شعور مقرون بالحزن والألم، بأن لنا شخصيتين معنويتين تكاد إحداهما تستقل عن الأخرى . فنحن الشرقيين، مولدا وأسرة وطباعا موروثة وتقاليد بقيت على الأجيال، قد أخذنا بنصيب وافر جدا من الثقافة الأوربية .

فلأى القوتين تكون الغلبة ؟ . الغريزة الشرقية أم العلم الأوربى ؟ . وهل فى مقدورنا أن نتنكر لاحدى هاتين الشخصيتين ونتجاهلها ونضحى باحداهما فى سبيل الأخرى؟ أو أن فى وسعنا أن نبلغ المثل الأعلى فنلائم بينهما ونجمع فى كأس واحدة تلك العوامل المتباينة التى تتضارب ويجرى الصراع بينها فى كيان مضطرب متنافر؟

أعترف فى صراحة أننى، فى غير باريس من بلاد أوربا ومدنها، قد شعرت بأن الصراع بين هاتين الشخصيتين كان صراعا حادّا حامى الوطيس . وأن تفكيرى الأوربى باعتبارى رجلا أجنبيا ، اذا كان قد سحرته مظاهر الجمال الغربى فان عاطفتى الشرقية الكامنة فى أعماق قلبى ، كانت تنفر من هذا الجمال وتنكره . ومرجع ذلك الى المبادئ التى أورثنا إياها آباؤنا . لا ! بل كانت تبدو لى فى أوضح علائمها ، تلك المأساة التى يعانيها شبابنا فى العصر الحاضر، إذ يرون أنفسهم مكرهين على أن يكونوا رابطة اتصال بين عالمين مختلفين وعصرين متعارضين .

كان آباؤنا شرقيين يحرصون تمام الحرص على شرقيتهم ولا يمتون بصلة الى أوربا بل كانوا بعيدين عنها كل البعد . ولكنا لا ندرى فقد لا نستطيع فى المستقبل أن نميز أبناءنا فى شىء من الأوربيين ، كما هو الشأن اليوم عند الأتراك . أم ترى أنهم سيعودون الى الماضى عودة نهائية ، فيتحصنون تحصن المستميت بالشرق الذى نشأوا فيه ، ويكونون قد رجعوا به الى الوراء خمسة قرون كاملة !

ولكنا نحن الذين نعدّ همزة الوصل بين الماضى والمستقبل ، إذ وكل الينا أن نصنع المستقبل ونقومه ، كما يقوم الصانع قطعة الحديد .

لا نستطيع الافلات من المسئولية الفادحة ، أو الهرب من المتاعب التى تواجهنا .

غير أن هنا أسئلة تعترضنا وتطلب منا الجواب : فى أى وجهة نسير؟ وفى أية ناحية نوجه حركة المستقبل ؟ وهل يخضع الشرق للروح الأوربى وينهزم أمامه ؟ أم تكون مقاطعة تامة ورجوع الى الوراء وعود الى القديم ؟

لقد ألقيت على نفسى هذه الأسئلة أكثر من مرة ، لعلى أجد جوابا عليها فلم أظفر بهذا الجواب إلا من باريس .

ففى هذه المدينة الفذة التى لا شبيه لهـا بين مدن العالم يستطيع المرء أن يجمـع هذه العناصر المتناقضة و يوازن بينها ، بل فى وسعه مع بقـائه شرقيا خالصا ، أن يشترك فى الحضارة الغربية ، ويأخذ منها بأوفر سهم ، وأن يعجب بها و يتعاون مع العاملين لها ، دون أنا يفقد ذرّة واحدة من طابعه الجنسى ومميزاته القومية .

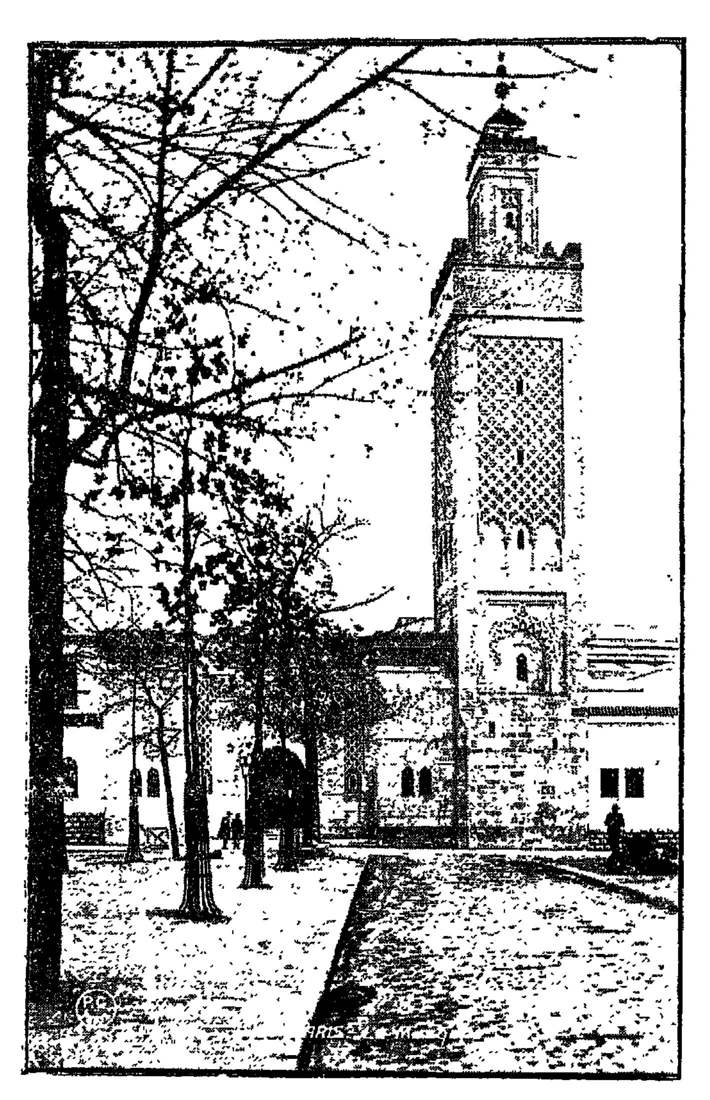
ففى مدينـة باريس وحدها يتحرّر الفكر الانسانى ، ويتجرّد عن الأشكال والصبغات التى تفرغها عليه الخصومات القومية ، والعداوات الدينية ، ونزعات الأثرة الشديدة . هناك يشعر المرء أنه قد تسامى عن مستوى الخلافات . فلا شىء غير أفراد من البشر قد خلقوا من طينة واحدة . ولهم عقل واحد ، تجمعهم غاية واحدة ، قد ملكت عليهـم مشاعرهم ، وقامت عندهم مقام العبادة . هى الولع بالعـلم والفن والآداب وخير الإنسانية ، وهم فى انصرافهم لهذه الغاية التى تؤلف بينهم ، يطرحون وراء ظهورهم جميع الأوهام والأساطير ، ولا يبالون الاعتبارات الشـخصية ، أو الفوارق الجنسية .

لقد بلغ التسامح والحرّية فى باريس أقصى حدودهما ، فترى الصينى والمراكشى والأمريكى والزنجى ، يتزيا كل منهم بأزيائه الخاصة . ولكن أحدا لا يدور بخلده أن يسأل : ما دين هذا الرجل أو ما اسم وطنـه ، أو من أية طبقـة من الطبقات الاجتماعيـة يكون ؟ . ذلك أنه ليس ثمت غير عالم واحد هو عالم الفكر المجرّد عن القيود ، فيه يلتقى الناس جميعا أصدقاء متآخين .

من هذا الأثر الذى يبقى فى النفس من باريس ، أدركت أننا نستطيع أن نظل كما نحن وطنا ومولدا ، وأن نمضى فى الاتجاه الذى رسمته لنا تقاليدنا وعاداتنا ، دون أن ننقطع فترة واحدة عن الارتشاف من منهل الثقافة الأوربية غير المطبوعة بطابع وطنى خاص ، ودون أن يحول شىء بيننا و بين الاسـتفادة من الثروات العلميـة والفنيـة التى تعيننا على أن نبلغ حدّ الكمال بشرقنا ، ذلك الشرق العزيز علينا والذى امتزج حبه ووفاؤنا له بشغاف قلوبنا .

إدجار جلاد

ذكريات



جامع باريس



ذكريات النابغة الآنسة "مى"

باريس فى يوم الذكرى



"باريس عندما تباشر العمل – فى كورها ذى الألف ضجيج عن كل شعب سعيد أو شجاع أو حكيم – تأخذ قوانينه وآلهته وأخلاقياته – وفى أتونها بلا انتظام – تصهر وتبدل وتجدد – تلك المعرفة الشاملة – التى تناولتها من بنى الانسان ثم الى الشعوب المبهوتة – تلق بصوالجها وتيجانها – بمعتقداتها وأنظمتها ، وقد كيفتها بأيديها القوية" .

"باريس التى ، ولو من غير إيمان ، – تحتفظ بالأشعرة و بالمباخر – تشيد فى كل صباح مجدا – وتطفئ شمسا فى كل مساء . – بالفكر و بالسيف جميعا – بالشىء المحسوس و بالحلم معا – هى تعدل وتمكن وترفع – السلم المتصاعد من الأرض إلى السماء . – أخت منفيس وروما – هى تبنى فى عصرنا هذا – بابلا لجميع البشر – ومحفلا لجميع الآلهة" .

١

هذه ترجمة لبعض ما نظمه فى وصف باريس شاعر باريس الأكبر، فيكتور هوجو . ولكن يصح القول إن باريس فى بعض أيامها هى مدينة الذكرى فقط .

اليوم الثانى من شهر نوفمبر مخصص لذكرى الموتى، يحتفى به كل عام ليس المسيحيون وحدهم بل جميع شعوب الغرب على اختلاف الملل والنحل . حتى أصبح عيدا قوميا للجميع من أهل العقيدة ومن غير المتدينين على السواء . إلا ان الباريسيين لا ينتظرون ٢ نوفمبر ليذكروا، بل يستسلمون لتلك الذكرى منذ صباح أول نوفمبر، وهو يوم عيد "جميع القديسين" . فكأنهم يوحدون بين الموتى والقديسين، وكأن كل راحل فى نظرهم قديس . ولكأن ڤولتر، ذلك الكاتب الذى قيل فيه أنه أكثر الفرنسيين باريسية — إنما ترجم عن إحساس باريس حيث قال : "لو لم يكن فى الدنيا من عبادة لكانت عبادة الموتى حسبنا وكفى" .

وهكذا منذ فجر أول نوفمبر اتشحت بابل الجديدة بأوشحة الذكرى . وكأن الشمس تعمدت التحجب والانزواء لتبكى فى وحدتها على هواها، فأرسلت من خلال

الضباب الرقيق عبرات رقيقة متمهلة كعبرات المتأمل المتفكر . النـاس فى الشوارع يسيرون على عادتهم فى اتجاهات متماثلة أو متعارضة . إلا أنك إذ ترى الكثيرين منهم يحملون بأيديهم طاقات الزهر تعلم إلى أين هم يقصدون فتحذق سر الأسف والانكسار الذى تخيّلهُ فى هاتيك الأزهار .

هم يقصدون إلى جهات معينة من أقاصى المدينة حيث يقطن الذين رحلوا ، حيث السكون مخيم والسكوت مقيم . هناك اليوم لكل مضجع نصيبه من الزهر والريحان ، ولكل حجر حقه من لمس التدليل والتحبب ، ولكل راقد — ولو كان قبـل الرقاد غريبا — حظه من ابتهالات الرحمة وكلمات الحنان . لأن اليوم إنمـا يتكلم قلب باريس .

ونهر السيـن ذكرى سائلة رحيبـة تحتضن المدينة الذاكرة . هو يحبو اليوم فى تباطؤ شجى كأن صفحته المتثنية تدرك أنها عابرة ، كما عبرت من قبل سالفاتها التى انعكست عليها وجوه ، ووجوه ، ووجوه جيلا بعد جيل ، وعمرا بعد عمر بالتتالى . بل كأن كل قطـرة من قطراته مثقـلة بذكرى المـاضى الذى تقدّمها ، تسـير على مضض تاركة مكانها للمستقبل الذى يسـوقها أمامه . والأشجار المـائلة على الشطين يطوف بهـا كذلك معنى الرحيل والزوال المقبـل ولو بعـد حين ، فتحنو على النهر الهارب تحت نظرها وتبعث إليه بأطراف الغصون الدقيقة . فان لم تفلح فى وقف مجراه لحظة فلا أقل من أن تصافح ذوبه بوريقاتها مازجة أشجانها بأشجانه ، غاسـلة ذكرياتها فى ذكرياته .

ودور العبادة والصروح والمتاحف والحدائق والمنازل تحوّل إلى مواطن ذكرى وعوامل ادّكار . والأنصاب والآثار والتماثيل فى الساحات العامة تبـدو أوفر حياة وأقوى تعبيرا ، كأنمـا أرواح الذين شيدت لتخليدهم أو شيدت بأيديهم قد عادت إلى هاتيك الامكنة متذكرة متفقدة .

والجـدران والحجارة شاخصة هى أيضا ، كأنها تذكر كل ما شهدته من فـرح وترح ، من ثورة وجحفل ، من حدث أريحى وحدث أثيم ، من تاريخ يبتدئ وآخر

ينتهى . الذكرى تهيمن اليوم على كل شىء . ولست أدرى أهى الكائنات والموجودات تدخر الذكرى فى كيانها فتخرجها فى الموعد ، أم هى عاطفة بعض الأحياء ترسل أشباحها على النبات والماء والجماد فترى فيها صورتها ومعناها ، شأن الوجه الواحد فى المرايا المتعددة .

وباريس الرسمية والعسكرية والوطنية والأدبية والفنية تذكر . فتنظم ذكراها فى مطلع النهار موكبا يتألف من رئيس الجمهورية ، ونفر من الرجال ذوى الصبغة الرسمية ، يتوجهون إلى مضجع الجندى المجهول تحت قوس النصر لتأدية الغرامة السنوية من زهر وتكريم وشكران . وتتعاقب الوفود الرسمية وغير الرسمية طول النهار لزيارة ذلك الجندى الذى لا اسم له ، الراقد تحت لهيب الذكرى الذى لا ينطفئ . وكم من وفد قوامه امرأة واحدة فقدت فى الحرب عزيزا اختفى أثره ولم يعثر عليه بين القتلى فهى تحج حجيج الذكرى إلى هذا الايوان متسائلة : أولا يكون هو الراقد هنا يا ترى ؟

وتتعدد الحفلات التذكارية قبل الظهر ، وبخاصة عند الأصيل ، فى أماكن مختلفة . فكانت أروعها حفلة كنيسة دار الأنفاليد ، المخصص ريعها لمساعدة جماعة المحاربين القدماء . وقد وضعت تحت رعاية رئيس الجمهورية وتصدرها كبار القواد ، وتطوع مشاهير الموسيقيين للعزف فيها كما تطوع ممثلو الأوبرا والأوبرا كوميك رجالا ونساء للغناء . وليس فى برنامجها ما يغنى سوى قطعة باللاتينية طويلة شهيرة ، وضعت مقاطعها الأربعة عشر وفاقا لمراحل "درب الصليب" فى آلام السيد المسيح مما يعرفه المسيحيون وأهل الموسيقى من جميع الأديان . مَنْ من هواة الموسيقى فى العالم لا يعرف ولو لحنا واحدا من ألحان (Stabat Mater) ؟ وهذا مطلعها باللغة العربية :

كانت آلام الوجيعة ،

والدموع منها سريعة ،

واقفة تحت الصليب .

اشتغل المغنون كل ما فى أصواتهم من جمال ، وكل ما فى فنهم من ثقافة وأصول ، وكل ما فى أرواحهم من شجن وخصب ليتعاونوا على إخراج تلك القطعة المؤثرة فى صيغة قد كانت ترضى ملحنها الإيطالى روسينى . وقد لحظت أنهم ينطقون اللاتينية على الطريقة الإيطالية التى يزعمونها أقرب إلى النطق الأصلى ، مع أن للفرنسيين عادة طريقتهم الخاصة فى نطق تلك اللغة القديمة .

وأبدع صوت بلا جدال كان ذلك "السوپرانو" صوت إحدى ممثلات الأوبرا كوميك . كانت المغنية شابة ، ذات ملامح بطبيعتها ساهية فى معنى من الكآبة . وثوبها القاتم غاية فى البساطة ، كثوب بنات المدارس . وعلى رأسها ما يشبه قلنسوة البحار . لم يكن على صدرها من حلية ولا بيدها من خاتم أو سوار . وزميلاتها مثلها فى بساطة الهندام . أولئك الباريسيات المشهورات بالمغالاة فى التأنق وبالإفراط فى التبرج يظهرن فى يوم الذكرى بتلك البساطة ولو فى حفلة مشهودة !

مضت النساء فى الترنيم فرادى وجماعة ، يقاطعهن مرة صوت رجل ومرة اصوات رجال ، فيأبين إلا المضى فى شدوهن حتى النهاية لإذكاء الذكرى فى الجموع الحاشدة . ويعود الرجال إلى التفرد بالغناء أو إلى الاشتراك فيه ، وتصر النساء على مثل ذلك فيغنين آنا فى حرقة ، وآونة فى انتحاب جملة بعد جملة ومقطعا بعد مقطع . فاذا بأصوات الرجال ، وقد تضافرت جميعا وتوحدت فى جوق رهيب ، تنضم إلى أصوات النساء كلهن معا فتحيط بها من كل صوب ، وتطغى عليها وتجرفها فى غمرتها المكتسحة العجاجة . فاستجمعت النساء ما عندهن من قوة وحماسة متحولات عن الأنين والانتحاب ، وأرسلن أصواتهن ثائرة مهددة تحدّث الأكوان كأصوات الرجال ، عما تم وقوعه من الفوادح والمحن . واسترسلت الأصوات جميعا فى إعلان نبأ الكارثة وترديد ذكراها حتى ملأت الفضاء تفجعا . وخيل أن العالم كله يتجاوب بأصداء الفجيعة . وخيل أن جدران الكنيسة تترنح جانحة إلى التهدم ، كأنها لا تقوى على احتمال هول تلك الذكريات العاصفة . وانتاب الجمع إحساس كاحساس من يداهم بالزلزال . وجنت الأوركسترا جنونا فى آلاتها الثلثمائة وكأن جنونها استفز طغمة

من بنات الجان غير المنظورات فاستشطن غضبا وهجمن على الأوتار كلها فقطعنها كلها بحركة واحدة . فعم الدمار . وكان سكوت مفاجئ وكان سكون مرعب .

* * *

ليس فى الكنيسة ما يستنار به سوى ذلك الخيط اللامع فى شحوب، الضرورى للعازفين والمغنين . أما الجمع كله فمغمور بالظلام . إذ ذاك من صدر الكنيسة ، من وراء خيط النور الواهى ، وفى وسط السكون الشامل تعالى صوت مترنح كأنه يخرج من تحت الأنقاض وكان ذلك "سوپرانو" الممثلة الحسناء . أهذا الصوت وحده نجا من الزلزال فقام يبتهل ويتوسل متركزا شيئا فشيئا :

إجعلى، أمى الحزينة ،
الجراحات الثمينة
قلبنا القاسى تصيب !

... لدينا شعور بأن جبارا يتحرك فى مضجعه المرمرى . أتكون أنت ، أيها الهاجع هنا، تحت قبة الأنقاليد الفخمة منذ سنة ١٨٤٠ ؟

أجل ، هذا أنت يا نابليون ! أنت تتحرك مستيقظا بعض الاستيقاظ لتذكر مئات الالوف من جنودك الذين اشتروا مجدك بالدماء وبالأعمار من غيرما مساومة! غير أن الذكرى لا ترتاح الى الجراح ولا تقف عندها . أنت تستعيد ذكرى العلواء كلها فى حياتك الفذة ، من الفقر فى الصبى الى الذكاء المشبوب ، إلى المطامع المترامية ، إلى العزيمة الماضية ، إلى جوع العظمة وعطشها ، الى جوع التفرد وعطشه . تذكر وجوه النساء المتعاقبة تحت شفتيك . تذكر العالم كله إذ هو ميدان يتأهب لعرض معاركك وانتصاراتك ومفاخرك ومآثرك . تذكر الصعود السريع والعرش المنيع والتاج الرفيع . تذكر لمس طفلك يداعب النجوم على صدرك . تذكر عاصمة فرنسا وقد انقلبت حاضرة جميع البلدان التى غزاها سيفك شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . تذكر يوم كانت كتائبك ترحف من مملكة إلى مملكة، ونسور النصر والمجد محلقة فوق البنود؛ يوم كانت الملوك تمقتك وترهب اسمك ، وكانت الامبراطرة

تحسدك وتخطب ودّك . فتدنى من تشاء وتقصى من تشاء، وترفع من أحببت وتذل من أبغضت . يوم كنت تملى إرادتك على الدول وتفرض أنظمتك على الشعوب، وقد أقمت فى كل من عواصمها عرشا وتوجت كلا من إخوتك وقوادك وأعوانك عليها ملكا !

... كذلك الذكرى لا تكتفى بالعظمة ولا تقف عند الانتصار . عليك أن تستعيد ما تبقى من الذكريات : ذكريات الاندحار والتجرّد والحرمان ، ذكريات غدر الأقارب والأصدقاء وربيبى نعمتك . ذكريات هجر النساء، ووداع الجيوش، وفراق مليك روما الرضيع . يوم أسيت ولا قصر، ولا صولجان ، ولا أهل ، ولا وطن . ثم النفى ، ثم الغربة الطويلة ، ثم الوحشة الأليمة عند تلك الصخرة القصية تحت سماء لم تلمح بين كواكبها كوكبك الافل ! ...

لا ، لا ! عنك الحركة وعنك الذكرى ! عد إلى رقادك الدهرىّ، وحسبك رجاء، يا أبا النسير، ان ولدك قد يقبل عليك طائرا فيهجع عند قدميك بعد حين !

٢

الذكرى فى الظلام :

قصر اللوفر، مسلة مصر، قوس النصر

قالت السيدة الفرنسية دليلتى الى هذا الاحتفال :

— الآن ، بعد كل هذه المتعة الفنية، شىء واحد يليق بأن يكون خاتمة ليوم كهذا اليوم . يجب أن ترى مسلة مصر ليس فى ساحة لا كونكورد البديعة التى يرتادها الجميع ، بل ترينها فى مشهدها الفريد الذى قل من عرفه من الغرباء ومن الباريسيين أيضا . فهيا بنا إلى اللوفر !

جدران اللوفر المهيبة تحول بيننا وبين جلبة باريس، وظلام الحدائق يقصينا عن أنوار باريس . فنحن هنا فى حظيرة تقطنها الذكرى على الدوام .

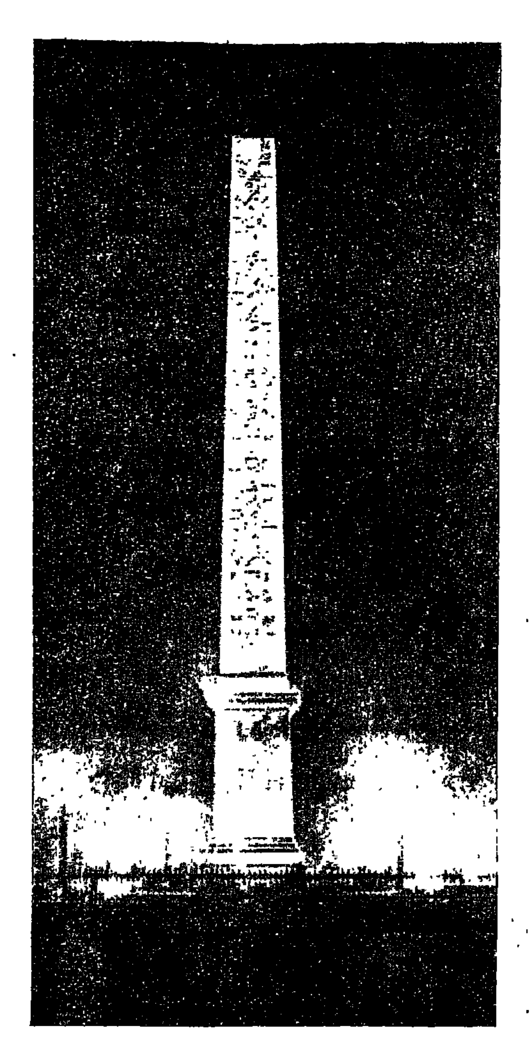
أهذا هو المتحف الغنيّ بين متاحف العالم ؟ كلا . بل هذا حصن العز القديم قصر ملوك فرنسا . هذا قصر "الملك — الشمس" الذى كان يهاب صولة النساء فى حين كان أصحاب التيجان يهابون صولته ؛ قصر لويس الرابع عشر الذى قرب إليه الأفذاذ من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين لخلق من القرن السابع عشر عصرا ذهبيا عرف باسمه : "عصر لويس الرابع عشر" .

خيالات الفرسان والحراس ورجال البطانة والأعوان تتهادى فى جوانب الحديقة المقفرة ... وصوت النفير يدوى فى الليل مؤذنا بتبديل فرقة "الحارس الأزرق" الملكىّ ... ونحن نسير حتى نبلغ قلب المربع الذى يتوسط ساحة اللوفر الكبرى، ووجهتنا الباب الأكبر الذى قد كان يفضى إلى النهر لولا اتصاله بجسر من الجسور العديدة القائمة على السين لتصل بين شطرى المدينة .

— هنا ! قفى ولا تتحركى، فان خطوت خطوة ضاع عليك المشهد . أنظرى من خلال الباب إلى المدى البعيد . أترين ؟

أجل، إنى أرى ، ولكن فى أىّ عالم نحن ؟ هذه الآثار نعرف كلا منها على حدة ولكن كيف تيسر جمعها على هذا الشكل لتتبدل صورتها ويتغير معناها ؟

نعرف أن المصابيح فى باريس كما فى سائر مدن العالم تقوم على جانبىّ كلّ شارع من الشوارع . ونعلم أن السيارة تسير دقائق فى هذا الشارع الفسيح من اللوفر إلى ساحة لاكونكورد الباهرة الأنوار حيث بين التماثيل الضخمة الاثنى عشرة تنتصب المسلة المصرية مجلوة كالعروس، محدّثة بشكلها ونقوشها عن حضارة سحيقة تحتفظ بشخصيتها الخاصة بين أرقى الحضارات . وعند قدم المسلة وحواليها تمرح الأمواه اللعوب متنافرة متآلفة ، متجمعة متجزئة، متناثرة متبخرة فى حزم متقطعة من القطرات البلورية ، والأنوار تغازلها فى شتى الألوان والأشكال قبل أن تهبط فتنضم إلى مجموع المياه الدافقة الجارية .



فى هــذه الساحة الفسيحة كانت ترتكز المقصــلة الرهيبــة التى طالما حزت أعناقا وطوحت رؤوســا . وهدية محمد على إلى الملك لويس فيليب ، مسلة مصر الجميــلة تمحو بوجودها ذكرى الرعب والفجيعة ، لأنهــا تقوم مقــام المقصلة وترتفــع فوق ما حواليها كاشارة بركة وسلام .

ونعــلم أن السيارة تقضى دقائق أخرى فى اجتيــاز جادة الشانزليزية البديعة قبل أن تبلغ ميــدان النجمة البعيــد حيث يتعالى قوس النصر عند مدخل غاب بولونــ الملىء بحفيف الأمواه والأشجار والأسرار .

ولكن من ذا الذى يتخيــل أن باب اللوفر الكبير ومسلة مصر وقوس النصر تتناسق كلها فى خط واحد وتقــترب بينها المسافة عن بعــد فتظهرها وكأنهــا لوحة واحـــدة ؟

المصابيح على جانبى الطريق حبلان نظيمان من الدرر المشعشعة المتلاصــقة ، يسيران توا إلى المســلة فتبدو هــذه أصغر ممــا هى فى الواقع ولكنها تتألف حجرا واحدا من البرلنتى النــاصع البياض الشــفاف ، وقوس النصر يحاذيهــا ويقوم على حراستها مخيما عليها فى عطف وجلال .

قلت : مشهد سحرى كالرؤيا .

قالت : مشهد لا مثيل له فى الدنيا .

قلت : إنه يشبه الذكرى .

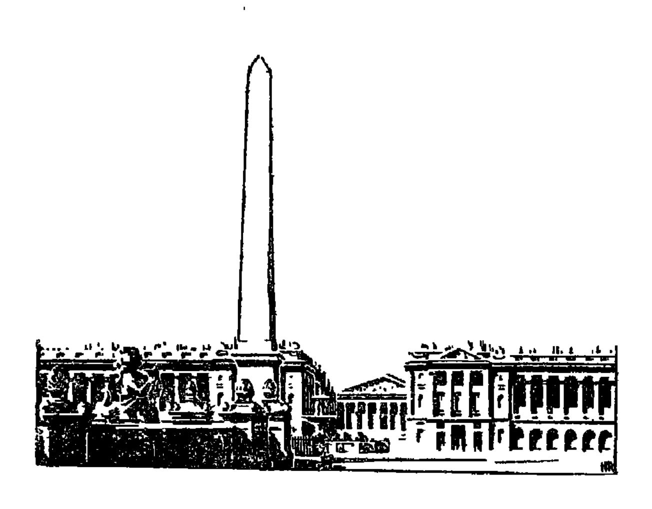
قالت : يذكرك بأىّ شىء ؟

قلت : لست أدرى . فمن الذكريات ما نستطيع أن نعرفه ونوقته ، ومنها ما تغيب عنا الظروف التى أحاطت به . كأنى رأيت هذا المشهد فى عالم لا أدرى ما هو ولا أين هو . من ذا الذى يشرح لى هذه الذكرى ويجلوها ؟



أيها الزائر باريس ، قف فى الظلام فى وسط مربع اللوفر حيال الباب الأكبر ، وانظر إلى مسلة مصر فى البعد تشع كحجر الماس البرلنتى يخفرها قوس النصر ، عساك تشعر بمثل شعورى فتعثر على إيضاح لهذه الذكرى !

« مىّ »



بعد عشرين عاما

لقاء مرغريت

بقلم الأستاذ الدكتور منصور فهمى



لم أشأ أن أقضى أياما بباريس دون أن أطوف ببعض معالم حياتى فى عهد الطلب ودون أن تصحبنى زوجى فى هذا المطاف لتشهد تأثراتى تتجلى حول تلك المعالم التى ارتبطت بها ذكريات مسعدة ممتعة . بل دون أن يشهد كلانا ذلك المسرح الذى مثلت عليه دورا من أدوار الهناء . وهل أهنأ من عهد الشباب ينقضى فى باريس وهل أهنأ من عهد ينقضى فى رحاب العلم والحرّية ... ويا طالما أتاح عهد الشباب للمرء أن ينشط للحياة ويشرق للأمل وطالما مال عهد الطلب بصاحبه من مآزق الحياة وأوصامها . وكان أول ما أخذت به نفسى أن أزور مسكنى رقم ٣٩ فى حارة "چيوسيو" الذى احتوانى مدّة إقامتى بباريس . ووصلنا إلى الدار واقتحمت بهوها ، ولكنى لا كما كنت أفعل من قبل إذ كانت الدار دارى حقا بل سرت هونا كالغريب الذى يخشى أن تصل إليه ريبة مهينة .

لقيتنى الحارسة ولعلها أحست باضطراب يبدو علىّ فتقدّمت فى رفق وقالت هل للسيد حاجة ؟ فقلت صبحك الله بالخير يا سيدتى لقد كنت أسكن فى داركم من نيف وعشرين عاما منذ كنت من طلبة السربون أعرف من حارسات الدار مدام "نيقو" ومدام "كوانز" وهى آخر من تركت منهن . فقالت لقد تخلف على الدار منذئذ سكان وحارسات . فقلت وأنا أشير إلى طابق مطل على الشارع : "هنا كان نزل لمدام "أورين" حيث كنا نطعم . أما مأواى فكان فى هذا الطابق

الصغير المطل على الفناء . وأما المأوى الجنيب له فكان مسكنا لصديقى الحقوقى الفرنسى "جينون" . أما الطابق الأسفل فكان يسكنه جندى من جنود الشرطة مع أسرته . وأما الطابق الكبير الفخم فى الناحيـة الأخرى فكان يسكنه الاغريقى المصرى مسيو "زيجادا" .

كنت أقول ما أقول مستغرقا فى نشوة الذكريات وكانت الحارسة تسمع لحديثى الذى لا يعنى أحدا سواى بصبر وابتسام لأنها نشأت فى بيئة تقدّر قيمة العواطف والذكريات . قالت لى الحارسة فى لطف وتعطف ولكن المسيو "زيجادا" لم يزل فى طابقه حتى الآن وهو لم يخرج بعد فقلت وما أشدّ رغبتى فى أن أراه وتوجهنا لذلك ، وسرعان ما دق الجرس وفتح الباب وتناولت الخادمة البطاقة وأدخلنا فى المكتب وقدم علينا المسيو "زيجادا" .

ـــ عفوا ياسيدى "زيجادا" قد قدمت عليك على غير موعد وترانى زوجا وأبا وتلك هى زوجتى . ولقد طال الزمان على عهدك الأول بى .

فقال ولكن ما أسعدنى بهذه المفاجأة وما أكرمها لدى .

وكأن كلانا يريد أن يسعد بما يوحى اليه عند رؤية صاحبه ، وكلانا كأنه يرحب بشبح المـاضى وبيض لياليه .

ثم التفت الصديق القديم الى زوجتى قائلا لقـد عرفت زوجك يا سيدتى من نحو عشرين عاما وكان يسكن فى هـذا الطابق المطل على الحوش وأشار بيده من شباك داره إلى شـباك مقابل ثم قال وكنت من هنـا ألمح شبحه عاكفا مكبا على الكتاب عند ما كنت أعود فى ساعة من الليل متأخرة . وكأن المسيو "زيجادا" رأى أن خير ما أجامل به فى حضور زوجتى أن يذكر شبابى بالجدّ والاجتهاد . ثم قال : "ولكن التى طالمـا تسألنى عنك كلما لقيتها هى خادمتك «مرغريت»" وما كدت أسمع اسمها حتى كأنى لقيت ثروة طائلة وظفرت من محدّثى بمعلومات عنها ، وما كان أيسر اهتدائى إليها حين عرفت أنهـا تسكن على مقربة فى منزل يطـل على زاوية ضلعها حارة لمستودع الأنبذة . والضلع الآخر حارة «جوسيو» وتحت المنزل مشرب

صغير من تلك المشارب التى تغص بالعمال أحيانا ... سرعان ما ذهبت الى منزل مرغريت وعلمت من حارسة دارها أنها خرجت من دقائق وأنها ربما تكون بالمشرب فالتويت اليه وفيه عمال يتناولون كؤوسهم صاخبين قياما، وفيه آخرون يتناولون القهوة على المناضد عاكفين .

صبحكم الله بالخير يا سادة والتفت إلى الساقى قائلا هل كانت هنا مدام "جنتيل" — وهو الاسم المحترم لمرغريت — قال صاحب الحان: انها غادرتنا من دقائق وخذوا مكانكم يا سيدى فلعلها تعود قريبا . وانتحيت وزوجتى على منضدة وكنا بحمد الله فى أزياء لا تميزنا كثيرا عن طبقة العمال حين يلبسون لأيام عيدهم وآحادهم فلم نحدث شذوذا فى نسق المكان والمكين ولا اضطرابا فى انسجام الجالسين .

وشربنا القهوة وانتظرنا طويلا ولكن مرغريت لم تعد فناديت الساقى ودفعت الثمن، وأغدقت عليه بما لم يكن فى حسبانه، وكتبت كلمة لمرغريت لتنتظرنى غدا فى نفس الموعد، وأكدت على الساقى أن يسلمها الخطاب، وما أسرع طاعة من تغدق عليهم من خدام تلكم القهوات . قال اهدأ بالا يا سيدى فسيصل كتابك اليوم إلى مدام "جنتيل" فاتحة الألواح فى تياترو "س"، وكان ذلك عمل مرغريت فى شيخوختها .

غادرنا المقهى لنعود إلى نزلنا وسرت مع زوجتى رويدا رويدا، وكنت كأنى ذلك الدليل الذى لا يسير بالسائح بعض خطوات حتى يلقى عليه حديثا :

— هنا كان البقال البدين "بنوا" الذى كان كثير التظرف عندما كنا نبتاع منه حاجاتنا من البن والسكر . هنا كانت بائعة الفاكهة واللبن التى كانت ترسل مؤونتى منهما مع أختها المازحة اللعوب شأن فتيات باريس من طبقتها كثيرا ما يطربن للمزح المباح، ويتذوقن الدعابة والملاطفة . هنا كان الحلاق "ليل" الذى أجهدت النفس فى كبت الضحك والقهقهة عند ما تزينت عنده للمرة الأولى ولمحت فى المرآة لحيته الطويلة السوداء تتحرك خلف ظهرى . هنا مطعم اليونانى الذى كنا نهرع إليه جمعا من الشرقيين ليتحفنا بالأرز على طريقة العجم . وفى هذا المنعطف كنا نأكل عند الأب "روبار" كما كان يسميه زبائنه بنحو النصف الفرنك، عند ما كانت تجدب

الجيوب ، وكنا نملأ حانوته الصغير بالجلبة والضوضاء لنستعجل الخادمة "جرمين" بالشواء والسايق . وهنا كان حانوت تستأجر منه الملابس وكان صديق القوقازى الرشيق سليم ب يستأجر بعض هندامه الأسود وقبعة عالية حين يرى أن يتجمل ويتأنق . وهنا كان بائع الكتب نبيع له ونشترى منه القديم . ها هو ذا الجناح فى كلية فرنسا حيث كان يسكن فيه سكرتيرها أستاذى المرحوم "بيكافيه" وطالما دخلت عليه وهو فى مباذله بين الكتب والتحبير وأمامه كوب النبيذ الأحمر وطالما رأيت فى المتز زوجه المحترمة فى جلبابها الأسود ، وعلى عينيها نظارتها الكبيرة تصلح الى جانب أكداس الكتب بعض مايصلح من الخرق . هنا كانت قهوة "ڤاشيت" على زاوية شارع المدارس ونهج القديس ميشيل و بولفار سان ميشيل . وكان يصطفى ركنا من أركانها الداخلية (المصرى العجوز) علامتنا المرحوم عثمان غالب . هاهى فى الزاوية المقابلة قهوة "سوفليه" لم تتغير وكان فى طابقها الأعلى يجتمع شباب المسلمين الذين ربطتهم ببلادهم العواطف النبيلة السامية وكان هنا وهنا كان . وهكذا كنت أتلو صفحات من التاريخ قد يعدّه البعض تافها ، ولو أنصف الناس لعلموا أن أقدس التواريخ هو ما كان فيه للنفس هزة وعظة وتوجيه ، وفى الحىّ اللاتينى لمن عاشوا فيه من الشباب تاريخ فيه حياة وعبرة للذاكرين .

جاء الغد وفى الغد عدت الى المشرب حيث تنتظر مرغريت وما كان أسعدنى إذ لقيتها فى لبستها الداكنة وما كان أسعدها إذ لقيت ذلك الفتى الذى تعهدت بعض شأنه فى الحياة قد شق لنفسه فيها طريقا ولو كان من المألوف لمثلى أن يقبل هذه الشيخة لسارعت لتقبيلها وأودعت قبلتى كل ما أملك من عواطف التقدير للجدّ والعمل ، وما أملك من عواطف الاجلال للأمانة والوفاء ، وما أملك من عواطف الحنان للماضى العزيز . وبالجملة كل ما أملك من عواطف الحب لباريس التى نعمت فيها حينا من الدهر لن يكون منسيا . لكننى سلمت سلاما حارا وأسلمت نفسى لثرثرة مرغريت وهى على عهدى بها مكلام تتناول الحديث فى مختلف جهاته الساذجة فترعاه كما ترعى النار الهشيم المنثور .

حدثيني يا مرغريت . أعلمت ياسيدى منصور ما دهى الآنسة "ماری . ل" إنها كانت كما تعلم ذات نزق وغرور . لقد خاللت المسيو "ب" وكان له زوج وبنون فى الريف وأعدّ لمارى طابقا جميلا فى شارع المرصد وبعد زمن طال على تلك الحياة رأى المسيو ب أن يعود لزوجته ويأوى لركن ،ولكن مارى . ل توعدته وفى حوار حاد الغيرة والحماقة أطلقت عليه رصاصتين من مسدس لم يصيباه ولكن قضى عليها هى من صدمة الانفعال لأنها كانت مريضة بالقلب كما تعلم . وما وراؤك عن أمها يامرغريت ! أما أمها فقد آوت عند أخ لها ميسور فى الريف وماتت كما مات الأب من قبل . شأن الطيش وعاقبته مأساة ، ولذلك طالما حذرت ابنتى " جبرييل " وهى جميلة كما تعلم ، من عواقب الخفة وقد أصبحت الآن من الخائطات المميزات ، وتزوجت بفتى ميكانيكى ولهما ولدان ودار فى الضواحى ، وكلاهما يعمل ويدّخر ويسعد ، وطالما ألحا علىّ أن أكون معهما لكنى مازلت قادرة على العمل ، وأصبح لى بعض مال ، وسيكون لى معاش ، أو لا ترى يا سيدى منصور أن أظل عاملة مستقلة ما دامت لى القدرة ولن أكون عالة على أحد ؟ قواك الله يامرغريت وزيدينى حديثا من أحاديثك العذبة عن الحب والحياة . بل حدثنى أنت ياسيدى ما أمر التركى القصير "ش" الذى هام "بمارى . ل" وهامت بالتركى الآخر الدكتور "ع" . فقلت أما الأول فعلمت أنه لم يوفق فى حياته الزوجية . وأما الآخر فكان من الممتازين فى سياسة أمور بلاده وأصبح من رجالها المعدودين — حدثنى أنت ياسيدى منصور عن الآنسة الروسية " م " تلك الطيبة الوديعة الجذابة ماحالها الآن ؟ فليس من شك أنك تعرف أخبارها !... " صه يامرغريت ولا تطيلى نبش الذكريات كلانا أصبح فى بلاده أبا وأما ، وكلانا دفن عهد الأحلام والشباب ... واليوم أقدمى علينا فى الفندق فى نزلنا فى أول شارع " ڤوجيرار " وسترين زوجتى التى كانت بالأمس فى انتظارك وكذلك ولدى ...

وجاءت فى الموعد المضروب ومعها باقة من الزهر ولقد أشرق وجه زوجتى لرؤية شيخة تعهدت بعض شؤونى فى الصغر ، كما أشرق وجه مرغريت حين رأت

أن من أخلصت له الوفاء فى الله أصبح يبسط جناحه على عائلة سعيدة ... وأخذت تتحدّث الى زوجتى فى تعاطف كأنها عرفتها وأحبتها من سنين ، وكان ولدى الذى آنس بلقائها يتدخل فى الحديث على نحو ما يتخيل كأنه يشعر بقلبـه البرىء أن عنـد هذه الزائرة بعض السر لشباب أبيه ...

وما جاء وقت الانصراف حتى نظرت مرغريت لزوجتى نظرة حنون وقالت : كان زوجك جادا فى حياته وشبابه ، ثم ألقت إلىّ نظرة لا تخلو من مكر فطنت إليه فقلت : ولكن الله يغفر لمن هفا فى شبابه إذا عرف كيف يصون الفضيلة فى ظل الأهل ...

وداعا يامرغريت !

منصور فهمى



طالب طب فى باريس

للأستاذ الدكتور محجوب ثابت



كلية الطب

سكنّا الشانزليزيه وأقمنا فى بنسيون ديڤس بشارع شاتو بريان أمام مقهى "فوكيه" المشهور ومحطة المترو كانت على مقربة منه والهيام والشغف يجتذبانى اجتذابا كى أكون بالحى اللاتينى قريبا من مدرسة الطب والسوربون وكلية فرنسا وأن أكون على مقربة من عتيد مستشفياتها : مستشفى "الأوتيل ديو" حيث كان به الطبيب الباطنى الشهير "ديولافوا" تلميذ "طروسو" الكبير . وحيث أكون على مقربة من مستشفى الشفقة قرب حديقة النباتات حيث كان طبيب الأمراض العصبية ذو الشهرة العالمية "بابنسكى" رئيس قسم بها . وحيث لا نكون بعيدين من مستشفى "لاينك" قرب البون مارشيه حيث كان الأستاذ "لاندوزى Landouzy" وتلميذاه "مارسيل لابيه وليون برنارد" أحد أساطين علماء السل ومكتشف مرض من أمراض الأعصاب يسبب الضمور العضلى يحمل اسمه إلى الآن هو وزميله "ده چرين Déjerine" وهذا الأخير ما كان أكثر شوقنا إلى رؤيته بمستشفى "السالپتريير" العتيد . حيث كان "شركو Charcot" العظيم قد وضع القاعدة العلمية الپاتولوچية لأمراض العقل والمخ والأعصاب والهستريا بأنواعها . تتخطى

عتبة هذا المستشفى فيهولك مرآه ، وتتنبهك الذكريات وتذكر كبار من دخلوه وحضروا على هذا العلامة العظيم . أذكر منهم الشهير "سيجموند فرويد S. Freud" صاحب مذهب التحليل النفسانى الحديث الذى على رأى أستاذنا عالم النفس الجنيفى الشهير "كلاپاريد Claparède" أوجد تاريخا فى علم النفس فيقال قبل فرويد وبعده . وفرويد هذا تتلمذ على "شركو" كما تتلمذ "جانيه Janet" صاحب المؤلفات والأبحاث فى الحالة العقلية للهستيريا والقلق العصبى والفكر المرضى الملازم وعلاجها ولطالما سمعنا دروسه بكلية فرنسا فى علم النفس .

ماذا أقول إن أنس لا أنس أيضا "چلبير بالليه" الذى كان له قسم للأمراض العصبية والنفسية بمستشفى الأوتيل ديو ، كما كان أيضا "بريسو Brissaud" طبيب الأمراض العصبية وتاقت النفس إلى التمرن بمستشفى الولادة أو مدرستى الولادة العمليتين مستشفى "بودولك" و"ترنييه" حيث كان "بودان Budin" منشئ عيادات رعاية الطفل الرضيع لأول مرة بفرنسا . وقد زارنا فيه صديقان : معالى على الشمسى باشا ، والأستاذ الكبير محمد لطفى جمعه المحامى وكان "پينار Pinard" على الجانب الآخر من ميدان المرصد يدمدم ويهتاج إذا ما تكلم عن الرضاعة والولادة الطبيعية وحق الولد فى لبن أمه حق محترم لايجوز التعدّى عليه . وكذلك نذكر عالم أمراض القلب بمستشفى " لينك " الأستاذ "هوشار" وغيرهم من فطاحل العلماء فى الأمراض الباطنية وأمراض الأطفال الذين كانوا على مقربة من ذلك المستشفى . وعلى بضع خطوات من محطة مونبارناس " .

لهذا كله ولشغف نفسى برؤية هؤلاء العلماء وسماعهم والتقاط دررهم اشرأبت النفس الى هجرة حى الشانزليزيه على روعته وجماله والتمتع بمحاسن غابه وحدائقه الخلابة ، فطرنا سراعا وهياما الى الحى اللاتينى حيث نكون قاب قوسين أو أدنى من كلية الطب والمستشفيات التى فوق ميزتها برونقها وغنائها ، فعلى بعضها جلال القدم وصحائف التاريخ نقرأها على غرفها الحاملة لكبار أسماء الجراحين والأطباء ممن وضعوا أحجار الزوايا فى الطب الحديث واحتوت على كثير ممن ذكرنا وغيرهم مما يطول شرحه ممن اقتفى آثارهم وحذا حذوهم .

ولم يطفئ الميراث الطبي الكبير، الميراث العقلي الذى ورثه الأسلاف عن هؤلاء المتوجة بهم أسماء غرف العمليات وقاعات التمريض والاستشفاء ومدرّجات المحاضرات، بل زادوا على ذلك الميراث بما لا يجهله كل من زار تلك الدور العلمية والصحية بباريس . وقرأ مؤلفاتهم وحضر دروسهم .

ولا أنسى أيضا مستشفى شارع سان چاك حيث كان الكبيران "فيدال Vidal" و"شوفار"، محتكرا قسم الأمراض الباطنية به . وقسم أمراض النساء لجراحها الشهير" چان لويس فور"؛ وهو ابن أخت أستاذنا فى الجراحة "ركاو" شقيق الجغرافى الشهير المعروف بذلك الاسم . وكنت ترى على وجهه تقاطيع أهل الجنوب البارزة مما يذكرك جميل الرؤوس العربية والأندلسية والمغربية .

وحدّث أيضا عن معهد باستور الكبير حيث علم الميكروبات الذى شيد لأجله يضرب الباحثون فى مختلف معامله المتعددة الغنية بسهم وافر، وحيث يرحل اليه من أقصى البلاد، كما تدلك الصورة التى فيها على من كانوا معنا من مختلف الأجناس والملل والنحل . وحيث وجدنا الأستاذ "رو" مكتشف ميكروب ومصل الدفتريا فى وقت واحد و"بهرنج" و"لوفلر" بألمانيا . وحيث "متشنكوف" الشهير مكتشف نظرية الحصانة والمناعة، وافتراس الخلايا للخلايا بما أسماه "الفاجوسيتوز" مثبتا نظرية السجال والعراك الخلوى بين خلايا الجسم وذراته كما هما بين عالم الحيوان وعالم الانسان . ولا أنسى أستاذنا "لافران" مكتشف ميكروب الملاريا حينما كان فى الجزائر وما أحلى صورته الكاريكاتورية التى تمثله طبيبا عسكريا متقلدا رمحا وممتطيا هجينا شرقيا يشخن الناموس طعنا باكتشافه ويبدّده إربا إربا ...

ولقد كنا أيضا لوجودنا بالحى اللاتينى على مقربة من مشرحة النيابة الباريسية "المورج" التى كانت على أيامنا على جزيرة السين أمام كتدرائية نوتردام التى تغنى بها هيجو، وذكرها ديكنز أيضا فى أخباره أيام مقامه بباريس . وفى هذا المورج كنا نحضر ثلاث مرات فى الأسبوع الصفات التشريحية الطبية

الشرعية على أساتذتنا : "برواردل" الشهير صاحب المؤلفات العديدة والموسوعات الطبية الشرعية والباطنيــة النفيسة . ومساعده الشهير "ڤيبير Vibert" و "دسكو" والدكتور بول" والأستاذ "بلتازار Balthazard" أستاذ الطب الشرعى الآن وكان زميلا لنا فى الدرس عليه . ولا أنسى وجهتنا بعد هذه الصفات التشريحية إلى مستشفى الأمراض العقلية الملحق بسجن باريس و بسراى محكمتها الكبرى أو سراى العدالة (Infirmerie Speciale du Dépôt de la Préfecture de police) . حيث كنا نتمرن على تحليلات نفسية للتهمين المرسلين بالنـائب العمومى و يحوّلون من سجن المحـافظة إلى هــذا المستشفى الملحق به ، كى يفحصه أســتاذنا جرنييه (Garnier) أو الشهــير "إرنست دوپريه Ernest Dupré" صاحب التـآليف القيمــة ، والبحوث النفسية الإجرامية المشهورة ، وأحسن من لاحظ "مانيا الكذب المرضى (Mythomanie) أو الاختراعات الخيالية" وأفرد له بحثا فياضا نراه الى الآن واقفا على قدميه مثبت الأركان ، وكذا أوجد ما أسمـاه "توافه العقليــة الشيخيه" : "البيورايزم سنيل Puérélisme séuile" وغيرها مما أفاض به عقل هذا الطبيب النفسانى العظيم الذى توفى من عهــد قريب بعد أن شغل كرسى الأمراض العقلية بجامعــة باريس خلفا لأستاذنا "چلبير باليه Gilbert Ballet" صاحب المؤلف الشهير فى الأمراض العقلية ونظرية المسئولية المخففة يكتشف مرض القلق العقلى (Anxiété Nerveuse) . وكان من بضعة شهــور قد خصصت مجــلة الآداب والعلوم بحثا لأحد تلاميــذ دوپريه فى الانعكاسات العصبية . وكتابه على أمراض الخيال والانفعالات حجة فى موضوعه صدر بباريس سنة ١٩٢٥ (Pathologie de l'imagination et de l'èmotion) . ممـا يفيــد رجال القضــاء والباحثين فى الأمراض النفسية .

ولا يمكننى أيضا أن أمر دون أن أذكر الأستاذ چوفروى بمستشفى الأمراض العقلية "سانت آن St. Anne" و "پيير مارى Pierre Marie" الذى كان يحضر مرضاه من مستشفى "بيستر Bicêtre" الى مدرّج كلية الطب بباريس . وله آراء قيمة مبتكرة فى مراكز القوى النفسية بالمخ وأمراض الغددذات الأفراز الداخلى .

وهل يجوز أن أنسى مستشفى "سان لويس" بالضفة الأخرى، وكان يوصلنا اليه ترام " مونروچ " البخارى الذى كان يعكر سماء شارع سان ميشل بزفراته السوداء، ودويه المزعج فى هـذا الحى الباسم الوديع، الذى لاترى فيه إلا ربيع الشباب حتى ولو غيم ضباب الشتاء... فهذا المستشفى كانت به العيادة الخارجية للأمراض الجلدية والزهرية ، كأنها سوق كبرى يتناوب العمل فيها ما لا يقل عن العشرين طبيبا فى الصباح وبعـد الظهر وهو مجانى طبعا يعرف فيـه المريض بنمرة . وكنا نتمرن به بحضور العيادة الخارجية لأستاذنا "جوشى" وقد سألنى مرة حينما امتحننى " أمسلم أنت"؟ فقلت : نعم . قال : أتشرب نبيذا؟ فقلت "أحيانا" فقال: وكيف ذلك وقد حرّم دينك عليـك هذا ؟ فقلت أشربه للتداوى والفائدة الطبية وخوفا من ماء باريس فى بعض الشهور . فابتسم وتدرّج فى الامتحان من هـذا السؤال الى سؤال عن تأثير المشروبات الروحيـة فى البلاد الحارّة على مضاعفات الأمراض الجـلدية والزهرية وتأثيرها على النسل .

ماذا أقول لك وهل أنسى الدرس الاكلينيكى بالأستاذ هالوپو (Haloppeau) وله كتاب قيم فى علم الأدواء العـام (الپاتولوچيا العـامة) . وكان الأستاذ جوچرو (Gougerot) طبيبا مساعدا بهذا المستشفى فى ذلك الوقت . وهو الآن أستاذ أمراض الجـلد والزهرى وقد كان حضر مع أعضاء مؤتمر الاتحـاد الدولى لمقاومة الأمراض الزهرية فى شهر أبريل سنة ١٩٣٣ وسألناه عن هـذا المستشفى البابلى ! وعن السلف ومن ودع هذه الحياة بعد أداء أشرف واجب .

وكان فى ذلك الوقت عدد طالبات الطب أقل نسبيا ممـا كان فى چنيف أو لوزان . وما كان أرخص دراسة الطب بباريس نسبيا . اللهم إلا دراسة فروع التخصص، فقد كنا ندفع فيها مبالغ تتراوح بين جنيهين والعشرة جنيهات فى الفروع التى تستدعى ثلاثة شهور على الأقل . مثل الأمراض الجلدية والزهرية والأمراض العصبية . وأكثر من ذلك بقليل لدراسة فرع الطب الشرعى . وكان معهد باستور يدفع له أقل مما يلزم . وما تكلفت مصاريف معيشتنا بباريس فى متوسطها شهريا أكثر من خمسة عشر جنيها بعد أن عرفنا الحياة بها، وكان الشخص يأخذ بدراهمه

و زيادة ... أو على الأقل لم يكن ثمت غبن . فبخمسين سنتيما قهوة فى مقهى "سوفليه" على تقاطع شارع المدارس بشارع سان ميشل . تشرب بها قهوة حقيقية ، وكيف لا تشرب قهوة عند الفرنسيين وهى شرابهم الوطنى وشرابنا وتتنبه منها خلايا المخ العليا ، خلايا العقل المتجانسة خلايا الإنسان العالى فى تلك المنطقة المعروفة بالقشرة السنجابية ، وكنا نقرأ فيها عددا يضيق المجال عن ذكره من المجلات وكبريات الجرائد . فمن جريدة الطان ، والفيجارو ، والغولوا ، والأورور ، والانترانسيجان لرشفور الشهير ، والدبا ، والليبرتيه ، وجريدة پول دى كاسنياك المبضعى اللسان ، ومجلات العالمين (Revue du deux Mondes) ، والمجلة الوردية العلمية المعروفة (Revue Rose) ، والمجلة الزرقاء (Revue Blue) ، ومحاضر جلسات المجمع الطبى ، وجريدة البروجريه مديكال ، ومحاضر جلسات المجمع العلمى الفرنسى .

أنظر يا سيدى كيف نتعلم من جلسة فى القهوة يوميا ساعة أو ساعتين فقط . فعندك المجلات المصوّرة : الالستراسيون ، والموندالستريه ، والجرافيك الانجليزية والتيمس ، ولندن نيوز . وهذه الجرائد الانجليزية تراها أيضا مع بعض هذه الجرائد الفرنسية اليومية الكبرى بقهوة "كلونى" (Cluny) أيضا قبالة مقهى سوفليه .

ولا أنسى أن أقول لك إن "غمبتا" كان من المتردّدين على هذه القهوة كما أخبرنا الجرسون وكان رجلا تجاوز الستين عمرا . وما أغرب التسمية وأقساها ! ... وكنا غالبا نتحاشى نداءه بياجرسون ، وكان عزيزنا المرحوم عثمان باشا غالب يسأل عنا فى هذا المقهى من ذلك الجرسون الشيخ الذى أطلق علينا اسم "الفيلسوف" أظنه لتضايقه منا ومن طلباتنا عديد المجلات والصحف والمضابط حتى مضابط مجلس النوّاب وكانت بها ... فمقهى سوفليه ليس بالمقهى فى المعنى الذى نعرفه فى مصر . وما أبشع مقاهينا فما هى إلا لنرد أو ورق أو رغاء وثرثرة وقهقهة ونكات تتضارب مع نكات ... وليس مقهى سوفليه كالمقاهى عندنا ، ولكنه قاعة مطالعة ومؤانسة واستجمام متجرّدة من قسورية قاعات المطالعة المحرومة من منبهات للقوى الفكرية . وأرى أن تسميتها كما يسمى الأتراك بعض مقاهيهم أولى ، فما أصح كلمة "قراءات خانة"

على قهواتهم المزودة نوعا ما بالصحف والمجلات. فانظر بخمسين سنتيما أو بعبارة أخرى بخمسة عشر فرنكا فى الشهر يتعلم الانسان ، فالذى ألف ذلك مثلى من إخواننا الذين شربوا قهوة فى تلك المقاهى يألمون حقيقة على فقدان مقاهينا حتى أكبرها وأفخمها من هذه النعم الجزيلة . فمن ينكر على باريس أن تكون حتى فى مقاهيها وملاهيها مدرسة اجتماعية كبرى ومعملا لعلم النفس الاجتماعى "بسيكولوچى سوسيال" ودرس نفسية الجماعات ومدينة العلم والضياء : وكان شوقيا قد ترجم هذه الحال بأفصح ما يقال :

زعمـوك دار خلاعة ومجانة ... ودعارة يا أفك ما زعمـوك

إن كنت للشهوات ريا فالعـلا ... شهواتهن مرويات فيـك

تلدين أعـلام البيـان كأنهم ... أصحاب تيجـان ، ملوك أريك

والعـلم فى شرق البلاد وغربهـا ... ما حج طالبـه سـوى ناديك

وكم من مرة خرجنا من قهوة سوفليه وصديق مراد سيد أحمد (باشا) وقصدنا السوربون على مدى خطوات أو الكوليج دى فرانس حيث كنا جد مشتاقين الى رؤية وسماع الأستاذ الفليسوف الكبير برجسون (Bergson) ، والاقتصادى العظيم لروا بوليه . ولوفاسور (Levasseur) مدير هـذه الكلية . وفرنسوا فرانك الفسيولوچى عالم وظائف الأعضاء الشهير بأبحاثه وجلاى (Gley) الباحث فى الغدد الصماء (وكان لا يصطحبنى اليهما الصديق مراد (باشا) .

وكم كان يلذ لنـا حضور الأسـتاذ الطبيب جورج دوماس (G. Dumas) إذ كان محاضرا فى السوربون فى علم النفس . وأذكر أننا سمعنا كثـيرا من آرائه فى الانفعالات (émotions) ، ولا أنسى الأسـتاذ تارد (Tarde) الكبير بكليـة فرنسا حيث سمعنا بديع تعبيراته على الإسيكولوچيا بين العقول (Psychologie Intermentale) والعدوى العقليـة يطول الشرح والنفس حسرى والسـلام على هذا الفردوس الفياض بالنور والعلم والحرية والاستقلال ...

تلك أيام فوالله ما ذكـرت ... إلا وقطع قلب الصب ذكراها

محجوب ثابت

٥

تمثال وكتاب

سافرنا الى باريس عن طريق وادى النهر الجنوبى "الرون" حيث مررنا بليون وباوكسر . وقابلنا فى طريقنا بعد ليون بقليل تمثال لويس الرابع عشر يبزغ وسط المدينة ليأسرها فى ذكريات أسرة البربون . وكان التمثال ضخما هائلا مغطى بأجمعه تحرسه جنود كثيرة، ويشرف على الطريق فى ضخامته كأنه كومة من الأسرار. إذ أن "دون كيشوت" لو رآه لهاجمه ومع ذلك فقد كان النـاس يعفونه من تهمة الجبـل ... وكنت قـد ابتعت كتاب أغان منذ لحظـات ووضعته فى جيبى وقد حدثت نفسى عند ما رأيت التمثال " إن فى جيبى كتاب أغانى برنجار وهو لن يمتعك قليلا أو كثيرا بالحياة يا تمثالى العزيز ... "

إن التماثيل تشاد وتتهدم كما تحطم آجال أصحابها بعد إذ يناضلون لمبدأ أو لرأى وتبقى بعد ذلك الذكرى على السنين لا تستطيع أن تصرعها وإن صرعت أصحابها وسلبتهم نعمة الحياة ولكنها فى كفاحها للذكرى تقويها وتشد فى أزرها فتتجالدان دون أن يسفر جلادهما عن النتيجة الموموقة، بل تنعكس الآية وتسقط السنون صرعى الذكر بينما ترسل هذه أمواجها الى الآباد .

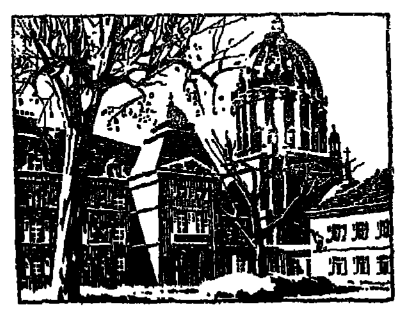
ثم حدثنا مرشدنا ونحن فى الطريق لم نصل بعـد الى باريس ان ذلك المرتفع المقابل لليون هو " منت بيانكوا " فاستدرنا اليـه فاذا هو يشير الى "مون بلان" (الجبل الأبيض) وقد تدثر فى جلباب من الضباب ما أن يستبين امرؤ منه شيئا . وكان بازغا يناطح السماء ويغـرق أنفه الضخم فى طيات بخارها وهوائهـا وهو داكن اللون الى الذهبى منها أقرب كأنه يتصل بسور ليس من عالمنـا، بل من عالم الخلود ... انها لذكرى تبعث فى الفؤاد روعة ورهبة وتبعثه أن يذكر الخالق ويتدبر أمر الوجود، ذكرى نحتفظ بها فى جعبتنا ننشرها كلما احتجنا الى هاتف يهتف بنا أن تنبهوا الى حقيقـة الوجود واذكروا سوء المآل ، ذكرى ندخرها كلمـا أعوزت

وجوهنا مسحة من الزهد والقناعة والرضى نغتسل بهـا من أدران العالم ونطوف بها في جنات الله !

وكان علينا أن نبقى فى باريس يومين اثنين وكان فى رأسى بالتالى فكرتان : واحدة تتعلق بالثورة وما جرته من الويلات وكيف اشتركت فيهـا عناصر من شتى الآمال ومتباعد الرغبات، والثانية تتعلق بالعهد الذى ظهر فيه أمثال موليير و بوالو .

وقد اتجهت أولا شطر السوربون لمشاهدته وذهبت بعـد ذلك لأرى المكان الذى كانت توضع فيه المقصلة "الجيوتين" ذلك المكان الذى تحوم فيه أشباح من اغتالتهم الثورة الجامحة الرهيبة، وبينهم مجرم أطاح رأسه الإجرام، وبرىء ما له من ذنب أو جريرة، ولكنها سنة الثورة فالقتل دون التقيد بالسبب رد فعل لتلك المظالم العديدة التى أملاها حيف طبقة على طبقة، فكان من الطبيعى أن يحدث الانتقاض على كل ما هو كائن ليبنى على أنقاضه خلق جديد . فكأن الإنسانية تعود القهقرى لتسترد نشاطها الأول، ثم تبدأ نضالها من جديد كما كان شأنها منذ الأزل .

ولعل باريس تلك المدينـة الجميلة التى تبهج الرجل العـادى بمبانيها وشوارعها تبهر أيضا الأديب بكثرة الكتب فى مكاتبها . ويلوح لى أن الفرنسيين يميلون إلى اقتناء الكتب القديمة ولكن حبهم للثقافة الجديدة يطغى على هذا الميل، فقلما يرى الإنسان كتبا كتلك التى تبحث فى سير القديسين وما إلى ذلك، وإنما الغالب أن يرى أبحاث روسو وفولتير تغرق كل مكان . ولقد أخذتنى باريس بجمالها حتى لقد قالت "لو لم أكن انجليزيا له حنين إلى أصدقائه ومزارعه لكنت أمضيت البقية الباقية من حياتى هنا فى باريس فى غرفة فوق مكتبة عامة أنهـل منها وأحدق فى سمـاء باريس وأقضى الأصائل فى الشانزليزيه" . لاى هنت



ڤال دى جراس

باريس بين الحرب والحب

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا ... ...

اعتاد الناس هنا تحمل الآلام من جراء هذه الحرب وليس لديهم الآن أصدق من الأثر الشهير. نعيش لنتألم. والانسان اذا اعتاد المصائب قابلها بصدر رحب ولم يكد يشعر بشدتها، كالسعادة يعتادها المرء فلا يشعر بلذتها، والصحة يتمتع بها الرجل فلا يقدّرها قدرها. والحرّية تغمر الشعب فلا يفهمها ولا يعرف أن يستفيد منها. والمحاربون الآن كالمريض يصبر على تحمل آلام المرض. ينال من صحته ويهدم من حياته. ولكن أمله فى الشفاء ينسيه أحيانا شدّة الألم ويدفعه الى المقاومة. تتكلم الفتاة هنا فتذكر خطيبها أو أخاها فتقول: لم يصل إلى شيء من أخباره منذ زمن طويل ولعله قتل أو أسر. تقول ذلك بدون تأثر وكأنها تخبر عن شيء اعتيادى مألوف. وقالت لى سيدة فى أثناء حديثها: كنت أود أن أتعلم الاشتغال بآلة الكتابة لعلى أجنى من وراء ذلك شيئا فانى لا أضمن حياة زوجى لأن الموت لا يبقى على أحد فى ساحة القتال.

وسألتُ فتاة: "هل تصل اليك أخبار من أخيك" فقالت: أيهما! الذى اختفى أثره من أوّل الحرب؟ أما هذا فلا أدرى عنه شيئا. وأما الثانى وربما أدرك أخاه لأنه فى الصف الأوّل من صفوف القتال، فلا أعلم عنه شيئا منذ شهر. وكانت تصلح قبعتها فى أثناء حديثها فنظرت فى المرآة بعد أن وضعتها على رأسها وسألتنى. أتعجبك هذه القبعة؟ ولم تنتظر الجواب وقالت هى من عملى وابتدأت تغنى صوتا مشهورا:

"لن يتسنى لك أن تعرف ما يجول بخاطرى من حب وغرام، ولا من يملأ فؤادى حبه الآن، ولا إن كنت أحبك أو أبغضك، ولا إن كنت أتألم من أجلك أو أسخر بك. تريد أن تعرف ما يجول بخاطرى لن يكون شيء من ذلك ...".

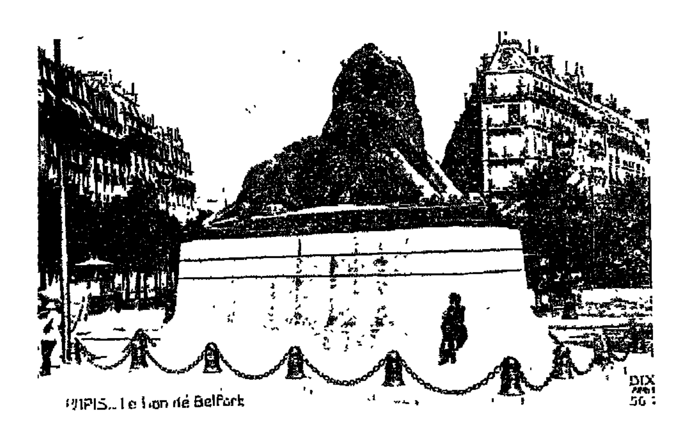
فقلت فى نفسى يا سبحان الله ما أشجع هؤلاء الناس وما أصبرهم على النار كذلك وأكثر من ذلك شجاعة وصبرا تكون الأمة الفرنسية المنكوبة الآن.

كانت الليلة مقمرة والسماء زاهية صافية . والجو فاترا والنسيم عليلا كأنا فى فصل الربيع لا فى جوف الشتاء والسلم يحلق فى سماء باريس التى تبعد عن ميدان القتال بنحو مائة من الكيلومترات . وأكثر من مائة ألف من السكان خارج منازلهم يملئون بيوت التمثيل ودور اللهو يتسلون بذلك عما فى نفوسهم من أثر هذه الحرب الدهماء، ويتناسون ألم الموت الذى يحصد النفوس بلا شفقة ولا رحمة .

وفى نحو منتصف الليل والناس فى اطمئنان منغمسون فى نومهم العميق جال رجال الحريق فى العاصمة يوقظون السكان (بصفاراتهم) المزعجة إنذارا بالخطر وعلامة على وصول طيارات الأعداء إلى سماء باريس ... فخرج كثير من السكان الى الطرق والشوارع يرقبون السماء لعلهم يرون واقعة هوائية لأنهم يحسبون ذلك منظرا جميلا لا تنسى رؤيته كل يوم . وحمل بعضهم أطفاله الصغار ونزل بهم تحت الأرض فى الطبقة السفلى وفضل بعضهم حرارة الفراش مع الاستسلام الى القضاء على تذوق ألم البرد ، ولم يكن يعلم أنه بعد دقائق معدودات سينقض الخطر وتمطر السماء موتا يلتهم الطفل من ثدى أمه، والفتاة تسبح فى آمالها الواسعة، والمرأة من فراش زوجها، والشيخ والمريض من مأواهما ومهبط آلامهما .

ألا ياعاصمة العلوم والفنون ومأوى اللهو والسرور هلمى الى القتال والحرب سجال وسواء عليك أقتل أبناؤك فى ساحة الوغى والقتال أم داهم الموت العجزة والأمهات والأطفال وهم فى منازلهم آمنون وفى بيوتهم مطمئنون ما دام لابد من موت الأفراد لحياة الأمم .

أحمد ضيف



أسد بلفور (تمثال الدفاع الوطنى لحرب السبعين)

طالب فن فى باريس

كل ما يقال أو يكتب عن باريس لا بدّ أن ينتهى بك دائما الى لون من ألوان الفنون سواء من هذا حديثك عنها جادّة عاملة قوية — أم هازلة ماجنة مستهترة .

نشأ الفن فى باريس وتشبعت عناصره حتى امتزجت بكل مرافق الحياة فيها ، فتراه أمامك فى البيت وفى المدرسة وفى الطريق وفى الأرض والسماء والهواء وفى كل مكان ! ! — واذا أنت تتبعت هذه الناحية من عظمة باريس وبحثت عن أصل النهضة الفنية فيها ساقتك قدماك حتما الى مدرسة الفنون الجميلة العليا بشارع بونابرت .

فى تلك المدرسة تخرّج المهندسون والحفارون والمصوّرون وغيرهم الذين خططوا باريس وبنوها ونسقوها وملأوا متاحفها ومعارضها بأعمالهم الخالدة ، وأخرجوا لنا باريس بالصورة التى نراها عليها الآن .

لا يقبل الطالب بهذه المدرسة إلا بعد تأدية امتحان الدخول مهما كانت شهاداته ومؤهلاته العلمية يستوى فى ذلك الفرنسى والأجنبى . ولأقسام المدرسة (إتاليهات) تقاليد خاصة قديمة العهد لا تزال محافظة عليها الى اليوم ، منها أنه مفروض على الطالب الجديد أن يقوم بخدمة زملائه الأقدمين مدّة عام تقريبا علاوة على دراسته الخاصة . هذه الخدمة تنحصر فى مساعدتهم فى أعمالهم ورسومهم وفى أن يقوم الطالب مرة كل أسبوع بقضاء مصالحهم الخاصة ، كشراء الأدوات أو نقل اللوح والاطارات والحوامل بواساطة عربات خاصة يدفعها أمامه فى الطرقات دون غضاضة أو خجل !

ولكى يشعر الطالب الجديد أنه أصبح فردا فى العائلة المدرسية ، ولكى يزول ما قد يكون بينه وبينهم من الكلفة يشرب الجميع نخبه على حسابه الخاص يوم دخوله ، ثم يطلب منه أن يقف فى مكان مرتفع بينهم وأن يغنيهم أنشودة أو يلقى عليهم خطبة بلغة بلاده . فاذا امتنع عن ذلك أحاطوا به وجرّدوه من ملابسه ثم دهنوا جسمه بالبوية عقابا له ! ! !

وتعقد المدرسة عدّة امتحانات كل عام يتميز واحد منها بأن الطلبة عند ما ينتهون منه يتبارون فى إقامة نماذج فكاهية (كالكرنفال) يسيرون بها حتى مدخل مقبرة العظماء (بنتيون) حيث يحرقونها أمامها وسط الهتاف والتهليل .

وفى يونيه من كل عام، قرب انتهاء الموسم الدراسى تقام الحفلة الكبرى المسماة (4 Z'Arts) وهى حفلة يقوم لها الطلبة ويقعدون ويعطونها أكبر قسط من اهتمامهم .

تقام هذه الحفلة خارج المدرسة حيث تختار لها صالة من أكبر صالات باريس وأعظمها ، وهناك لجنة خاصة تقرّر المظهر المراد إخراجه فى الحفلة (عصر قديم أو تقاليد قديمة) فيتسابق كل قسم على حدة فى بناء اوج كبير لطلبته على النحو المقرّر، ومن نجح فى التعبير عن الفكرة المقصودة أحسن تعبير نال فخر الأولوية ، وتستمر هذه الحفلة طول الليل حتى الصباح بين الموسيقى والسمر والعشاء والرقص والألعاب وغير ذلك !!! — ولا يسمح لغير طلبة المدرسة بحضورها .

والآن عند ما أستعرض ذلك الماضى العزيز وتلك الذكريات الحلوة تتجسم أمامى هذه الحقيقة وهى أن الفرنسيين قوم يعنون بتنظيم لهوهم بقدر ما يعنون بتنظيم جدّهم ولا شك أن هذا سر النجاح .

ابراهيم فوزى

مهندس معمارى



صفحة من صباى

للأستاذ محمد لطفى جمعة

كانت باريس قبل الحرب مركز العالم . وقد عرفتها فى تلك الفترة وهى مستهل القرن العشرين . وكان وصولى اليها بفجر يوم من شهر أغسطس سنة ١٩٠٥ ولا ينسى المسافر الشرقى بلوغه تلك العاصمة العظمى ، ولا سيما إذا كان فى الصباح عند ما تتيقظ مدينة النور نصف يقظة .

وفى الحق أن باريس لا تنام . وفيها أماكن وجماعات وأفراد لا يعرفون الكرى . وقد بلغتها ممتلئا بشهوة الاستطلاع التى تكاد تبتلع كل شىء . وإن كانت الحقيقة فى أغلب الأشياء لا تنطبق على الخيال الذى يرتسم فى الذهن قبل المشاهدة فان باريس بلا ريب استثناء لتلك القاعدة . لأن حقيقتها أعظم من خيال يرتسم فى ذهن القادم عليها .

لأنها مدينة جميلة ، وذكية ، وعالمة ، وعفيفة ، وحاذقة ، وفاجرة ، وصريحة ، وماكرة ، ولعوب ، وذات جد ووقار ، ومباحة ، وذات أسرار ... بل هى سجل للحياة ، وقاموس للوجود ، ومعرض لكل أنيق ودقيق وجليل ودميم وحقير . ومثلها لدى عالم النفس والاجتماع كمثل طبقات الارض التى تكونت فى مدى ملايين السنين .

وفى باريس التى تعاصرك آثار من اللاتين ، والقرون الوسطى ، ومذبحة سان برتلمى ، وأبهة الملك المطلق ، وحرب الطبقات ، وثورة ٧٩ ، وفتنة "المشاعية" (La commune) والفروسية ، والفنون ، والأدب ، وفى كل بقعة من بقاعها ، بل فى كل درب من دروبها موعظة وذكرى ، ولذة وألم ، وسرور للنفس وانقباض للقلب . وفى كل عمارة من عمائرها أو ساحة من ساحاتها الكبرى ما تهتز له أوتار القلب وتختلج له ذرات الفؤاد ... فهنا حلقة للدرس ، وهناك أثر سجن مظلم ، وعن اليمين قصة غرام ، وعن اليسار ذكرى مجزرة بشرية فى سبيل المثل الأعلى ،

أستغفر الله بل فى سبيل المثل العليا . فقد جعل الفرنسيون لكل شىء مثلا عاليا، فهنا شهداء الحرية ، وشهداء العلم ، وشهداء العدل، وشهداء المال ، وشهداء اللذات، وشهداء الجريمة، حتى الجريمة فى أبشع مظاهرها لها فى باريس شهداء !

وعليك أولا أن تعثر فيها بالسكن الذى تأوى اليه سواء أكان نزلا فخما فى حى الشانزليزيه أو بيتا وسطا فى الربع اللاتينى ، أو وكرا صغيرا فى شارع فواچيرار أو "رودساس" الذى عاش فيه معظم عظماء المصريين فى الجيل الغابر أمثال المرحومين مصطفى كامل، ومحمد فريد، وحسين رشدى وغيرهم من الأحياء . لأنه على مسيرة خطوات معدودة من هذا الشارع الهادئ الجميل الذى تحده من شرق دار الولادة "ماترنيتيه" . وعن غرب حديقة لكسمبورج، يصل السائر فى هوادة الى ميدان الرصدخانة "پلاس دى لو بسرڤتوار" . وفيه مرقص "بولييه" المحل المختار فى عهدى لطلاب الحقوق والآداب والفنون . وكانت تقام فيه فى كل سنة حفلة مرقص "الكاتزار". وعن الشمال محطة السكة الحديدية الى ضاحية "جيف" حيث كانت تقيم ولا تزال تقيم مدام چولييت آدام حليفة المصريين فيما مضى وحبيبتهم وأمهم الحنون ، وربيبة بطلهم الوطنى الأول مصطفى كامل . وعن اليمين "بلڤار سان ميشل" بدبكته ودربكته وهرجه ومرجه وغوغائه وضوضائه وجلبته التى لا تنقطع . وقهواته التاريخية ولا سيما "كافيه ڤاشيت" التى طالما أوى اليها "هنرى مورچيه" مؤلف (La Vie de Bohême) . والفريد دى موسيه صاحب "الليالى" ومؤلف "فتى العصر" و"بول ڤرلين" الغزل الذى كان فى أخريات لياليه ينظم قصائده على قصاصات الورق ، ويمزج بين الغربى المؤنث والمذكر حائرا فى عبقريته المظلمة بين قصة أوسكار وايلد ومواهب "أرتمور رمبو".

فاذا انحدرت قليلا الى اليمين وجدت ركنا من الأرض محاطا بسياج فيه جدار يريد أن ينقض . أولته بلدية باريس عنايتها لأنه من مبانى القرن الثالث عشر... فاذا ما سرت قدما وأخذت سمتك على الربوة العالية كانت مقبرة "البانتيون" الى يمينك وهى مدفن العظماء أمثال ڤولتير وروسو وهيجو وزولا ... وعن يمينك كوليج

دى فرانس، ومعهد السربون، ومدرسة النورمال . وكلها مصادر النور الذى انتشر فى أنحاء أوربا اللاتينية . والى اليمين بانحراف شارع چان چاك روسو. وفيه فندق "چان چاك روسو" الذى نزلته كما نزله فى زمن كل طالب مصرى عند قدومه الأوّل الى باريس . فقد دلنى عليه المرحوم عثمان غالب باشا، والأستاذ مرسى محمود، والدكتور منصور فهمى، وتوفيق باشا الساوى، والمرحوم سيد كامل . فقد اجتمعنا كانا ليلة قدومهم موفدين من الجامعة المصرية فى صيف سنة ١٩٠٧، ولا أزال أذكر صلاح منصور فهمى وتقواه إذ كان يبحث عن قبقاب وإبريق للوضوء فقد كان هذا عهد تصوّفه وانشغاله بقراءة كتاب "عوارف المعارف" للسهروردى . كما كان سيد كامل يبحث عن كتاب "سينيبوس" فى تاريخ أوربا الحديث . وكما كان غيرهم يبحث عن أستاذة تعلمه اللغة الفرنسية بشرط أن تكون فتية وجميلة لتكون قاموسا للخلوة السعيدة !

وكانت حجتى الأولى الى "البانتيون" وما أنس لا أنس قبر "روسو" وقد جعلوه فى قبو له باب يظنه الرائى مفتوحا وهو مغلق وتخرج منه يد سحرية تحمل مشعلا من النور، رمز عجيب للأثر الضخم الذى تركته حياة روسو ومؤلفاته فى أذهان فرنسا والعالم قبل الثورة الكبرى .

وعلى سلالم هذا البانتيون نفسه، عند ما كانت صفوة باريس وخلاصة أبنائها ، وخاصة أدبائها وعلمائها ، يصحبون إميل زولا الى مرقده الأخير، وكان "دريفوس" بين المشيعين عرفانا لجميل هذا الرجل العظيم الذى وقف أسعد سنى حياته على الدفاع عنه لأنه اعتقد أنه برىء ومظلوم — اعتدى مجرم متعوّد الاجرام برصاصة مسدس أصابت "دريفوس" فى ذراعه اليمنى ، كأن كل ما قاساه بطل "جزيرة الشيطان" وضحية "الغرمصون" والمتعصبين ، لم يكن كافيا للانتقام منه لأنه يخالفهم فى الدين .

وعلى مقربة من هذا الحى نفسه كانت تعيش طائفتان متمردتان ثائرتان عاصيتان فخورتان بالتمرّد والثورة والعصيان، هما طائفة الهنود الأحرار والروس

الخارجون على حكومة القيصر . وكانت الطائفة الأولى تعيش فى كنف امرأة أمثالها فى الرجال قليل ، ومثيلاتها فى النساء أقل ، وهى المرحومة الطيبة الذكر مدام "رستم كاما" التى أنفقت مائتى ألف جنيه على الدعوة الهندية وكانت تنشر جريدة "باندى ماترام" ومعناها "تحية اليك أيتها الأم" وهو سلام الهنادك للبقرة . ويساعدها فى التحرير "هارويال" و"شاتو بارايا" و"سافاركار" . والشق الآخر من الهنود يمثله "شياموچى كرشنا فارما" وهذا وزير قديم فى بعض إيالات الهند وخريج أكسفورد، وتلميذ "هربرت سبنسر" الأعز . وهو وحده الذى تبرعا لوصيته رثاه على قبره سنة ١٩٠٣ قبيل إحراق جثمانه . وكان هذا الرجل أرستوقراطى النزعة ويعيش فى حى باسى (Passy) ، ولعله فى شارع لا پومپ (La Pompe) حيث كان ينشر جريدة (The Indian Sociologist) وكانت معرضا لأقلام فحول كتاب الهند . وكان يزين غرفة استقباله بلوحتين كبيرتين كتب على الأولى بالهندى كلمة "سوارج" ومعناها "الاستقلال" . وفى اللوحة الثانية صورة المجيد الذكر "تلخيه" الذى يسمونه بالانجليزية "تيلاك" وهو زعيم الهند الأول وأستاذ غاندى . وفى منزل هذا الرجل حيث كنت أتغدّى على مائدة هندية ما طهته يد الهنود وأتفكه بثمر المانجو مملحا . رأيت للمرّة الأولى والأخيرة "خابردى" الصديق الحميم لتيلاك الذى جاء باريس فى طريقه إلى لندن ليطلب باطلاق سراح صديقه المسجون تيلاك .

والطائفة الثائرة الثانية كانت طائفة الروس ولم يكونوا فى تلك الفترة يعرفون المشاعية ولا يطالبون بها ، ولكنهم يطالبون بالحرّية مجرّدة ويلحون على القيصر فى فك أسار "الدوما" بعد يوم الأحد الدامى أوّل يناير سنة ١٩٠٥ الذى أطلق فيه الرصاص على شعب بطرسبرج وهو سائر فى مظاهرة سلمية نحو قصر الشتاء ليرفع ظلامته إلى من كانوا يسمونه بالأب الصغير "نيقولا الثانى" .

وكانت هذه الطائفة تجمع الأدباء أمثال "ديمترى ماچروفسكى" مؤلف كتاب "ليوناردو دفنشى" و"مليكون" الذى صار فيما بعد زعيم حزب "الكاريه" .

و" بوريس إيڤانوف" . و" جوركى " . و" تشرنوف " . و" بورتسيف " .
وللاسف تضم بين ثناياها الخائن الأكبر" آزيف" الذى كان أوّل طبعة من نوع الـ (agent provocataire) الذى تصف قلبه مع الثورة ويده اليمنى مع الشرطة).
وكانت تضم لفيفا من النساء ربات الجمال والجمال والذكاء. ومنهنّ المؤلفات والشواعر والمصوّرات وبنات الوزراء وسليلات بيوت المجد اللواتى هجرن وطنهن وبيوتهن فرارا من الاستبداد وطلبا لاستنشاق نسيم الحرية فى باريس .

هذه هى كانت النظرة الأولى التى ألقيتها على تلك العاصمة .

وكانت النظرة الثانيـة فى مكاتبها ومتاحفها ولا تزال ذكرى زيارتى للمكتبـة الأهلية فى شارع ريشليو من أحلى الذكريات وأروعها فانك فى وسط العلماء الأعلام حيث تحتك بكل أديب من "چورچ لنوتر" فصاعدا . وترى أمامك ووراءك وعن يمينك وشمالك مئات ألوف الكتب منظمة فى مواضعها فيهولك المنظر الذى يلوح عند ما ترى عشرات الموظفين يخدمون جمهور القراء فى أدب وهدوء وطاعة ومعونة حتى يخيل إليك وأنت غريب الوجه واليد واللسان أنك فى مكتبتك الخاصة يحوطك الندل والأعوان، ويقدّمون إليك كل ما تشتهى من ألوان العلوم وصنوف الأسفار فلا يضجرون إذا أخطأت ولا يملون إذا بدلت وغيرت ولا يكشحون بوجوههم إذا استفهمت واستعلمت .

وعلى مقربة من دار الكتب مطعم صغير يكفيك مؤونة الانتقال وقت الظهر إلى شوارع باريس وزحمة المطاعم .



أما الركن الذى أحببته أكثر من كل شيء فكان مقعد فى" بارك مونصـو " حيث كنت أشهد تمثـالا أقيم هناك لتخليد ذكرى الكاتب الأوحد الذى شغفت فى ذلك العهد بقراءة كتبه وهو "جى دى موباسان" . فقد صنع له المثـال صورة امرأة من نساء باريس فى (آخر الزمن) (fin de Siècle) مضطجعة على شيزلونج

ومتكئة برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة على معصمها الفتان . وفى يدها الأخرى كتاب تقرأ فيـه ولعله قصة حياة (Une Vie) . وفى أسفل الأثر إلى اليمين ميدا يون من المرمر الناتئ تمثل صورة جى دى مو باسان فى الأربعـين من عمره وهى السنة التى مات فيها فى مصحة الدكتور بلانش . وقد كان هـذا التمثال مدعاة للتأمل والتفكير فإن المرأة الراقدة فى يقظة النعسان وإن كانت من المرمر الملوّن إلا أنهـا ناطقة بعشرات المعانى التى لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف على الصورة

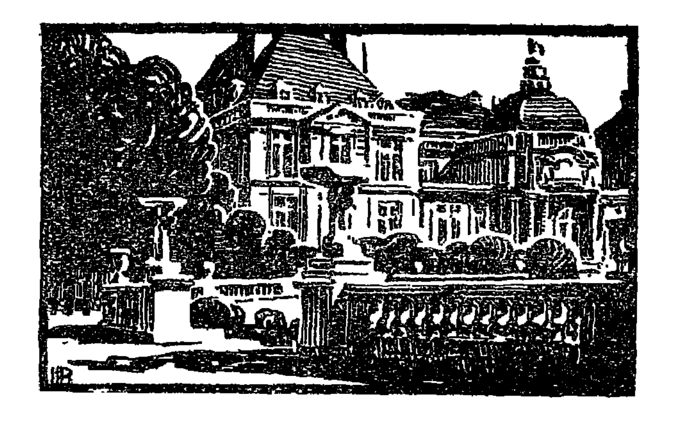


العجيبة التى أودعهـا " جى دى مو باسان " كتبه سـواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار أم التوادر الصـغيرة . إمرأة فى مقتبل العمر وروعة الجمـال عليها كل مظاهر الفتنـة والحيرة أمام لغز الحب والحيـاة . وكأنها تطلب حل هذا اللغز من ذلك الكتاب الذى تقلب فيه أجفانها أثنـاء تقليب صفحاته ، ولعلها تقرأ بعينيها ، وعقلها وقلبها . هناك بعيد جدًا تتبع رجلا فى خطواته وتسائل نفسها عن وفائه وخيانتـه أهى مهجورة فى مضجعها أم منتظرة حبيبها أم يائسـة من لقائه أم تائبة بعد أن اكتوت بنار الحب الحامية اللذاعة ؟ وعلى مقـربة من ذراعها التى تحمـل رأسها رأس ذلك الكاتب العجيب الذى استطاع فى مدى عشرة أعوام أن يؤلف أربعين كتابا هى : جماع الحياة والحب وعلم النفس والوصف الدقيق والوفاء والخيانة والغـدر واللذة والألم بديباجة مسـبوكة فى أسـلوب معدوم النظير وسـط

بين "فلوبير" و "أناتول فرانس" . وكان من جهوده أن انطفأت فجأة تلك الشعلة وخبت نار الجبار الذى أثبت صورة الحياة كما رآها ولابسها وأحس بها ، كما يدخل شعاع من نور فى مخروط من البلور فيتحلل الى سبعة ألوان . وقد أودع كل لون فى سفر أو سفرين من كتبه العظيمة . واذا قرأت "لاهورلا" لا تحسب أن كاتبها الذى تغلغل فى نفس ذلك القاضى المجنون هو الذى ألف "بول دى سويف" وهى أكمل قصة قصيرة باجماع آراء النقاد . ثم ترجع البصر وهو حسير فترى ذلك المؤلف العبقرى ، وقد فقد عقله ، وعاد الى حالة الطفولة المهتبلة فى مصحة الدكتور بلانش يزرع بذورا من النبات و يقول لمرضه الأسيف : إزرعها هنا لتنبت عددا عديدا من "جى دى موباسان" !

فكنت أجلس حيال هذا التمثال فى وقت الأصيل و بين يدى كتاب من مؤلفات هذا الرجل العظيم وفى لحظة عين أستعرض حياته وكتبه ومصيره .

محمد لطفى جمعه



عز طارف ومجد تليد

فى قلب باريس

لم أكن أعرف من باريس إلا تلك الأنوار التى تظهر عن بعـد تحت نافذتى الصغيرة "كأنها عيون الشياطين، تلك الأنوار التى تتوهج من شارع سنت أونوريه ولم أكن قد أدركت من مدينـة النور إلا ضجة العجلات التى بقيت إلى وقت كان من المستحيل علىّ فيه أن أكون منتبها لها والتى ابتدأت ثانية قبيل الفجر ... ولم يكن فى استطاعتى أن أرى من غرفتى أكثر من بيوت البلدة الطوال ذات المنافذ المتكاثرة حتى على أسطحها، تلك البيوت التى تصلح أن تكون مسرحا لكل قصـة من أى نوع ... وشارع سنت أونوريه من أقدم شوارع باريس وهو ذات الشارع الذى قتل فيـه هنرى الرابع ملك فرنسا، ولكنه رغم ذلك ليس يبدو فى جزئه هذا فى مظهر الشارع التاريخى القديم .

وبعـد الساعة الواحدة انصرفنا جميعا إلى المسـير فى شارع ريفولى ... ونحن فى هذا الشارع من باريس فى قلبها قريبا إلى كل ما يعرفه من يقرأون أو يسمعون شيئا ما عن باريس فاللوفر يقع فى هـذا الشارع ويبعد عنه قليـلا "باليه رويال" ويلتصق التويلرى باللوفر وعلى مسيرة خطوات من ميدان الكونكورد والشانزليزيه على مرأى منه .

إن مجد باريس وروعتها أفرغا علىّ كل الدهش والاعجـاب، فهاهى العمارات الجميـلة المنتظمة التى ترتب نفسها فى بهـر رائع وفتون بالغ وهنا وهناك منظر لشارع أو ميدان يتوسطه عمـود تذكارى أو مسلة قديمـة أو قوس نصر يوحى الى الذهن بعض كبار الحوادث من التاريخ البعيد والقريب . فباريس فى الواقع تمتـاز بشىء عن كل بلدان العـالم قد تشركها فيـه أثينا الغابرة ذلك هو اتصالهـا الوثيق العرى بتاريخها، وتلك الروعة الخاصة التى يحسها المرء فى جوها الطويل الذى ينفذ إلى عصور وعصور فى ضمير الأزل . ذلك الشعور الذى يقفز الى رأس الانسان وهو

يذرع شوارع العاصمة و يزكيه ما يراه فى كل مكان فيها من روابط الماضى و بقايا التاريخ مما لا تجده فى بلدة كلندن والحقيقة التى لا مرية فيها هى أن لندن لا يمكن ان توازن بباريس على وجه من الوجوه، فالأخيرة تمثل نوعا فريدا قيما من المدن أبعد ما تكون عنه بلدة كلندن . فأنت لا ترى فى العاصمة الانكليزية الكبيرة إلا وجوها مستطيلة ومعاطف سوداء ولفتات من الشفاه واحدة وتستطيع أن ترى هذا على صورة لا تتغير كثيرا فى جميع بلدان انجلترا . ولكنك فى باريس تقابل حياة غير هذه الحياة ، ووجوها تختفى لتحل محلها وجوه أخرى تختلف عنها كل الاختلاف . ترى فى باريس الجنود والقسيسين والشرطة وقد وضع كل على رأسه اللباس الذى يشتهى، فمن قبعات مرتفعة الى قبعات رجال الدين الى العمائم وغيرها . ترى فيها الوجوه المستديرة والمستطيلة، البيضاء والسمراء وخاصة وجوه فلاحى فرنسا اللبنية الممتلئة التى لاتستطيع أن ترى مثلها فى غير فرنسا . ترى فى باريس صنوفا متباينة من الأجناس كل منها يسترعى انتباهك و يثير دهشتك .

ولعلك تعجب اذا كان الله قد منّ عليك بذوق فنى ممتاز من همة الفرنسيين ونجاحهم فى فن العمارة . فميدان الكونكورد مثلا أعجوبة ظاهرة فى جمال البناء والتنظيم وهو يتسع لأن تشيد فيه أمة كل الآثار التذكارية لانتصاراتها ومجدها فأنت تجد على جانب منه التويلرى، وعلى الجانب المقابل الشانزليزيه ، وفى الناحية الثالثة نهر السين .

وقد قضينا معظم وقتنا اليوم فى التفرّج على ما فى قصر اللوفر من العجائب أو فى الحقيقة فى استعراضها استعراضا سريعا اذ من العسير أن يهضم الانسان كل الفن الموجود هناك فى يوم واحد . والواقع أنى بدهت بما فى ذلك البناء لا بصوره فقط بل بأوضاعه ونقوشه وعجائبه التى لايتخلص الانسان من واحدة منها حتى يرى أخرى أكثر إمتاعا وأشدّ استرعاء للخاطر من سابقتها، وبعد التمتع بتلك التحف الفنية انتقلنا الى قاعة تحفظ بها آثار الملوك الفرنسيين السابقين . وقد كان هناك بضع صنوف من الأسلحة والأثواب التى حملها ولبسها أكثر من واحد من ملوك فرنسا العظام .

ورأينا كذلك كتابا دينيا يخص القديس لويس التاسع ومرآة للزينة مرصعة بالأحجار الثمينة كانت فيما مضى تواجه كاترين دى مديتشى فى حجرة زينتها . وقد حاولت أن أجرب منظر وجهى فى المرآة نفسها التى كانت تظهر وجه الملكة القديمة .

فلو أن هؤلاء الملوك عادوا من قبورهم ليتسلم كل منهم مخلفاته لكنت ترى كل الأسر الفرنسية التى توالت فى الحكم على فرنسا وكل أفرادها يتجاذبون الأسلحة والمرايا والصور والسيوف والخناجر وغيرها ، ولكنت رأيت نابليون وهو يلم مخلفاته ويجمع معطفه وقبعته ومكتبه وفراشه التى كان يستعملها فى ساحة القتال وأطباقه وسكاكينه وحتى دبوسه الذى كان يحزم به غطاء شعره فى بعض الأحيان !

ناثنيال هوثورن





أعياد باريس



منذ أربعين عاما

يوم فى باريس

بقلم شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران



باريس منطقتان : إحداهما داخلية أهلية وفيها مئة درجة للصعود الى أعلى ذرى العلم والفن ، وفى أنق جو للأخلاق القوية والآداب الراقية الصادرة جميعا عن ذوق مبتكر سليم . والثانية خارجية مختلطة تنفغر فيها تحت الأقدام مئة درجة للانحدار الى مهاوى الفساد وبؤر الشهوات .

غير أن الذى اشتهر عن باريس بجملة حالها ، قديما وحديثا ، أن حسناتها ترجح سيئاتها رجحانا كبيرا ، وأنها بالحس والمعنى لا تباهى ببدائعها ، ولا تنافس فى روائعها فلا خلاف فيما أجمع عليه المتقدمون والمتأخرون من أنها مدينة الأنوار .

وما أعرف فى الحواضر حاضرة بلغ الناس من حبها ما بلغوه من حب باريس فى مختلف أقطار العالم على أننى منذ نعومة أظفارى أحد أولئك المحبين .

ولقد كانت رحلتى الأولى اليها عام ١٨٩٣ ، دخلتها فى إبان فصل الربيع ، وأقمت فيها أشهرا لم أنس الى اليوم — وفى التقادم ما ينسى — أمرا جل أو دق مما شهدته أو سمعته أو تأثرت به فى تفقدى لمعاهدها ومعايشتى لطبقات شتى من أهلها . إلا أننى آثرت للكتاب الشائق الفريد الذى يضعه صديق الأستاذ الأديب المجدد أحمد الصاوى محمد وصف يوم كنت حدثته عنه ، فطرب له ورغب إلىّ فى إعادته ليطالعه قراؤه ومريدوه .

فارقت فى الصباح منزلا صغيرا كنت أقطنه فى الشانزليزيه، وتمشيت خببا نحو الساحة المعروفة بساحة الاتحاد (كونكورد)، ولم يكن لى غرض معين أسعى اليه وإنما كنت عازما على استشارة أناس ألفت لقاءهم فى ندوة يختلفون اليها ليرشدونى الى أفضل ما اتجه اليه قبل الظهر فى ذلك اليوم العظيم ... وناهيك به من يوم عظيم للذين كانوا يشهدونه فى تلك الآونة : الرابع عشر من شهر يوليه أو العيد الوطنى للفرنسويين .

فبينما أنا سائر على مهل، وبالى هادئ، والجو صحو طلق إذ طرق أذنى دوى بعيد كأوائل الارعاد، ثم أخذ يشتد كلما خطوت، ويعلو كلما دنوت الى أن تميز عن صخب كصخب الموج المتدفق، فما ناهزت ساحة الاتحاد إلا وهى مكتظة بالاف الآلاف من الخلق كبارا وصغارا، شبانا وشيوخا .

وكنت على مألوفى ألبس طربوشى، وفى سمتى ما يشير الى عنايتى به، فألقيت على نفر ممن صادفت فى أطراف ذلك الحشد الزخار سؤالا عن سبب ذلك الاجتماع، فأجابنى أحدهم متلطفا لما كان باديا من غربتى " هذه زيارة تؤديها الأمة فى هذا العيد من كل سنة لتمثال ستراسبورج " وكان هذا النصب دون الأنصاب التى تمثل حواضر ولايات فرنسا قائمة حوالى ساحة الاتحاد، مجللا بالسواد منذ فقدت فرنسا الالزاس واللورين فى نهاية حرب السبعين، فألف أهلها أن يعتمروه للذكرى وتجديد العهد باسترداد الالزاس فى العيد الوطنى من كل حول . وقال لى آخر من أولئك النفر الذين صادفتهم " إن حفلة هذا اليوم لم تسبق بضخامتها لأن حوادث العام كانت مستفزة للنفوس، ومثيرة فيها الشوق الى الأخذ بالثأر من ألمانيا " . وقال ثالث : « وسيخطب الناس شاعرنا الوطنى بول ديروليد" . فأدركت من هذه العبارات المتناثرة، وما سمعته بعدها كل المعنى الذى يستفاد من مثل ذلك التألب الضخم لا سيما وأنى كنت على شىء من العلم بما يجرى فى أوربا عامة، وفى فرنسا خاصة، إذ كانت نشأتى وتربيتى ومطالعتى فى الصحف فضلا عن كتب الأدب وغيرها توجه نوازعى فى متجه نوازع هؤلاء

القوم، وتظهرنى على ما كبر وصغر من موداتهم وموجداتهم . ثم زادنى النفر الذين حادثتهم رعاية لشأنى وتدافعوا برفق ليفسحوا لى مجازا، ولعلهم ظنونى ملحقا بالسفارة التركية هناك ، أو حسبونى من ذوى المكانة فى الشرقيين، فقلت لهم كلمة الشكر ، فاقتحمت السور المتراخى، وتخللت الزحام الخانق مميما شطر التمثال "إداور" وأصارف وأعجل وأصابر حتى انتهى بى المسير بعد ساعة من الجهد الجاهد إلى موقف مقارب لقاعدة التمثال . بارك الله فى الصبى وحميته وتطلعه، وقلة اكتراثه للخطر فى طائل أو فى غير طائل . أنا اليتيم الذى كان فى عهد عبد الحميد لا يدرك كنها للفظة الوطنية، وغاية ما يفهم منها كما كان يفهم كل عربى متفيئ ظل ذلك الحكم الثقيل، أننا كنا عبيد السيد وتبعا عليهم كل التكاليف لمتبوع له كل الحقوق . أنا ذلك اليتيم جدّ بى تشوّق بل تلهف لأشهد كيف يحيي القوم الذين حررتهم الثورة الكبرى من الرق ، وكيف يتكوّنون متوافدين من كل صوب وحدب ليبدوا بمشهد من الشمس الطالعة مكنونات قلوبهم من حب أو بغض ، من رضى أو غضب ، وليعيدوا غير ناسين ذكرى ما أصابهم من الذلة فى عقبى حرب السبعين، فيستأنفوا عقد العزيمة على الانتقام متعاهدين على الشجاعة والجلد والتأهب الدائم لبذل النفائس والنفوس فداء للوطن .

اتخذت حيزى كما استطعت ولزمت مكانى أجيل النظر فيمن أرى، وأملأ أذنى بما أسمع ينفى العجب من جسمى كل شعور بالكلال ، ويجمع أجزاء نفسى حس واحد بين الذهول والروعة : هو الاكبار .

هذا ولما يبدأ بالحفلة فيا لله لما بى إذ دنا الميقات وطفقت ترد الفرق والجماعات إلى شقة حرام أشبه بنصف دائرة جدّ واسعة تجاه تمثال ستراسبورج، أخليت لتجتمع فيها الفئات المنظمة التى تمثل كل حزب من الأحزاب السياسية وكل مذهب من مذاهب الرأى الاجتماعى أو الاقتصادى، وكل ضرب من ضروب الفكر العلمى أو العملى، وكل لون من ألوان الفنون أو الصناعات أو الحرف إلى ما يخطئه العدّ . فكانت كل فئة تأتى تلو الأخرى وموسيقاها تتقدّمها كاملة الآلات

عازفة إلى أن تكشف الجماهير عنها فتدخل الأرض الفضاء حاملة أعلامها وتمشى إلى التمثال فتضع على قاعدته إكليلا نخما، ثم تتراجع إلى موقف يعين لها فى ذلك الفضاء.

كم عدد الفرق التى تتابعت ؟ لعلى أخطئ حسابها قلة إذا قلت مائتين . وكم راية رفعت من كل جانب ؟ مئات . وكم قطعة للتطريب حملت ؟ آلاف . وكم الأكاليل التى جىء بها ؟ حسبى فى الدلالة التقريبية أنها غطت التمثال على ارتفاعه وتكدست حول زوايا القاعدة إلى أن أخفته وقامت حوله قيام البرج المربع الباذخ .

فلما حان الموعد علا المنصة أمام التمثال "پول ديروليد" وصفق له من صفق من الذين رأوه عن كثب . پول ديروليد الذى كان أفصح ناطق لوقته بلغة الغال تتغنى الخاصة والعامة بأناشيده الحماسية . القائل فى بعض قصائده المرددة بكل لسان :

ضرب الطبل وعزف نفير الكفاح

من المتخلف عن الصفوف ؟ لا أحد

هذا شعب ينفح عن حياته

الى الأمام الى الأمام !

أو بلسان عربى أفصح :

قُدُماً قُدُماً

علا "پول ديروليد" تلك المنصة وأيامئذ لا يعرفون (المصدية الجهيرة) فهل كان لذلك الخطيب مدره الجماهير أن يصدع بقول يتسامعه نحو المليون من الخلق، وكان تهامسهم فى تألفه يقصف قصف أشدّ الرواعد ؟

لم يجد الرجل الذى نبرات صوته الروحانى كانت تحرّك أرواح أمة الى التفانى فيما يدعوها اليه، لم يجد ذلك الرجل بدًّا من الإقرار بعجزه عن البلاغ فى ذلك الموقف فنادى بأعلى صوته الجهورى وهو بين تلك الزمجرة الشائعة المالئة الفضاء لا يعدو صوت نحل المناعز : "أيها السادة لتحى فرنسا لتحى الالزاس واللورين" .

دعا هذا الدعاء وهبط من المنبر وتوارى علم الأعلام فى المنبسط العريض من رؤوس الأناس كما تقع أعلى قطرة من قمة أعلى موجة وتستوى بماء المحيط .

وههنا كانت آية الآيات فيما شهدت وسمعت . أبسط شيء وأفعل شيء فى النفس . سكت الخطيب فارتفعت فى آن معا أصوات الموسيقيات جميعا ، وعلت بالتوافق معها أصوات ذلك الجمع الذى لا نهاية له بالنشيد الوطنى بتلك الكلمات المجنحة التى تنقل كل سامع من عالم الأشباح الى عالم الأرواح ، وتغلى الكرامة القومية بقدر ماترخص التغذية الفردية ، فكانت تيارات من سيال حار مسكر مذهل قوى تمشى فى مفاصلى وبين جوانحى ، وكنت أشدو مع الشادين بكل عزيمة قلبى ، حتى اذا حانت منى التفاتة الى شيخ فان بالقرب منى ، مديد القامة ، أشيب اللة ، مرتعش الأعضاء ، وجدته ينشد هو أيضا وكأنه يعطى آخر بقية من قواه بما يخرجه من صدره ، ولمحت لؤلؤات صافيات تتساقط من عينه الى لحيته المستطيلة البيضاء ، فلم أتمالك نفسى عن البكاء وتهدّج صوتى تهدّجا شديدا فى أثناء إنشادى مع المنشدين . وهيّ لى وأنا الوديع الموادع أنه لو كان لى وطن ، ودعيت كهذا الدعاء للذود عنه ، ومكافحة عدوّ معتد عليه أو غاصب شيئا من حقه لهان علىّ الأصعبان : أن أغدو قاتلا أو أن أروح قتيلا .

خليل مطران



ميرابو

رأس السـنة

باريس كلفة بأعيادها كل الكلف وهاته الأيام من أسعد أوقاتها وأبرئها ، وإن كنت أخشى أن ينتهى زمن الأعياد الجميلة التى يلبس فيها الباريسيون ملابسهم " الكرنڤال " . ولكن مما يطمئن حقا أن الباريسى الصميم ممن يحبون التنكر ، وهذا أصيل فى نفسه فهو يميل بطبعه إلى تغيير ملابسه . ولذلك ترى الباريسيين يرحبون بالأيام التى يستطيعون خلالها إبدال شخصياتهم بغيرها تفريجا عن نفوسهم ، أو حتى الظهور بشخصياتهم العادية إذا كانوا ممن يضطرون إلى إخفائها أثناء عملهم ...

على رصيفة الزهور
"كاى دى فلير"

والفرنسيون شغفون أيضا بمشاركة الأطفال ألعابهم والتشبه بهم ، وهذا مايدفعهم إلى التمسك بأعياد المرافع والظهور فيها بأشكال مضحكة للغاية ، ولعل أحدا منا نحن الانجليز إذا فكر أن يداعب طفله ثم ارتأى أن يلتف فى سجادة أو ملاءة سرير لكى يمثل له شكل الدب ، فمن المؤكد أنه سيخجل من نفسه آخر الأمر ، ويجد أنه أسرف فيما لا ينبغى . أما الرجل الفرنسى المراح خفيف الظل فلن يتحرج حتى أمام الناس أن يرتكب أحمق الحماقات التى يتورع عنها الأطفال لكى يبعث السرور إلى قلب ولده وهذه سجية طيبة نستطيع أن نحمدها فيهم .

وهذا هو السر فى أنك ترى فى شوارع باريس ما يثير فيك العجب والدهش ، لن تبعد عدّة خطوات عن منظر حتى ترى منظرا سواه وهم ينتحلون الأعذار لهذه

الصور، بل إنهم يتأثرون بمشاهدتها كما يتأثر الأطفال الصغار من مشاهدة سرب من الفيلة فى ملعب عام ... وحقا أنه لمما يبهج الفؤاد أن يرى الانسان صفا من العربات الجميلة التنسيق المحملة بالزهور تغرق فى وسطها الفتيات الجميلات مشرقات حتى كأنهنّ زهور وورود، وإذ يمر مهرجان كهذا فتسمع جميع من يشهدونه من الفرنسيين مرحين طروبين كأن حدثا هاما قوميا قد ألح فى تطلاب المسرة من نفوسهم فتسمع واحدا يلاحظ شيئا غريبا على الفتيات مثلا، فيضحك فى كثير من السرف وواحد يتفكه بالمنظر وآخر يناقش أجنبيا دون معرفة سابقة — فى جمال الفتيات اللائى تحملهن عربات الزهور ... وكل هذه المناظر بهجة وفتون وجمال طيب فهى مهرب من صنوف الأتعاب المختلفة التى نلقاها فى الحياة الحزازة اليومية كما يقول الفرنسيون .

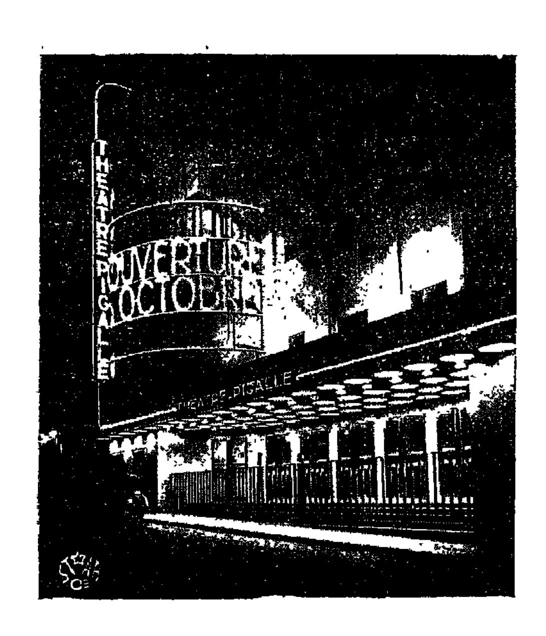
ولعل أهم أعياد الفرنسيين هو عيد رأس السنة وهم يحتفلون به كما يحتفل الانجليز بعيد الميلاد ولكنهم يمتازون باهتمامهم الكبير بذلك العيد فالأقارب الذين لم ير الواحد منهم الآخر حولا كاملا يتزاورون فى ذلك اليوم . ورئيس الجمهورية الفرنسية هو مثالهم فى تلك الاحتفالات ، ففى يوم رأس السنة يبقى فى منزله الرسمى حيث يتوافد عليه الوزراء والسفراء والكبراء ليقدّموا لرأس الدولة تحية رأس السنة .

ومما يستطاب ذكره أن معظم الأزاهير التى تهدى إذ ذاك هى من البنفسج ولست أدرى على التحقيق سر هذا ، وإن كنت أعلم حق العلم ان للفرنسيين اعتقادات غريبة — ولكنها جميلة — فى ألوان الأزاهير وأوضاعها . وقد أحب أن أقول إن السبب فى كثرة الأزهار على العموم هو أنها تهدى فى الأعياد العامة ، وتهدى كثيرا فى الأعياد الخاصة كعيد الميلاد ، فالفرنسى حين يولد يسمى باسم القدّيس الذى ولد فى اليوم نفسه وفاقا للتقويم وهم يهدون أيضا الأزهار فى أعياد القدّيسين . ولذلك أقل ن تخلو باريس من الأزهار والورود . ففى كل ركن من شارع تجد امرأة عجوزا تنظم الزهور وتنسقها فى إصص طويلة تصفها على قارعة الطريق أو داخل كشك خشبى ولا يلبث أن يجيئها رجل أو امرأة ليشترى طاقة ورد وزهر لمارى أو لجان

وكل سيدة أو رجل بهذا الاسم فى باريس لا بدّ أن يتسلم شيئا من الورد من أحد الناس .

ولا يكاد المرء يفتح بابه صباح رأس السنة حتى تنهال عليه طاقات أزاهير البنفسج، ثم تنهال بعد ذلك طلبات الغسالين والطباخين والحارسين والخدم ومنظفى المداخن و جميع من يعرفهم أو لا يعرفهم كل يطلب جعله من النقود إذ اليوم يوم عيد .

سسلى هادلستون



عيد الحرّية فى باريس

أوصدت الحوانيت أبوابها الحديدية والخشبية . وبقيت واجهاتها البلورية تطالع الناس بما وراءها من فن باريس الجميل وذوق باريس السليم وخفقت الأعلام المثلثة الألوان — أعلام الجمهورية على الدور والشرفات كأنها تهتف هى الأخرى فى الهواء باسم الحرّية ليتجاوب الأثير بهذا النداء فيما وراء البحار ... وصار كل ما فى هذا البلد فى أعيننا بلون ذاك العلم ! ... أحمر وأبيض وأزرق . ورسم النور هالاته المرتعشة حول قصور الدولة . ما أعجب نور الغاز فى عصر الكهرباء ؟ ... وفى باريس ؟ ... لعله تحية أخرى لأولئك الذين ماتوا يوم الباستيل قبل أن يروا نور الكهرباء ! ...

وفى كل مكان مصابيح يابانية من ورق كأنها كرات كبيرة ملونة مضيئة تتدلى بخيوط من السماء وكل منها يرمز الى عاطفة من العواطف البشرية : من حب وألم وكره وغيرة وحنين وانتقام ...

البلد قائم قاعد . هذا يومه . وكأن الدنيا كلها قد اجتمعت فى باريس تحفل مع باريس بعيدها الذى هو عيد الدنيا . وترى الأغنياء أنفسهم يشعرون فى هذا العيد بأن الفقراء أسعد منهم وأكثر حرية منهم يرقصون فى الطرقات على نغمات الموسيقى التى ملأت المفارق ويهتفون بحياة الوطن وحياة العيد ويهتفون أيضا دون شعور منهم بحياة الحب والحياة !

وأمام كل قهوة وعند كل مفرق وفى الساحات العامة قامت على منصات عالية شبه مسارح صغيرة تجلس فيها جوقة الجازبند تعزف أنغام الرقص المختلفة . وتعزف من صباح ١٢ يوليو الى صباح ١٥ يوليو . ثلاثه أيام بلا انقطاع . ويرقص عندها الناس حتى تبلى أحذيتهم ولا يملون الرقص . أو كأنه سيحال بينهم وبينه بعد هذا العيد أبدا ! !

كان ذلك فى حى القديس أنطوان بباريس . ولم تتعدّ الفتنة هذا الحى . تلك الفتنة الصغيرة التى كانت ذليلة بلا قائد ولا نظام ولا طبول بل كان يسيرها الغيظ والجوع . وعاد الناس سيرتهم الأولى . وفى قلوبهم حفيظة وسخط . وكأنهم يتربصون . تسوّل لهم أنفسهم أمرا . وكانوا يحدجون الجنود بنظرات الكراهية .

ومرت الأيام . ونحن فى أوائل شهر يوليو . وكانت الجماهير تقف فى صفوف طويلة أمام المخابز الموصدة بقضبان من حديد . كل ينتظر دوره ليأخذ جرايته وقليل ماهى . يقفون فيتكلمون فيما بينهم بصوت خافت . كأن أعباء تنقض ظهورهم أو لعلهم كانوا يستمعون صوتا سوف يدوى ولما يتبينوه بعد . وفى يوم أحد، عند ما انتصف النهار . دوى فى الآذان صوت قنبلة .

وكانت الجمعية الوطنية قد ظلت أكثر من شهرين تعقد جلساتها وهى عاجزة مهدّدة من قصر فرساى . لا جند لها يدفع وينفذ . فماذا تستطيع ضدّ تلك الجيوش التى تأتمر بأمر لويس السادس عشر ذلك الملك المتردّد العاجز السيئ السيرة الذى أقضى مضجعه خطباء الشعب . فأهاب بالقوّة الغاشمة .

وفى ١١ يوليو رفت الملك "نيكر" مراقب المالية وصديق الشعب . واستبدله بأولئك المستوزرين الذين ينفذون كل شيء . فقال أحدهم بإحراق باريس إذا دعت الحاجة ! وقال الثانى إن المدفع والبندقية أصدق أنباء من المناقشة والمحاجة . وقال الثالث "إذا كانوا جوعى فليأكلوا روث البهائم !" .

فى ذلك اليوم لم يكن الأمر دعابة . إن "نيكر" سيطرد من البلاد فى أربع وعشرين ساعة ! ... وكانت الخطب لا تكتفى لمقاومة السيوف . ولم يكن بدّ من مقاومة الجيش بجيش مثله . وكان لباريس فخر تقديم جيش الحرّية .

فأجاب الشعب على طرد صديقه نيكر كما تجيب الشعوب . ذلك الشعب الذى كان منذ ستة أسابيع يسير مطأطئا يجرّ أذيال طاعته وانكساره قد رفع رأسه

وشمر عن ساعديه ودعا العمال من بيت إلى بيت وعزفت الطبول ودقت النواقيس وجرى الناس هنا وهناك على غير هدى وفى مكان ما من باريس انطلقت بندقية وبانطلاقها انطلقت الثورة من إسارها .

وكانت أسلحتهم الحجارة . وما كانوا يتقهقرون أمام الرصاص إلا لتعود حجارتهم فتطاير على رؤوس الجنود والفرسان . فكأنها طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . وكان الشعب يلق الكراسى والزجاجات والأحذية الخشبية "سابو" وكل ما يقع تحت يده على الحرس السويسرى والألمانى وهو ينعته بأقبح النعوت . وصارت باريس شعلة نار وصراخ ووضعت المصابيح فى النوافذ فأضاءت الطرقات لأن الناس قد خرجوا جميعا الى الشارع . وخطب خطباؤهم بسذاجة وصدق . ودعوهم الى حمل السلاح . ووجدوا فى الأنفاليد عشرين مدفعا وثمانية وعشرين ألف بندقية . فتسلحت باريس! "ليحى نيكر!" ... "لتحى الأمة!"..."افسحوا الطريق!"... "تقدّموا! تقدّموا!" ...

وكأن الناس أمواج صاخبة تتدافع نحو محيط المستقبل المجهول ... ترى بينهم ذلك المحامى الفتى "كاميل دمولان" يقف على منضدة صارخا وهو يلوح بمسدسيه "الى السلاح!" . يتحدّث عن الموت فى سبيل الحرّية . ويتحدّث بحرارة المخلص وقوة المؤمن . وكانت كلماته تسكر الجوارح وتجعل للموت فداء الوطن عطرا ذكيا . وتجعل سامعيه من التحمس بحيث يستصغرون فتح الدنيا ويحتقرون نعيم الحياة .

رباه ! ... من هم أولئك الذين يزحفون فى غير تهيب ولا وجل ؟ ؟

أنهم رجال خاملون لا يبحثون عن الشهرة ولا عن المال . أنهم الجنود المجهولون . جنود شعب كريم مقهور ...

وانتصف الليل . وبدأ يخمد لهب المشاعل . ولم تخمد نار المشاعر . وما زالت الاجراس تتجاوب برنينها العصبى الشجى وبدأت تنحنى هامة الكبرياء والناس

يضحكون ويشربون ويغنون ويؤملون ... والمـارة ينظرون على انتصاف ليلهم الى الأفق البعيـد المحجوب ... يخيل اليهم أنه قد بدأ يتميز الخيط الأبيض من الخيـط الأسود وأن النور قد بدأ يولد من الظلام وأن ستائر الليل تنسدل ثم تتكشف ... وأن وجه حورية يغيب ثم يبـدو ... وأن صيحة أبدية — على مدى الأجيال على لسان جميع الشعوب — تتلاشى ثم تعلو .

ذلك فجر الحرّية !

ذلك وجه الحرّية !

ذلك صوت الحرّية !

لتحى الحرّية ! ...

*
* *

وراحت فى الجماهير صيحة : "الى الباستيل !" فسرت سريان النار فى الهشيم .

من الذى صاحها ؟ من يدرى ! إنها من صفوف الشعب الذى كان ينتظرها فاستمع لها كأنها وحى يوحى ! ...

— الى الباستيل ! على الباستيل !

ولم يكن الباستيل سجن العـامة . ولكنه كان سجن الخاصة . ومع ذلك كرهه الشعب لأنه رمز الشقاء الانسانى ورمز ظلم الانسان .

وفى ١٤ يوليو أخذوا الباستيل، تلك القلعة الهائلة التى أقامها شارل الخامس منذ أربعة قرون وقد شهدت حكم أربعة عشر ملكا ... وكانت رمز الحكم المطلق فسقط بسقوطها . وقامت على أنقاضهـا المراقص . ولا تزال تقوم . وقـد انتهز بناء زكى الفؤاد هـذه الفرصة وجعل يبيـع الأحجار القديمة تذكارا لدولة دالت . وبعد ما فرغت الأحجار التذكارية صار يبيع أحجارا زائفة . حتى اغتنى . وللثورة أيضا ثعالبها التى نتبع أسودها .

منذ ١٤١ عاما اقتحمت باريس حصن الباستيل ولم ينل الدهر بعد من هذا

التاريخ فما زال جديدا، حيا وقويا . ذلك أنه فتح أفاقا جديدة للبشرية . فهو بداية الحريات كلها . وقد مهد للتطور العجيب الذى حول فرنسا بل حول العالم كله الى ما هو عليه الآن . لأن فرنسا حاربت من أجل العالم كله وعانت وتألمت . ولم يشك العالم فى ذلك لحظة . فقد هلل لها وكبر من انجلترا الى المانيا الى إيطاليا الى روسيا الى بلجيكا الخ . حتى الفلاسفة الذين هم بمعزل عن هذا العالم قد اهتموا وحول "كانت" طريق سيره وأم المدينة فى يوم من أيام يوليو يتساءل عن النبأ وصاح "كلوبستك" "ليت لى مائة صوت أهتف بها لفرنسا !" وسعى الأجانب من كل جانب يرغبون التجنس بالجنسية الفرنسية .

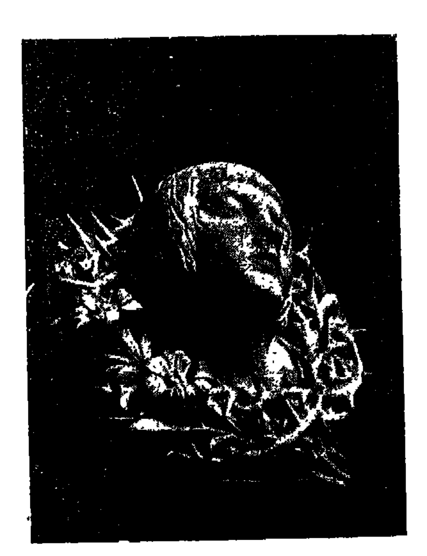
ذلك النصر المؤاتى كان على جلالة قدره سهلا يسيرا . فمات بعض الناس المجهولين ودك حصن فصار ترابا .

أجل ! . لكن الأثر كان هائلا . كان رسالة إلى البشر بدين جديد كان بحاجة اليه البشر . وكان الدين الجديد فيه كل الخيال وكل الحقيقة . فكسر العالم أغلاله وقيوده وانطلق نحو الديموقراطية وحاربت هذا الدين الرجعية . وكان نضال وكان صدّ ودفع . مدّ وجزر . والعالم يسير غير مكترث : إلى الأمام دائما .

إن يوم أخذت باريس الباستيل قد بذرت فيه الحرية فى الأرض فتحررت تسع عشرة أمة أمريكية من نير اسبانيا وتحررت اليونان والبلقان من تركيا وتكوّنت بلجيكا وتكوّنت إيطاليا وتكوّنت بولونيا وتكوّنت النمسا وألمانيا .

لقد ثل ١٤ يوليو عروش ثلاثين ملكا كانوا يحكمون حكما مطلقا مستبدًا . ولولا ١٤ يوليو لما كان ثمة برلمان فى برلين أو فينا أو طوكيو أو أنقرة . هذا هو اليوم الحاسم القاطع فى التاريخ وهو اليوم الذى استحق تقدير الانسانية .

چان دارك



أصبحنا يوم عيد القدّيسة جان دارك فاذا بالسماء ترسل الصواعق والبروق والأمطار المدرارة، فنظرت من خلال بلور نافذتى، وعجبت كيف لا تشمل بركة القدّيسة احتفالها... على أن جان دارك ليست قدّيسة فحسب، ولكنها بطلة من بطلات الوطنية أيضا، وإن كان عيدها الوطنى لم يأت بعد. ولكنها أيضا من الجنس اللطيف ... ولعلها بفضل هذه النعتة الأخيرة وحدها قد أخجلت الطبيعة فحبست المطر والبرق والصاعقة ... عند بدء الاحتفال فى الساعة العاشرة .

وعند ذلك خرجت وانتقلت من الحى اللاتينى الى الحى الملكى واجتزت ساحة الكونكورد الواسعة المهولة التى قامت فى وسطها المسلة المصرية شامخة شموخ تاريخ مصر القديم وعزها الفرعونى العظيم .

ما ذا كان يراود فكرى والجماهير مسرعة الى الحفل بقدّيستهم التى خلق الوطن الفرنسى من صدرها، من دموعها، من دمائها، كما يقول مؤرّخهم ميشيليه . ما ذا كان يراود نفسى غير التطلع بالفكر والعاطفة فى ذكرى تلك المرأة الشجاعة التى تحتفل بها اليوم باريس ... والله ماأدرى .

غير أن شيطان "أناتول فرانس" دائما يلاحقنى وكلما حاولت طرده من مخيلتى، من ذاكرتى، من طريق عملى وأملى، أجده يزداد تعلقا بى؛ فذكرت أنه كتب تاريخ

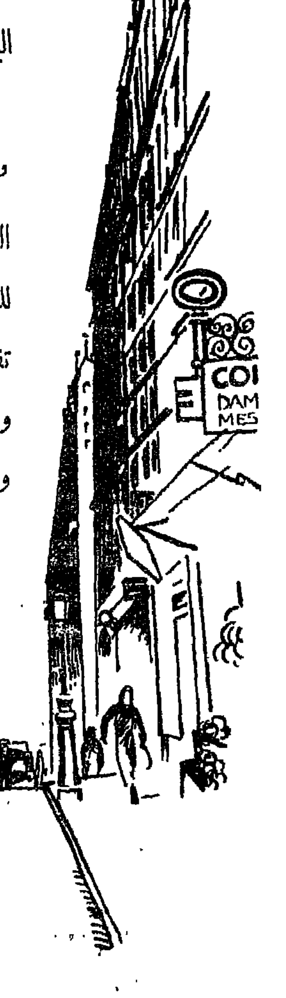
هذه الشهيرة وسخر منها سخريته بكل شيء فقال : " إنها ماتت عذراء ... الغبن عليها إنها هى الخاسرة ... " .

ووقفت ساعتين على قدمى أمام حديقة التويلرى فى شارع ريفولى ولم ينقطع ذلك الموكب الفخم الذى نظمه الكثالكة ورجال الحزب الملكى، وكان الهتاف لها حارًا مدهشا ... كنت تسمع " ليحى الكردينال دبوا ... ليحى شارل موراس ... ليحى دوديه ... ليحى ألكسيون فرانسيز... ليحى الملك..." فالتفت الى فتى مهذب بجانبى يهتف مع الهاتفين المصطفين على جانبى الطريق وسألته : " أليست هذه جمهورية؟ " . قال : بلى . قلت : وكيف تهتفون للملكية إذن؟ قال : "لا بأس من ذلك" . وكنت أسمع سيدة عن يمينى تهتف للملكية، وفتاة عن يسارى تهتف لفرنسا؛ وكلتاهما تنظر الى صاحبتها مكايدة وشزرا .

كيف ... هذا هو السؤال الذى لا جواب عنه . إن كثيرا من الفرنسيين يتعلقون بالحزب الملكى من قبيل المباهاة والدل على غيرهم بالتظاهر بأنهم من الأسر القديمة العريقة . ولكن موكب " قديسة الوطن " قد دلنى على أن الكثلكة قد حالفت الملكية وأنهما قد تغلغلتا فى نفوس لا عداد لها، وكان الحزب الشيوعى قد أغرق باريس فى عيد العمل بمنشوراته وغطى جوانب جدرانها باعلاناته فقالت " الايكودى بارى " : " من أين له هذه النقود ؟ من أين له وضع اعلاناته على الحيطان التى هى فى بعض أحياء المدينة تتقاضى أجرها ذهبا عينا . ان أحدا ليس من البساطة بحيث يعتقد أنها من جيوب العمال . زد على هذا أن الحزب الاشتراكى نفسه وهو عشرة أضعاف الحزب الشيوعى عددا لم يقم ببعض هذا؛ أى أن للحزب الشيوعى مصادر خاصة فوق العادة . ولكن من الشجاعة بحيث نقول إن مصادره هذه فى الخارج . فهو وكيل أكبر مشروع مخيف للخيانة وضع أبدا ضد بلادنا المسكينة" وليس ريب اذا أردنا المقارنة فى أن مظاهرة جان دارك جمعت زهرة

شباب فرنسا من الجنسين على حين أن أول مايو لم يكن للنظام فيه من أثر... نعم إنها كتلة بشرية هائلة، ولكنها اليد العاملة لا الرأس المفكر.

كانت مظاهرة العمال تضم مائة ألف شخص كما تؤكد "الأومانيته" وكانت مظاهرة جان دارك تضم ربع هذا العدد كما تؤكد "الأومانيته" أيضا، فاذا سلمنا جدلا للصحافة الشيوعية بهذا التقدير المبنى على الأهواء: "وهى تقول إنه مبنى على الكرم. إذ أدخلت فيه القسوس والنساء والأطفال" فان المائة ألف هم جسم باريس. أما الخمسة والعشرون ألفا فهم عقلها.



أيام الانتخابات فى باريس



نموذج الإعلانات الانتخابيـــة وعنوانها :
" لقد أفلست الجمهورية " !

حضرت مرة حفلة انتخابية بالقاهرة دعانى اليها صديق مصرا على دعوتى . فشكرت له بعد ذلك إصراره فقد قضيت وقتا يجلو الهم عن الصدر . رأيت خطيبا من الخطباء الذين يقومون عادة فى أمثال هـذه الحفلات يلقى الكلام تارة بحساب وتارة جزافا ... ويمزج بالقليـل من المنطق الكثير من التهـديد والكثير جدا من السخف ! ... ثم يعود فيتملق الحاضرين متشدقا بفطنتهم وذكائهم وبعد نظرهم وأنهم خير من يوجه اليه القول فهم خلاصـة الأمة وهم عينها الناظرة وضميرها الحى وقلبها الواعى ... وهم وهم ...

ثم يقوم على حين فجأة أحد دعاة مزاحمه فيهتف للمرشح الغائب . ويهتف بصوت يزلزل أرجاء المكان لأن له حنجرة جبارة . ويهتف حتى يبدو لك خطيبنا المصقع الى جانبه كأنه طفـل تائه ... وإذا بجمهور السامعين كله قد تابع الهتّاف فى هتافه وذلك يروق الجماهير أكثر ممـا يروقها الأصـغاء ، فقد أيقظها الصراخ من سـباتها ونقلها الى جو مكهرب أقرب الى الفوضى والى قلوبها من ذلك الجلوس الطويل

الصامت الملول الذى كانت حبيسته كأنها فى فصل مدرسى! . ولأن من طبيعتها الخروج على النظام وإيثار الهرج والمرج ...

ولقد عادت بى الذكريات الى ما وراء البحر الأبيض المتوسط، الى ذلك البلد الجميل باريس. والى ذلك الموسم الانتخابى الذى كان قائما على ساق وقدم فى خريف عام ١٩٢٨؛ وكنت أسكن الحى اللاتينى . وكانت شرفتى تطل على متحف كلونى وجامعة السوربون وكلية الطب عند تقاطع البولفار سان ميشل بالبولفار سان جرمان. وكنت لذلك مشرفا على المواكب الانتخابية التى تسير حتى منتصف الليل . وكان قد رشح نفسه عن دائرة الحى بستانى كان فيما مضى من بستانيي حديقة اللكسمبورج، حديقة الحى اللاتينى . فهو يمت الى الحى بنسب . وهو ينشد معونة الطلبة لأنه طالما نسق لهم الزهر ومهد لهم القفر... وهو الذى طالما طارحهم الحديث فى ظل تمثال شاعرهم "بول فرلين" أو فى ظل تماثيل ملكات باريس الممشوقات القدود الأسيلات الخدود الواقفات كأنهن يباركن الشباب ويحرسن الحب والحياة ... وهو اليوم وإن كان مزارعا فى بلده فلا يزال يفخر بأنه بستانى الطلبة وربيب الحى اللاتينى . وقد جاء يبسط يده الى شبيبة الحى ورثة تلك التقاليد السامية التى تجعلهم يخلصون لأسلافهم وللذكريات ... وهو اليوم ينشد معونتهم فى الانتخابات . وعلى ذلك قد رشح نفسه وقيد اسمه ودفع رسمه واستأجر القاعات العليا من قهوة "سوفلو" مركزا للدعاية ونشر إعلانه مستقلا عن الأحزاب :

"المركز الانتخابى للمسيو دودونيه"

بستانى الشباب نائب الشباب

؟ ! ؟ ! ؟ ! ؟

ترى ... أكان الرجل جادا ؟... أكان الرجل هازلا ؟... والله ما أدرى !... ولكننى أدرى أنه أقام الحى وأقعده . وأشغل الناس به . وأدرى أن الطلبة جميعا بروحهم البوهيمية المتحمسة المرحة الثائرة قد وجدوا فى صاحبنا لهوا يفوق كل لهو خفى ...! وأنهم كانوا يؤمون اجتماعاته الانتخابية ويتبادلون الخطابات فى وصف

محاسن المسيو دودنيه ومحاسن المدام دودونيه ... وأن ذلك الشجر الذى غرسه المسيو دودنيه فى حديقة اللكسمبورج قد آتى أكله وأينع ثمره وآن أيضا لغارسه أن يجزى الجزاء الأوفى ! ...

ونشر المسيو دودنيه إعلانات حمراء غطت اللوحات الخشبية المنتشرة على طول البولفار سان ميشيل وأضافت لونا بهيجا إلى ألوان دعوته . وقد نادى فيها الشبيبة نداء حارا مقدّما لبرنامجه الانتخابى . وإنى لكى أقرب هذا البرنامج الشائق إلى ذهن القارئ المصرى سأجعل الصور محلية وأنقل روح الكلام وأحيانا نصه :

(١) إنى أعدكم بأن أحول أرصفة شارع فؤاد الأول إلى أرصفة كهربائية متحركة بحيث تقفون وهى تسير فلا ينال التعب منكم ولا تبلى أحذيتكم ...

(٢) إنى أعدكم بأن أحول شارع الملكة نازلى إلى مجرى ماء عذب ينشق عن النيل من جنب المتحف المصرى، ويسير حتى هليو بوليس، ونستبدل مركبات الأتوبوس بالمراكب البخارية التى تنقل الركاب مجانا، وبذلك يفلس المترو وخط المطرية اللذان يضايقان الناس فضلا عن أن الحكومة مطالبة بعمل نزهة كهذه تخترق العاصمة حتى لا تفخر عليها مدينة قذرة كالبندقية ...

(٣) تصرف أجزاخانة الاسعاف الأدوية لسكان الدائرة مجانا .

(٤) تفرش حارة المغربى الواقع فيها نادى خريجى التجارة العليا بالورد صباحا والنرجس مساء اعترافا بفضل أعضاء النادى على الحياة الاقتصادية .

(٥) يباح الدخول فى حديقة الأزبكية طول الليل حتى يتذاكر الطلبة والطالبات فى الهواء الطلق ...

(٦) أعدكم بمنع الطلبة الأجانب من صينيين وهنود وزنوج الخ من السير مع الطالبات الوطنيات وأذرعهم مشتبكة ...

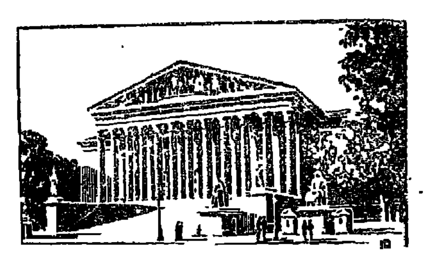
(٧) أعدكم بوعود أخرى وما خفى كان أعظم ...

(٨) فى حالة ما إذا حقق أى عضو آخر من أعضاء البرلمان برنامجه الانتخابى أعدكم وعد شرف بأن أحقق برنامجى هذا ...

وكل النكتة أو القفشـة فى هذا ! ... فالرجل ليس مخرفا ولا مأفونا ولكنه فى الواقع يمثل روح الفرنسى الصميم، روح "الجولوا" الفياض بالرقة والظرف . فبستانى اللكسمبورج يقول إن أعضاء البرلمان يسرفون فى وعود لن ينجزوا منها وعدا . فما ضرنى والحالة هذه أن أكون نائبكم، وأن أتقدم اليكم ببرنامج فكاهى أو جدى — وكلاهما سواء — ما دام نصيب البرامج على أى حال هو الاهمال ؟!

ولقد كافأ الحى اللاتينى صاحبنا دودونيه بأن كان يحمله كل ليلة عقب انفضاض الاجتماع على الأكتاف كما يحمل مدام دودنيه هاتفا بحياة النائب العتيد وزوجته نائبة الطلبة المتحمسة الجميلة ...

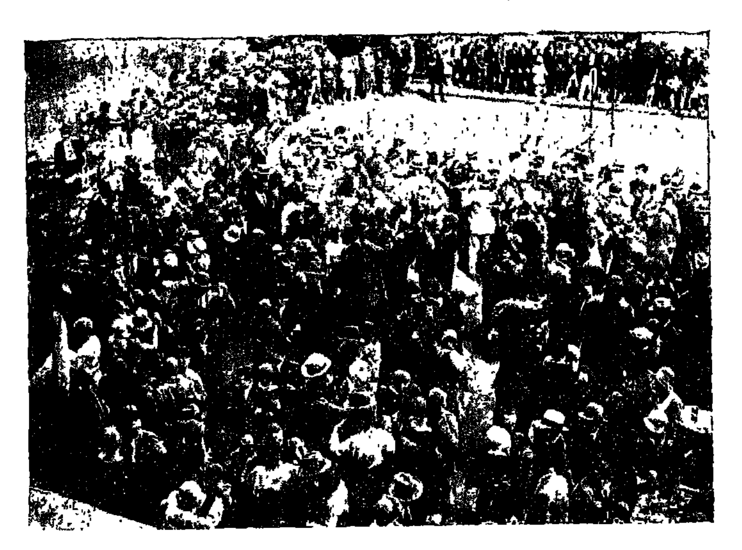
أما اذا سألتنى عما ناله المسيو دودونيه من الأصوات فأقول لك إن هـذا هو الوجه الوحيد المحزن فى هذه الحكاية لأننى لا أحسب أن ذلك قـد زاد عن عدد أصابع اليد الواحدة وهـذا جزاء سنمار الذى بنى لبعضهم العـلالى والقصور ثم دقوا عنقـه ! ...



مجلس النـواب

جـولات

يوم الباستيل فى باريس



المراقص الشعبية فى العراء يوم ١٤ يوليه

ان لكل بلد فى العالم روحا يميزه عن غيره من البلدان ويطبعه بطابعه الشخصى ولعل روح باريس هى الحرّية ، الحرّية المطلقة بأوسع حدودها فى أكمل أشكالها . لذلك كان احتفالها بعيد حريتها احتفالا طبيعيا لا أثر فيه للصنعة والتكلف . فهى حرة بفطرتها وبداهة أن تمجد فطرتها بالبساطة التى تعدّ من أصول الجمال .

لما رأيت الاستعداد للعيد قائما على قدم وساق . وأماكن البيع المؤقتة للحلوى والزينة والثياب ، واللعب بالكرات الخشبية والبلياردو اليابانى وإطلاق الأسهم ، وركوب الأراجيح الدائرة على نغم الموسيقى . ولما رأيت الأكشاك المغطاة بالنسيج الأحمر ليجلس فيها رجال " الجاز بند " . ولما رأيت الأعلام المثلثة الألوان تكاد تحجب وجه السماء لكثرتها . ولما رأيت أسلاك الكهرباء تجرى كالثعابين متلألئة حول المبانى الحكومية السوداء الضخمة حتى تتعانق حول الحرفين الأوّلين من " الجمهورية الفرنسـية " ولما رأيت تماثيل عظمائهم حالية بأكاليل الزهر من رجال الثورة إلى علماء الدولة . لما رأيت هذا كله مما يأبى الحصر ، قلت فى نفسى إن هؤلاء الفرنسيين قد ولدوا جميعا أحرارا ، وإلا فمن ذا الذى رأى منهم الثورة العظمى وشاهد هول يوم الباستيل الذى قضى على عهد الطبقات ، وكسر شوكة القسوس والأمراء . من ذا الذى سمع منهم

قرع الطبول وأزيز النار، وهى تمزق صدور رجال الملك، وتلك الصيحات الأبدية الداوية " الى الباستيل ... أهـدموا الباستيل ... خبزا خبزا " . لكنهم على ذلك يفهمون أن أسـلافهم قد اشتروا حريتهم بالدماء والمهج ليموتوا فداء الوطن، فهم باحتفائهم بيوم الحرية يمجدون أولئك الأسلاف .

أما نحن ، نحن الذين فى منتصف السبيل ومفترق الطـرق ، نحن الذين فتحنا أعيننا فرأينا الاحتلال، ثم شببنا عن الطوق، فرأينا الحماية، ثم علت بنا السن فرأينا الاستقلال بالتحفظات، ومرت بنا أهوال الحرب والأحكام العرفيـة والجاسوسية والاعتقال والنفى والاعدام والثورة ، ثم الفوز بالاسـتقلال ، نحن نحن إذن الذين نفهم حقا ماهية الحرية بأجمل معانيها فى أبهى مظاهرها لأننا ذقنا ذلة الاستعباد !

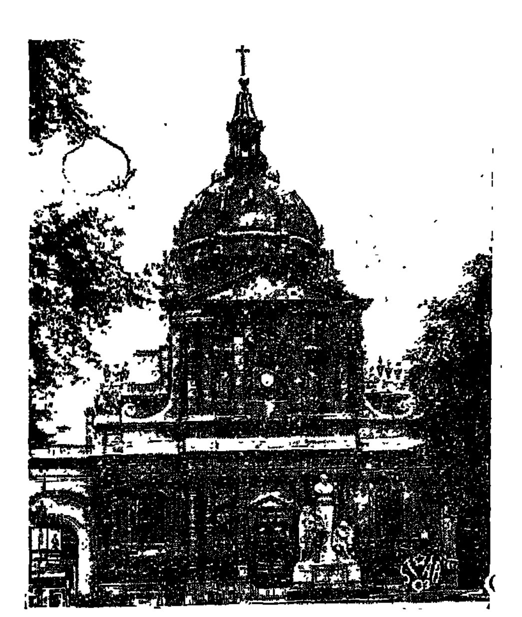
حيا الله باريس !

إنك أينمـا قلبت بصرك رأيت تاريخا حافلا ومجـدا موفورا وشهدت أن لهذه الأمة من ماضيهـا ما يفوق حاضرها ولو لم تفخر بذلك المـاضى ولو أنهـا تجردت من عز الحاضر كله، لحق لها أن تتيه بذلك المـاضى القريب السامى . وليس فوز أحرار الفرنسيين فى هدمهـم الباستيل بأيديهم وعصيهم وهم يلقون النـار بصدورهم بالفوز المقصور عليهم أو على خلفهم وحسب، بل إنه لفوز الإنسانية بأسرها، فكل من يضع حجرا فى حرية أمة يزيد صرح السلام العالمى صلابة وعلوا . ودعاة الحرية وقادة الإستقلال فى كل أمة هم أنبياء هذا العصر . واذا كان لكل دين جاحدون فان الكفرة بهؤلاء الرسل هم أساطين الإستعمار وأذناب الأوتوقراطيـة والطامعون فى بناء هياكلهم على جماجم الضعفاء .

احتفلت الحكومة فى الصباح المبكر بعيد ١٤ يوليو فى ساحة النجم حول قوس النصر أمام قبر الجنـدى المجهول . والاحتفالات الرسمية فى كل البلاد ميكانيكيات لاروح فيها . فالحق أن المظاهـرات الشعبية هى وحدها التى تفيض بالحياة . فلندع إذا تلك الخطب المناسبة للمقام كما يقولون ، ولنـدع التحيات العسكرية والجنود الصابرين تحت عبء أسلحتهم الثقيلة ، والخيول المستسلمة تحت فرسانها ما تدرى أسائرة هى إلى حرب جديدة أم انها تمجد حربا قديمة ... ... ولنتحوّل الى حيث يمترج بالنـاس .

هـذا عيـد حزيـن !

حزين إذا قارنته بعيد الفصح . كانت باريس أكثر بهجة فى شم النسيم لأن الأجانب الذين وفدوا عليها كانوا أكثر عددا وأوفر عدة . أما أجانب الصيف فهم يحسبون حساب الأيام الطويلة المقبلة ويدخرون ما معهم لأسرار المستقبل ومفاجآت الليالى فى مدن الشواطئ .



ساحة السور بون وقد توسطها تمثال الفيلسوف أوجست كومت

وعند خروجى من المطعم بعد العشاء ليلة العيد كان الرقص قد بدأ تحت رذاذ المطر فى ساحة السوربون . ففى كل ساحة كبيرة أوصغيرة ، وفى أكثر المنعطفات أقيمت مراقص عامة تعزف فيها موسيقى الجاز بند فى كشك تحيط به سلاسل من مصابيح الورق الرومانية واليابانية بين حمراء وصفراء . ويجلس الناس حول حلبة الرقص على موائد تمدها القهوة المجاورة وتستجدى الموسيقى الجمهور بالدور بعد الدور .

جلست آخر الأمر فى " قهوة داركور " حتى لا أكون بمعزل عن السوربون موطنى الروحى وحتى أشاهد الرقص الطائش والموسيقى الجنونية وأثرهما فى تمثال شيخ من شيوخ الحكمة الغابرة الحاضرة الخالدة خلود القدر "أوجست كومت" الشاخص بعينيه الصافيتين الساهيتين وازدحم الناس ازدحاما وشاركنى فى المنضدة فتاتان من بنات " التاميز " بريطانيتان تزرى ملاحتهما بكل ملاحة لأنهما ملاحة عزيزة غير مبتذلة ، وقد علمتنى الشهور القليلة التى قضيتها هنا أن أكون أكثر أنسا وأقل تحفظاً وانطواء على ذات نفسى . وهو ما فى طبعى وأوثره إيثارى العزلة والمطالعة على الجماعة والرقص ، وقد حدث أن اعتزلت الشهر الماضى فى ضاحية متواضعة من ضواحى باريس كعزبة الزيتون ، وكنت أتناول طعامى عند عانس تعيش مع أمها فى بيت أنيق وتنزل عندها طائفة من الناس ، فكنت نزر الكلام على المائدة لأن أحاديثهم كلها

لم تكن تعجبنى ، أحاديث تافهة لا توقد شرارة فى الذهن ولا فى الفؤاد . فلما تركت بيتها وعدت الى باريس وصفتنى لأحد أصحابى الذى ورث مقعدى على مائدتها الموحشة بأنى " متوحش جدا " .

لقد تلقيت درسا فأردت الليلة أن أنفى لنفسى عن نفسى صفة الوحشية فأقبلت على هذه الانكليزية التى لها وأختها من جمالها ما يوقد شرارتين فى العقل والقلب معا ... وحدثتها مداعبا " كيف لا ترقصين ؟ " .

فضحكت وقالت " فى هذا الجو الماطر ؟ " .

فقلت " هذا أدعى ... فمن وسط عجيب لا يمكن تآلفه واجتماعه فى غير الشوارع العامة الى رقص على قارعة الطريق على أوزان موسيقى بسيطة شبه قروية بلا تعارف سابق ولا وداد لاحق الى رذاذ يخمش الوجوه بلطف ، ويختبئ فى الشعر الغزير الأشقر ! " .

فابتسمت قائلة " صدقت .. ولكننى أوثر الحديث " .

وكانت الفتيات لاعداد لهن ينظرن الى الشبان نظرات العطف والابتهال كل نظرة تنم عن جملة تضرع أو نداء " ألك فى رقصة معى ؟ " .

والآن وقد أطفئت المصابيح الملونة ، ورفعت الكراسى والمناضد المكدسة على الأرصفة ، وسكتت أنغام الشارلستون الهمجية ، وبطلت حركة الأقدام الراقصة التى لا يعروها تعب ، ونزلت الأعلام الخافقة ، وتلاشت شهب النار والنور التى أطلقت من " القنطرة الجديدة " فوق نهر السين عدت الى بيتى وحيدا ، واجما ، حزينا ...



شم النسيم فى باريس



معبد الحب بقصر التريانون

استيقظت باريس صباح عيد الفصح مبتسمة دافئة متراخية كالحسناء التى أضناها ليل طويل فى الهناء ... وقد حيت الطبيعة الكريمة العيد، فتركت الشمس تغادر خدرها فأقبلت فرحة بالحرية، ونزعت قناعها الأسود من الغمام، وأسفرت عن وجهها المشرق الجميل ... وقد تمنى عليها البقاء مئات الألوف من السائحين والزائرين الذين أقبلوا من كل نواحى أوربا . ان بقاء الشمس معناه غداء هنيء على العشب فى غاب بولونيا ثم نزهة فى البحيرة ثم رقصة فى الطريق ... ان معناه الذهاب الى الكنيسة والجوس خلال المدينة وعبور نهر السين . ان معناه يوم بديع لسباق الخيل فى "أوتاى" ولعب "الرجبى" بين الفرنسيين والألمان فى "كولومب" . وإن معناه أن أسواق العيد فى فنسان و بلقيل ستكتظ بالزائرين . بل ان معناه لو أن الشمس لم تضن بنفسها ، وتتوارى أن الباريسيين أنفسهم وهم الذين هجروا مدينتهم وتركوها للأجانب سيتمتعون برحلاتهم الدانية أو القاصية فى الريف .

ولم يبق فى فندق حجرة لصاحب الفندق . ان جيشا عرمرما قد غزا عاصمة فرنسا ، واحتل كل موضع قدم فى فنادقها ، فى نزلها ، فى مطاعمها ، فى مشاربها ، فى متاحفها ، فى ملاعبها ، فى ملاهيها ، فى مركباتها ، فى حاناتها ، فى ... فى "غابها" الليلية .

فى حين أقفرت المدارس وأقفلت أبوابها وأطلق العلم للهو العنان .

وكان مظهر الزحام باديا على أتمه فى محطات سكة الحديد، فان الجماهير الغفيرة والجموع الهائلة المقبلة والراحلة قد غزت هـذه المحطات غزوات منكرة وهددت الأنفس بالضياع، وكان البعض قد حصل على تذاكره منذ أسبوع، ولكن هيهات له أن يحصل على قطاره ... وكانت بعض المحطات مثل سان لازار ومونبارناس قد أصبح الدخول اليها أو الخروج منهـا متعذرا إن لم يكن مستحيلا. ومع أن هؤلاء الناس يعرفون النظام و يتبعونه فقد شذت القاعدة . وكيف لا نريدها على الشذوذ وهـذا عيد والعيـد يستلزم اختلافا فيما جرت عليـه الناس حتى اذا ما مضى ظلوا يذكرون العيد .

والآن هل أحدّثك عن (البولفار) عن شوارع باريس الفخمة الفاتنة التى هى فى باريس كالجبين فى المـرأة تقرأ عليـه عقلها وفؤادها ... كنت ترى الأمريكان والانجليز بقبعاتهم الرمادية والألمـان بقبعاتهم الخضراء والبلجيكيين بقبعاتهم السوداء... وكنت ترى أهل المـدن الفرنسية الصغيرة مثـل توروسان كنتان وشارتر بملابسهم الكالحة، وأولادهم الصغار يجرون أرجلهم جرا لأنهم لم يتعودوا المشى فى الشوارع الممهدة النظيفة، قد أقبلوا على باريس فى تلك الرحلة التى ظلوا يحلمون بها طوال السنة و يعدّون لها المعدّات .

وفى حدائق التويلرى واللكسمبورج كنت ترى وجوها نضرها الله بالصحة وحباها بحسن الشمائل . وجوه التلميذات الإنجليزيات والتلاميذ الإنجليز يسـيرون فى شبه مواكب فى ثيابهم الزرقاء بعيونهم الزرقاء الشرهة الواسعة اللامعة. وفى حديقة اللكسمبورج، حديقة الحى اللاتينى، حديقة الشـباب العامل، احتشدت مئات من النـاس بجأة فتحوّلت لأرى ما يفعلون ... لله ما أشـدّ حب الاسـتطلاع فى الفرنسيين ... انهم يحيطون بقبيلة من الزنوج . جلس على مقعد طويل زنجيتان من زنوج جزائر "المـارتينيك" وأمامهما مهد طفلة على عربة ... هذه الطفلة سوداء... سوداء كالفحم ... سوداء كأنها الليل الذى لم يسبقه مساء ولن يلحقه صباح ... ولهـا شعر مجعد كسلاسل من حديد ومستلقية على ظهرها، وقد وضع أبوها المـارتينيكى

فى فمها زجاجة تدر فى فمها لبنا حليبا تمتصه بظمأ التائه فى صحراء ... وهى تبسم بعينيها البراقتين بريق الشرر .

وكان الشباب من فتيان وفتيات ، والشيوخ والقهرمانات جميعا يبسمون ويضحكون ويعجبون ويتغامزون . أما أنا فقد زويت وجهى وانسللت مسرعا خشية أن يحسبون من أبناء العم !

وكان الزوار الأجانب قد انتشروا فى كل مكان وجعلوا للمتنديات العامة لونا متنوعا بهيجا ، وغصت بهم المتاحف الكبيرة : كاللوفر ، والبانتيون ، والأنفاليد ، وجو يميه ، وكارنفاليه ، والمعابد العظيمة : كنوتردام ، والمادلين ، وسان سلبيس ، وسان جرمان دى بريه ، وسان جرفيه . وكانت موسيقاها تعزف بأنغامها المؤثرة والأرغن الدينى يلعب بقلوب الصالحين ويستذرف دموع المصلين .

وكان السياح يسيرون فى الشوارع وبأيديهم شارات السفر الحمراء والزرقاء تعرف فى وجوههم فرح الفراغ بعد العمل الطويل ، وغبطة زيارة باريس وتيه السائحين . وخف الناس بعد الظهر يتسابقون لحضور سباق الخيل فى أوتاى لأن ذلك اليوم يعدّ من أيام السباق المشهورة فى العام تمنح فيه للمجلى جائزة رئيس الجمهورية . ولعمرى أنه ليس وقفا على سباق الخيول بل هو سباق الجمال والدلال ومباراة الكواعب الحسان ، ففى حلبة السباق يعرض أشهر الغوانى ملابسهن ويتبارين بحليهن وزينتهن فيتزاحم مصوّرو الجرائد على تصويرهن فى مختلف المواقف ، هذه يدها فى خصرها تكشف عن صدرها ، وتبين ثوبا زاهيا يتلألأ بما لا أدرى من قصب أو فضة أو ذهب ... وهذه تنصرف عن العدسة الفوتوغرافية ، ولكن لتلتف برشاقة وذقنها على كتفها فيبدو ظهر معطفها فى سيور وحبال من الحرير أو القطيفة أو الفراء . بينا تكون قد وضعت بين لؤلؤ ثناياها عقدا من لؤلؤة البحار .

وكذلك بادرت طبقة أقل من هذه وجاهة ، وان كانت ليست دونها عددا ، الى مشاهدة مسابقة الرجبى فى كولمب حيث اجتمع الألمان بالفرنسيين فى مثل هذه المباراة للمرة الأولى منذ الحرب .

والى جانب الالوف العديدة من الذين عبروا المانش فى هذين اليومين لقضاء العطلة بيننا أقبل من وراء المحيط ما ينيف على خمسة عشر ألفا من أمريكان الولايات المتحدة ، وكانت عرباتهم الكبيرة تحمل كل ثلاثين أوأربعين أو خمسين معا وتروح بهم وتغدو فى الشوارع بسرعة لا تتفق مع كبر حجمها فكأنها امرأة سمينة ضخمة قصيرة تجرى وتهرول .

وخلاصة القول أن العاصمة فى شم النسيم لم تكن عاصمة جمهورية فرنسا ولكنها كانت عاصمة العالم .

فإذا تركنا كل هذا الضجيج الذى شمل باريس كما شمل ضواحيها الجذابة كسان كلو وفرساى فإنما لتسير معى بضع خطوات على ضفاف نهر السين بعد بولفارسان ميشيل حيث نجد الصيادين والفلاسفة والمتفلسفين ، وفقراء الطلبة والفنانين وفقراء العاشقين ، يسيرون الهوينا متثاقلين .

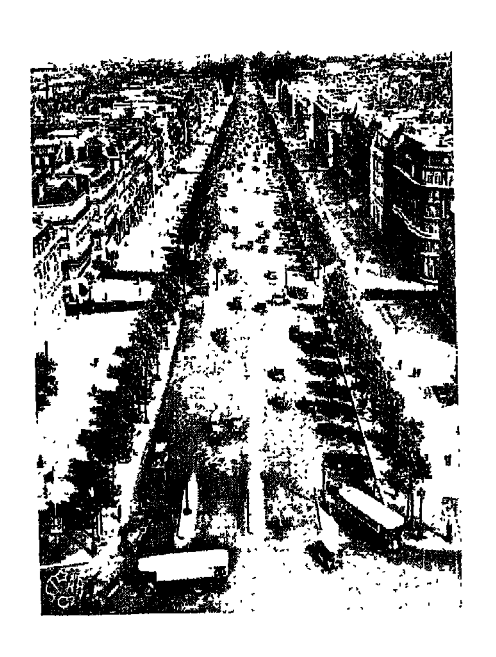
وها نحن أولاء وحدنا .

ولأول مرة شممنا النسيم فى باريس .

ولم نشم البصل ! ...



الليدو من مغانى الشانزليزيه



مدينة السلوى والنسيان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلام فى باريس

بقـلم الأسـتاذ أنطون الجميّل بك

قرأت لك كثيرا عن "باريس"، وأنت الكاتب عنها كتابة الذاكر الشاكر.

وسمعت لك عن العاصمة الكبرى أحاديث مستفيضة، وأنت المتحدّث عنها حديثَ المتيم الولهان.

فباريس عروس خيالك، ومسرح أحلامك فى ما تكتب وفى ما تروى.

وقد شئت اليوم أن تقيم لها، من أحاديثك وأحاديث إخوانك عنها، أثرا خالدا فوق ما فيها وما لها من الآثار الخالدة؛ وأردت أن توقع لها، من نغماتك ونغمات اصدقائك، نشيدا جديدا ليتغنى الشرق، كما يتغنى الغرب، بمحاسنها.

ولا أشك، وأنا العارف بما بذلت من العناية فى الكتابة والإستكتاب، أن مجموعتك هذه ستكون إضمامة من أزاهير نضرة فوّاحة تضفر منها إكليلا على جبهة تلك العروس، وتنثر منها بلباقة وأناقة على صدرها، وتعقد حلقات حول زنديها.

يقولون إن لا ورد بلا شوك. ولعل كلمتى تكون بمثابة الأشواك بين الورود التى ضفرتها لتلك الغادة الحسناء.

*
* *

زرتُ "باريس" لأول مرة فى صيف سنة ١٩٢٧ قضيت فيها يومين؛ وإذا بى فى اليوم الثالث أفيق، بعد غيبوبة بضع ساعات، فى المستشفى معصوب الرأس، مجبر الذراع، مضمد الجراح؛ وأنا كما قال المتنبى:

وشكيتى فقد السقام لأنه * قد كان لما كان لى أعضاءُ

كل ذلك أثر اصطدام سيارة كنت أركبها على طريق "سان جرمان" قاصدا ضاحية درو (Dreux) حيث قبور آل " أورليان " .

سلخت بعد ذلك فى المستشفى أسبوعين قعيد الفراش ، تلتهما أسابيع قضيتها بين عيادة التطبيب ، ومستلزمات التمريض ، وتمرينات التدليك ؛ يتخلل هذا كشف متوال بالأشعة ، وعلاج مستمر بالكهرباء .

فإذا شئت منى حديثا عن "باريس" فانه ، يا صاح ، ان يتناول ملذاتها وملاهيها ، ومغانى الأنس والطرب فيها ؛ بل يتناولها من حيث هى مبرئة من الآلام ، شافية من الأسقام .

لا أقف طويلا عند براعة أطبائها ، فقد اشتهر أمرهم ونبغت منهم طائفة تخصصت لكل نوع من أنواع الأمراض والأدواء ، حتى صار المرضى والموجعون يحجون إلى كعبة علمهم من جميع الأنحاء ، يرجون على أيديهم الصحة والشفاء . ولكنى ذاكر ذلك الجو المشبع عطفا وحنانا ، الذى يلقاه المريض فى "باريس" : فكل من فيها وما فيها يحنو على الموجع السقيم ، ويحاول تخفيف أوجاعه وأسقامه . فمستشفياتها قد تكون أحق من غيرها بهذا الاسم ، فهى دور الاستشفاء ؛ ومصحاتها قد تكون أولى من سواها بهذه التسمية ، لأنها مجلبة العافية والصحة .

يستجمع الطبيب ما فى دماغه من علم لتطبيبك ، وتستنجد الممرضة ما فى صدرها من حنان لتخفيف آلامك ، ويبذل الخادم ما فى مقدوره لقضاء حاجتك كما تريد لتهدئة أعصابك .

وإذا ما تناولت الطعام فى غرفة المستشفى ذهبت الممرضة تنثر فتات المائدة على حافة الشرفة فتتهافت عليه أسراب الحمام والعصافير الأليفة ، غير نافرة ولا منفرة ، فتأخذ نصيبها من فضلات طعامك ، ولا يفوتها طبعا أن تشكرك على كرمك بتغريدها الطروب ومرحها اللعوب . حتى اذا ما شبعت ورويت ، وأشبعت أذنيك من زقزقتها ، وروت عينيك من بهجتها ، صفقت بأجنحتها عائدة الى فضائها الطليق ، بعد أن تكون قد أنستك لحظة ما أنت فيه من ضنك .

واذا تماثلت للشفاء، وأذن لك الطبيب فى الخروج للتريض فى حين لا تزال آثار المرض بادية عليك، وجدت هذا العطف عليك، وهذا الاهتمام لأمرك من أناس الشارع : شرطتهم ومارتهم . فرجال الشرطة يسرعون الى وقف حركة المرور ليسهلوا لك الانتقال من رصيف الى رصيف، والمارّة يفسحون لك الجانب المطمئن من الطريق، والركاب فى المركبات العامة يقفون فيخلون لك المقعد المفضل .

واذا وصلت الى أحد المتنزهات للرياضة واستنشاق الهواء شعرت أن الطبيعة بأسرها تشملك بحدبها وحنانها . ثم لا يلبث الأطفال المارحون اللاعبون أن يقبلوا عليك يحدجونك بنظراتهم البريئة ويتودّدون اليك بابتساماتهم العذبة، حتى اذا ما آنسوا منك ابتسامة أو علامة رضى دنوا منك وضربوا حلقتهم حولك، وأخذوا يتنافسون فى عرض لعبهم ودماهم عليك ليدخلوا على قلبك السرور، فتحس كأن الهم قد سرى عنك .

وإن أنس لا أنس مظهرا من مظاهر هذا العطف على المريض، آلمنى كثيرا، ثم أضحكنى كثيرا . ذلك أن الطبيب المعالج نصح لى بالاكثار من الخروج الى الحدائق العامة ترويضا لرجلىّ المرضوضتين . فخرجت فى أصيل أحد الأيام وقد صحبنى فى نزهتى أحد الأصدقاء من الأطباء . فقصدنا الى غاب بولونيا المشهور وجلسنا مدّة الى شاطئ البحيرة هناك . ولكن الصحة والشباب استفزتا صديقى فنزل فى زورق الى البحيرة يطوف أرجاءها وبقيت وحدى كاسف البال، وحول رأسى وذراعى العصائب واللفائف . وانى لكذلك، إذ أقبل من أحد منافذ الغاب فتى وفتاة غضا الاهاب، وملء برديهما مرح الهوى وميعة الشباب . فما أن اقتربا منى، وأنا على ما تقدّم من الوصف، حتى وقفا واجمين، وبدت على محياهما آثار الانفعال والانعطاف، وألقى كل منهما فى قبعتى الملقاة الى جانبى درهما ...

أدركت قصدهما . فكست الحمرة وجنتىّ، وأظلمت الدنيا فى عينىّ، واضطربت جوارحى أنفة . ولم أستطع إلا أن أتمم كلمتين : "مسيو ! مدموازيل ! ..." . ولكن يظهر أنى ضمنتهما أقصى معانى النفور والاحتجاج .

فأدرك الشابان خطأهما ، فاسترجع كل منهما درهمه وهو يعتذر باللحظ والاشارة : " پردون ! پردون ! " وأسرعا فتواريا فى أحد منعطفات الغاب .

ولما هدأت سورة الاضطراب تملكنى الضحك . وأقبل صديقى فى زورقه فوجدنى على غير ما تركنى فقال : " خير . إن شاء الله ! " .

فقلت : "ليس إلا الخير" وقصصت عليه ما كان من أمر الشابين ومحاولتهما التصدّق علىّ وقلت : "والله قد جئت باريس لأستعطى ! " .

فضحك هو أيضا وقال : "لقد أخطأت . وكان خليقا بك أن تحتفظ بالدرهمين كتعويذة ... " .

انقضى دور النقه بعد ذلك ، وتم لى الشفاء فقفلت راجعا الى مصر ، وأنا أذكر باريس وما قاسيت بها من الآلام .

أنطون الجميّل



عزاء باريس

الحق أشهد أن هذا الذى أغرقنا أنفسنا فيه من حياة باريس ، كان عظيم الأثر فى عزائنا بما كشف لزوجى عن آفاق فى الحياة جديدة وما جلا أمام نظرها من صور الجمال فى الحياة حتى لكنا نتساءل أى هـذه الصور أشدّ جمالا ، فلا نجد على سؤالنا جوابا .

هيـــكل

إن باريس ردّت إلىّ طعـم الحيـاة .

والدة ثكلى
(كتاب ولدى)



الأمومة فى متحف اللكسمبورج

المعبـــــــد

حول منتصف شارع المعبـد بالقرب من نافورة عنـد زاوية ميدان واسع الأرجاء يسـتطيع المرء أن يرى بناء كبيرا من الخشب — ذلك هو المعبـد . وهو متصل من الجهة اليسرى بشارع بتى ثواسيس ، ومن الجهة اليمنى بشارع برسيه ، ثم ينتهى ببناء مسـتدير أعلاه كبـير مرتفع محاط بردهة على جانبيهـا أقواس . ويقسم المكان ممر طويل فى وسطه الى قسمين متساويين ، وينقسم هذان بدورهما الى أقسام صغيرة ، ويقيهـا شر المطر سقف البناء بأجمعـه . وتعرض فى هذا الموضع جميع المتاجر الجـديدة ، ولكن تلك المتاجر لا تعـدو قطعا من الحديد أو الخشب ونتفا من العاج أو خرقا من الأقمشة متباينة الألوان والأشكال . تلك محال تباع فيها أكوام من الأشياء ترى ولا تسمى لا هيئة معينة لها ولا لون غير أنها تباع وتشرى ، ويعيش على الاتجار فيها أناس كثيرون ، بجماعة تتجر فى القبعات التى لا يسـتطيع أبرع الناس فراسة أن يميزها لطول ما طرأ عليها من التغيير والتبديل . وفى نهاية الممر تجد مظاهرة كبيرة من السيدات الباريسيات العاملات وغير العاملات يتنازعن أعلام مظاهرتهن وهى لا تخرج عن أصناف من الملابس لا تجانس بينهـا ولا ترابط لا فى اللون

ولا فى الشكل ولا فى المنظر، بل إنها تتشارك جميعها فى شىء واحد هو كونها جميعا تسبق "المودات الحديثة" الى عهد سحيق يتعمق فى أحداث الماضى ! ... ورغم كل هذا فان تلك السوق الرخيصة هى التى يعول عليها كثيرون من الفقراء المعدمين وما أكثرهم فى باريس ...

أوچين سو



تمثال الجـــوع

واحـــة التعســاء

أسرّت إلىّ امرأة فقدت كل من تحبهم : انها لا تحتمل شقاءها إلا فى باريس. لأنها تشعر بنفسها فيها شيئا صغيرا ، شيئا صغيرا وانما تحيطه رقة المـار المجهول الذى لا يتدخل فيما لا يعنيه ولا يتطلع ولا يتطفل ولا يضايق قط سواه . باريس هى واحة التعساء بقدر ماهى جنة لذوى الأحلام والوحدة ...

شارل أولمون

مدينــة الفقــراء

على قارعة الطريق



الشحاذة العمياء

قـد يعيش المصوّر فى باريس عيشـة العوز والفاقة ، فلا يجـد غير فرنكات قليلة يسدّ بها رمق الحياة . ومع ذلك يجد فى مهنته كل عزائه وسـلواه . فمعارض الصـور الواسـعة ملأى بكل بديع من الفن وفيهـا حقيقة المثل الأعلى فى ذلك العالم الكامل . وهناك يقضى ساعات النهار الهادئة اللذيذة يمتع ناظـريه بوجه مونالترا وسـط ذلك السـكون الرهيب سـكون الوحى والعبادة مع مافيه من رجاء وقنوط .

أما فى الخارج فلديه الطرقات فى مرح وسرور وقد كستها أشـعة الشمس الحيـة حلة رائعة بهية ، وأوراق النباتات الخضراء يداعبهـا النسيم فى الشرفات ، وجمـاعات النـاس فى كل منعـرج وزاوية ، والألوان البديعة فى كل سوق وميدان والمعالم الرمادية اللون قائمة على جوانب الطرق التاريخية والأحجار ، وكأنمـا ينبعث من خلف كل واحد منها صوت من المـاضى الذى لا يفنى ، والغابات الصامتة الخضراء ، والقرى الصـغيرة الكثيرة الأشجار ، وطرق المياه الملتوية تخترق الحدائق الغناء — كل هذه له .

فاذا كان مصوّرنا يتمتع بكل هذا — مع نعمة الشباب — فمن يجرؤ على القول بأنه ليس غنيا ؟ أجل انه غنى ولو كان خالى الوفاض !

لم أكن أحب باريس... ولكنى عرفت كيف أتعشقها لما سمعت ما نظمه رينيه وليلى فيها من قصائد، وكيف أدخلت على قلبيهما الكسيرين من فرح ما كانا ليجدانه فى مدينة أخرى غير باريس .

لقد سميتها مدينة المسرات حقا وصدقا ، ولكن لماذا لا نسميها أيضا مدينة الفقراء إذ هل من مدينة أخرى مثل باريس تذكر الفقراء فى مسراتها ، كما تذكر الأغنياء سواء بسواء، وتعطيهم كنوز شمسها الضاحكة، وموسيقاها الشجية، وألوانها الفتانة، وزهورها اليانعة، وظلالها الوارفة، ورموزها المقدّسة ؟

ويــدا



كنيسة سان جوليان الفقير

باريس المفلسين

كيف تمتع بباريس وأنت خالى الوفاض ؟

ما أكثر الذين سيطمعون فى هذا الفصل بوجود معجزات ! ! سيقولون لأنفسهم أنهم سيدبرون بأى شكل من الأشكال ، بالتوفير والتقتير أو بالسلف والتقسيط ثمن التذكرة حتى باريس ثم يدخلونها غازين فاتحين ليتفرجوا عليها ويتمتعوا بها خالى الوفاض ! ...

ولسنا نريد أن نغرر بهم هنا أو أن نخدعهم ، لأن ما يروق للبعض قد لا يعجب الآخرين ... وليس فى كل الناس جانب كبير للخيال والشعر ... وليس كل الناس يحبون الحياة البوهيمية ، رزق يوم بيوم ، أو ساعة بساعة ، فى العيش ، وفى الحب ! ...

أما هذا المقال فهو للذين يحبون المخاطرة ، والمثل يقول من لا يخاطر لا ينال المرأة الجميلة ! ... وباريس بشهادة الدنيا عروس البلدان ، ومن يخطب الحسناء لا يغلها المهر . والمهر أحيانا يدفع بالقلق والألم والعذاب ... بل أن الذين يذهبون الى باريس والذهب ملء جيوبهم قلما تبدى لهم باريس سر محاسنها ، وتظهرهم إلا على أبهتها الأجنبية الطائشة الموقوفة على الأجانب ، كالسياح الذين يفدون الى بلادنا ، و يعودون أشدّ جهلا بروح الشرق وسرّه ...

باريس مدينة هائلة . فيها أربعة ملايين نسمة ربعهم أجنبى . ونظرة واحدة من قمة برج ايفل أو "بوت مونمارتر" ، أو شوط واحد يقطعها من أولها الى آخرها يعرف منه المرء فى أية مدينة ، فى أيه دنيا هو ... تزيد بيوتها على تسعين ألف بيت . ومساحتها على ٧٨٠٠ هكتار ، ومحيطها على ٣٦ كيلو مترا ، وشوارعها على ٤١٠٠ ، وحدائقها على ٥٠ ، ومياديها على ١٥٠ ، ومحطاتها الحديدية على عشر محطات !

فليست باريس بالبلدة التى يسهل التعرّف بها والوقوف على أسرارها . ويستحيل على السائح المسرع أن يحب باريس ... إن حبها يقتضى طول المقام .

ولقد كانت الثلاثة الأشهر الأولى التى قضيتها فيها شهور ضجر وسآمة . و بعـد ذلك بدأت أحبهـا وعرفت كيف أحبها ولمـاذا . ولعـل هذا الكتاب هو وفاء لهـذا الحب !



ونهر السين الذى يقطع أحد عشر كيلو مترا يقسمها الى قسمين : همـا الضفة اليمنى الواسعة الوجيهة ، والضفة اليسرى وفيها الحى اللاتينى ودور العلم والعرفان . والذى يروع النـاظر الى خريطـة باريس ليس تزاحم خطوط مواصلاتها الرأسـية والأفقيـة والمتوازية ، كما فى البلدان الكبيرة الأخرى ، ولكنها الخطوط المركزة التى تشـبه الموجات التى تحدث عنـد ما نلق حجرا فى ماء ساكن ... وأول مقوس كبير فى هـذه يضم ساحة الكونكورد والشـوارع الكبرى "جران بولفار" حتى ساحة الجمهورية "بلاس دى لاربو بليـك" ، ثم خط طويل آخر من البولفارات حتى ميدان الباستيل ونعود فنلتق بميدان الكونكورد عن طريق بولفار هنرى الرابع وكوبرى سوللى و بولفار سان جرمان .

ولعل هـذا الجزء يضم تقريبا أهم ما يمكن رؤيتـه فى باريس . فعلى الشاطئ الأيمن : الكونكورد والشـوارع الكبرى ، ونعنى بهـذا أروع الأزياء والأشكال والمحال التجارية والمقاهى الفخمة وحى الأجانب الأغنياء الخ ، ثم البورصة ، والمكتبة الأهلية ، والتياترو الفرنسى "بيت موليير" والأوبرا ، والأوبرا كوميك ، و ١٥ مسرحا

آخر . وفى الوسط نجـد متحفا من أعظم متاحف العالم وأشهرها وأبعدها أصـلا فى التاريخ وهو "اللوفر"، والباليه رويال، و "الهال" وهو سوق خضار باريس ومن أغرب ما تراه العيون ... وأبعـد من ذلك كونسرفتوار الفنون والصنائع ودار السجلات "الأرشيف"، وحى "ماريه" القديم، ومتحف كرنفاليه، ودار الرهون، وميدان الفوج، والبلدية، وبرج سان جاك، وتياترو الشاتليه، ومسرح ساره برنار .

ونجد فى حى "لاسيتيه" وهى (محافظة) باريس "الأوتيل ديو" كمستشفى قصر العينى، ونوتردام دى بارى الذائعـة الصيت، ودار العـدالة، محكمة باريس الكبرى، وسانت شابل .

وعلى الضفة اليسرى من السين نجد قصر الترم، ومتحف كلونى، وميدان سان ميشل، ودار المسكوكات، والمعهد العلمى، ووزارات عدّة، وأكاديمية الطب، ومدرسة الفنون الجميلة، وقصر اللچيون دونور "وسام جوقة الشرف" وقصر البوربون "مجلس النوّاب" .

ثم يبـدأ خط آخر من البولفارات من ساحة الاتيوال، وافنو جرام، و بولفار دى كورسل، و يمرّ أمام بارك (حديقة) مونصو — و بولفار باتنيول، ثم "بوت مونمارتر" و بولفارات كليشى وروششوار، وهى الأحياء المرحة الحافلة بالكابريهات "الغرز" والمشاهد الليلية المتنوعة مثل البربرى وكش كش بك — ثم بولفار لاشابل ولافيليت، وعلى مقربة منه "المذبح"، و بوت شومون "بحديقتها الغناء"، ومقبرة بيرلاشيز، واعبر ساحة الأمة "بلاس دى لاناسيون" وفيها تمثال الجمهورية الرائع من صنع "دالو" ومن بولفار ديدروه يجتاز باب أسترليتز الى حديقة النباتات (وهى حديقة الحيوانات) ومن كوبرى أوسترليتز يستمرّ خط جديد من بولفارات سان مارسيل، و بور رويال، ومونبارناس، والانفاليد يشمل (الحى اللاتينى) الذائع الصيت وحديقة اللكسمبورج — ثم خط آخر من بولفار المحطة، وأوجست بلايكى، وسان جاك، وفوچيرار، وغاريبالدى، وجرينل، وافينو كليبر شاملا شان دى مارس، والتروكاديرو .

وبين هـذين الجانبين من باريس وحصونها توجد أغرب أحيائها وأشـدّها شذوذا يسكنها العمال خاصة، ما عدا الجانب الغربى منها فهو على العكس من ذلك يبدأ من أوتاى الى ميدان الباتينيول وهو من أغنى الأحياء .

ويوجد طريقان مستقيمان تقريبا يقسمان باريس الى أربعة أقسام من الغرب الى الشرق ابتداء من بورت مايو، بمتابعة أفنيو لاجراند أرميه والشانزليزيه، وشارع ريڤولى، وشارع سانت أنطوان، وفوبور سانت أنطوان، وبلاس دى لاناسيون حتى الوصول الى ساحة فانسين وبابها . وهذا الخط يمكن قطعه كله بالمترو .

وكذلك يمكن قطع باريس كلهـا من الغرب الى الشرق بأخذ أولا أومنيبوس حرف (C) "نيللى -- أوتيل دى ڤيل (البلدية)" ثم يأخذ ترام (اللوڤر— فانسين) من عند اللوڤر .

ومن الشمال الى الجنوب كذلك شارع شابل، وجزء من حى سان دنيس، وشوارع ستراسبورج، وسيباستبول، وسان ميشل، وأورليان تكون خطا مستقيما من باب "پورت" الى باب يخترق باريس من أقصاها الى أقصاها، ويتم عبورها بأخذ الترام نمرة ٩ حتى ساحة سان ميشل، ثم نمرة ٨ الى بورت أورليان .

ويوجد شوط لذيذ آخر وهو أخذ الأمنيبوس (E) "مادلين — باستيل" الذى يمرّ على طول البولڤارات، وبالوصول الى الباستيل يؤخذ الترام نمرة ١٤ الذى يقود راكبه أمام الكونكورد، ويقطع فعلا قلب باريس .

* * *

ولكن من يدرى فربمـا كان القارئ يتساءل الان : كيف ينصح لى الكاتب بأن آخذ الأمنيبوس أو الترام، وقد تعاهدنا على أن أكون خالى الوفاض؟ !

وهذا حق . حق من الحقوق التى وعدت بها "المشتركين" فى هذا الكتاب وكل تقصير قد يعدّ "احتيالا" !...

والآن سأسير معه جنبا الى جنب وجيوبنا ، كما يقولون ، أخلى من فؤاد أم موسى ، أو إذا كانت فى أكياسنا بعض الدراهم ربطنا عليها وشددنا الوثاق فى انتظار مفاجآت باريس ... وهل باريس إلا مفاجآت ومغامرات ؟ !

لايوجد بلد فى العالم كله فيه من أسباب المسرات والملذات والغرائب والعجائب ما فى باريس . والآن ندع معارضها ومسارحها وملاهيها التى قد تكلفنا — مع أن بعضها أو جلها لا يكاد يكلف إلا النذر اليسير . وفى الأوبرا نفسها توجد مقاعد بثلاثة قروش — ولنقصد مشاهد أخرى ليست قليلة اللذة والطرب والحبور يستطيع كل انسان أن يراها دون أن يصرف دانقًا بل ويتمتع فى الوقت نفسه بروح باريس ، ويقف على جانب من سر مدينة النور ...

سر فى كل مكان على قدميك ، تكتشف فى كل مكان عالما جديدا يستحق الوقوف والعظة والاعتبار . أدخل جامع باريس أو كتدرائية نوتردام أو المادلين وتأمل براعة الصانع وذكاء الآثار الناطقة بذكاء أجيال ، فان حجارة باريس تتكلم...

وفى كثير من الشوارع وعطفات الطرق تجد حلقات الموسيقى الشعبية ، وبنات باريس وشباب باريس يرتلون وراء المغنى الفقير آخر أناشيد الحب والحياة ...

اذهب ما بين الساعة الرابعة والسادسة صباحا ، بعد انبثاق الفجر بقليل ، الى "الهال" (Les Halles) سوق خضر باريس ، وبطنها ، حيث الزاد والمؤن بأبى الحصر ، وليس ثمة أغرب من ذلك الحشد الصاخب من النساء والرجال ، والحمالين ، والحوذية ، وباعة البطاطس المقلى فى قراطيس يتبلونها بالملح ، ويبيعونها بالمليمين ، وهى غذاء ألوف من العمال ، وتراهم يروحون ويغدون ويرفعون وينزلون اللحوم والطيور والخضر والفاكهة وهم يصيحون ويصخبون ... وتجد أشكالا وصورا وخلقا كأنها وقف على باريس يستحيل أن تجدها فى غيرها من بلاد العالم وملاحظتها والتفرس فيها والمقارنة بها لذة أى لذة ... تجد العمالقة ، والجبابرة ، والفتوات ، المستأجرين خصيصا لحمل الأحمال المرهقة التى تنقض الظهور ... تجد "العربجية" بوقاحتهم المعروفة

عنـدنا وهم يضربون أسواطهم فى الهواء طالبين إفساع الطريق من "عشاق السهر والرذيلة" ! ... تجـد الأشقياء والبؤساء الذين يتبعون الأقفاص والأحمال ليلتقطوا من ورائها ورقة كرنب أو واحدة من البطاطس تفلت من بين الجريد أو من ثقب فى كيس ... وتجد باعة الحساء (الشوربة) والقهوة فى عربات "نقالى" مثل الذين نجـدهم من باعة الطعمية والبصارة والفول النابت عنـدنا أمام العمارات التى تشيد ليأخذ منها "الفعلة" حاجتهم ساعة الغذاء، ثم قهوتهم و"تعميرتهم" .

وعند الفجر اذهب أيضا اذا شئت الى شارع كرواسان (R. de Croissant) لترى سفر الجرائد على ألوف العربات فى ألوف الرزم ووراءها جيش عرمرم من باعة الصحف وبائعاتها يتخاطفونها ليوزعونها بعد ذلك على أربعة أركان باريس ...

وبعد ذلك بقليـل، ما بين السادسـة والتاسعة صباحا، ترى باريس تستيقظ من سباتها ... فالمحال التجارية تفتح أبوابها وتستقبل جماهير موظفيها، ومستخدماتها، والكاتبات على الآلة الكاتبة، والعاملات الصغيرات يسرن أسرابا كأسراب الحمام، يزقزقن بلغة باريسية خالصة موسيقية .

واذهب لتقرأ الأنباء البرقيـة المعلقة فى قاعة بنك الكريدى ليونيه فى " بولفار ديزيتاليان " أو تقرأ الصحف مجانا فى صالونات محلات اللوفر أو البون مارشيه ، وحيث تستطيع أيضا أن تجد مكاتب وورق جوابات تكتب عليـه رسائلك مهما كثرت ، مجانا ...

وفى الساعة الواحدة بعد ظهر كل يوم، ما عدا الاثنين والأعياد، تجد فى قصر العدالة " محكمة باريس " الكبرى ، قضايا تضحك الثكلى ، ولا سيما فى جلسات المخالفات والجنح ، تجد التلبس بجريمة الزنا ، أو تسـمع دفاع سائق سـيارة داس درّاجة، أو دهس رجلا، أو رد بوقاحة على السيد الشرطى (Monsieur l'agent) أو الخادمات اللواتى نفضن الأبسطة بعـد الساعة الحادية عشر ، أو السـكارى المعربدين آخر الليل ... الى آخر ذلك الموكب الهزلى الضاحك الباكى ...

أو اذهب لسماع محاضرات السوربون التى لا تنقطع طول السنة إذ يوجد قسم منها أيام الأجازات والعطلة الصيفية خاص بالأجانب، وفيه من أنواع الثقافة واللذة ما لا يقف عند حد، وتصحب هذه المحاضرات أحيانا رحلات الى الآثار المشهورة والمتاحف يفسر الأساتذة على ضوئها علومهم الزاخرة .

أو اذهب لحضور جلسة فى مجلس النواب أو الشيوخ واسمع أكبر رجال فرنسا : وكيف يخطبون، وكيف يتجادلون ويتناقشون، وكيف يحفظ الرئيس النظام، وكيف يتشاجر النائب الشيوعى مع النائب الاشتراكى والوطنى والاتحادى ...

وعد ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر الى شارع دى كرواسان لتشهد بيع جرائد المساء ، تجد الشارع قد حجب بكتلة كثيفة سوداء لا آخر لها من باعة الصحف فى انتظار فتح نوافذ البيع لشراء مئات الصحف، و بعد ذلك تجد الجرى والسباق الذى يقطع الأنفاس .

واذهب الى بولفار پواسونييـر (Bd. Poissonnière) لتقرأ فى صالة جريدة "المـاتان" تلغرافاتها المشهورة . والى شارع ريشيليو نمرة ١٠٠ (R. Richlieu) حيث جريدة "الجورنال" والى شارع لافاييت حيث "البتى چورنال" والى شارع ريامور (R. Réaumur) حيث جريدة "الانترانسـيچان" وهى من أكبر صحف المساء الشعبية ، وأعمدتها طافحة بعنوانات الغرف المفروشة والشقق للايجار .

وفى تلك القاعات تجد جميع أنباء العالم مكتوبة ومصوّرة . وكثيرا ما تجد صورا عن مصر واحتفالاتها .

وفى الساعة الخامسة مساء اذهب الى غاب بولونيا حيث تمر باريس كلها بأجمل وأروع ما فيها من جمال ووجاهة وعزة . وتنزه فى الشانزليزيه أجمـل بقع الأرض وملتقى كل أجناس البشر ...

واذهب اذا شئت أيضـا الى دار البيع بالمـزاد العلنى — ٩ شـارع دروو (R. Drouot) حيث تجد ما يدهشك من كتاب ممزق الأوراق متآكل الأطراف



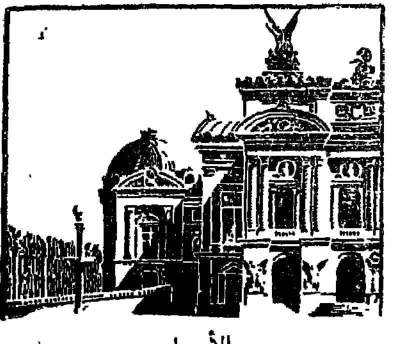
ميدان ڤاندوم

يباع لأنه نسخة أصلية بخط المؤلف ، بألوف الفرنكات وقد يكون مؤلفه مات جوعا ، وتجد الأثاث الوجيه يباع بأرخص الأثمان ...

وتنزه ما بين الخامسة والسابعة مساء فى الشوارع الكبرى " جران بولڤار " تجد ما يخلب الألباب من جميع الطوائف والأجناس والشعوب بلا استثناء قد جاءوا من كافة أنحاء الدنيا يزيدون فى جمال باريس ومسراتها وغرائبها ، ممتزجين بالباريسيين والباريسيات مما يسر الخاطر ويسرى عن النفس الهموم ... ان العالم كله فى تلك الشوارع . ولقد حدث أن معلمة روسية ظلت خمسة عشر عاما تدخر من مرتبها الضئيل حتى تسافر الى باريس ودونت فى مذكرة لها ، ما لابد لها من رؤيته ، فلما جاءت بعد ذلك الزمن الطويل جلست على مقهى فى " الجران بولڤار " ورأت الدنيا تسير فى موكب أمامها ، وقضت هكذا إجازتها كلها وهى فاغرة فمها دهشة تقول : " هذه هى باريس ! باريس !... " .

واذهب لترى مشهدا آخر من مشاهد الخلود ، وتسبح لله سبحانه وتعالى ، وهو غروب الشمس على نهر السين ، على كوبرى سان ميشيل أو كوبرى الكونكورد ...

واذهب الساعة السابعة مساء لترى خروج العاملات الباريسيات (Midinettes) فى حى الأوبرا وميدان ڤاندوم أو الشانزليزيه تعرف من باريس اذ ذاك روحها المرحة الجذابة الفاتنة ...



الأوبرا

واذهب فى نحو منتصف الليل الى الأوبرا لترى خروج أجمل غوانى مدينة النور فى أبهى الحلل وأفخمها ، وتدرك عندئذ سر الاناقة ومعنى " الموضة " والرشاقة النسوية ، وتجوّل بعد ذلك فى حى مونمارتر بقية الليل لأن مونمارتر لا تعرف الليل ...

واذهب يوم الأحد فى منتصف الساعة الحادية عشر لحضور القداس وسماع الموسيقى الشجية فى الكنائس الكبرى : "سانت أوجستان"، و "نوتردام دى لوريت"، و "المادلين"، و "سان سابيس" .

واذهب يوم الجمعة لسماع الخطبة وحضور الصلاة بجامع باريس حيث تلتقى بالمسلمين الصالحين من كافة أنحاء المعمورة .

أو اذهب لسماع الموسيقى الحربية فى الحدائق الكبرى والميادين العامة بين الساعة الرابعة والخامسة مساء .

أو اذهب يوم الأحد الى متاحف باريس التى لا تعدّ والدخول الى أكثرها فى ذلك اليوم مجانا وفيها كل أنواع الفنون من أقدم الأزمان الى الآن . وفى متحف اللوفر قسم للعاديات المصرية من أغنى وأفخم المتاحف .



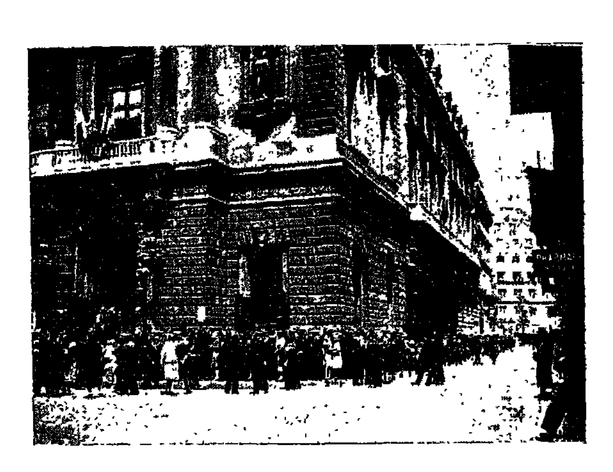
تحت قوس النصر

أو اذهب كل يوم الى قبر الجندى المجهول تحت قوس النصر بساحة الشانزليزيه الذى لا تنطفئ شعلته المضيئة وتقدم اليه كل يوم أكاليل الزهور من المحاربين القدماء، ومن المسالمين، ومن ملوك الأرض جميعا، لا ينقطع الحج إلى قبره يوما...

وكم فى باريس غير ذلك من ملذات ومتع لا تكلف المرء قليلا ولا كثيرا . وكم فيها للسيدات من مسرات بزيارتهن محال البيع والشراء "للفرجة" ودور الخياطة الكبرى حيث يسمعن الموسيقى وينظرن "المانكان" أجمل بنات باريس يرفلن فى آخر الأزياء، دون أن يكلفهن ذلك شيئا ...

فاذا حضرت أعياد يوليو رقصت حتى الصباح فى الطرقات والميادين دون أن تدفع رسما للدخول ! ... وترى ألوف الفتيات واقفات ينظرن الى الرجال نظرات التمنى والرجاء، كما لو كانت كل واحدة منهن تقدّم مع نظرتها خصرها وذراعها !

وما أغرب هـذه الدعوة الى الرقص دون سابق ودّ ! ... فهذا الرقص يخرج العذراء من بين أبويها لتخاصر الغريب وهى لو التقت به وحدها فى غير هذا الموقف لخجلت اذا نظر اليها وغضت من بصرها ! ... ولكنه فتنة هذا الزمن هذا الرقص، تدق الموسيق فتتحرك معها الأرجل ويهتز الكائن الخفى شوقا وحنانا ... وهؤلاء الأجانب الذين وفدوا ويفـدون على باريس بلا انقطاع من نساء و رجال من كل فج عميق من شمـال النرويج الى أقصى رومانيا ، وجبال التيرول، ومن الهند الى اسكوتلاندا هم أشدّ استهتارا من الفرنسيين أنفسهم وأحرص على اللذات والتمتع بمميزات باريس لأنهم يعرفون أنهم على سـفر ! ... ولا بد عاجلا أو آجلا من الرحيل ! ... وهـذه الحرية العريقة الواسعة تدهشهم وتفتنهم فيندفعون فى شيء يشبه السعار أو الجنون يعلمون أن هـذه الحقبة من حيـاتهم تمرّ كالبرق المسـعد يردّ الشيوخ الى الشباب ويجعل للشباب ريق الشباب ! ...



إزدحام المتفرجين أمام الأوبرا كوميك

وفى أعياد يوليو تفتح جميع المسارح أبوابها للتمثيل مجانا سواء فى ذلك المسارح الحكومية أو الأهلية .

أما أنواع السـباق الرياضى ومواكب المرافع " الكرنفال " والأسواق الشعبية الشائقة بأفراحها وألعابها فهى لا تنقطع، حدّث عنها ولا حرج ...

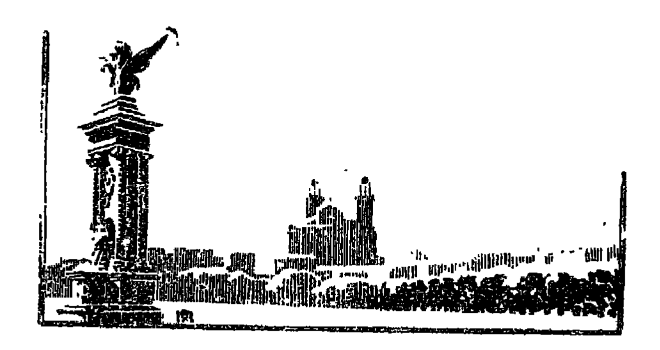
وفى كل شهر موسم ، وفى كل يوم عيد ... أيام باريس كلها مواسم ، ولياليها كلها أعياد ... يحظى بها الفقير أكثر مما يحظى بها الغنى ... إن باريس تحب الفقراء ، والغرباء ، وتحنو عليهم بما تحرمهم إياه الأقدار والأوطان ...

سلام على باريس ! ...



تمثال البرد

سحرُ باريس





باريس ! باريس !

بقلم الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق



يروى أن عالما كبيرا من علمائنا — غير الأزهريين بالضرورة — كان قد غاب عن باريس زمنا طويلا فى مصر، فلما عاد إلى ملكة المدائن، لم يتمالك أن ارتمى على أرضها، وجعل يعفر وجهه فى تراب الحرية، وإن كانت حرية باريس لا يلحقها غبار.

كان ذلك قبل عهد الأوتوموبيلات والأتوبيسات التى لا تترك الآن فى باريس شبر أرض خاليا لعاشق يريد أن يرتمى ثم ينهض صحيحا. وقد كان عالمنا — يرحمه الله — ضخما طوالا، وكان يحب باريس ويحب الحياة.

لست من هذا النوع من الغرام، بيد إنى أحب باريس حبا جما.

دخلت باريس أول مرة بين صديقين كريمين، وكان أحدنا يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معمما.

أما الأول فلا تزال تحلق به الفلسفة العالية فوق القبعات والطرابيش والعمائم، والثانى كان يحمل طربوشا فقط، فأصبح يحمل لحية وطربوشا.

أما الشيخ المعمم فسكين، لا يزال شيخا معمما.

وكلما دخلت باريس وجدتنى بين الصديقين العزيزين، وأبصرت القبعة والطربوش والعمامة تسير فى ذلك الموكب الدائم، فان باريس تحتضن الذكريات، ولو صغيرة، فى حرارة تحفظ عليها وجودها وحياتها، فليست تعود اليك خيالات بالية، ولكنها تطالعك حقائق باقية.

قد تجد للوحدة استيحاشا حتى فى مسقط رأسك وبين قومك . أما باريس فلا وحشة فيها ، لأن المعانى والذكريات والامال والماضى والحاضر كلها فى باريس كائنات متحركة تنهض بجانبيك .

باريس موجود حى ، تنبعث الحياة من أرضه وسمائه ، ورجاله ونسائه .

باريس عظيمة ، بكل ماتحتمل هذه العبارة من معانى الحياة والجلال والجمال والذوق والفكر والانسجام والخلود .

فى باريس جمال يجمع بين أبدع ما يتجدّد من نتائج الذوق والفن ، وبين جلال القدم . وقد نقل لى أديب عن شوقى بك أنه قال : أن باريس كالجواد الأصيل .

يريد شاعر النيل : أن حسن باريس ذاهب فى غور الأجيال ، يغتذى بالحديث والقديم ، ويرجع الى حسب فى الجمال صميم ، وعليه طابع الأصل الكريم .

ليست باريس صنع شعب من الشعوب ، ولا عمل عصر من العصور . ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة ، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال .

باريس جنة فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء ، وفيها لكل داء فى الحياة دواء ، فيها كل ما ينزع اليه ابن آدم من جدّ ولهو ، ونشوة وصحو ، ولذة وطرب ، وعلم وأدب ، وحرية فى دائرة النظام لاتحدّها حدود ، ولا تقيدها قيود .

باريس عاصمة الدنيا ، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس .

وهل غير باريس للحور والولدان ، والجنات والنيران ، والصراط والميزان ، والفجار والصالحين ، والملائكة والشياطين ؟ !



زرت الحى اللاتينى ، مجمع الكوليج ده فرانس والسوربون والبانتيون ، حى العلماء والطلاب ، وحى الشباب ، رعى الله الشباب !

طوفت حول الجامعة ، فاذا طلاب وطالبات برغم العطلة يغدون ويروحون ، تفيض محافظهم بالكتب ، والأوراق كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبشر ، وان علتها ملامح الجهد والفكر هم من ألوان مختلفة ، وبلدان شتى .

وأكثر الطلاب الأجانب جدا وعملا وانتفاعا بالمقام فى أوربا هم اليابانيون — فى ما سمعت — وأكثرهم رفها وانصرافا الى اللعب وتضييعا للدرس هم الرومانيون .

أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم ، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة .

ولا يبـدو على محياهم أثر للشحوب ، فيقول قائلون : إنهـم يرفقون بأنفسهم فى الدرس رفقا يحفظ عليهم بهجة الراحة ! ويقول قائلون : أن سمرة أديمهم تخدع الناظر عن سمات الجدّ والنصب ، وآثار السهر الطويل فى المذاكرة والتحصيل .

وكذلك الشأن فى طلابنا فى مصر نفسها ، وكلا التأويلين محتمل فى الجميع .

واذا ذكر الطلاب المصريون ، وجب اعلان الاعجاب بشبان تتزين بهم مجاميع التلاميذ المصريين فى بلاد أوربا المختلفـة ، وتسمع ذكرهم ثناءا مستطابا ، وهم على قلتهم رجاء النيل والأهرام ، وعزاء مصر اليوم وذخرها لمستقبل الأيام .

ولا يسـع السائح المصرى إلا أن يسر سرورا عظيما بإقدام فتيان من خريجى الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم على السفر الى أوربا شوقا الى الكمال العلمى ، من غير سابق تأهب للحياة والدراسـة فى تلك البلاد ، ومن غير بسـطة فى الرزق ولا مدد .

تجد منهم فى باريس وليون وجرينوبل ، وقد يكون منهم فى غير هذه المدائن ، وفى غير فرنسا ، أولئك الشيوخ المجاهدون فى سبيل العلم يستحقون عطفا وتشجيعا .



ختمت زيارة الحى اللاتينى بحديقة لكسمبورج ، وهى روضـة ذلك الحى ، فيها جلاله ، وعليها طابعه .

الأشجار العتيقة باسقة ، قد اسودّت جذوعها ، واخضرت أعاليها خضرة مشوبة باصفرار، وشقت بين صفوفها مسالك ، تظللها الأغصان المتشابكة، كأنك بينها فى سحر يتنفس صباحه فى أعقاب ليل، وكأنك فى تجلى الأسحار وفى هدأتها، وترى التماثيل البديعة فى شعرها الصامت منسجمة فى ذلك الاطار البديع ، وبين حنايا هذه الظلال تجد فنانا عاكفا على تصويره، ومفكرا مستغرقا فى تفكيره ، وشاعرا يستنزل الوحى من سماء الشعر، وعاشقا يبث غرامه، وغزلا يستمتع بالغزل.

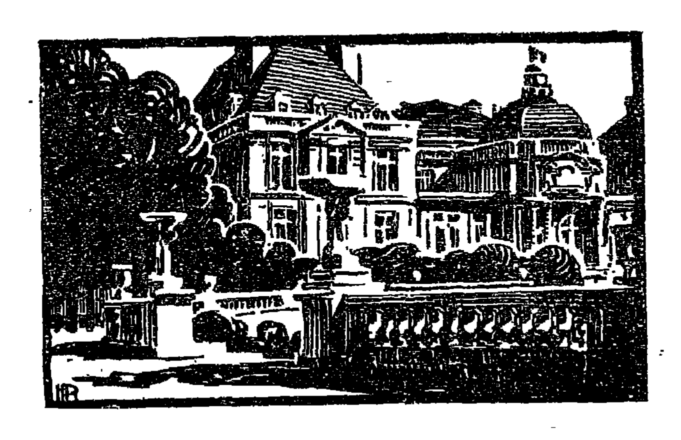
ثم تخرج إلى ساحة تبسم الأنوار فيها والزهر، وتحدر على درج، إلى البركة ذات النافورة، مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها ، ومن حولها دكك مفرّقة لمن ليسوا أطفالا .

لمحت فى بعض النواحى فتاة بيدها خطاب تقرأه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم ، وتلقاءها فتاة تكتب فى صحيفة، وتتلو ما تكتبه فتتحدر عبراتها ، وكم يأوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم ! ...

ليس ماءً ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ، ولكنه ذوب ابتسامات ودمـــوع ...

رويدكم أيها الأطفال العابثون بذلك المـاء !

مصطفى عبد الرازق



(بيت الأمة) فى باريس

بقلم الأستاذ سليم حسن



لا زلت منذ عام ١٩٢٥ أحتفظ بالحجرتين الصغيرتين اللتين قد اتخذتهما مسكنا لى أثناء دراستى فى جامعة باريس لعلم الآثار . وهما فى منزل أثرى ، يرجع عهده إلى لويس الثالث عشر ، ويتكوّن هذا البيت من ثلاث طبقات كل منها يحتوى على حجرتين ومكان للطهى ويقع هذا المنزل فى شارع ديكوديك رقم ٢٧ على مقربة من الحى اللاتينى .

فى هذا المسكن البسيط قضيت ثلاث سنوات وفيه أيضا أمضى كل عام شهرين أو يزيد . ولا زلت محتفظا به كأثمن شىء لدى ، ولا زلت أيضا أحِنّ إليه كل عام لأنى أجد فيه شيئا كثيرا من الراحة والمتعة والطمأنينة ، ولا أكون مغاليا إذا قلت بأنى أعدّه كبيتى بالقاهرة ، أو بأهرام الجيزة ، إذ الأول أجد فيه أسرتى والثانى أجد فيه عملى . أما فى بيت باريس فأجد البيت الذى تكوّنت فيه علميا ، ووضعت فيه أوّل كتاب أخرجته فى علم الآثار ، وفيه أرتب أعمالى العلمية كل عام ، توطئة لما سأقوم به من العمل فى العام المقبل .

اتخذت هذا المسكن الصغير خلوا من كل أثاث ، وأثثته بأثاث بسيط أعطاه بعض الشىء من الرونق والجمال ، وكانت كل عنايتى به موجهة الى مكتبتى الأثرية التى جمعتها فى باريس طوال مدة إقامتى هناك ، وهى التى كانت تجتذب الىّ خلقا

كثيرا من طلاب الآثار في باريس وغيرها ، ولقد كنت أشعر بشيء كثير من الراحة والإنشراح الى ذلك إذ كنت دائما بين الأصدقاء وبين الكتب ، ولقد كان يمرّ عليّ أحيانا أكثر من عشرين يوما وأنا منزو فى داخل حجرة المكتبة بين الكتب آونة ، ومع أصدقائى آونة أخرى نتحدث عن الكتب وما جدّ منها ، وكانت زميلاتى من الجنس اللطيف " وما كان أكثرهنّ فى جامعة السوربون ! " يأتين الى هذه المكتبة ويستعرن منها ما أردن من الكتب ، وكذلك كنا نشرح سويا الدروس التى كنت أكلف أحيانا بإلقائها فى معهد الدراسات العالية فى علم الآثار ، ومن الغريب أن كل واحدة من هؤلاء الزميلات كانت تودّ من صميم قلبها أن تختلف على هذا البيت للدرس والتحصيل ولكنهن كنّ يخشين بأس خادمتى العجوز وكيدها ! فبالرغم من أنها كانت تبلغ من العمر فوق الخامسة والسبعين كانت تغار عليّ كل الغيرة وتكيل لى من النصائح ما تريد به أن تمنعنى من الاختلاط بهاتيك الفتيات ، وكانت تظن أنهنّ يحضرن للغزل ، لا للبحث والدرس . لهذا الإخلاص الشديد وهذه الشفقة العظيمة كنت أناديها بـ « مير » ، « أم » حتى أصبح علما عليها ، يناديها به كل أصدقائى .

بقيت بعد ذلك زمنا طويلا أدهش لعقليتها ، ومعاملتها لهؤلاء الزميلات ، حتى انكشف لى سر ذلك بعد مدّة ، وذلك أنها كانت تقدّم لى حساب المنزل كل يوم ، فلاحظت أن الخط كان يتغير من وقت الى آخر فلم أعبأ بذلك الى أن احتدم الجدال بيننا يوما على بعض تصرفاتها السيئة ، وأمرتها بأخذ القلم وكتابة الحساب كما أمليه ، فامتنعت وبعد قليل جاهرتنى بأنها لا تعرف الكتابة والقراءة . عند ذلك التمست لها المعاذير ، وعلمت أنها لم تذق طعم العلم ، ولم يمكنها أن تفهم أن هاتيك الفتيات كن يترددن عليّ فى منزلى لمكتبتى فقط لا لأى اعتبار آخر . والله يعلم كم كنت أقاسى من دسائسها وكيدها فى بادئ الأمر ! فقد كنت أدخل أحيانا قاعة المحاضرات فى الجامعة فأرى من بعض الزميلات عبوسا فى الوجه ومن البعض الآخر امتناعا عن ردّ التحية ، وذلك لما كانت تلقيه عليهنّ خادمتى من

الكيد والفتن ، الى أن جاهرت زميلاتى و زملائى باخلاص "مير" الشديد نحوى وجهلها الشنيع بالعلم . فاطمأن كل إنسان وأصبح يهزأ بما تلقيه من ترهات .

هذه حالتها مع أصدقائى وصديقاتى الفرنسيين . أما المصريون فكانت عند ما ترى واحدا منهم يقرع البيت تهش وتبش فى وجهه وتخبره بموعد عودتى الى المنزل كما تخبره أيضا بأنى أعطيت لها الأوامر بأن تحضر الغذاء للطارق ومن معه سواء أقل العدد أم كثر ! ! واذا اتفق أنها غادرت المنزل لبضع دقائق أو ساعات كانت تسلم المفاتيح الى حارسة الباب وتأمرها بأنه اذا حضر فرنسيون فتكتفى بأخذ أسمائهم فقط أو ما يعطونه اليها من بطاقات . أما اذا حضر مصريون فتصعد معهم الى المسكن وتجلسهم ثم تخبرهم بأن رب البيت سيعود بعد قليل الى أن تحضر هى فتخبرهم بأنهم فى ضيافتى فى الغذاء أو العشاء حسب الوقت ، وذلك طبعا دون علمى ! حتى أنها تضطرنى فى بعض الأحيان الى أن أكون كريما على الرغم منى . وكانت أحيانا تترك مفتاح البيت تحت المنفضة عند عتبة الباب ثم تخبر حارسة الباب الكبير بأنه سيحضر أحد المترددين على البيت اليوم وتأمرها بأن تخبره بأن المفتاح موجود تحت المنفضة عند الباب ، وما عليه إلا أن يفتح و يدخل بنفسه ! ومن أجل ذلك سمى أحد أصدقائى هذا المنزل البسيط فى باريس "بيت الأمة" . ولا غضاضة فى ذلك . فبيت الأمة فى باريس يؤمه على بساطته كبار رجال مصر من الأصدقاء و بعض كبار العلماء فى باريس .

وفى هذا البيت البسيط كنت أردّ ولا أزال ، الدعوات التى كنت أدعى اليها من كبار رجال مصر وكان كل منهم يثنى أطيب الثناء على طهى "مير" ويتجاذب معها أطراف الحديث .

كان حب "مير" الشديد لى يجعلها تتغاضى عن كثير من هفواتى معها وكنت بدورى أتغاضى عن كل هفواتها المؤلمة .

غير أنها لم تغتفر لى زلة فى آداب الأكل مرة وصارت تعيرنى بها طول مدة إقامتها عندى ، وذلك أننى تشوقت مرة أن آكل بيدى متربعا على الأرض ، فأمرتها

بأن تهيئ لى المائدة وأن تغلق الباب ، فظنت أن معى فى الحجرة شخصا آخر لا أريد أن تراه فتلفتت فى أرجاء الحجرة ولما لم تجد أحدا أغلقت الباب وانصرفت .غير أن حب استطلاعها جعلها تختلس النظر من كوة صغيرة بالباب فوجدتنى واضعا كل ما على المائدة فى أرض الحجرة وجالسا متربعا آكل بيدى ،فأدهشها جدا هذا المنظر الغريب ففتحت الباب بغتة وقالت بصوت مرتفع : "الآن أرى حيوانا يأكل !" فأجبتها "وقد طبخ له حيوان آخر"! ...فلما حضرت الى مصر معى ورأت بعض الناس يأكلون كذلك خطرت لها تلك الذكرى السابقة وقالت الآن فهمت ! .

تلك هى خادمتى . أما زملائى الذين كانوا يؤمون هـذا البيت فكان أكثرهم من فقراء الفرنسيين العاكفين على الدرس والتحصيل ، وكنا نجتمع كل يوم اثنين من الساعة الثامنة صباحا الى منتصف الليل نحضر معا المحاضرة التى كنت ألقيها فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع — وكنا نأكل سويا دون أى كلفة . وإنك لتجد فى الفرنسى حينما يخاص لك أخا وفيا ، وأبا شفيقا ، وصديقا حميما ، وهو نادر . على أن معظم من كان يحضر عندى منهم كان قصده الأول الانتفاع بما عندى من المراجع ، حتى صرح لى بعضهم قائلا أننى أحضر هنا لكتب سليم لا لشخص سليم ، ومع ذلك فكنت أعدّ حضورهم عندى شرفا ومفخرة .

وعند ما أعود كل عام الى هذا النزل البسيط ، تنبسط أمامى تلك الذكريات ، وتلك الليالى الطويلة التى أمضيتها فى حل معقدات اللغة المصرية القديمة ، ودياناتها ، وأنا بعيـد عن وطنى وأولادى ، فاذا ما رحلت عنه والتقيت بأهلى وأصـدقائى ، تمنيت اليوم الذى أعود فيه الى ذلك البيت الصـغير فى حجمه ، الكبير فى ذكرياته وآثاره ، فلا يهدأ لى بال حتى أعود اليه . وهناك أجد سعادة المـاضى ، ولذة أيام الدرس والتحصيل ، فهو لى بمثـابة وطن ثان ، وسأحتفظ به ما دمت قادرا على أجره السنوى الضئيل ...

سليم حسن

سر سحرها

ليس فى الدنيا كلها بلد تزوره ، ثم تعود فتزوره فلا تمل الزيارة ولا يغنى الجديد فيه ولا يقبح القديم .

وما هى باريز ؟ أعاصمة فرنسا فحسب أم هى عاصمة الدنيا ؟ وبم تكون عاصمة الدنيا ؟

أهى أم الحرية والنور أم هى أم الثورات والخروج على الملوك وذوى السلطان؟

أم هى الشعلة تضىء الكون فكرا ، وأم الزراعة تبذر فى العالم روح التقدّم على الدوام ؟

* * *

أم هى غاب بولونيا بأشجاره الباسقة ومياهه المتألقة وبالطرق تخترقه ، فتنة للمتنزهين مشاة وفرسانا ، ورئة تتنفس به باريز الهواء النقى المنعش ، فاذا ما قضيت فيه شطرا من العمر وفاء للذمم وللعهود ، وهممت بالعودة الى المدينة مررت بقوس النصر ونابوليون يرفع أعمدته مخترقا الشانزليزيه ، فساحة الكونكورد الى قوس نصر اللوفر بقعة من الجنان لا تجد لها مثيلا تحت الشمس .

* * *

أم هى مسارح الفن وقد مثلت لك فيها الحياة كلها جميلها وقبيحها ، عقلها وقلبها ، حزنها وسرورها ، وما يتخلل كل هذه المظاهر من عواطف يكتبها فن التشخيص لسانا بليغا . فمن الجدّ يسمو بك الى المثل الأعلى فى "الكوميدى فرانسيز" الى العاطفة الهائجة القوية فى "الجران جنيول" الى العبث بنظم الحياة الاجتماعية والسخرية من الملوك والوزراء فى "الجمناز والأتينه والكومارتن" الى الحب فى جميع أطواره ومختلف آثاره فى كل المسارح جمعاء الى الخلاعة والتهتك فى "الفولى بيرچير والبالاس والكازينو" .

* * *

أم هى المجد الخالد تشاهده فى القصور وقد جعلتها الثورات متاحف وفى المتاحف قد جعلها الفن مجدا خالدا .

فقد يستطيع أغنياء أميركا أن يشروا الصور والتماثيل وأن يبنوا القصور تناطح برج ايفل وقد يزون كل ما فى باريز من علو وفخامة، ولكن أين لهم التاريخ المتسرب فى قاعات القصور، والوقائع تقرأ على الجدران، والروايات تكتب فى الحدائق . بل هل تعرف فى باريز سكنا ليس بذى تاريخ وهل دست طريقا لم تطأه أقدام الملوك والامبراطرة وأقدام من أودى بهؤلاء الملوك والامبراطرة؟ أم هل مررت بحى لم يرد عليك اسمه فى رواية قرأت أو كتاب طالعت ؟

* * *

أم هى آثار لويس الرابع عشر أم آثار نابليون وذكرياته من قصور فرسايل الى قصور فونتنبلو الى اللوفر الى الانفاليد، والى كل ما فى مخادعها من مجد ومن جمال ومن ثورة ومن استبداد ومن حب ومن بغض . وأى شىء يبقى فى باريز اذا أنت نزعت منها أثر نابليون وبقايا أثر لويس الرابع عشر — آثار قد تدعو أعداء المدنية الحاضرة المؤسسة على رأى الجماهير الى إساءة الظن بهذه الجماهير وبحكمها والى القول بأن أعظم مشاهد العالم الباقية لمشاهد أقامها الحاكم الفرد المستبد واستحمل الجماهير عليها . على أن لهذا الكلام مجالا واسعا ليس محله ههنا .

* * *

أم هى هذه القهوات تملأ الطرق وتكتظ بالناس فتظن باريز قد خرج سكانها الى قارعة الطريق يجلسون ويأكلون ويشربون بغية الكسل وحبا فى البطالة .

* * *

كل هذا باريز أو فى باريز، ولست أحاول العبث فأصف لك مشاهدها فان فى وصفها شيئا من تقليل بهجتها كالسحر إن حاولت تعريفه ضاع أثره .

وقد تجد فى لندن أو فى عواصم أخرى بعضا مما فى باريز أو كل ما فى باريز من فن ومن جمال ومن مجد ولكنك لن تجد السحر الباريزى .

فما هو هذا السر الذى جعل باريز ساحرة ؟

فقد بنى البناة أعلى مما بنوا وشيدوا أفخم مما شيدوا ونظموا الشوارع وخططوا الطرق وأقاموا التماثيل وجمعوا المتاحف فأتقنوا، ولكنهم ما استطاعوا أن يجعلوا لباريز شبها فى سحرها . فما هو السبب ؟

قد لا يخطئ المرء اذا أرجع سحر باريز الى الامرأة الفرنسوية منذ القدم حتى الساعة . فقد اختصت الطبيعة أرض فرنسا بنبات لا مثيل له هو الامرأة الباريزية ومن قال الباريزية فقد قال الفرنسوية لأنك إن أنت حذفت باريز من فرنسا فقد محوت هذه من خريطة أوربا .

فالامرأة فى فرنسا هى العامل فى تكوين سحر باريز وهذا السحر يجمعه قولك الذوق .

ألا تراهم يصوّرون لك فرنسا امرأة، والجمهورية امرأة، والوطن امرأة حتى اذا هم صوّروا الحرب قديمها وحديثها أتوك بامرأة على رأسها خوذة وفى يمينها سيف .

أثر الامرأة ظاهر فى كل تاريخ فرنسا ما وضح منه لغير الفرنسويين وما استتر . فليست جان دارك، وديان بواتيه، ودى بارى، وبومبادور إلا أسماء لجيوش من مثيلاتهن يعملن فى كل حقول الفن والأدب والشعر والسياسة والحرب .

وتأثير الامرأة آت من أنه تأثير معنوى تجيء به على أنها مهبط الوحى لا على أنها مساوية للرجل فى الحق وفى الواجب . فليست غاية الباريزية المساواة بالرجل بل هى أبعد مطمعا فهى تجلس من الرجل محل وحيه الى فوق لا محل مشاركته الى الجانب . فلذا جعلها آلهته ولم يجعلها مثيلته .

هذا السر الذى عرفت الفرنسوية أن تحفظه وتحتفظ به جعلها تأبى دون نساء أوربا أن تطمع فى حقوق سياسته وما اليها من مولدات حزازات الصدور وبقيت كما هى امرأة .

استرجل الامرأة الفرنسوية وأبعد عنها أنوثتها تجعل باريز عاصمة مثل بقية العواصم .

اقـرأ تاريخ ملكاتها وزوجات ملوكها وخليلاتهم ، واقـرأ حياة كتابها وقوادها وشعرائها وعلمائها تجد الامرأة تخللها كلها — ذلك أنها لم تعد أن تظل امرأة فبقيت مهبط وحى الرجل تنفخ فيه عبقرية الحرب والفن والشعر والعلم .

أثر هذه الامرأة ظاهر فى جميع نساء باريز على اختلاف الطبقات . فهذه التى تبيع لك السلعة فى الدكان لها من رداء بسيط رخيص ومن كلام رقيق لطيف ومن مشية غير متكلفة ما يجعل بينها وبين امرأة تقرأ وصفها فى رواياتهم الشبه الواحد . وتلك الخادم التى تفعـل فى البيت فعل الرجال تراها اذا خرجت فى يوم عطلتها فلا تميزها من السيدات اللائى يجرح الحرير بنانهنّ .

وقد سأل سائل تاجرا فرنسيا عن سر تفوق باريز فى صناعة الأزياء وقال له إن الانكليز والأمريكان أكثر منكم مالا ، ففى يدهم أن يشـتروا كل شىء وأن يخلقـوا الأزياء ويعرضوها على العـالم أجمع ، فلم لا يفعلون ؟ قال : أنهم يسـتطيعون أن يفتحوا أعظم المحال ويزينوها بأفخم الزينات ولهم أن يأتوا بكل ما فى العالم من حرير وريش نعام وفرو ، ولكن من أين لهم أن يأتوا بالامرأة الفرنسوية تلبس التافة من الثوب فتجعل منه زيا محتما . ثم قال : أرأيت الى انكلترا وما يقولونه عن عظمـة مصانعها القطنية ، وغنى معاملها الصوفية والحديدية أنك لو جمعت دخلها كله من هذا لمـا ساوى دخل فرنسا من صناعة الأزياء . قلت : وقوام هذا الا مرأة ؟ قال : قوامه الامرأة .

فهى ليست قوام الفن فى المسارح وفى الروايات وفى الشعر فحسب ، بل قوام التجارة ، بل قوام السياسة لأنها تستعبد حكام فرنسا أجمعين .

* * *

هذه باريز وهذا سر عظمتها فى سحرها وهى عظمة موروثة عن القدم فصارت ميزة لا صقة يصعب على المرء أن يتبينها لأول وهلة ، ولكنه لا يلبث أن يتمثلها أمامه فى كل مظاهر الحياة البارزية . فاذا قيل لك أن باريز سيدة العالم فقل انها سيدته بحق وبجدارة لأنها اتخذت المرأة شعاوها — المرأة فى جميع مواقف وحيها .

سامى جريدينى

جنــــة الخــــلد

بقــلم الأســتاذ حسن الجـــداوى

أراد منى صـديق الصاوى — أو هـو فى الواقع أراد لى أن يكون لى رأى بين الآراء القيمة والبحوث الممتعة التى شغلت دفتى كتابه عن باريس . وقد تحرجت كثيرا قبل أن أقدم على الكتابة علمـا منى بعجزى ، وزادنى تحرجا ما كان يطلعنى عليه من وقت لآخر من أصول وبروفات لكتابه كان فى كل منها ما يظهر لى عجزى وما يبعدنى عن محاولة الكتابة .

ولكننى وقد قرأت أغلب ما حواه كتابه عن باريس ، تلك المدينة التى لا يسلوها من رآها مهما طال به الزمن — تذكرت أياما لى بها كانت على قصرها كأنما اقتطعت من جنة الخلد ، وودت لو أننى أثبت لنفسى لا للناس تلك الذكريات الجميلة .

فى أواسط سنة ١٩١٩ والهدنة لمـا تعقد بعـد قصدت مدينة ليون للالتحاق بمدرسة التجارة العليا بها . وفى طريق — بسبب إضراب عمال النقل — مكثت أياما طويلة فى مرسيليا جزت خلالها فى كل أنحـاء ذلك الثغر القذر الجميـل الذى يموج بالأجانب والذى يكاد يكون الفرنسيون أقل سكانه عددا لكثرة ما تسمع فيه من لهجات متباينة وتقابل فيـه من أزياء مختلفة وأطلت المرور فى شارع الكانبيير (La Cannebière) مفخرة المرسيليين الذين يحسبون أن باريس لو حظيت بشارع مثله لأصبحت مرسيليا الصـغيرة ! ... ثم وصلت ليـون أغنى بلاد فرنسا إطلاقا وأكثرها نشاطا وثانيتها سكانا واتساعا .

ولقد كان من حظى أن كان مراسلى فى تلك المدينة المرحوم المسيو شارل لوتو (Charles Lutaud) مدير مقاطعة الرون وحاكم الجزائر العام السابق وكان مرشحا

إذ ذاك لعضوية مجلس النواب فى انتخابات عام ١٩٢٠ ، ولقد رافقته فى أيام حملته الانتخابية كلها فلم نترك مكانا فى مدينـة ليون إلا ودخلناه وخطب فيـه ودافع عن رأيه ولا مركزا من مراكز المقـاطعة بل ولا قرية من قراها إلا وزرناها وحادثنا أهلهـا .

وانتهت تلك الحملة برسوب المسيو شارل لوريو فى انتخابات مجلس النوّاب . ولم يكن أسعد حظا فى انتخابات مجلس الشيوخ التى تلتها .

والى أين كنا نسـتطيع أن نذهب لنرفه عنا آثار ذلك الفشـل إن لم يكن الى باريس ؟ سافرت اذًا الى باريس . وكنت قبل أن أذهب اليها قد رأيت فى السينما وقرأت فى الكتب الكثير عن قصور باريس وشوارعها وميادينها ، وكنت أعرف الأسمـاء والاتساع والعظمة . وقـد تخيلت باريس لا كخيال الرجل الشرقى الذى لم ير فى حياته إلا القاهرة والاسكندرية ومدنا أخرى دون ذلك بكثير ، بل تخيلتها كمرسيليا كبيرة فى أحسن ما تكون عليـه شوارعها نظاما ونظافة أو كليون فى أبهتها وبهائها . وقلت فى نفسى لن تمتاز باريس عنهـا إلا فى الاتساع . ووطنت النفس على أن لا تسـحرنى باريس ولا تسـيطر على وقلت سأسير فى شوارعها كما أسـير فى شـوارع ليون ، ثابت القـدم ، ثابت النظر ، لا تبهرنى العمارات مهما كبرت ولا يزيغ بصرى بين المناظر المختلفة مهما عظمت .

كذلك انتويت ... ولكننى انتويت ذلك لأننى لم أكن قد رأيت باريس ... فما كدت أدخلها حتى فقـدت نفسى وحواسى وكل سيطرة لى على عواطفى ... وما أحسبنى كنت الوحيـد الذى غمرته باريس بجمالها . فقد رأيت الكثيرين من سكان لندن — على عظمتها التى يتحدّثون عنها — مشدوهين ... وكم قد تحـدّثت الى أكثر من واحد من أبناء التاميز وقف مثلى تحت قوس النصر يجول بالطرف فى تلك الشوارع الممتدة الى مدى النظر فى شكل دائرى حول القوس كأنها أشعة من ضوء منبعثة هى بالليل أجمل منها بالنهار وهى بالنهار أجمل ما تقع عليه العيون .

لم أر لنـدن ولم أر برلين ولكننى سأراهما على مدى الأيام . ولم أر نيويورك ولا أظننى سأراها، ولكننى مع ذلك لا أحسب أن أيا منها ستسحرنى كما سحرتنى باريس، باريس الفاتنة، باريس الساحرة! ...

و بعد، فأى شيء عن باريس تريدنى أن أذكر ؟ أمقابلتى لأناتول فرانس أم حضورى جلسات محاكمة "كايو" و إصغائى لمرافعته عن نفسه وقد وقف عقب محاميه دى مانج (Desmanges)، وموتيـه (Moutet)، ودى موروچيافيرى (De Moro-Giafferi) المقول بأن جدّه الأمير جعفر الجزائرى، ومع ذلك ترافع عن نفسه فكان قوى الحجة، حاضر البديهة، طلق اللسان، ممتلئا حذقا وعلوا . فلم يتنزل لاستدرار عطف قضاته وقد كانوا يقفون لتحيته كلما دخل أو خرج بل طلب منهم أن يحاكموه وأن يحكموا عليه إن استطاعوا لذلك سبيلا . وقال لهم أنهم سواء برأوه أو حكموا عليه فستعرف له فرنسا حقه، وتعود به الى كراسى الوزارة قبل عشر سنين . وقد كان له ما أراد .

أولئك هم رجال فرنسا الذين اذا وجدتهم فى أغلب أنحاء فرنسا فانما يجتمعون ويعملون و يظهرون فى باريس .

حسن الجداوى



مرقص الفنون الأربعة (Le Bal de 4 Zarts)



طلبة الفنون الجميلة قبل خروجهم الى مرقصهم

إنها ليلة واحدة فى العـام ، وفى العام كله ... ليلة فريدة ليلة الفنون الأربعة (التصوير والنحت والهندسة المعمارية والزخرفة) يقصـد اليها الناس من كل فج ، وإن كان الدخول اليها عسـيرا جدا يكاد يستحيل على من لم يكن من أهل الفنون الجميـلة ... ويحظرون فيها أخذ الصور الفوتوغرافية أو السينمائية . ويقوم طلبـة المدرسة بتنسيقها وتنظيمها وإعدادها قبل موعدها ببضعة أشهر .

إنها ليـلة يتجلى فيها الفن (fantaisies de l'esprit de l'artiste) . فكل " أتلييه " له جزء فى المرقص مسمى باسم أسـتاذه ورئيسه . وتنسيقه يكون بنـاء على اختيار عصر من العصـور القديمة التى مرت على مصر أو روما أو بلاد الإغريق أو العرب أو الهنـد أو إيران الخ ... تدرس فيه كل تفاصيله ، ويأخذ كل أتلييه جانبا من المرقص ينظم على حسب العصر المفروض فى تلك السنة .

وهناك ركن خاص أيضـا بالطلبة القدماء الذين تخرجوا وأصبحوا من مشاهير الفنانين والمثالين ، ومنهم أعضـاء فى المجمع العلمى وأساتذة بمدرسة الفنون الجميلة ، وتكون عنـدئذ الصالة كلها إما مصرية وإما رومانيـة وإما إغريقية الخ . ولهذه التنسيقات جوائز . وكذلك مركبات الموكب والأعلام وما يتصـل بها كلها تمثـل

ذلك العصر أيضا ، ولها جوائزها كما للملابس جوائزها أيضا وهى كلها من ذلك العصر بحيث لا يشذ شيء عنه قط و يجب أن يصنعها كل أتلييه وكل فنان شخصيا .

وفى داخل المرقص لا يجوز مطلقا لأى فرد حتى ولا عازف الموسيقى أو الجرسون أو الخادم أن يبـقى فى ملابس مدنية عادية بل يجب أن يكون الانسجام شاملا . والدخول للجميع بامتحان .

وتبـدأ المواكب فى شـوارع باريس ومطاعمها ومقاهيها من الساعة الخامسة بعد الظهر فتنشر البهجة والسرور فى مدينة النور .

ويبدأ الدخول من الساعة الثامنة مساء الى ما بعد منتصف الليل ، والدخول بازدحام هائل، ثم يقفل البـاب فلا دخول ولا خروج مطلقا ... وترتيب الدخول بالمناداة على كل أتلييه للجمهرة فى الشـوارع وعلى الأبواب . وعلى المدخل اثنـان يمثلان كل أتلييه ، فاذا حصـل أى شك فى أى فرد يمتحنونه ويسألونه عن بعض تفاصيل يستحيل على الغريب معرفتها . وعند عدم الرد على الامتحان تساء معاملته ويطرد شر طردة واذا كانت معه سيدات يحجزن من دونه !

والواقع أن الغرباء من غير الفنانين هم الذين يدفعون أكبر قسط فى نفقات تلك الحفلة لأن التلميـذ كان لا يدفع أكثر من سبعة فرنكات فى حين أن الغريب قد يدفع ثمنا فى التـذكرة يبلغ أحيانا ٢٠٠٠ فرنك أى من جنيهين الى ثمانين جنيها التذكرة ! ! مع عدم الضمان . وكانت الطريقة الوحيدة التى تنجح غالبـا فى دخول الغريب هى أنه يشترى هذه التذاكر من أحد أتلييهات المدرسة . وعلى "الألفة" أو من توسط بإحضاره من الطلبة أن يلقنه كل ما ينتظر أن يسأل عنه . وعليه أيضا ألا يتخلف قط عن الدخول مع الأتلييه التى اشترى منها التذكرة ليتوسط له " الألفة " عنـد الدخول وهو واقف لدى البـاب فى وقت دخول الأتلييه لإنقاذ الغرباء من الوقوع فى المأزق .

ومن البديهى أن يكون الألفة قد احتاط فأفهم الأجنبى أن يكون طول الوقت فى المرقص كالفنانين تماما ، ويندمج فيهم ويستعمل (Tu) لكل الناس لا (Vous)

امرأة كانت من يخاطبها أو رجلا . وفى حالة خروج الأجنبي عن هذه التقاليد يطرد للحال وتحجز نساؤه ... ومحظور تماما الغضب أو الشجار لأى سبب من الأسباب . والويل لمن يغضب بحال من الأحوال !! "

أما المنظر العام حوالى منتصف الليل مع تلك الجموع الحاشدة وذلك التنسيق والملابس والأزياء والأنوار فيحير العقول و يجل عن الوصف ... وأهم من هذا كله ساعة السحور ... وهى بين الأولى والثانيـة صباحا ... فتتكوّن حلقات حلقات يكون الأكل فيها دون تقييد ولا حرج ...

وأما خلاصـة المنظر فهو رجوع الإنسان الى الطبيعة دون تقيد بأى قيد كان وعادة يوجد كثير من الجنسين عرايا ولكن بعـد السحور يتضاعف عددهم إلى أقصى حدّ وهى مسألة عادية للغـاية بين أهل الفنون فى تلك الليـلة التاريخية المشهورة، ليلة التحرّر التام من جميع العبوديات ... ليلة الفطرة، ورجوعنا الى الطبيعة ... وكثير من العظماء والسيدات الكبيرات من فرنسيات وأجنبيات وبينهم طائفة من أشهر رجال الادب والمسرح ونسائهما يأتون خاصة ليتمتعوا بهذا الحظ ويشتركوا فيه، حظ يجدّد الشباب لمن فاتته سنّ الشباب ! ...

وتقام مسابقة للجمال بين النساء العرايا وأكثرهنّ من "الموديل" و"المانكان" ونعطى عنه جوائز . أما ما يحدث فى تلك الليلة فهو يعجز اللسان فيستحيل وصفه والتعبير عنه بدقة لأنه فوق كل تصوّر ... إذ كل ما يمكن فعله يفعل فى تلك الليلة ولا حرج ولا غضب ! ... .

وفى الصباح يفتح الباب ويخرج الجميع فى موكب عظيم الى المدرسة ... و بعد الرقص فيها والغناء يحيي الناظر الحاضرين وتؤخذ الصور ثم ينفض الموكب الى الحدائق أو البيوت ، حتى إنهم يغلقون يومها حديقة اللكسمبورج ، لأن فيها مجلس الشـيوخ ... !

* * *

أما أول سنة اشـتركت فيهـا فى تلك الحفلة فكانت تمثـل قدماء الفرنسيين (Les gaulois) الغولوا فشملت مناظر غاية فى التطرّف .

وبعد تلك الليلة بقيت خمسة عشر يوما كأنني فى حلم وغباء... لأن تلك الحرية المطلقة كان لها فى نفسى أثر أبعد من كل ما كان من قبل، وخرجت أتساءل لماذا لا تبقى الناس هكذا، لماذا تلك القيود والتقاليد التى وضعها الناس لشقائهم ؟! ولماذا لا يكون العالم كله على هذا النسق الذى رأيته فى حفلة الفنون الأربعة؟...

وكأن الناس فى عينى وكل ما حولى بعد تلك الليلة تافه، خامل، بارد، كاذب، مراء، يكاد يكون ميتا ...

مختار



نصاب الحـــق

جاذبيـــــة باريس

يتفق معظم الرجال الذين يجوبون الآفاق ويذرعون العالم من أقصاه الى أقصاه على أن لباريس جاذبية خاصة تنفرد بها دون سائر البلدان . نعم هناك بلدان كثيرة أقدم من باريس وأجمل منها وأفخم، ولكن بلدا منها لا يمكن أن يزاحم باريس فى مكانتها وقربها الى القلوب على ما بينها من التباين والتفرقة .

ما تزال روما حفاظا طيبا بآثارها للمدنية الغربيـــة . وما فتئت أثينا توحى الى عقولنا شارات الجمـــال ومعالمه، ذلك الجمال اليونانى الحبيب الى النفس . ونشـعر فى القسطنطينية بجمـــال البناء البيزنطى وحضارة الشرق العريقة، إذ نرى هناك تلك المآذن والقباب والسقف التى تعيد الينا الذكريات القديمة المتصلة بالشرق ومآثره . وفى نيويورك يعجب المرء بمبلغ ما وصلت اليـــه البشرية من القوة والاقتدار فهى فى الحقيقة رمز لعظمة القوة الانسانية وجلالها وشارة لمـــا انتهت اليه جهود البشر فى تحقيق رسالة الحضارة . وفى لندن ترتجف قلوبنا عندما تحس بروحها التى تغمرها وبهدوئها فى أكبر مناحيها وبعظمتها وكبرها ... أما فى باريس فلن يستطيع امرؤ بالغا ما بلغ من قوة المقـــاومة أن يمانع جاذبيتها وشـــدّة ترغيبها لمن يســـعد برؤيتها أو العيش بها دوما .

أليس كثيرا ما يتفق للواحد منا أن يعدّ كل بلد غير لندن وباريس ونيويورك بمثـــابة قرية صغيرة لا قيمة لهـــا ولا تستحق أن يعيش فيها ... وكم من مرة كان يسائل الانسان نفســـه : لو لم أعش فى لنـــدن أو باريس أو نيو يورك فأين كنت أستطيع أن أعيش ... وطالمـــا كان يظن أن كل ما عدا هذه المدن الثلاث هبـــاء أحقر من أن يستوقف النظر أو يسترعى الانتباه .

انـــ باريس هى قلب العالم الخفاق ومركز الجذب فيه، اليه ينـــدفع الرجال والنساء من كل جنس ودين . وكل ما يتطلبه الانسان فى جميع أنحاء العالم يستطيع

أن يجده بكثرة فى عاصمة فرنسا التى يتوافر فيها كل ما يتصل بالروح حتى القرارة ، وكل ما يتشبث بالجسد ولذاته حتى ما تبقى ثمـة زيادة لمستزيد . وكل ما يشتهى الانسان ان يراه فى غير باريس يمكنـه أن يراه فى باريس فهى جماع الحياة القوية وهى جماع الأرواح النبيـلة . وهى المصوّر المصغر للعـالم يتركز فيه بشتى أوجهه وتتكشف فيه معظم لذائذه وأصوله .

وليس الباريسيون بأجمعهم ممن ولدوا فى ضمن حدود البلدة العظيمة بل الغالب أن يكونوا من بلدان فرنسية سواها أو أجنبية فقـد أثبت التعداد الرسمى أن تسعة وثلاثين فى المـائة من سـكان باريس ولدوا بهـا وأن عشرة فى المـائة أجانب عن فرنسا وأن واحدا وخمسين فى المـائة فرنسيون من غير باريس .

وهناك ميزة أخرى تميز بهـا باريس عن جميع بلدان العالم، تلك أنك لو سألت انجليزيا أو أمريكيا أو ألمـانيا عن أحب البلدان الى نفسه لأجابك لندن ونيو يورك وبرلين على التوالى . ثم اذا سألتهم عن البلدة التى يصح أن ترث تلك العواصم لأجابوك فى نفس واحد باريس . وقل أن تتفق أمزجة الشعوب على شىء كما اتفقت بالنسبة لباريس . فنحن اذا استثنينا لندن من البلدان التى يحج اليها الناس من كل حدب وصوب لكى ينهلوا من روحها فان نعثر فى بحثنا على بلدة أخرى تجتمع عليها قلوب الناس كما تجتمع على باريس وعلى حب باريس . وليس هـذا الرأى باعثـه الحماسـة والتعصب ، ولكنه حقيقة صارخة يقول بها كل من زار باريس وعرف لندن ثم رأى كيف يفرّق بين العاصمتين الكبيرتين .

ومن ميزاتها الظاهرة أيضا أن أولئك الذين يقضون بها وقتا طويلا يصبحون وأهلها سواء بسواء من جهة الاعتزاز بها والتعصب لها .

سسلى هادلستون

غاب بولونيا

يا غابَ بولونٍ ولى ذِمَمٌ عليكَ ولى عُهُودْ
زمنٌ تقضَّى للهوى ولنا بظلِّكَ ، هل يعود؟
حُلُمٌ أريدُ رجوعَه ورجوعُ أحلامى بعيد
وهَبِ الزمانَ أعادَها هل للشبيبة مَن يعيد؟
يا غابَ بولونٍ وبى وجْدٌ مع الذكرى يَزيدْ
خفقَتْ لرؤيتكَ الضلوعُ وزُلزِلَ القلبُ العميد
وأراك أقسى ما عَهِدْتُ فما تميلُ ولا تَميد
كم يا جمادُ قساوةٌ كم هكذا أبدًا جُحود؟
هلا ذكرت زمانَ كنّا والزمانُ كما نريد؟
نطوى اليك دُجَى الليالى والدّجى عنا يذود
فنقولُ عندك ما نقولُ ، وليس غيرُك من يُعيد
نطفى هوى وصبابةً وحديثُها وترٌ وعود
نسرى ونسرح فى فضائكَ والرياحُ به هُجود
والطيرُ أقعدَها الكرى والناسُ نامت والوجود
فنبيتُ فى الإيناس يغبِطنا به النجمُ الوحيد
فى كل رُكنٍ وقفةٌ وبكلِّ زاوية قعود
نَسقى ونُسقىَ والهوى ما بين أعيننا وليد

فمن القلوب تمائم ومن الجُنوبِ له مُهود

والغصْنُ يسجُدُ فى الفضا ء وحبّذا منه السجود

والنجمُ يلحظنا بعيْنٍ ما تحول ولا تحيد

حتى إذا دعَت النَّوى فتبدَّد الشملُ النضيد

بتنا ومِمّا بيننا بحرٌ ، ودون البحر بيد

ليلِى بمصرَ وليلُها بالغرب ، وهو بها سعيد ·

شــوقى



في نزل عائلي

نضال بين الروح والجمال

كنت أسكن بولڤار رسپاي بحي مونبارناس، وأتناول من وقت لآخر طعام الغداء في شارع "دنفير روشروه" عند عائلة متوسطة الحال، مكونة من سيدة كبيرة لها بنت في العشرين وأخ وابنة أخ في الثانيـة والعشرين . وكانت بنتها جميلة المحيا حقا . أما بنت أخيها فليست من الجمـال على شيء، ولكنها كانت مع ذلك تنتصر في كل مجال بما حباها الله به من ذكاء وخفة روح، فقد كانت ممتلئة حيوية وفطنة .

وجعلت ألاحظهما وأدرسهما كفنّان . وكثيرا ما وجدت جمال النفس ينتصر على جمال الجسم : وهذا مما يثبت بداهة ، ما يجب على الفنان عند ما يريد تصوير انسان : أن يتغلغل في قرارة نفس الشخص الذي عليه تصويره أو تمثيـله . فمن القواعد المعروفة والتي كانت تدرس لنا أن الشبه وحده لا يكفي للدلالة بل هي الروح والخلق التي يجب نزعها وإخراجها على وجه الشخص .

أردت أن أستفيد من تلك النظرية، وأرى ما يمكن أن يعطيه الفن بين هذين المتناقضين، وما يخرجه منهما، أعني من الجمال الجسدي والجمال الروحي .

فلمـا شرعت في عمل تمثـال لكل منهما جاء عاملان حالا دون الوصول الى النتيجة التي كنت أنشدها . وربمـا كانت الخيرة فيما وقع ... وأنا الآن ، وقد فاتت نزعة الشباب، أدرك ذلك لأنني كنت متحمسا فعلا للنتيجة، ولكن ترى هل كان تكويني يومئذ يمكنني فعلا من الوصول اليها وهي من المشاكل العويصة في الفن؟؟

أما العامل الأول فهو أنني كنت قـد بدأت أميل الى التي كانت غير جميـلة، فجعلني هذا الميل أراها أجمل مما هي ... وكان العامل الثاني إعلان الحرب الكبرى فنزحت العائلة عن باريس الى مسقط رأسها في الأقاليم ...

مختـار

نظرات فيلسوف

القبلات على قارعة الطريق

ومررنا بميدان فسيح لا تستوقف النظر عمارته ، لكن زوجي استوقفتني منه عنـد منظر أثار دهشتها وعجبها لأخلاق " هؤلاء الفرنسيين " . ذلك شاب وفتاة يتحدثان في الطريق . فلما آن لهما أن يفترقا قبلته وقبلها واتخذ كل سبيله . أو ليس مدهشا حقا أن يتبادل شاب وفتاة القبلات في الطريق العام، بل في ميدان فسيح وبأعين جمهور المـارة من غير أن يحول الخجل دون ارتكابهما هذا الفعل علنا . وذكرت لها أن هذا من متعارف أخلاق الأوربيين فهو لا يجرح حياء أحد، وهو كذلك لأنه قبـلة أخوية للقاء أو وداع يعبر اللذان يتبادلانها عن إحساس جميـل وعاطفة نبيـلة . والأعمال تقدّر، ويجب أن تقدّر، بالنوايا التي تدفع اليها أكثر مما تقدر لذاتها . والحياة الحرّة التي بلغتها أوربا بعد جهاد طويل، وثورات مضنية، وتضحيات غالية، والتي أقامت بين الرجل والمرأة من المساواة والأخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع كما يتبادلهـا رجلان أوكما تتبادلها امرأتان، قد قضت في القلوب والأذهان على الاعتبار الجنسي الوضيع الذي يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق في المكان الأول من قدر صلات الجنسين الذكر والأنثى، وارتفعت بالنفوس الى اعتبارات انسانية سامية دفعت الناس جميعا رجالا ونساء ليتنافسوا كي يبلغوا على الحياة ما يستطاع من كمال . ومتى غلب نزوع النفس الى السمو أهواء الجسم في التدلي الى شهواته اختلف معيار التقدير الخلقي، واختلف تبعا له نظرنا الى أعمالنا وأعمـال غيرنا وحسن قدرنا إياها أو إعراضنا عنها حياء من أن تقع العين عليها . فقبلة شاب وفتاة في الطريق العام وضـيعة مخجلة اذا كانت دوافع الجنس وحدها هي التي تهيج نفسيهما بهـا . وقبلة شاب وفتاة بريئة طاهرة ما كانت مظهر حب طاهر وعاطفة شريفة . وما دامت الحرية الحقة تفترض في الناس الطهر والبراءة فليكن النظر العام للقبلات كلها على أنهـا قبلات انسانية سامية كقبلة الأخ لأخته

والأب لابنته والخطيب لخطوبته ، ولتكن القبلة الوضيعة موضع إعراض عنها وإغفال لها، وكفى بصاحبيها جزاء شعورهما بعدها بأن العمل الذى أتياه ونفوسهما ملوثة يكون أبدع مظهر للطهر والبراءة صادرا عن عاطفة أنزه وأنق . وبعد فما هذه الصلات التى تلوث جمال القبلة وما قيمتها من نفوس مهذبة وأذهان مصقولة وعقول تدرك أن أكبر متاع فى الحياة طرب الذهن لتفكير دقيق ومنطق سليم وطرب الفؤاد لفن جميل وأدب رائع ! وأجمل ساعات المرأة حين تبدو قطعة من الفن ومن التفكير، وحين تسمو كل الصلات بينها وبين الرجل لتكون فنا وتفكيرا هى الأخرى .

هيكل

على قارعة الطريق

القبلات

وانتهى المطاف إلى إحدى الحدائق العمومية التى تظل مفتوحة إلى نصف الليل، وكان بيرم افندى قد تعب، فطلب أن نجلس قليلا على أحد المقاعد، ولكنا وجدناها جميعا مشغولة، فاضطرنا تعبه إلى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان، والأدب فى باريس لا يسمح بازعاج العشاق، وظل الفتى يقبل الفتاة وهى بين يديه كأنها الغصن المطلول، وكأننا لسنا هنا وكأنهم ليسوا هناك ...

— لا تحسب يادكتور أن هذا فسق، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج .

— اطمئن! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التى تطوى عليها جوانح الغدرة الفجرة ممن يدعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم !

زكى مبارك

طريق الملوك والعاملات

شارع السـلام

"شارع دى لا پيه" هذا الشارع القديم العزيز هو فى نظرى أبدع شوارع باريس قاطبة إذ بينما كنت أجول فيه هذا الصباح داخلنى شعور لم أستطع أن أقاومه بأن العيد لا بد أنه لم يمض عليه إلا ليلة أمس فقط . والحقيقة أنى طالما نظرت إلى شارع السلام، كأكثر شوارع باريس انجليزية أو تلونا بها، وإذن فالنكتة لم تفت الصحفى الذى قال أنه وجد لدهشته بين منازل هذا الشارع منزلا علقت على نافذته لوحة كتب عليها "هنا يتكلمون الفرنسية". وحقا أن كثيرا من الانجليز يعيشون فى شارع سنت أونوريه، وما بعده بقليل. غير أنى أعددت شارع السلام المكمن الصحيح لأبناء بلادى من رجال ونساء . ولعلك لا تجد فى هذا الشارع بالذات ما تجده فى أكثر الشوارع الأخرى من فلول العاطلين الذين يتسكعون فى كل طريق ويحتلون كل الأرصفة . وفى الليل لا يمكنك أن تعتبر شارع السلام بين الشوارع المزدحمة بالمارة فهو بالرغم من أن فيه عدة فنادق كبيرة لا يضم بين طرفيه مطعما أو مقهى واحدا .

وعند الساعة التاسعة تتعطل حركة المحال التجارية التى فى هذا الشارع وما بينها إلا مصانع الدنتلا والفساتين والزهور، ولا يمكن أن يزدحم هذا الشارع إلا بين الساعة العاشرة من الصباح، والساعة الثانية عشرة، ثم تهدأ حركته لتتجدد ثانيا بين الساعة الثالثة والخامسة، وهى الوقت الذى يستحب فيه الذهاب إلى غابة بولونيا . فترى تلك الجماعات المتكاثفة من الناس وقد ارتفعت وجوههم إلى شرفات المنازل همهم الظاهر استطلاع لوحات الخياطات وبائعات الزهور وقراءة أسماء صانعات الدنتلا وملابس العرائس ، وهم فى الحقيقة يتطلعون إلى من يرميها سوء الحظ نهبا لأعينهم — فى هاته الساعات يكون أصحابنا — الذين يسميهم الناس فى انجلترا "بالشجعان" يكون أصحابنا هؤلاء مالئين هذا الشارع الهادئ . وإذن ففى وسعك

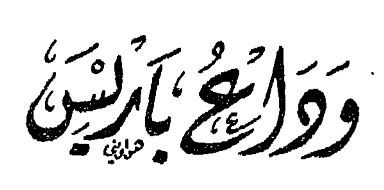
أن ترى الدوقات والبارونات والسفيرات والمليونيرات الأمريكانيات ينزلن إلى أماكن الخياطات وصانعات الملابس حيث يلعب هؤلاء دورهن بمهارة فى إقناعهن بأخذ أكبر كمية من الملابس وإعطائهن أكبر مبلغ من النقود .

ولكن تعجب بعد الساعة السابعة حين لاتقع عينك فى هذا الشارع على أحد من الفرنسيين فالخدم قد انصرفوا وعاملات المحال التجارية قد طرن إلى شوارعهن المحبوبة ولم يبق فى شارع السلام إلا كل ما هو انكليزى يسهل التعرّف عليه ...

جورج أوجسطس سالا




Utile dulci !...
Il a rencontré la perfection celui qui a su réunir
l'utile à l'agréable : examiner et dormir (Horace)


وداع باريس



وداع باريس

انكشف الحلم عن يقظة موجعة . وصاح النـذير أن هيا انظروا آخر نظرة ، واملأوا القلب حسرة ! كل المواعيد المدخرة الأخيرة قد قضى عليها ، علينا ، بالفشل . لأن الوقت قد أزف ، ولا تزال وراءنا جبال من الكتب وتلال ... لابد من وضعها فى صناديق من خشب مقفلة محكمة ، وشحنها بعد ذلك بالقطار و بالباخرة . وضاعت فى هذه العملية الطويلة العريضة ، نقود سهرة الوداع ...

قال لى صـديق الدكتور صالح بكّاش : نسهر الليلة حتى الصباح . قلت : كالغائب عن الرشد قولا ميكانيكيا وكأنه لست أنا الذى يتكلم : نسهر ... وسهرنا ... سهرة بريئة ، ساذجة ، عبيطة ، لعلها كانت أتفه وأغبى السهرات ... قضينا ساعاتها الأخيرة فى قهوة "الكوبول" بحى مونبارناس ... ورأينا انبثاق الفجر فى بولفـار رسـباى . رأينـا كم هو حنون بحر باريس ، وكيف يقبـل أشجار الحى ويهمس فى أوراق كل شجرة سرا من أسرار الليل ، ليل باريس الحافل بالأسرار !

تمنيت جلسة أخيرة فى "الكلوزرى دى ليلاه" (La Closerie des Lilas) وهى قهوتى المحببـة بساحة الأوبسرفتوار . فقمنا اليها ... وغادرنا وراءنا ، بين "الدوم" و"الروتوند" و"الكوبول" : الأمريكانيات يشربن الكونياك على الريق...

أتراهم يعلمون؟ أو يعلم هؤلاء الجرسونات أننى أطلب هذا الصباح آخر فنجان قهوة إكسبريس لعدّة سنين؟ وربما للأبد ؟ ! أتراهم يعلمون أننى أريد أن أدور على المقاعد كلها أقبلها واحدا واحدا ، لأننى جلست اليها واحدا بعـد واحد ، وكتبت رسائل وقصص ، وأدّيت واجبات ودروس ... وناجيت ، ونوجيت ، وأبكيت ، و بكـيت ؟

كلا . إنهم لا يعلمون . وهذا خير لنا . لأنهم لو علموا لمـا اكترثوا فتيلا . يذهب واحد ، ويجىء ألف . ألسنا الفَرَاش وهذه مدينة النور ؟ !

أجل . هنا كنت أجلس ، أتأمل الساعات الطوال تمثال المـارشال نيه (Ney) من صنع "رود" وقد شهر سيفه ، ذاك الذى أسماه نابليون : "أشجع الشجعان"! كان صديق ! ... كان يسمع سرائر قلبي ، ويلهمنى أحيانا الشجاعة والصـبر عند ما يعز التجلد ! فهنا ، هذا الصـديق ، هذا المـارشال نيه الذى ناضـل فى سبيل بلاده حتى استحق أعلى مقام ، قد أطلقوا عليه النار وداسوا دماءه بالأقدام ! ...

أترى مصيرنا سيكون أعز من مصيره ؟ أترانا نوفق يوما إلى خدمة الأوطان توفيقه ؟ ! وهل يجزى خدّام الأوطان دائما جزاء سنمار ؟ !

كانت تتوالى على رءوسنا لوحات سريعة كمشاهد السينما : مصر — باريس . — — باريس — مصر ...

الآن فقط بدأ حبنا باريس حقـا . الآن بدأنا نشـعر بالنعمة التى لم نقـدّرها إلا عند وداعها . الآن بدت العيوب محاسن ، والسيئات حسـنات . اليوم أدركنا أن ما من بلد فى العالم يقدر الحرّية مثل باريس ... وان إيزادورا دونكان الراقصة العالمية قد صـدقت حين سألوها لدى عودتهـا من رحلة فى أمريكا عن شعورها فقالت : "ما أسـعدنى بالعودة إلى باريس ، البـلد الوحيد الذى يفهم الحرّية . لا تحدّثونى عن أمريكا وانجلترا ... أما روسيا فحرام علىّ أبد الدهر ! ... آه ها أنذا عدت أخيرا إلى باريس حيث يسـتطيع المرء ، ما طاب له : أن يحيـا ، ويحب ، ويرقص ، ويموت ..." .

فى ذلك الصباح الأخير رأيت ألف وجه ووجه . مروا بخيـالى ، بمصوّرتى ، بذاكرتى ، مروا بقلبي ... وجوه من باريس ، ومن ضواحى باريس ، ومن أقاليم فرنسا ، ومن فنلندا ، والدانمرك ، والنرويج ، والنمسا ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وانجلترا ، وأمريكا ... و ... وفارس ... نعم وجوه جميلة حتى من إيران ! ...

وجوه جميلة ، وقلوب وفية . وتجسمت لى أخطائى ، ورأيت بعضها شـنيعا لا يغتفـر ، وسألت نفسى كيف فعلت كذا وقلت كذا عام كذا ؟ ! وبدأ حساب

دقيق ، يضيق منه الطبع ، زاد لوعتى وحسرتى . وأدركت أن الجوع فى باريس هو الشبع وأن البرد فيها هو الدفء . وبدت لى تلك الماديات التى طالما أزعجتنى وفتنت فى عضدى كأنها دعابة من الوجود لنعود فنتذوق متاع الحياة بشغف ونهم وإقبال .

فى هذه "الكلوزرى دى ليلاه"، فى خميلة الزنبق هذه، رأيت ذات مساء شابا روسيا يسقط صريعا بمسدس أطلق منه رصاصة واحدة بيد ثابتة فى يافوخه، ففى غمضة عين هدر دمه ، وفاضت روحه، وهوى بين المناضد . وشهد الناس بأن فتاة من بنى جنسه كانت تجالسه واحتدّت بينهما المناقشة ثم غادرته فأودى بحياته...

مرت بذهنى تلك الصورة فى تلك اللحظة التى أتناول فيها قهوتى الأخيرة بالكلوزرى . لماذا ؟ لست أدرى ! انما شعرت عندئذ بالحاجة الى الذكرى والحزن على صريع حب مجهول فى باريس طواه الدهر مثلما طوى قبله وطوى بعده فى باريس المئات والألوف . واذا كان "جيته" قد قال أن فى كل خطوة وزاوية بباريس قد جرى جانب من التاريخ، ففى كل زاوية وخطوة فى باريس قد جرت دماء صرعى الهوى .

كنا نشعر بالرثاء للأمس والاشفاق من الغد . كنا ندرك أن الجو العلمى الذى غشنا فيه وتذوقناه سنحرم منه أبدا . لأننا حتى اذا عدنا يوما ما اليه فستوقف ينقصنا للتاع به : الجو النفسى ، جو الشباب والأمل المعلق بالسحاب .

وخطر لى فى تلك الساعة يوم كنت أحضر درسا فى علم النفس بالسوربون على الأستاذ "ميرسون" ، والى جانبى فتاة صغيرة، أنيقة، رقيقة، أرادت، وقد رأتنى غريبا، أن تقدم إلىّ مذكراتها، وتربط حبال الوداد، فتأملتها وقلت : كلا !... وأدركت يومها غلطتى . ولكن قلبى كان هائما بباريس لا يريد أن يهيم بامرأة . ولاحظت انكسارها وخجلها ولكن فؤادى كان خاليا ... .

ما الذى حملنى على تذكرها، هى أيضا، ساعة الرحيل؟ ! لست أدرى !.

* * *

أمامنا مرقص بولييه، لا روعة له فى النهـار، لأنه من أهل الليـل ، وتحته محطة سكة الحديد الضيقة " بور رويال " الى ضاحيـة لپلاس التى كنا نقصـدها كلما ضاقت بنا الحال وأفلسنا وننزل فى فندق المحطة " دى لا جار " حيث نسكن ونطعم ثلاث وجبات دسمة مع النبيذ أو البيرة أو المـاء المعدنى مقابل خمسة جنيهات فى الشهر ! ... نسمع صفير القطار ... صفيره الذى يذكرنا بعشرات المودات التى نشأت لنـا فى ذلك القطار ... تلك الصداقات السريعة، المخلصـة، الظريفة، مع العاملات والموظفات ... ومن كل واحدة نأخذ درسا جديدا فى الفكر، أو الذوق، أو اللباقة ، أو الحب ! ... هـذا الصفير يشعرنا الآن بأن تلك الأيام الفقيرة كانت أغنى الأيام . وأن تلك الأيام المجدبة كانت أشدّ رخاء وأوفر هناء من أيام نلعب فيها بالنضار ونبـذر باليمين و بالشمال ... كنا طلبـة، غرباء، مفلسين، وكان من يحبنا، يحبنا على أننا طلبة غرباء مفلسين ! ...

يمرّ أمامنا، من جلستنا دائما بالكلوزرى، الترام نمرة (8)، آتيا من باب أورليان ليشق قلب الحى اللاتينى . نذكره، ونذكر تلك المحطة الصغيرة، أمام مقهى "داركور" عنـد ما كان الكمسارى ينادى صادعا " السوربون ! " ويقول تلك الكلمة، بكل زهو، بكل فخار، كأنه يعرف أن فى كلمة السوربون قد تمثل مجد أمة ! ...

والى اليسار، من الكلوزرى، مدرسـة رقص اللكسمبورج ... حيث يأخذ الطلبة دروسا تروّح عن دروس ... دروس الحـركة والخفة والرشاقة وموسـيقية الأقـدام، التى تخفف عنهم تاريخ الفلسـفة وعلوم الاجتماع والتاريخ والجيولوجيا والقانون والطب ..

والى اليمين مطعم " نجْر دى تولوز " حيث كنا كثيرا ما نتناول الطعام ونلحظ بارتياح هيام الخادمة "جرمين" الحسناء بصديقنا (ص ...) .

وو راء "المرقص المدرسة" حديقة لكسمبورج الصغيرة حيث سبيل كاربو، وتمثال الدنيا بجهاتها الأربع ... الدنيا التى تدور ... الدنيا الواقفة فى الواقع ، لأننـا نحن الذين ندور ! ...

وخلف "الكلوزرى" ذلك الشارع الضيق، شارع إحدى أكاديميات الفنون الحرّة، الذى فيه بيوت نصف واجهاتها من زجاج أغبر، علم على أنها من بيوت الفن الجميل، ذلك الشارع الذى كانت تحبه صديقتى الكاتبة الانجليزية "چين ريس" مؤلفة قصص "على الضفة اليسرى" و "تريو"، وكانت تسير فيه ليلا تستجوب الجدران، والنوافذ، والأنوار، والظلمات، لتسجل بعد ذلك جوابها فى قصصها ... وكانت تقول لى : أن هذا الشارع صاحبى لأنه شارع أصيل، صامت، كالرجل العريق ... حتى المدرسة التى فى أوّله هى مدرسة "مسجلى العقود" أرأيت أناقته حتى فى اختيار دوره العلمية، فهو لم يقبل مدارس صبيان، ولا صنّاع " ! ...

وبعد جلستنا الأخيرة بالكلوزرى، رأيت ماضى الكلوزرى دى ليلاه ... رأيت بسماته ودموعه ... رأيت بسماتى ودموعى ...

الى اللقاء أيها الكلوزرى دى ليلاه ! ...

إلى اللقاء يا باريس ! ...



موضة القبعات الباريسية كانت ذائعة أثناء طبع الكتاب وستبطل قبل صدوره !

معابد الحب

وداع الغاب

... ولما كانت عشية السفر ذهبت وزوجي نودع غاب بولونيا ونودع باريس ، وأرخى الليل سدوله وأضاءت أنوار الكهرباء متسللة فيها بين أوراق الشجر من ثغرات . ومر الوقت مسرعا كأنه بساعة أخرى ضنين . فطلبنا الى سائق السيار أن يسير الهوينا بعض الشيء في أنحاء الغابة قبل أن يحدر بنا وسط باريس . وكم مررنا خلال الغابة في هذه الساعة وكم متع الفؤاد بما فيها من جم المعاني العذبة الساحرة ... لكن هذه الساعة الأخيرة في الغاب كانت فريدة في معانيها وفي عذوبتها وفي سحرها فكأنما كنت أرى في أثناء الشجر كله عيونا باسمة وثغورا متلألئة ، وأصوات رخيمة تدعونا أن لا نفارق هذه الثغور وهذه العيون ، وتعدنا أن تكون أبهى جمالا وأعذب مما كانت سحرا .

هيكل

نظرة وحسرة

وداع آسرة القلوب

... وخرجنا من الغابة الى الشانزليزيه فكأن لم نره من قبل ، وكأن أمواج النور المترامية من عند قوس النصر الى ما بعد ميدان الكونكورد لم تكن من قبل وضاءة الضياء مثلها هذه الساعة . وأضاء برج إيفل من قمته الى إخمصه بما لا عهد لنا من قبل به . وتبدت باريس غير باريس ودعانا كل ما فيها أن لا نغادرها ولولا الشعور بأنا مغادروها لابد عما قريب ، ولولا الأنفة أن تفتنني هذه اللعوب لغلبت باريس عزيمتي ولطال بنا أسارها الشهي المحبوب .

هيكل

كيف يتركها

فأنا إذن من عشاق المدن . ومن عشاق باريس بنوع خاص . فيها توجد هذه اللذة التي قسم لى أن آخذ منها بأكبر حظ ممكن وهي لذة العقل والشعور . فليس غريبا ألا أترك باريس إلا كارها . وكيف أتركها راضيا وأنا أعلم أنى مادمت فى باريس فأنا أستطيع أن أرضى من عقلى وقلبى وشعورى أى ناحية شئت .

طه حسين

كنوز الذكريات

واليـوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجا فى عنف وطغيان فتغرق الروح فى كوثر النعيم المتخيل الموموق . فماذا عسى أن أفعل للنجاة من ذلك الطوفان؟ أأفزع إلى صفحات هذا الكتاب؟ كيف ولم يكن إلا ظلالا خفيفة لما لقيت من باريس من متع الحياة . وهو على هذا لم يحو كل الذكريات لأن أطيب الذكريات لا يكتب ولا يقال، وإنما تقلّبه النفس فى هدآت الليل كما يفعل الشحيح وهو يقلّب كنزه المدفون .

زكى مبارك

وداع كاتب ألمانى عظيم

عاش ومات فيها

أغادرك يا باريس مكلوم الفؤاد فى حين أن كأس ملذاتك مترعة ... طبيبك يعرف دائى، ولديه دوائى، ولكنه بدلا من شـفاء سقامى ، لا يجرعنى إلا كأس الفراق المريرة ...

وداعا يا باريس ! ... إذا كان صوت وطنى ينادينى، فان حبك القاهر سوف يدنينى ، ولن يطول أمد الفراق ! ...

هنريك هاينى

ســــــلام

سلام على باريز . سلام عليهـا كل حين . سلام يوم عشت بالشباب فأذاقته الحلو حتى فى مرّ الأشياء . سلام يوم ثقفت العقل وهذبت القلب . سلام عليها اليوم وقد بعثت إلىّ تسومنى ثوب الشباب وقد طويته .

سامى جريدينى

كأنهـا العــذراء ! ...

سأبكى باريس مسـتمدا دموع الغمائم ، مستعينا بعيون النيرات . فان تنفـد الدموع ، فان من الأسى ما يجدّده الشوق وينميه الغرام !

سلام على باريس كأنها العذراء بعثت لتدعو العالم إلى السجود ...

ولى الدين يكن

ختــــام

ماذا فى باريس غير ما ذكرت مما يلفت النظر ويستنفد الوقت فى المتاع به ؟ أرى الجواب يسرع إلى نفسى : وماذا تراك ذكرت من باريس ، ثم ماذا تراك تعرف عنها برغم ما قضيته من السنين فيها ؟

هيــكل

??

كمل طبع كتاب "باريس" بمطبعة
دار الكتب المصرية فى يوم الجمعة
٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ الموافق
٣٠ يونيه سنة ١٩٣٣ م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤/١٩٣٣/٥٠٠٠)









